سلسلة غير مترابطة الأجزاء

بين متاهات الحب

سلسلة

ندى عثمان

RZ
RANEEM ZIAD

حكايةٌ خُلِقَت لتُدفَن

رواية

ندى عثمان

سلسلة من متاهات الحب

رواية

على أنقاض الحكاية



ندى عثمان

سلسلة من متاهات الحب

حكاية خلقت لتدفن

رواية

حكاية خلقت لتدفن

روايات حلمهن



ندى عثمان

على أنقاض الحكاية

حكاية خلقت لتدفن

رواية

على أنقاض الحكاية

(الجزء الثاني)

روايات حلمهن



ندى عثمان

على أنقاض الحكاية

بقلم

ندى عثمان



ت



تصميم غلاف خارجي أول (السلسلة):

رنيم زياد.

تصميم غلاف خارجي ثاني، وثالث (الرواية):

صابرين الديب.

تصميم داخلي وتعبئة وتنسيق:

ندى عثمان.



تنويه

سلسلة من متاهات الحب سلسلة غير متصلة الأجزاء.. أي أن كل متاهة (رواية كانت أو نوفيلا) لا تتبع المتاهة التي تليها أو تسبقها، بل أحداث وحبكات وشخصيات كل متاهة خاصة بنفسها، أي أن قصتهم تبدأ وتنهي في المتاهة ذاتها. ربما يظهر بعض أو إحدى الأبطال كضيف شرف في متاهة أخرى، لكن قصته الخاصة تبدأ وتنهي عند متاهته الخاصة.. والرابط الوحيد بينهم جميعًا، أنهم يخضعون لقانون المتاهات..



تنويه هام.. أو نصيحة لوجه الله..

في هذه السلسلة لا تبحث عن نهاية ..

لا تتطلع لحل المشكلة، أو مرسى لسفينة تساؤلاتك..

نحن هنا في متاهة، وشيم المتاهات عدم الوصول لنقطة توقف.

هنا أغرق في الحدث واستمتع بالغرق..

راقب المشهد وابكي دون الحاجة لمبرر إن أردت..

وابتسم ولا تؤرق عقلك بسؤال ماذا بعد..

هنا حيث من متاهات الحب..

فلتتوه معنا دون تساؤلات.

ويلا ننجز بقى ونقرأ عشان احنا خلقنا ضيق☺️❤️😂



التعريف بالرواية..

مدينة الحب متاهة بلا خريطة..

بابها لا يُصد لحظة، ولكنك ممنوع الدخول إليها مخيرًا بمحض إرادتك؛ هي ستختارك فستسير إليها مُسيرًا وأنت مكبل بأغلال نبضك ومعصوب بفراشات عشقك..

ستُشَد إليها شدًا، وستقبل سرقتك من نفسك بفم ضاحك، وقلبٍ نابض، وعينين مضيئتين..

ستدخلها من الباب الذي اختارته لك، حتى وإن تشدقت بقدرتك الخارقة على عدم تأثير سحرها بك. أيها المغفل المسكين!

ستخطو للمدينة المعلق على أبوابها لافتة تحذيرية بمقولة قديمة من ألاف اللافتات والأقوال عن مآسي العشق والتحذير.. "خذ من يحبك، ولا تأخذ من تحب"..



مبدأ مجرب!.. مبدأ فاشل!.. مبدأ ناجح!..

لا يهم؛ فأنت هنا لن تأخذ قرارك بنفسك على أي حال.

وإن أخذته؛ فهل تضمن صد التأنيب الضاري الذي سينهال كالألم الممطر على قلبك بكل أورقته العليلة بالعشق، فتختفي فيه غارقًا كأنك لم تكن!

وإن لم تأخذه؛ فهل تضمن تحمل الألم وعدم الندم لسيرك راضيًّا في طرقات مدينة العشق التي شيدت بألم نبضاتك البائسة!

*



المقدمة.

لمحة من يومٍ كان.

*

في لحظة جنون خارج نطاق المنطق.. نظر الأمس للغد وبكى بمرارة على براءة وأحلام كانت تغمره، سنة الكون أن يُغتالوا دائمًا بمرور العمر.. وتوقف الغد لحظة يلقي فيها نظرة عابرة على الأمس؛ فضحك استخفافًا على سذاجة ما كان عليه منذ عمر.. ثم بكى حسرة على ما آلت إليه أماله وأحلامه التي ضن بهم الزمن عليه.

أما اليوم فوقف في المنتصف كالأعمى والأصم. فاقد الاختيار ومُسير لطريق توهم فيه الوصول، توهم فيه الحب!



اليوم.. حيث اختبارها العملي الأول في عامها الأول كذلك بكلية الهندسة. تلك الكلية التي كانت ستصاب بلوثة عقلية لو لم تلتحق بها وتذيِّل اسمها بلقب "الباشمهندسة" كأبيها.. وها هي ذا ستصاب بلوثة أيضًا وستفقد عقلها بعدما اكتشفت نسيانها لأدواتها الهندسية والتي دونها ربما لن تدخل الامتحان من الأساس، وإن دخلت لن تستطع أن تؤدي فيه أي شيء، ومصيرها المحتم في الحالتين سيكون الرسوب المخزي ومن السنة الأولى!

-أنا مش فاهمة أنا نسيتهم ازاي وماشيكتش عليهم قبل ما انزل!

تأففت واستندت بظهرها على الحائط من ورائها، وقد بدأ ثباتها بالاهتزاز ودموعها في التكوين، فشرعت صديقتها "سمر" في تهدئتها قبل أن تنهار:

-اهدي بقى يا تيا هنلاقي حل!



ظلت تكرر ورائها وهي تهز ساقيها بتوتر وتلتف يمنينًا ويسارًا محاولة التقاط أي حل من العدم:

-حل.. هنلاقي حل أكيد، يا رب ابعت لي حل يا رب.. مش لاقية حل، أنا مش لاقية حل..

سكتتا لحظات وأغمضت "تيا" عينيها بشدة تمنع نفسها من البكاء وهي تسند برأسها على الحائط خلفها، وتهز قدميها بتوتر لترسم صورة مجسدة للبؤس، فاقترحت "سمر" بحذر:

-طب ما تروحي تشتري أدوات جديدة من المكتبة؟

فتحت عينيها فجأة على اتساعهما وهي تكرر ورائها بتهكم يائس:

-نعم! اشتري إيه، أنت مجنونة! أنت مش عارفة دول بكام؟!

-يا تيا يعني تسقطي!

-لا اشحت!



قالتها "سمر" بقلة حيلة فردت عليها "تيا" ساخرة بعينين مثقلتين ووجه ممتقع..

وعلى مقربة منهما كان يجلس هو وزميلاه على عتبات الأرض بعد خروجهم من ذات الامتحان؛ يتناقشون في أدائهم "الخزعبلي" فيه، فقاطعهم هذا النواح البائس من الفتاتين على مقربة منهم لينتبهوا له متابعين المشكلة كلٌ بتعبير مختلف بين التسلية والأسف..

أما هو فكان تعبيره الإشفاق الضاحك ثم قرر التدخل بإنقاذ قبل أن تنهار تلك المسكينة؛ فاقترب يقاطعهم مقدمًا الحل التائه: عارضًا عليها بوجهٍ مريح، ودون مقدمات:

-طب اهدي خلاص واتفضلي الأدوات دي خشي امتحني بيهم.



لاحظ صمتها المتفاجئ واحمرار وجهها حرجًا؛ فحاول التخفيف من حرجها وبرر مدافعًا ومتخوفًا من أن تنهال عليه بكلمات سخيفة لا توحي بها رقتها البادية أمامه:

-آسف والله، ده مش تطفل بس أنت اللي كان صوتك عالي، وشكلك عامل زي العيل التايه.

ازدادت ارتباكًا إثر كلماته وامتقع وجهها أكثر وهي تنفي فكرة استيائها منه محاولة تخطي الحرج:

-لا لا، مش تطفل ولا حاجة، شكرًا.. دول بتوعك.

-لا ما أنا مش هسيبهم لك أكيد، أنت هتمتحني بيهم وترجعيهم تاني على طول.. ولا إيه؟!



شاكسها مع سؤاله الأخير وهو يرفع حاجبه متشككًا ومهددًا في الوقت ذاته، فأخذتهم منه قبل أن يغير قراره بسرعة وتوترها يزداد:

-أيوة، أيوة طبعًا، أكيد والله هرجعهم.. شكرًا بجد، شكرًا جدًا جدًا.

-لا شكر على واجب، ربنا يوفقك.

عاد إلى مكانه يجلس بجوار زميليه فشاغبه "مصطفى" وهو يتشاغل بنظره في الكتاب بيديه:

-مسم.. حنيّن.

رد "ضياء" بنظرة جانبية وتحذير:

-اتربى.



-حاضر يا حنيّن.. بس بصراحة معاك حق بردو، حرام الملاك ده يسقط ومايكملش معانا الخمس سنين.

-اتلم يا مصطفى.. أنا بساعد لوجه الله بس.

-أيوة صح.. اللهمَّ قوي إيمانك.

هز رأس يمثل موافقة كاذبة، ثم غمز للآخر معهم محرضًا:

-طب يلا بينا بقا نمشي.

قاما يذهبان بالفعل فأمسك "ضياء" بمرفق "مصطفى" صائحًا:

-يلا مين وحاجتي اللي جوا!

-مع نفسك بقا يا حنيّن.

-ماتستندلوش.

-سلام.



قالاها صُحبة وهما يغادران ضاحكان، ليتمتم "ضياء" بفم متبرم ووجه متقزز:

-صدق اللي قال صحاب الجامعة مافيش أجدع منهم.

جلس في انتظارها ووضع سماعات الأذن ينشغل بها، حتى خرجت أخيرًا هي وصديقتها فقام واقفًا يطمئن على أدائها أولاً، ثم يطمئن على مقتنياته ثانيًا:

-عملتي إيه؟

-كان امتحان رزل أوي.

-هيجيبه من برا يعني، شبه اللي حاطه.

ابتسمتْ بخفه على تعليقه ثم أخرجتْ أدواته وهي تسلمها إياه مع امتنان حار، ووجه مشرق، وعينين مضيئتين بلمعة تقدير ولاتزال شفتاها محافظة على ابتسامتها المُحرجة:



-أنا مش عارفة أشكرك ازاي بجد أنت أنقذتني، بجد شكرًا جدًا يا..

أكمل جملتها يعرفها باسمه وقد مد لها كفه بسلام وبداية تعارف:

-ضيا.

-تيا.

**

اليوم هو اليوم الجامعي الأول لها في كلية الهندسة، والتي وقعت في عشقها خصيصًا لأجل عينيه، لأجل أن تكون بجواره دائمًا، وتشاركه كافة اهتماماته.. أخبرها ذات يوم ممازحًا أن لا شيء يشاركها في قلبه سوى الهندسة؛ غضبت وقتها وإن كانت متأكدة من إنه يمزح؛ فقررت بعدها أن تشاركه في عشقها، وتجعلها تشاركه عشقه بقلبها كذلك. عملت واجتهدت، وتشهد له



بمساعدته وتشجيعه الدائم لها كي تلحق به في ذات الكلية وذات المجال.. حتى تحقق مسعاها أخيرًا!

وها هي في بداية عامها الأول وهو في بداية عامه الأخير.

واليوم.. وفي منتصف الحرم الجامعي؛ ها هي وحيدة، متوترة، وتائهة!

حاولت الوصول لمكان محاضرته الذي خرج منها منذ قليل كما أخبرها، والذي كانت تحاول الوصول له من مدة ليست بقصيرة لتفاجئه بقدومها لكنها فشلت بجدارة؛ فقررت أخيرًا الاتصال به مستعينة ومستغنية عن المفاجأة الموعودة.. بينما كان "مصطفى" يجلس بجوار أصدقائه يراجعون بعض النقاط لمشروع تخرجهم قبل أن يذهب كلٌ في طريقه، قاطع صمتهم صوت رؤوف معلقًا:

-لا بس وارد سنة أولى السنة دي حكاية.



رفع "ضياء" عينيه عن حاسوبه محدثًا "رؤوف" وهو يتصنع الجدية والحذر كي يثير حنق الجالس بجواره:

-لالا، مالكش دعوة بسنة أولى السنة دي عشان دول تبع مصطفى.

-إيه ده هي أولى السنة دي تبع مصطفى؟!

-طبعًا يا بني مش كان بيمتحن مع ثانوية عامة السنة اللي فاتت، أنت نسيت ولا إيه؟!

قالها "ضياء" غامزًا فضرب "رؤوف" على رأسه ممثلاً التذكر، وهما مندمجين في وصلة "التحفيل" على البائس "مصطفى" والذي نظر لهم بغيظ:

-إيه ياض أنت وهو الخفة دي؟!



اقترب منه "ضياء" بظفر كمن وجد ضالته كي ينال منه ويسقيه القليل مما سقاه إياه طوال أربع سنوات مضت:

-معلش دي فرصتي سيبني استغلها.

ضيق "مصطفى" عينيه يشاهد ضحكة "رؤوف" المكتومة وعينين "ضياء" المنتصرة وقد أدرك الانتقام في حديثه المتواري قدر الإمكان لأجل الفتاتين الجالستين بجوارهم والمتجاهلتين لحديثهم الخبيث.

-فرصة عليَّ أنا يا مفتري!

دانا غلبان.. مش كدا بردو يا تيا! ما تقولي حاجة..

قالها "مصطفى" ضاغطًا على اسمها منتقمًا من جديد؛ رافضًا أن يُنال منه بمفرده وهو ينظر بمكر إلى "ضياء" الذي هز رأسه يائسًا مكملًا ما كان يفعله على حاسوبه دون تعليق زائد، بينما



رفعت "تيا" وجهها المدفون في الكتاب الذي كانت تطالعه باهتمام، وصرحت بصوتها الهادئ برأيها وهي محتفظة بتقطيبة جبين جادة:

-والله أنا بقول ننجز كلنا ونلحق نخلص بدل ما نعيط صحبة واحنا بنعيد 4 من أول وجديد والدفعة كلها بتتخرج. انتوا عارفين د.شهاب بيتلكك والمشروع ماينفعش عك فيه.

انفرجت أسارير وجهه وهو يثني عليها بعد تغيرها للموضوع وإنقاذه من براثنهم:

-شايفين العاقلة، شايفين!

علق "رؤوف" مازحًا:

-اسمها شايفين الدحاحة.. دي أولى القسم يابا مالنا ومالها احنا..

وهنا أستلم "مصطفى" دفة "القر" محدثًا "تيا" بحسدٍ ممازح:



-صحيح.. طبعًا أنت مكانك في القسم محفوظ يا سطا، الله أكبر عليك.. مش احنا اللي غلابة هنتخرج ونترمي في البحر من غير عوامة.

ابتسمت "تيا" بخفة وهي تغلق كتابها، ثم وضعته داخل حقيبتها وهي تنفي قبولها لالتحاقها بركب المعيدين والأساتذة:

-لا أنا ماليش في التدريس، أنا بحب العملي.

لوى "مصطفى" شفتيه مُقرًا ببؤس:

-فقرية، طب سلميها لحد فينا بدل ماحنا ابيض كدة..

وهنا رفع "ضياء" وجهه مرة أخرى من على حاسوبه وهو يخلع نظارته ويشير له بها بترفع:

-لا يا حلو اتكلم عن نفسك، أنا عن نفسي وسطتي جاهزة، ومعنديش جيش؛ يعني هتخرج اشتغل..



الدور والباقي على اللي هيتلسع بالميت سنتين تلاتة يا جمييل.

قال جملته الأخيرة غامزًا وهو يقرص وجنته بشماتة ضاحكة فعاجله "مصطفى" يبعد يده بحدة وهو يعدل معترضًا ثم أكمل آمرًا برجاء:

-هي سنة.. وبعدين ما بعد الجيش أنت هتشدني في وسطتك، ماتستندلش.

-ولا أعرفك.

-أصيل يا ضياء، أصيل يا خويا.

-أنا بقا شخصيًا هخلص، واتجوز، واقعد في البيت زي الباشا.

قالتها "سمر" براحة وهي تضع قدمًا على أخرى ليرد عليها "مصطفى" ضاحكًا:

-طب والله ما حد بيفهم هنا غيرك.



تبعت تعليق "مصطفى" الضاحك ضحكاتهم جميعًا وإثناءهم على قرارها، ليقاطع حديثهم رنين هاتف "مصطفى" الذي رمق الاسم مستغربًا من اتصالها في هذا الوقت ثم أجاب، ولم تمهله فرصة الحديث وصوتها يصدح مستغيثًا بنبرة مختنقة وكأنها تقاوم دمعاتها:

-مصطفى أنت فين أنا تايهة!

-أنت جيتي أمتى أصلاً؟! أنت فين؟

وصفتْ له مكانها بتشبيه، فطمئنها مصرحًا بأنه دقائق وسيكون أمامها، وتركهم بسرعة يعلن رحيله العاجل، فضحك "ضياء" وهو مستمر في عمله دون أن ينظر له، وانتظر حتى سار خطوتين ليستفزه وهو يصيح به بصوتٍ عالٍ:

-سلم لنا على اعدادي.



-خليك في حالك.

عم الصمت لحظات بعد ذهاب "مصطفى" ليقطعه سؤال "سمر" الغامز بفضول:

-هو انتوا تقصدوا إيه بسنة أولى بتاعة مصطفى دي؟!

-قريبته اللي هيتجوزها.

رد "رؤوف" عليها بتقريرٍ متفهم رغم مزاحه على الوضع منذ لحظات، فنظرت "تيا" إلى "ضياء" بلوم وهي توبخه برفق الحديث:

-طب ليه كدا تحرجه يا ضيا؟! حرام عليك.

ترك الحاسوب ونظر لها بعينين متسعتين وحاجبين مرتفعين؛ يدعي البراءة المتفاجئة من ظلمها له:

-أنا بحرجه!.. ليه الظلم ده، حرام عليك أنت والله.



وأثناء حديثهم أتت فتاة يبدو عليها أنها من "الوارد الجديد" كما يلقبهم "رؤوف" تسألهم عن مكان "مدرجهم" الذي كانوا فيه ويبدوا عليها القلق، والتوتر.. فأجابتها "تيا" بابتسامة رقيقة متفهمة ورفع "ضياء" رأسه بلا اهتمام ينظر لها فتشبث بصره بملامحها دون انتباه أو قصد وهو يتشرب كل جزء منها.. ظلت عيناه تطوف على وجهها الناعم الدائري كطائرٍ ألقى ببستان سُحر به؛ فحط على كل شجرة يلمسها بتلهف قبل أن يحلق على الأخرى؛ يتأمل تفاصيلهم قبل عودة اختفائهم!

طافتْ عيناه على ذقنها المنمنمة الصغيرة الذي يعلوها شفتين كرزيتين لامعتين معتدلتا الامتلاء، وأنف صغير مرسوم بدقة يطير عليه خصلة ناعمة من شعرها القصير والكثيف بلون الشكولاتة الذائبة والتي تجمعه خلف عنق أبيض ناعم يمكن للمرء أن يقضي عمره يتأمله دون ملل.. سحب عينيه عنها بصعوبة



وتوقفت عند عينيها الزرقاوين الواسعتين والمظللتين بدمعات خفيفة سقطت ممطرة على قلبه كسيلٍ جارف اقتلع ثبات نبضاته من محجره المطيع!

شكرتهم وذهبت تبتعد متبعة الوصف الذي أعطته لها "تيا"، وظل هو يلاحق طيفها بنظراته المأخوذة بسحرها الهادئ، حتى لاحظوا هم تعلق عيناه بأثرها فتنحنح "رؤوف" ممازحًا وهو يدفع كتفه بخفة كي يبطل سحر الساحرة الصغيرة التي نثرته على غفلةً منه على ما يبدو، لكنه لم يستجب لإفاقة وظل غائبًا في تلك التي وقعت بغتة بعالمه وتركت أثرًا لن يمحوا على ما يبدو!

-ضيا!

همست "تيا" باسمه بعينين شاردتين لم تقصد أن يرتسم بهما هذا العتاب الغريب، والخوف يدب داخل أعماقها!

رد عليها شاردًا ولم يلحظ هذا التخبط والألم داخل عينيها:



-ها.. نعم؟

اكتنفهم الصمت دقائق من جديد؛ بعدما سُحب كلٌّ لفلك أفكاره الخاصة حتى سمعوا صوت ضحكات من بعيد، وشاهدوا "مصطفى" قادمًا باتجاههم مبتسمًا بشقاوته المعتادة وظلل الحنان بسمته وهو ينظر للفتاة القادمة بصحبته والتي كانت هي صاحبة الصوت الساحر والطلة الخاطفة وهي تسير بجواره كفتاة صغيرة بقامتها القصيرة مقارنةً به؛ تنظر نحوه محدثة إياه وقد تحولت نظرتها الخائفة التائهة لأمانٍ مرح.. ومع اقترابهما منهم أخذت ملامح "ضياء" تنقلب تدريجيًا من البهجة اللحظية عند رؤيتها من جديد، إلى استغرابٍ قلق تلاه غصة مفاجأة مؤلمة عندما اقترب مصطفى وعرفهم ببعضهم محدثًا أصدقائه أثناء نظره لها بعشق جم:



-دول بقى يا ستي زمايلي في القسم وصحابي والتيم بتاعي اللي بنشتغل سوا زي ما حكيت لك.. وأقدم لكم بقى براء خطيبتي قريبًا إن شاء الله.

وعند هذه اللحظة، وقف اليوم مترنحًا حيث اللحظة الراهنة دون وعي بما كان ولا اهتمام بما سيكون.. لا يدري ما يخبئه له القادم، ولا يعبأ بما في طيات الماضي.

اليوم هو رهن الأمل المغزول في العقول، ورهن دقة قلوب نشزت عن إخوانها بعشق فطمحت لقرب الوصال.

اليوم.. دائمًا ما يقع في خانة المقدمة!



(1)

بداية الحكاية.. غنوة.

**

"الدنيا ريشة في هوا.."

"طايرة من غير جناحين.."

"واحنا النهاردة سوا.."

"وبكرا هنكون فين.."

"في الدنيا، في الدنيا.."

في السابعة صباحًا، واقف يستند بمرفقيه على سور الڤراندا أمامها وهو يدندن بكلمات تلك الأغنية التي تنساب نغماتها من الهاتف بجانبه، يرتشف شايه الصباحي المنكه بالليمون



باستمتاع رائق، وتنظر له بطرف عينيها وهي تقطف بعض وريقات النعناع من زرعتها المصطفة على جانبي السور. غمز لها بعبثٍ شقي وهو يردد جملة "واحنا النهاردة سوا" فتأففت ووقفت تمسك في يديها عيدان النعناع بينما داخلها يدعوا لله ألا يخونها وجهها ويطفح احمرارًا خجول، واستدارت هاربة فأوقفها يشاكسها برجاءٍ مبتسم:

-طب استني طيب.

وقفت واستدارت من جديد تواجهه بحاجبين منعقدين، وعيون متسائلة، زامة شفتيها لتمنعهم من الابتسام.. فأسند ذقنه على يده مبتسمًا، وهو يطالعها بعينين تشعان سعادة صافية:

-احنا النهاردة سوا، تفتكري بكرا هنكون فين؟

-في الدنيا، في الدنيا.



ابتسمت وهي تغني الكلمتين بصوتٍ ناعم شجي، وبتعبيرٍ أدق؛ ساحر. اعتدل في وقفته وهو يخبرها مسحورًا:

-ده لو سعد عبد الوهاب الله يرحمه عارف إنك هتغنيها كدة كان وصى ماحدش يغنيها بعده إلا أنت.

خرجت منها ضحكة رقيقة وعانق بصرها الأرض لثانيتين، ثم تقدمت من سور الشرفة أكثر وهي تستند عليها بمرفقيها مقلدة وقفته الأولى، وابتسمت بقلبٍ يرفرف، ثم غلفت سؤالها عن سر مزاجه الرائق بتقرير:

-صاحي رايق يعني!

-حد يبدأ يومه بحمامة سلامه ومايبقاش رايق بردو.

-يا ســلام!



قالتها ممطوطة وقد أيقنت تلك المرة أن وجهها أصبح يحاكي حبة الطماطم في احمراره. ضحك بخفة، ومالت برأسها تنتظر إجابة لم تتأخر وهو يخبرها بصوتٍ وصل ابتهاجه للدرجة القصوى:

-كلمت بابا امبارح في موضوعنا.

-بجد! وقال لك إيه؟

انتفضتْ بمفاجأة متحفزة، قلقة، وسعيدة وهي تسأله نتاج ذلك الحديث، تنتظر بصبرٍ مقتول إثر كلماته؛ فبدأ الحديث ليرحم فضولها القاتل وصبرها النافذ بطبعه، وسرد لها نتاج جلسته مع أبيه بالأمس، وهو يمثل أمامها دور أبيه المتسائل ثم دوره من بعده وهو يتحدث بقوة واثقة مرة، ثم وجه متشكك يمازحها به أخرى، ثم ضرب على صدره بقبضة يده مرة أخيرة:

-يعني قال لي متأكد؟ قولت له متأكد.



قال لي اشمعنا هي؟ قولت له يعني، حاسس كدة والله أعلم إني بحبها.

قال لي قد الجواز؟ قولت له عيب عليك قدها وقدود، أسد.

بعدين سكت وقال خلاص السنة اللي باقية على تخرجك قضوها وانتوا مخطوبين بدل ماتفضحونا أكتر من كدة.. ووافق.

ثم غمز لها وهو يشبك يديه ببعضهما مخبرًا إياها بقرار ارتباطهم أخيرًا:

-وهنيجي آخر الأسبوع لعمو نطلب منه أيد الحمامة.. ونتجوز بقى بعد ما نتخرج ونخلص.

كانت تستمع لكل كلمة تخرج منه بقلب يضخ بصخبٍ فرح، وابتسامة مفعمة غير مصدقة لاقتراب حلم ارتباطهما أخيرًا، لكنها



قررت مناكفته بالمثل وهي تتساءل وقد رجعت لاستنادها على حافة السور بكفيها وهي ترفع كتفها بدلال:

-وأنت إيه عرفك أصلاً إني هوافق أو بابا هيرضى!

وقف يضع يده على خصره، وهو يخبرها بغرورٍ وحاجب مرفوع:

-وأنتوا تطولوا يا بنتي، انتوا تلاقوا أحسن مني فين أصلاً!

وقفت تضع يدها على خصرها بدورها حانقة بوجه مشتعل استفزازًا وسعادةً:

-مغرور أوي.

وافقها وهو يحدثها بكلمات عشقه الخالصة ليأكل بعقلها حلاوة، ومربى، وقشدة بالعسل:

-لازم ابقى مغرور طبعًا، وهو حد يحبه القمر ده ومايتغرش بردو!

-أما أنت بكاش صحيح.



-أنا، دا أنا كلامي معاك بيطلع من هنا على طول من غير ما يعدي على هنا.

قال كلماته وهو يشير تجاه قلبه أولاً ثم رأسه من بعد؛ فارتبكت واستدارت صائحة تهرب من كلماته المكبلة كيانها بعشقه، وناوشتها كالعادة رغبة صادقة أن تظل أثيرة لهذا العشق حتى أنفاسها الأخيرة:

-أنا كدة هتأخر على الجامعة.. سلام.

صاح لها وهو يستند بيده على السور ويشبّ أكثر ليصل صوته لها أوضح:

-بحبك يا براء.

*



-براء..

قطع سيل ذكرياتي بالأمس صوت أخي وهو ينتزعني من شرودي برفقٍ مبتسم.. وضع يده يربت برفق على ظهري فنظرتُ له بعينين دامعتين ثم أمأت له برأسي؛ أجيب كاذبة على سؤال عينيه الغير منطوق.. "هل أنت بخير؟"

أدرَك كذبي دون حاجة لسماعه كسؤاله لي، فأخذني في أحضانه برفقٍ أحن؛ يخبئ وجهي من نصال الهواء المحملة بطعنات الماضي فسالت دموعي الحبيسة بحرية. وبعد فترة قصيرة ران فيها الصمت، همس لي بهدوء وهو يستمر في تمسيد ظهري دون أن يبعدني ويتخلى عن احتضانه الآمن سائلاً أو مخبرًا لا أدري:

-ضياء جه بره.. مش هتيجي تشوفيه؟!

تنهدتُ بهم والوجع يفتك بقلبي الضعيف، قبضتُ بكفايّ الصغيرين على ظهره أكثر وأنا أعتصر عيناي، فشدّ على حبسي



الآمن داخله أكثر.. دقيقة أخرى وابتعدتُ أربتُ على موضوع قلبه الحامي وأنا أبتسم مطمئنة:

-طالعة له.

شاغبني مبتسمًا وهو يمسد كتفاي لأشعر بالدفء ينتشر في خلاياي، وغمز لي برغبة واضحة بأن يقشع غيمة حزني الشتوية بعد أن أسرتني معها للحظات:

-هتعملي لنا القهوة من أيدك؟

رفعتُ كتفي وأنا أتمسك بشعاع خفيف من التبسم يتسرب لشفتي:

-لو هتدفعوا هعملها.

-يا مادية.

قالها ضاحكًا، فشاركته ضحكاته ثم دفعته ليذهب:



-أطلع لضياء؛ غيبنا عليه.

-طب ماتتأخريش.

حذرني بعينيه، ثم غادر من باب الڤراندا ليتركني وحيدة من جديد.. عُدتُ بنظري إلى الشقة أمامنا الساكنة من صخب الحياة القديم وأنا أحارب دموعٍ تتجدد. ابتسمتُ قسرًا وأنا أغمغم بكلماتٍ كانت رفيقة لي:

-واحنا النهاردة سوا، وبكرا هنكون فين!

تركت باقي جملتي مبعثرة جاهلة، متسائلة: لا أعلم الإجابة.. أو أعلمها وأأبى الاعتراف!

ثم ذهبتُ حيث يجلس "ضياء" بالخارج.

**



هل يمكن بناء حكاية جديدة على أنقاض أخرى؟!

هل يحق الطمع في نبضه هاربة فرت وراء قلبٍ آخر؟!

هل يمكن التعلق بأمل في حياة كان منبع أنفاسها آخر؟!

هل يحق تجاهل نبضة عنيفة تصرخ بالغيرة، لأنك فقط جئت متأخرًا ولا يحق لك التصريح ببعض الألم؟

وإن كان.. هل ستستمر في الصمود أمام هذا الألم، أم ستنهار في يوم مستسلمًا بيأس؟!

جلستُ أنتظرها حانقًا على عقلي؛ فلماذا أصبح يبسق هذه الأسئلة بقلبي كلما جلستُ وحيدًا في انتظارها؟!

ولما الآن تحديدًا وقد بقى على زفافنا فقط شهران؟!

لما زاد النبض الغاضب المؤلم في قلبي، وتضخمت الغصة في جوفي كلما تذكرت أنني لم أنجح في مسعاي إلى الآن؟!



لكن يبقى أملي الوحيد مجابهًا وحده، وهو رغم أنني لم أنجح ولكني لم أفشل بعد.

ظل عقلي يأكل نفسه بهذه الأفكار المتسائلة حتى خرجت أخيرًا وعلى محياها ابتسامة هادئة ككل ما فيها. هادئة بعد صخب كان ينير طرقاتها قبل أن أخطوا عليها!

جلستْ بجواري بخفة وهي تبدأ حديثٍ عادي بسؤالٍ باهت:

-أزيك يا ضياء؟

نظرتُ لها وأعلم.. نظرة غريبة هي، لا تقترب إنشًا من نظراتي المعتادة لها.. نظرة خاوية فارغة، كما أنها تذخر بالكثير!

نظرة جاهلة للصورة وعليمة بتفاصيلها!

ولا أدري هل هي مؤنبة، حزينة، خائفة، محذرة، آملة، يائسة!

أم حتى عاشقة!



لا أدري. حقًا لا أدري؛ فربما هي نظرة خارج نطاق الوصف.

فكم مرة ضبطت نفسي متلبسًا بها وأنا أمر أمام مرآتي عندما أكون مشغول بالتفكير بها!

صمتت وهي تنظر لي دون حديثٍ أو سؤالٍ زائد، فسمعتُ صوتي يخبرها بصدق دون إذنٍ مني:

-وحشاني.

طأطأت وجهها تنظر لكفيها المتشابكين وابتسمتْ ابتسامة تشبه نظرتي؛ ابتسامة خارج نطاق الوصف، ثم أجابتني بثبات صوتها وهي تعود بنظرها إلي:

-احنا كنا لسه امبارح مع بعض.

-بس وحشتيني.



تغيرتْ نظرتها.. أعلم هذه النظرة ولا داعي لتجريحي بوصفها، تنحنحتُ أجلي صوتي، ثم غيرت الحديث مخبرًا إياها:

-أنا كلمت النقاش يغير لون الليڤنج في البيت؛ حسيته ماعجبكيش.

صمتت وأنارت عيونها للحظة خاطفة بتفاجؤ ثم خبت سريعًا من جديد وهي تهز رأسها تنفي أو تتساءل:

-بس أنا ماقولتش كدة!

-مش لازم تقولي، كفاية إني ابص في عنيكي عشان اعرف إذا كنت حبة الحاجة ولا لا.

توترتْ فتنحنحتْ بالمثل وابتسمتْ مغيرة الموضوع:

-احم.. طب روحت جبت ركنة الليڤنج والبفيه؟

حقًا!



هل سؤالها هذا جاد، أم من باب المزاح؟!

مزحة ثقيلة إن كانت، ويا ليتها أن تكون!

تغيرت صفحة ملامحي بغضبٍ طفيف وأنا اسألها بعدم تصديق:

-نعم!.. احنا مش اتفقنا هننزل سوا نجيبه النهاردة!

اعتصرتْ عينيها وكأنها تتذكر وأنا غير مستوعب نسيانها من الأساس، ثم همهمت معتذرة:

-آسفة يا ضياء بجد نسيت.

ترددتْ تفرك يديها وهي تنظر لي بحرج ثم أردفت برجاء خجول:

-طبماينفعش تنزل أنت تجيبهم؟.. أنا بجد مرهقة ومش قادرة انزل النهاردة أجيب أي حاجة.



وهنا عقال لجام غضبي انفك بغير احتمال وتصديق لهذا الكم من اللامبالاة الصارخة، وكيف أنها لم تحاول حتى التظاهر باهتمام ولو طفيف!

هدر صوتي بتساؤل مذهول يحاكي ذهول وجهي الواضح وألمه المتواري:

-أنت بتهزري يا براء؟!

خرجتْ مني ضحكة خاطفة ورأسي تتحرك نافية بغير وعي، وعيناي تضيقان باستفهام أتساءل به عن مدى استيعابها لكلماتها:

-أنت تقريبًا ماخترتيش حاجة في البيت!

وقفتْ بارتباك تبتلع ريقها هي تبرر بصوتٍ مهتز ووجه محمر:

-ضياء ماتكبرش الموضوع، أنا كل الحكاية إني واثقة في زوقك.



"ماتكبرش الموضوع".. عند تلك الجملة المستفزة وقفتُ بدوري أطالعها بعيون جاحظة غضبًا أو صدمةً لا أعلم، وصوتي فقد السيطرة على وتيرته الطبيعية فارتفع هاتفًا:

-لا يا براء الموضوع كبير فعلاً، مافيش عروسة في الدنيا عندها برودك وعدم اهتمامك دول.. وده مش اسمه ثقة.. عارفة ده اسمه إيه؟!

في أرقى الكلمات وأهونها.. استخفاف.

وفي أصدقها وأكثرها صراحةً.. بغض أو إجبار!

صمتت تهرب بعينيها مني، ووقتها فقط شعرتُ حقًا بالهزيمة.

همست بخيبة أمل خرجتْ قسرًا بما يجول بقلبي وعقلي المشتعل في تلك اللحظة:

-أنا تعبت.



وربما يئست.. وهممت برحيل أعلم أنه غير صادق بالمرة.. فبعض الرحيل ما هو إلا غروب بالجسد فقط دون الروح..

وهنا تكمن المعضلة!



(2)

الحكاية فيها دبلة.

**

-نقرأ الفاتحة.

فاتحة وعد القلوب. فاتحة إشراقة أمل رسماه بريشة خيال حبهما. فاتحة إعلان تشابك أيدي كانت قديمًا عارية من دليل رابط بينهم، والآن يكسوها أمام العالم. فاتحة عالم خالٍ إلا من سواهما. فاتحة بوح قلبان لا يسكنهما إلا بعضهما. فاتحة زواجهم.. ها هي قرأت. والعيون حكاية أخرى.. فاللهفة تحكي عن لحظة طال انتظارها، واللمعة تحكي عن ظفر انتصار. وبعد آمين والزغاريد، وبعدما انهالت المباركات على العروسين، قالت الأم



لـ"مصطفى" ببسمة فرحة بطفلها البكري بعدما أهداها الله العمر لتزين عينيها برؤيته عريس:

-أدي هديتك لعروستك يا مصطفى.

قام "مصطفى" من مقعده واقترب منها يخرج سلسال أمه القديم، وأثناء تقدمه أهداها غمزة خبيثة وهمسة مشاغبة احمرت لهم وجنتاها وهو يقترب منها يطوقها بسلساله؛ فيأسر رقبتها باسمه، كإصبعها بخاتمه، وبالها بحلمه، وقلبها بعشقه. تبعهم بـ"بحبك" هامسة فانفرجت شفتاها ببسمة خجولة. جلسا متجاورين، والعائلتان يتبادلان أطراف الحديث المبتهج، بينما سحر عينيهم طغى على رؤيتهم لغيرهم. حددوا معاد حفل الخطبة، والزواج بعد التخرج.. ليظفرا بطائر العشق في بيتٍ يسكناه بعدما كان شريدًا في بعدهما.



ستتم مراسم تتويجه ملكً لها وهو يضعها على رأسه تاج، وستنال ساعات احتفالها وتُجلسه على عرش قلبها وتجلس بجواره سلطانة. فقط بقى.. عامان.

*

-نقرأ الفاتحة.

وما أشبه اليوم بالبارحة.. ألم أستمع بنفسي إلى ذات الجملة بالأمس!

الأمس الذي كان قريبًا رغم بعده!

الأمس الذي كنتُ به راقصة على نغمات عشق، واليوم الساكنة فيه على قناديل المستقبل!

الأمس الذي كنت هائمة رغم ثبات مزعوم مثلته، واليوم الثابتة كالموتى رغم ابتسام كاذب أرسمه!



كلاهما أمس؛ اليوم والأمس.. إحداهما أمس قريب، والآخر بعيد. وكلامها قريبان، كما أن كلاهما بعيدان. إحداهما قريب بالقلب نابض، مستحيل الأمل!

والآخر قريب أمله حاضر مشع، وبعيد بنبضٍ طريد!

نبض لا يرحم بنسيان، ولا أريد تلك الرحمة!

ومستقبل يَعِد بنسيان، وحقًا أتوق لهذا الوعد! أتوق للسير في طريق وعده بينما قدمي مكبلة في أرض الذكرى. ربما مفتاح فك هذا الطوق بيدي كما يقولون ولكني عاجزة عن استخدامه! رافضة ربما!

لا أدري. ولا أدري كيف تبدل الطوق لآخر؛ رافضة لوجوده ورافضة لغيابه!



طوق أتذكر يوم أعلنه حماي العزيز بفرحة وهو يجلس بجوار وحيده مبتسمًا بعد اتفاقهم على ربطي الأبدي به بعد عامين بالزواج.. وها هم قد مروا!

أتذكر زغرودة حماتي المتداخلة مع خاصة أمي! أتذكر عندما نظرتُ لعينيه وهو جالس أمامي لأجد مقلتيه مصوبة تجاهي وكأنها تحتل كياني عَنوة! تكشف أسراري! تسمع نبضاتي!

أتراه قرأ أفكاري وقتها؟!

أتراه شعر بارتباكي الحزين وخوفي التائه؟!

دائمًا ما أشعر بعيونه خبيرة بخباياي، قارئة لأبجديتي بمهارة فطرية حتى وإن كانت أحباري سرية!

فقد شعرت به يعري كل أسراري ذاك اليوم من فقط نظرة!



وعيونه رغم الحزن الساكن والفرحة المنقوصة في زاوية بع، يدة أرسلت لي شفرة جهلت فكها رغم أنني تعرفت عليها بيسر في عيون غيره!

الأمس معه كان ظلم له. أما الغد الذي كنت أظنني عاجزة عن الوصول له.. ها أنا ذا فيه باكية، عاجزة، نادمة، وظالمة!

ظالمة وأعلم وأحاول الاعتذار لكن هباءً.

ظللتُ أتصل به طوال اليوم أطلب عفوه، ولكن لا رد، ولا أتأمل في رد، لكن لاتزال يدي عاجزة عن التوقف. أرسلتُ له بعض الصور لغرف معيشة كانت تروق لي في الماضي؛ علَّه يشعر بمشاركتي وبعض الاهتمام.. ولكنه لم يرها. بعثتُ له بكثير من الاعتذارات الصوتية والمكتوبة، ولكن دون جدوى. الصمت والتجاهل التام هو رده!



فجلستُ أخيرًا على حافة الفراش بيأس وبدأتُ بالبكاء الصامت.

آخر كلماته لي أنه تعب!.. ليته يعلم أنني متعبة مثله ومنذ زمن!

دخلت عليَّ "جميلة" صديقتي أوزوجة أخي دون استئذان بصخبٍ ومرح، وصمتت مبهوتة عندما شاهدت جلستي البائسة ودموعي الجارية. اقتربتْ مني بهلع وهي تحتضنني سائلة عن السبب الذي حلّ بي هذا الحزن؛ فأخبرتها من بين أحضانها وأنا اتهدج بدمعاتي:

-ضياء مش بيرد عليا من امبارح.

استمرت في تهدئتي وهي تهدهدني مستفسرة:

-طب أنت بتعيطي ليه؟

انتفضتُ من بين أحضانها بعنف عصبي من نفسي وأنا أجيبها شاهقة أنفاسي المتقطعة:



-عشان أنا أتغابيت معاه أوي، بس غصب عني، والله ما كان قصدي.

صمتت "جميلة" وهي تحيطني بنظرة متشككة، وسألتْ بعدم تصديقٍ أكرهه؛ فهنا لا أحد يعلم ما أشعر به حقًا خاصة فيما يخص "ضياء"، وربما أنا أيضًا بتُّ لا أعلم!

-يعني العياط ده كله عشان ضياء؟!

هززتُ رأسي بإيجاب وأنا أخبئ وجهي بكفي مستمرة في بكائي، فسمعت سؤالها الآتي من الفراغ وكأنه طلقة حارقة اخترقت وعيِّ:

-بتحبيه؟

رفعتُ وجهي اتطلع إلى اللا شيء وصمتُ فترة؛ أتذكر بالأمس ملامحه المخذولة مني، المرهقة من كثرة محاولاته الفاشلة في



اجتذاب قلبي، ثم التعب من فتوره وسكون نبضه.. كلمة اشتياقه الصادقة، ردي العاجز، وتكرارها لي دون يأس رغم يقينه بعدم حصوله على مثيلتها تروي قلبه الجاف بذنب حبي، واستمراره بثّي إحساسه رغم فراغ الإجابة!

تنفستُ في محاولة يائسة للشرح، وأنا أخبر نفسي قبل رفيقتي:

-مابحبش ازعله.

لم تلتفت لإجابتي وأصرت على سؤالها تعيده:

-بتحبيه؟

استمريتُ في التبرير، وشعرتُ أني أحدث ذاتي؛ أقنعها أو أملي عليها أمانيّ:

-ونفسي يكون مبسوط.



بقتْ على إصرارها وهي تعيد بشدة أكبر وصوت أعلى، لا تتنازل عن إجابة محددة واضحة:

-بتحبيه؟

همستُ بخوف أصبح رفيق أيامي:

-خايفة يندم.

لم تستسلم وهي تسحب وجهي نحوها كي أتطلع في عيونها، وسألتني وهي تشدد على كلماتها؛ تقحمها في رأسي:

-براء.. بتحبيه؟

زادت حدة دموعي ممزوجة بشهقة ألم لم أعد أتحملها؛

ففي كلا الإجابتين نصال تغرس في القلب قاتلة راحته.. راحته!

تلك الكلمة التي فقدتُ مذاقها منذ سنين.. ترى كيف كان الشعور بها؟!



وهل سيكتب لي أن أعيشه من جديد؟!

بقيتُ صامتة دون منحها رد، فهزّتْ رأسها بأسى وهي تتمتم بما يؤرق قلبي:

-أنت بتظلمي ضياء.

لم أحتمل هذه النبرة المؤنبة، ولا الاتهام المبطن فيها وكأن الأمر بيدي!

-غصب عني.

صحتُ بها وكأني أنفي عني تهمة قتل نبضه العاشق بخنجر برودي المسموم مع سبق الإصرار!

أكملتُ وأنا أستمر في تسليح نفسي بكلماتٍ دفعتني دفعًا لألمي الآن:

-بعدين أنا ماضحكتش عليه ولا خبيت عنه حاجة.



ردتْ وهي تزيد من عيار كلماتها المحاصرة لتبريراتي الواهنة:

-مش معنى إنك ماخبتيش عنه حاجة إن كدة أنت خلصتي كل اللي عليكي، قلبه مربوط بيكي وأنت حتى مش بتحاولي تحسي بيه.

صدق وقسوة كلماتها استفزني فكابرتُ، وعاندتُ:

-مش كل الجوزات الناجحة قايمة على حب، مش ده كان كلامكم!

-كلامهم هم، وافتكري إني قولت لك ماتجرحهوش وتقولي له إنك بتحبي غيره حتى لو هو والدنيا كلها عارفة وشايفة ومتأكدة، مايسمعاش بصوتك بعد ما مفترض بقيتي ليه. ومش معنى إن مش كل الجوازات الناجحة قايمة على حب إنها ممكن تقوم على قلب بيحب وقلب مربوط بماضي مش هيرجع، وما بيحولش حتى إنه يحس باللي قلبه هيمان فيه.



صمتت تأخذ أنفاسها ثم أكملتْ تشير لي متهمة:

-وأنت أصريتي تقولي له عشان توافقي على الجواز.. وده مش صح.

صمتُ وشعرتُ بقلبي أضحى لا يستطيع تحمل هذا الكم من الألم. لما كلماتها جارحة إلى هذا الحد؟!

سألتها بعيون دامعة مؤنبة وصوتٍ هامس مرهق:

-أنت بتجرحني ليه؟

-عشان ضياء بيحبك. بيحبك أوي، وأي حد يشوفه هيعرف.

أنت ليه مش مديا له ومديا لنفسك فرصة تعيشوا؟!

قمت من مكاني وقلبي يصرخ كصوتي، ليخبروها بألمٍ صارخ قليل الحيلة:



-عشان ده ضياء مش مصطفى، أنا ماحبتش غير مصطفى ومش عارفة أعيش غير مع مصطفى، قلبي رافض أي حد غير مصطفى.

مش بأيدي والله مش بأيدي.

جلستُ مرتمية على فراشي من جديد باكية بحرقة الماضي، وأتساءل بولع.. لما تركني ورحل؟!

ألم يكن بيننا وعود؟! لما لم يحفظ وعوده ورحل؟!

لم ترأف "جميلة" بحالي، ولم تُأثر بها دموعي كما السابق واستمرت في الطعن وهي تفاجئني بسؤالٍ جديد:

-أنت عاوزة تنسي مصطفى؟

صمتُ لا أقوى على الإجابة، قلبي لا يقوى على لفظ "نعم" وضميري يكبل خروج لفظة "لا"!

وأنا بينهما أتمزق صارخة طالبة بعض الرحمة.



أنبثق صوتها يستمر في الضغط على جرحٍ حي لن يموت:

-يبقى بإيدك يا براء، أنت ماحولتيش. أنت حتى مش عاوزة تحولي.. أنت بتظلمي ضياء.

-كفاية يا جميلة كفاية.

صرختُ بتلك الجملة غير قادرة على سماع المزيد، فأنا أعلم ولا أحتاج لسماعها؛ أنا ظالمة.. كنت مرغمة، وأصبحت مدمنة.

**

أسر القلب مُذِلّ.. قاسي.. ومؤلم.

يجعل نبضه ذليل في طلب شربة حب من نبضة آسرة تأبَى الوصال؛ فتذيقه قسوة الرفض وألمه.

افتنان النفس معصية.. ذنب.. جرم.



تلمح النفس تهفو لأحضان نفس الحبيب، عاصية قوانين السلامة، مرتكبة ذنب العشق؛ فتتركها تجني ثمار جرمها دموعٍ مذبوحة.

رغبة الحلم مراوغة.. مُسكرة.. لاطمة.

تأخذك من يدك بخفة ثم ترميك بين متاهاتها وتراوغك؛ تقترب وتبتعد، حتى تسمح لك في النهاية أن تنهل منها بجوع فتُسكرك في لحظة ثم تلطمك بحقيقة وهمك ضاحكة بتشفي على سذاجتك.

وقسوة البعد.. آهٍ من تلك ألف مرة!

البعد بالجسد دون القلب والروح مميت.. حتى أنه أصعب من الموت ذاته!



هذا البعد رغم القرب.. مسموم، يقتل ببطء، يتغذى على الروح باعتداءٍ سافر، ينهل على سلام النفس بحربٍ لا تأمل أن تكون طرف فيها.

هذا البعد الذي أفرضه على قلبي فرضًا بعدما فاض بعشقه الكيل.. أشهد اتصالاتها وأتجاهلها. أقرأ رسائلها وأغض الطرف عنها. ألقى مشاركتها في عش الزوجية وأعلم زيفها. أسمع اعتذاراتها ولا أصدقها. أرفض كل محاولات الوصال التي كنت أتوق لها بالأمس!

ولازلت أتوق لها اليوم!

ولكن الكرامة أنّت.. الأمنية بهتت.. والحلم استكان.. والقلب -سحقًا- عليل مازال ينبض باسمها!..

يؤنبني على عزوفي عنها طوال اليوم رغم خاطره المكسور لمرات عجزتُ عن حصرها!



تجاهلته كما تجاهلتها وحاولت الانشغال بنواقص بيت زواجنا، حتى انتهيتُ في آخر اليوم من المتطلبات الجديدة بإرهاقٍ ونفسٍ مُجهَدة. ورغم حزني وحنقي لم يطاوعني قلبي وراعيت اختيار الغرفة بالشكل الذي يروق لها وأحفظه عن ظهر قلب من زمنٍ مضى رغم عدم تصريحها به لي أبدًا!

شعرتُ باختناق وعدم رغبة في ذهابي للمنزل فطلبت من صديقي المقرب والذي كان معي من منتصف اليوم إلى الآن ليشاركني في الانتهاء من أعمال البيت المتبقية أن نذهب إلى أي مكانٍ هادئ، فوافق وأخذني إلى مقهى في وسط البلد كنا معتادين على الذهاب له قديمًا!

وصلنا وجلسنا وطلبنا مشروباتنا ثم حدثته حانقًا:

-ده المكان الهادي يا نوح!

-طبعًا يا بني، دا هنا أهدى مكان في العالم.



كدتُ أجيبه شاتمًا لولا مقاطعة صوت هاتفي باتصال جديد. نظرة واحدة لاسمها كانت كافية لأرفض المكالمة دون تردد، فصدح صوت "نوح" بضحكة مستخفة:

-أول مرة تتصل عليك وماتردش!

-عادي يا نوح، ماليش مزاج أرد.

-مالكش مزاج، وعادي!

لا مش عادي، و والله اللي مش عادي أصلاً إنها تتصل بيك كل ده طول اليوم وكمان أنت اللي ماتردش، هي الدنيا حالها اتشقلب ولا إيه؟!.. إيه المصيبة اللي عملتها بقى؟!

كلماته رغم صدقها أججت النيران داخلي فصحتُ فيه محذرًا وعيناي تحتد لتوقف استرسال أعلم كنهه ولا أطيق سماعه:

-نوح!



لم يتوقف وهو يتحدث بحنق، أعلم أن منبعه قلق على صديق عمره، ورغبة في إفاقتي وانتشالي من مستقبلٍ مظلم أسير فيه معمي بدقة قلب حمقاء على حد وصفه:

-نوح إيه!.. أنا مش عارف أنت مستحملها لحد دلوقتي ليه؟!.. أنا قولت فترة وهتعرف إن مافيش فايدة من المحاولة ومافيش مستقبل بينكوا وإنك مش فارق لها وهتلحق نفسك وتهرب، بس أنت بتستهبل يا ضياء!.. ورايح تعمل كل حاجة تفكر إنها ممكن تيجي على خيال الهانم وهي مش مركزة معاك أصلاً، وعند المعرض تقول للحاجة الأرخص لا مش هتعجبها، مش ذوقها!.. فوق يا بابا هي أصلاً لا مهتمة بيك، ولا بجوازكم، ولا أنت نفسك فارق معاها، ولا حتى بتحاول تمثل ده. إيه يا بني هي عاملة لك عمل؟!



هذه المرة زادت حدة كلماته عن كل ما سبق وزاد من غرس طعناته أكثر؛ فانتفضتُ بغضبٍ حقيقي وحذرته بجدية وأنا أشعر أني على محك الانفجار:

-نوح.. خد بالك من كلامك ومتتكلمش عنها كدة.

صمتْ مجبرًا بعدما انتبه أنه تجاوز الحد بالفعل، وحاول أن يُهدأ من انفعاله ثم حاول الاعتذار، ورغم ذلك لم يصمت وأكمل كلماته بتصميم:

-تمام.. أنا آسف، بس مافيش راجل في الدنيا يقبل اللي أنت فيه ده.

جملته هذه أثارت في نفسي الكثير من الضيق والخزي.. فبمنتهى الصدق ومع كامل الأسف.. هو محق!



سندتُ بظهري على المقعد بصمت وأنا أراقب شعور الغضب يتنامى داخلي حتى ابتلعني في لحظة، فحاولتُ إخماده قبل أن أنساق له وأبتعد عن منبع عشقًا كان امتلاكه في عداد المستحيل، فأعود للندم فيما بعد إن استسلمت وفرطتُ به!

تكلمتُ أشاركه داخلي بشرود لم أنتبه له:

-يمكن عشان مافيش راجل في الدنيا حب زي ما أنا بحبها.

-ده كلام. كل اللي بيحب بيقول إن عمر ما حد حب زيه، وإنه مش هيقدر يبعد.. بس لو قررت تنقذ نفسك وتمشي من علاقة مش هتستفيد منها حاجة غير الوجع وبس؛ هتقدر وهتبقى أنت الكسبان.

انفعلتُ بحدة وانفجر الكلام بغير هدى مني وأنا أصيح بصوت على وتيرته:



-لا مش كلام وخلاص، أنا مش هقدر أبعد تاني.. لما اتخطبت له بجد زمان أنا كنت حاسس بقلبي بينفجر جوايا ودماغي بتشيط ومش قادر أنطق. ماحدش كان حاسس باللي حسيت بيه. ودلوقتي بقى عندي الفرصة إنها تبقى ليا وعاوزيني اسيبها!.. براء مخلوقة ليَّ أنا، بعد كل اللي حصل وكل السنين دي هتبقى ليَّ أنا. ازاي اسيبها بعد ما بقت ملكي واعيش في جحيم كل يوم وأنا بتخيلها تاني مع حد غيري؟!

سألت بوجه محمر أدافع عن عشق يراه من حولي آفة، وذنب يجب تكفيره بكفري به!

نظرلي بإشفاق وهو يسأل سؤاله وكأنه الطعنة الأخيرة لميت عنيد يأبى لفظ أنفاسه الأخيرة:

-أنت مصدق إنها فرصة، مصدق أصلاً إنها بقت ملكك بجد؟!



تنهدتُ بإرهاق وارتميت بظهري أستند على المقعد وأنا أعتصر عيني بتعب:

-هتنساه، أنا متأكد.

قلتها بأمل واحتفظتُ بشقه الثاني داخلي وأنا أردده بتوق مُصِر.. "ستنساه، وستعشقني".

بقيتُ أرددها داخلي مرات حتى سمعتُ صوته يضيف بفلسفة عشق خاصة:

-ضياء الحب عامل زي الورد، لو ماتسقاش بيدبل ويموت ومابيبقاش منه إلا شوك يجرح فيكرهنا فيه.

فتحتُ عيني أنظر له بخواء وفتور، حتى مرت دقيقة صمت بقيتُ أفكر فيها في جملته وسؤالين هم لُب المأساة يتقاتلان داخلي فسألتهم له بعجز:



-وليه حبي أنا مابيدبلش؟!.. وليه هي كمان حبها مادبلش ومات؟!

-ضياء..

قاطعته قبل أن يكمل أي كلمة أخرى وقد بلغني الإرهاق مبلغه:

-نوح كفاية كدة أنا مش عاوز أسمع حاجة تاني، يلا نمشي.

قمتُ على الفور بالفعل، وذهبنا وأنا لا أبغى شيء سوى النوم والصمت.



(3)

لحظة فراق.. لحظة نجاة.

**

"ياما ناس بتتقابل من غير معاد يجمع بينهم"

"وناس بتتحايل على الفراق يبعد عنهم"

"مين ضمهم بإديه، واتفرقوا حواليه"

"سبب لقاهم إيه، وكان فراقهم ليه"

يدندن بكلمات الأغنية وهو يسير بجوارها، ينظر لها بطرف عينه من علو طوله، بينما هي عاقدة ذراعيها على صدرها، زامة شفتيها بحنق وعيون محتدة يعتليهما حاجبان منعقدان؛ تتجاهل محاولات وصاله غير عابئة به وبدندنته لغنوتهما.



استفزه صمتها وتجاهلها؛ فكرر جملته بصوتٍ عالٍ وهو يعترض طريقها مطوحًا بيده أمامه في اتجاهها:

-وناس بتتحايل على الـــــفـــــراق يبعد عنهم.

صاحت فيه بالمثل وهي تضع إصبعها في أذنها وتحملق فيه بعصبية:

-ودنـي.

ابتسم من تذمرها وتجاوبها مع كلماته حتى وإن كانت بشكل عصبي، فاستغل الفرصة يشرح لها ويحاول نيل رضاها بتبريرٍ للموقف:

-يا براء بقى فكي.. والله كانت بتسأل عن معاد المحاضرة مش أكتر.. هو أنا عيوني تعرف تشوف حد غيرك!



تجاهلتْ جملته الأخيرة التي طرب لها قلبها الخائن وهددها بنشر السماح على أرض وجهها ببسمة، فتحدته بتصميمٍ ورفعت زاوية شفتيها تسأله بتبرم ساخر:

-وواحدة معايا في أولى بتسأل واحد في خامسة عن معاد المحاضرة ليه إن شاء الله؟!.. سايبة الناس كلها ومالقتش غيرك تسأله؟!

تخصرت وهي تود الانفجار ونثر أشلاء رأسها الذي يغلي الآن في وجهه، وأكملتْ بذات طريقة الحديث الساخرة:

-ولما كنت بتقول لها معاد المحاضرة كنت بتضحكوا ليه؟! هو معاد المحاضرة بيضحك!

زاحته من طريقها دون أن تستمع رده وتبعها وهي تدخل غرفة مفتوحة تلقي عليها نظرة، وما أن دخلت حتى مطت شفتيها بتقزز، وصاحت مشيرة على حوائط الغرفة:



-وإيه الألوان المعفنة دي؟!

-معفنة!

-آه شكلها وحش أوي، أخضر! داهن لي الأوضة أخضر!

-دي أوضة الأطفال.. دا ضياء مأكد لي إن اللون ده بيليق على البيبيهات.

-وهم فين الأطفال دول؟.. وبعدين مال ضياء بألوان الأوض أصلاً!

قالتها بتساؤل محتج؛ فهي لا تحب المقاطعة واستباق الأحداث، ولا تحب أن يقرر أحد عنها ذوقها، لكنه تجاهل مقصدها وجنح بفكره بعيدًا مبتسمًا بوسع فمه، وغمز لها بوقاحة وهو يقترب ليحتجزها بين أحضانه والحائط الأخضر وراءها ويهمس بالقرب منها:



-لا العيال جاية إن شاء الله، فكي البوز ده أنت بس عشان نعرف نتعامل.

رفعت حاجبها وسألته بريبة:

-أنت تقصد قلة أدب، صح!

-كلك نظر.

قالها وبسمته تتسع أكثر وهو يقترب بوجهه من ثغرها ليقطف منه قبلته الأولى بشوق يحرقه طوال سنين، وما أن اقترب بوجهه أكثر حتى داست على قدمه بغل، وفرتْ من أحضانه تكتم ضحكاتها المنتشية بتأوهاته، ثم حذرته بشرٍ وهي تغادر الغرفة:

-احترم نفسك.

ظل يتأوه ممسكًا قدمه بعدما خلع حذاءه، ثم صاح فيها معلقًا:

-فيل بيدوس على رجلي!



التفّتْ له بوجه مصدوم وعينين ترسل له إشارات تحذير من التمادي سائلة بصوتٍ خفيض، شرس:

-أنا فيل!!

وقف يردد ورائها الكلمات، وهو يمثل القلق والخوف على ملامح وجهه:

-أنتِ؟! مين المغفل اللي قال كدة؟!

-أنتَ!

-ينقطع لساني، أكيد مش قصدي.

صاحت به هادرة بسؤالٍ جاد ووجهها احمر بغضب حقيقي:

-لا قصدك، هو أنا تخنت؟!

-تخنتي إيه! أنت كلك على بعضك ماتجبيش الستين كيلو.



عادت تقف أمامه بوجه ممتقع وعيون مذهولة وسألته بهمسٍ مشتعل:

-يعني أنا رفيعة ومش عجباك!

ضرب كفًا بكفٍ وهو ينفي اتهاماتها ومحاولتها المستميتة في النكد:

-يادي النيلة أنا قولت كدة، أنا أقصد..

قاطعته وهي تتحرك من أمامه:

-أسكت ماتتكلمش، أنت حالف النهاردة تحرق دمي!

جرى ورائها قبل أن تخرج من الغرفة، وحاصرها في أحضانه من جديد وهو يراضيها هامسًا بعشق:

-ما عاش اللي يحرق دمك، إن شالله اللي يزعلك. أنت وصف ملكة جمال يظلمك والله.



رفع كفه يطوق به وجنتها ويطوف عليها بإبهامه بخفة مسافرًا عليه صعودًا ونزولاً دون ملل. بينما بقت عيناه تبثها بعض قطرات الحب من محيط عشقه، وهما تائهتان في زرقة مقلتيها الآسرة.. لا تودان الاستقرار على شاطئ وإنما الغرق أكثر فيهما.

أكمل بخفوت يلقي على قلبها ترانيم دقات خاصته:

-أنتِ عارفة إني بحبك، صح؟.. وعارفة إني عمري ما حبيت حد قدك من واحنا عيال. وعارفة إني عمري ما هحب ولا هفكر أحب حد غيرك. هفضل أعشقك لحد ما نكبر ونعجز، ونموت سوا. عارفة كل ده صح؟

لم تستطع مقاومة سحر كلمات عشقه فاستسلمت للسماح مبتسمة بوجه أحمر بإشراق، تهز رأسها تهديه إجابة سؤاله، وتمطره باعتراف مماثل بعشقها وهيامها منذ زمن، منذ كانت



طفلة تتعثر خطواتها فتشدد على يديه التي دائمًا ما كانت تلقاها في تأهُب دائم لإسنادها بحماية فُطِر عليها.

منذ مراهقتها واهتمامها الخفي بطريقة مختلفة عن سابقتها ورغبتها الآسرة في نزعه من كل ما ينال اهتمامه لتنفرد به هي وحدها.

وحتى صارت أنثى لا ترى سواه رجلاً، وعاشقة لا ترى سواه معشوق، وامرأة لا ترى سوى فيه حياة واكتمال.

ابتسم بزهوٍ محب، جاهلاً لكيفية الرد بإجابة تليق على كلماتها المدلهة في عشقه حتى النخاع، ولم يسعفه عقله الغائب بعشقها ولا لسانه المنعقد في تكوين واحد في عمق إحساسه!

فمال يقطف قبلته الأولى من بين شفتيها يرد بها العشق بعشق، وبلهفة محبة وتلذذ طال له شوقه وانتظاره، بادلته إياه بخجل



هادئ، حتى قاطع لحظتهم الفريدة صوت أمها وحماتها الآتي من آخر غرفة في الممر تنادياها علّها تستقر على قرار وتريحهم:

-براء تعالي شوفي تقسيمة المطبخ الجديدة كدة.

تركته وذهبت لهم جريًا بحرجٍ قاتل، ووقف هو يكمل دندنة أغنيته محتفلً بظفر القطفة الأولى.

*

"ياللي بتسأل عن الحياة خدها كده زي ما هي"

"فيها ابتسامة وفيها آه، فيها أسية وحنية"

"ياما الحياة فيها اللى بيشكيها.. واللى بيرضيها، واللي يقاسيها".

استفقتُ على تلك الكلمات وهي تذكرني ببسمات الماضي المتناثرة على ثغري في كل ثانية منه حتى روته ببزخ، وتركته جاف مكفهر الآن!



وكأني استنفذتُ كل مخزون ابتساماتي في الأمس، وتُرِكت اليوم مسكينة أشحذ من الذكرى بسمة باهتة لكي تضيء وجهي بشمعة شاحبة في طريقٍ طويل.. هي لا تنير ولكني أتوهم الضوء!

فكيف بعدما غرب هو وقد كان أول شمسٌ تشرق على خضار قلبي ومن بعده عمَّ الظلام!

صاحب النبضة الأولى، لمسة اليد الأولى، القبلة الخجولة الأولى، الترتيبات الأولى للزفاف وهرولتنا خلف الوقت للحاق..

الشجار والخصام والمراضاة، الاختلاف والتحدي والوفاق، رقصة القلب العاشقة عند الغزل وحزنه الباكي عند الغضب، كل هذا لم يسبقه له أحد.. وصاحب الكسرة القاسمة الأولى كذلك!

كان صاحب الحب الأول والوحيد.. كان ولن يكون غيره!



لكن ومع هذا؛ فعزوف "ضياء" عني يشعرني بالأرق؛ ليس بدافع حب ولكن خوف!

مر أسبوعان كاملان دون أي حديث بيني وبينه، واستمر في تجاهله لي بل ورفض اتصالاتي أيضًا، وهذا ما أثار في نفسي القلق!

"ضياء" لم يفعلها قط من قبل.. بل كان ينتظر مكالماتي الشحيحة على مدار عامين خطبتنا.

أتراه تعب حقًا ويأس!

أتراه قرر إقصائي من حياته هو الآخر!

هل يمكن أنه يفكر في البعد عني وإنهاء خطبتنا التي ستتحول إلى زواج بعد أقل من شهرين!

عند هذا الخاطر طفح في قلبي الخوف!



أنا لا أحبه لكنه يفعل.. لا يحبني، بل يعشقني وأعلم وأتألم!

ولكن رغم ألمي صرتُ أسيرة لهذا الحب.

ليس بدافع نبضات القلب؛ فهي خارج المعادلة وقد أخبرته بهذا من أول يوم ربط بيننا.. فالقلب ملعونٌ بآخر، ولا سبيل لفك هذه اللعنة، وحتى إن كان هناك سبيل فأنا أرفضه متشبثة به حتى رمقي الأخير.

لكني أسيره له بدافع الأمان، الخوف، الاستكانة، ورغبة ملحة في ألا أكون وحيدة، ورغبة أكثر إلحاحًا فأن يكون هو ونيسي!

أنانية أعلم، ولكني لم أكن.. هم من دفعوني دفعًا لأكون.

هم من حثوني على الاستمرار رغم نزيف قلبي.

هم من ألقوا على مسامعي مرارًا أن القلب لا يهم في الزواج.

هم من أقسموا أن الحياة لا تقف على العشق.



وهو من أصر وحاصر، رغم بعدي ورفضي محاولاته العديدة الأولى في التقرب والارتباط بي!

تجاهل كل اعتراضاتي، واعتذاراتي، وتحذيري بأنني خارج نطاق الحب.

أصرّ؛ فرضخت!

حاصر؛ فاستكنت!

اقترب؛ فانهزمت!

تمسك؛ فاطمأننتُ ولحفني الأمان بقربه!

والآن ملّ، تعب، وابتعد؛ فارتجفتُ خوفًا وانزويت وحيدة أتساءل ما الذي تغير؟!

ألم يقل هو أن حبه وحده يكفي!

ألم يقل هو أن وجودي بجواره فقط يكفي!



ألم يقل أن نبض قلبه لكلينا كافي!

أنا لا أريد كلمات عشقه وغزله ولا حتى نبض قلبه. أنا فقط أدمنت تفهمه، رضاه بفتاتي، عدم ضغطه لكي أقدم ما لا أملك.

أنا فقط اطمأننتُ بوجوده، بتمسكه، بحلمه ورفقه عليَّ.

ربما هذه أنانية، أعلم.. ولكن ألم يكن هو أناني بدوره عندما قرر مداهمة وحدتي التي كنت بها راضية، وبعثر هدوئي بوجوده لكي ينال عشقه دون رغبة المعشوق!

أنا كنت عاشقة وأدري؛ فعندما تسنح الفرصة بامتلاك العشق لن يهتم العاشق بلغو المعشوق.. سيهتم فقط بحبس من حلم به بين أضلعه غير عابئ بأي شيء آخر حتى وإن كان رفضه.

ثم ألم يعدني مرارًا أنه لن يطلب مني كلمة ما لم أشعر بها، أو يدفعني لإحساس ما لم أشعر به طواعية!



ألم أحذره أنه لن يحدث ووافق!

لما أستنكر أنانيتي في بعض السلام الآمن الذي أجبرني عليه إذًا!

لما أستنكر أنانيتي وهو الذي على مشارف الحنث بوعده الذي لم أجبره عليه، ودحض الاتفاق الذي برمناه سويًا قبل أي شيء!

هو من لم يطالبني بما لا طاقة لي أبدًا فيما مضى، فلما سيبتعد الآن!

نفضتُ رأسي أُبعِد تلك الهواجس عنها.. لالا، لن يكون هناك بُعد آخر وسيكون كل شيءٍ على ما يرام. قفزتْ في رأسي فكرة لم يخطر في بالي يوم أنني سأفكر في الإقدام عليها.. لما لا أذهب إلى عمله وأقابله وأجبره على الحديث وربما السماح؟!

هو انتهج درب التجاهل فعليّ أن أضعه أمام الأمر الواقع إذًا.. سأذهب له وأعتذر، سأجبره على الابتسام والسماح، وإن



استطعت سأنتزع من فمه كلمة عشق.. ربما اطمأننتُ بها ولو قليلاً!

**

البعد والعشق.. معضلة في مجلدات العاشقين لم يستطع حلها فيلسوف ولا عالم!

أحجية في عالم الهيام لم ينجح في فكها خبيرٍ ولا هاوٍ!

سؤال يطرح نفسه بهيمنة على طاولة خصام الأحباء..

هل البعد يُضعِف العشق، أم به يقوى أكثر كجبلٍ راسخ شيدته الرمال عبر الزمن؟!

هل البعد يقتل اللهفة، أم يزيد إشعالها كنارٍ كلما اتسعت رقعتها اشتد حرقها أكثر؟!



هل البعد عدو العشق اللدود، أم هو أنيسه الذي يقوى في حضرته رباط أوصاله؟!

هل هو قبره الخانق، أم أنه مرآته الكاشفة لمدى صدقه وعمقه؟!

لا أعلم حقًا. فها هو قد مر أسبوعان ولم أستطع قنص إجابته من غابة دواخلي المتشابكة!

مر أسبوعان ولم ينهار عالمي، ولم تتوقف نبضاتي!

مر أسبوعان ولم أشهد قلبي ينفجر بين ضلوعي!

مر أسبوعان ولم تتحول آهاتي الحبيسة إلى صرخاتٍ مدوية!

لكن صمت، اعتياد، ملل قاتل، وفقدان الشعور بالوقت!

وكأن ساعة عمري توقفت عند لحظة بسمتها النادرة!



أشتاقها وأشتاق طلتها الممطرة على قلبي القاحل، ولكن اشتياقي يكبله الخذلان.. خذلان لا يحق لي الشكوى منه فأنا الذي أقسمتُ على عدم رفع رايته أبدًا على أراضيها.

لكن متى كان يُأخذ على العاشقين عهد؟!

ألم يقل الأولون أن العشق خبال!

وهل يسأل المخبول عن وعوده في لحظة حلم!

نعم هي حلمي ولا أرغب في الاستسلام، لكن طاقتي تهدد بالجفاف إن لم تُروى بالقليل.. ذاك القليل الذي لا أأمل في الحصول عليه!

سافر خلدي أبعد ليمتزج بالغيوم الكثيفة لهذا اليوم الذي ينذر لونه الرمادي الذي يلقي به على معالم كل شبرٍ من حولي بالكثير!



وسؤال كالدقة الأولى لطبول حرب وساوسي أخذت تقرع مدمرة ثبات عزيمتي.. هل حقًا سيأتي اليوم بعد أيام أو شهور، وربما سنين ويخفت بريق الحلم ويختفي؟!

هل سيجيئ اليوم ويجف بئر عشقي التعس ويسكنه أشباح الندم واللوم والعمر الضائع مغلفين بالبغض؟!

هل حقًا صفقتي في الحب رابحة؟!

هل ما سأجنيه يستحق ما أبذله من ألم؟!

أم أن استسلامي لسقم قلبي اليوم يمهد الطريق لعذاب روحي في الغد؟!

انتشلني من هذه الأفكار العاصفة دقات رقيقة متتابعة على باب المكتب، تلاه دخول "تيا".. زميلة عمل اليوم، ومن كانت بالأمس



صديقتي المقربة، منذ أيام الدراسة وحتى بدأتْ بالعزوف دون تبرير منطوق لا حاجة له!

-ضيا، الاجتماع اتلغى.

-أحسن.

علقتُ بإرهاقٍ وأنا أستند على ظهر مقعدي مغمضًا عيني أظللهما بكفي ناشدًا بعض الراحة.. فجلستْ على مقعد المكتب أمامي ببطء متأملة هيأتي بعينين في عمقهما سؤالٍ حبيس ظللته باهتمام لن أشك في صدقه لحظة، وسألتني بوجهٍ قلق:

-مالك ؟!

-مافيش؛ مرهق شوية.

أماءت برأسها متفهمة، وصمتت تستمر في مراقبتي وأنا أتلاعب بالدبلة الساكنة بإصبعي شاردًا.



خرج صوتها من جديد بسؤال نبرته محايدة:

-براء كويسة؟

هززتُ رأسي مجيبًا بصمتٍ مصحوب ببسمة مجاملة، فقامت من مكانها تسأل بمرح وابتسامة عادة لا تفارقها:

-أول مرة أشوف عريس فرحه قرب وشايل الهم كدة!

ضحكتُ وأنا أصر على الانسلال من أغلال اهتمامها الهادئ التي تشعرني بانقسام دواخلي بين صمت العشق وجلبته، في كلٍ منهما هدم لشيء داخلي وإصلاحٌ لآخر:

-همّ إيه بس، ما أنا كويس أهو.

اقتربتْ من مقعدي ووقفتْ أمامي بمساحة فراغ كافية بيننا، تنظر إليَّ بعيونٍ لمعت بشفقة وبسمة أمومية، ثم بصوتٍ خفيض صرحت:



-ضيا أنا مش عاوزة أسافر وأنت كدة.

تسافر!

كيف ولما؟!

تغضّن جبيني بمفاجأة وجب عليَّ الاعتراف أنها كانت غير سارة بالمرة؛ فقمتُ ببطء أواجهها وإنذار خطر يدق داخلي لا أدري سببه ولا مبرره، وداخلي ماج به أسراب من غضبٍ مفاجئ وتوجس مقلق، تجلّت حممهم على وجهي وأنا أسألها مستفهمًا:

-تسافري! تسافري فين؟! وليه؟!

أجابت ببساطة وهي ترفع كتفيها تلقي عليَّ بقرارٍ مفاجئ:

-هتنقل فرع ألمانيا خلاص.

هززتُ رأسي بجهل وضيقٍ قلق لم أداريه وأنا أفند طبيعتها متسائلاً باستنكار عن التغيير الذي طرأ:



-بس أنت عمرك ماكنت عاوزة تسافري، ولا كنت بتطيقي فكرة السفر ولا بتستحملي تبعدي عن مكان اتعودتي عليه.. هتسافري ازاي؟!

ارتسمت بسمة باهتة على محياها وهي تدلو بكلماتٍ شاحبة تشبه بريق عينيها في هذه اللحظة:

-مافيش حاجة بتفضل على حالها.

-أيوة إيه اللي جدّ؟!

قُلتها بعصبية حقيقية تلك المرة وعيونٍ منفرجة ليأتيني الجواب غير المنطوق من خاصتها بسؤالٍ آخر أواجه به مدى سذاجتي.. "أحقًا تتساءل!"، ولم تحرره وهي تعترض وتتجاهل وضع إجابة صريحة أمامي، وهي تهرب بعيدًا عن هذا الدرب المُعبد بالألم:

-ضيا احنا مش فيَّ أنا، احنا فيك أنت!



صمتت تغلق الموضوع وتواصل آخر، تعطيني هدنة لأستوعب كلماتها أو تعطيها لنفسها كي تستطيع النطق بهذا الثبات:

-أنت متأكد من قرار جوازك ببراء؟

اختلطتْ حيرة قسماتي مع حدة تنفسي وأنا أسألها بحنقٍ لم ينقشع بعد وبعضٍ من عدم فهم:

-يعني إيه؟!

أغمضتْ عينيها بهدوءٍ صبور وهي تستطرد وكأنها تحادث طفلها العنيد:

-يعني هتكون سعيد معاها؟

ضرب مقصدها إدراكي في لحظة كبرق أنار فجأة، ومع هذا لم يخفت حنقي منها ومن قرارها المفاجئ؛ فأجبتها بما ألقيه على



مسامعي دومًا وألبسته ثوب الكلمات المدلهة في عشق أخرى وأنا أعلم أنه سيحزنها ولا أعلم لما أصررت على هذا:

-كفاية وجودها عندي.

التقطتْ الكلمات بإيماءة متفهمة، وسألتْ مصممة على خوض دربٍ محدد على ما يبدو:

-وأنت عندها وجودك كفاية؟!

سؤالها أصاب وَترًا حساسًا داخلي وجوابه المعلوم ضرب قلبي بعنف، فسألتها بجسدٍ متحفز ووجه متوتر وعيناي تهربان إلى كل صوبٍ يبعد عن عينيها المراقبتين:

-قصدك إيه؟!

-أنت مبسوط؟!



سؤالها المباشر أربكني، أشعل ما كنتّ أجاهد إخماده قبل دخولها، بررتُ لنفسي قبلها وأنا أبعد عني أي فكرة تهدي أسر القلب حرية نبض:

-أكيد، أنت عارفة أنا بحب براء قد إيه من زمان.

-بس هي مش بتحبك، وأنا وأنت عارفين قبل ما تحاول تكذب على نفسك أو عليَّ.

بدأت حربها في غفلة مني وأنا لم أستعد لشحذ أسلحة حمايتي بعد، وتجلى استعدادها لرفع الستار عن أكاذيبي المهترئة، فمسحتُذ على وجهي بإرهاق وأنا أسألها مدعيًا الملل:

-تيا أنت عايزة إيه؟

-مش عيزاك تندم.

-وهندم ليه؟!



-يمكن عشان ماتنفعلكش، عشان مابتحبكش!

-تيا..

قاطعتني عاقدة العزم على نثر كلماتها أخيرًا بعد سجن طال:

-بس أنا بحبك.

باغتتني!

توقفتِ ساكنًا للحظات وكأن أسهم من نار اخترقت ظهري بغتة،

انطبق صدري وضاق مجرى تنفسي وشعرتُ باختناقٍ وكأن مكتبي

الواسع أصبح خندق خانق!

حاولتُ النطق بأي شيء وأنا أدور بعيني على معالم وجهها ساكن

الانفعال، ولم يسعفنِ لساني إلا بهمس اسمها على مهل:

-تيا..



قاطعتني وهي تهز رأسها بنفيٍ رافض لسماع أي حرفٍ مجادل أو مجامل أو مرتبك حتى:

-لا، لا.. أنا مش عايزة أسمع حاجة. أنا بس كل اللي عيزاه تبقى مع حد يسعدك. مش عايزة اسيبك لواحدة مش حاسة بيك. مش عايزة أسلِّم حبي لحد وأنا عارفة إنه هيبقى تعيس معاه. حد فينا على الأقل يبقى مرتاح ومبسوط. أنا عيزاك مبسوط يا ضيا، مش عيزاك تندم بعد سنين.

جاء دوري هذه المرة في مقاطعتها وأنا أقترب منها وهي مستمرة في استرسال كلماتها التي تنزل كالسياط على قلبي وعقلي سيان، غير عابئة بالحرائق التي تشعلها بكلماتها:

-تيا..

-مش عيزاك تكره نفسك إنك اخترت واحدة قلبها متعلق بغيرك ومش قادرة تقدّر حبك ليها. مش عيزاك تظلم نفسك يا ضيا.



كلماتها خفيضة وعيونها شابها بعض الشرود وكأنها تلقي عليَّ خلاصة ألمها، فقاطعتها همسًا ببعض التصميم:

-اسمعيني.

-مش أنا، صدقني أنا مش بقول كدة عشاني..أنت ألف واحدة تتمناك، ألف واحدة تحبك وتتمنى تسعدك.

قطعتُ كلماتها وأنا أنظر في منتصف عينيها الثابتة، واحتضنتُ يديها بين يدي:

-اسمعيني..

-أنا مش عايزة اسمع، مش محتاجة اسمع يا ضيا، أنا محتاجة تكون سعيد. وأنت مش هتكون سعيد مع براء يا ضيا صدقني.

همستْ بكلماتها بعينين مسافرتين نحو أبعد من الغد بجناحين من يقين!



أغمضتُ عيني في محاولة لإخماد حريق تلك الكلمات التي اندلعت لتأكل كل ما بداخلي دون تميز، وكدتُ أنطق رافضًا ولم تقاطعني هي تلك المرة.. بل فُتح الباب وطلت هي!

-براء!



(4)

حب في خانة الذكرى.. أو الموت.

**

الحب دائمًا ما ينتهي به الأمر في خانة الذكرى، أو الموت!

معذرةً فنحن هنا لسنا في صدد قصة عادية عايشت دروب الهيام كاملةً فلم يبقى لها جديدٍ تسلكه لنضيف لهم الوحش الأعظم الماكث أمام كهف الحب: الاعتياد والملل. هنا الكهف غير موجودٍ من الأساس!

نحن في ظلّ غابة موحشة من العشق الضائع، تتربص بنا وحوش أكثر خطرًا، وفتكًا.. الموت، والذكرى!

ذكرى ترفض التحرر منها رغم السنون!



وموت الأمل داخلي، كما موت نبضة تخصني في قلبها من قبل حتى أن تولد!

في ذات اليوم التي فاجأتني بزيارتها الغريبة مقاطعة كلماتي وهي واقفة عند باب المكتب تعلن حضورها بصمت!

في موقف ووقت آخر لرقص قلبي فرحًا.. لكن اليوم، والآن.. وكلمات "تيا" مع رحيلها الوشيك والمفاجئ والذي ضرب دواخلي بمطارق الألم والخوف!

وبعد كل هذه الخيبة التي طالتني بسبب جفاء معشوقتي!

وقوفي في المنتصف وتخبطي المثير للسخط، وعدم استقراري وقدرتي على أخذ قرارٍ شافٍ!

سكون نبضي بإنهاك من برودة أفعالها، والذي حاولتُ تغليف قلبي المحترق بعشقها بقليلٍ منه، وتوهمت قدرتي عليه!



وقوفي في منتصف بحر العشق معها متحيرًا، أأنجو بنفسي من غدره وأفر تاركًا قلبي فيه مختنقًا؟!.. أم الاستسلام للغرق بين أمواجه والموت كليًّا فيه هو الحل الأمثل والقدر الذي لا فكاك منه؟!

الخوف الذي يحاوطني من يومٍ قريبٍ آتي فيه باكيًا بصمتٍ لكل من حذرني من تشبثي بما ليس لي!

كل هذا جعلني على حافة بركان الغضب!

كل هذا جعلني، وكأني أبغى الانفجار!

دخلتْ وتشبثتْ بأطراف الباب للحظاتٍ قبل أن تتم دخولها وإغلاقه، واستمر تشبث يدي بيدي "تيا"، واستسلامهما لي بدفئهما الآمن شجعني أكثر.



ربما من البعيد هو مشهد تلبس بخيانة مع سبق الإصرار؛ فها الخاطب الخائن يحتضن يد عاشقته وزميلته في العمل، والتي تربط بينهما أواصر صداقة قوية!

وليته كان!

من داخلي انبثقتْ رغبة غامضة خبيثة أن أشاهد غضبها، أسمع صرخات اعتراضها، أن تندلع منها ثورة مؤججة على حزن قلبها المسكين، أن تحرر كلماتٍ سامة ترميني بها أنا والساكنة أمامي اتهامًا بالخيانة والخداع.. أو حتى الفوز ببعض اللوم في عينيها.. لكن أمنياتي كلها ذهبت سُدى!

تقدمتْ بهدوء ووقفتْ بجانبي، ثم أطلقتْ التحية والسلام، وتوجهت لـ"تيا" بالسؤال عن حالها، وتجاهلتْ يدينا المتشابكتين!!

ردتْ "تيا" التحية بخفوت واتجهتْ بنظرها لي وأنا أحاوط "براء" بعيونٍ اجتمع فيها كل تناقضات الشعور!



ارتفعتْ حدقتيها تبادلني النظر بـ.... اعتذار قليل الحيلة؟!

لم أفهم على ما تعتذر ولكن أصابني الغضب، وشعرتُ به يتجلى بوضوح كشمس نهار في زجاجي عيوني اللائمة لعيونها والتي رسمت بالمثل عتابٍ مستحي على عتاب عيني الغاضبتين، وكأنها ترسل لي شفرة خاصة بأن هذا ما حذرتك منه من قبل، وغير مسموح لقلبك بأنين نظرة عينيك هاتين!

تلقيتُ طعنتها بثباتٍ وانفجر داخلي الألمِ نقيًا، وضُرب فؤادي بسؤالٍ مشتعل كالجمر الذي يحرقني الآن، وشرعت له الأبواب ليهدر في مقلتي بحنق.. ألا أستحق شربة حبٍ قليلة من سهل عشقها بعد كل هذا القحط!!

أسبلتْ جفنيها وأطرقتْ رأسها وهي تعيد جوابها دون حاجة لصياغة مسموعة تلك المرة بأنها خارج نطاق الحب.



كل هذا و"تيا" محبوسة في مشهد يؤلم روحها وكأنها طرفٍ زائد في حكاية لا تخصها أُقحمتْ فيها ظلمًا.. أو ربما هي كذلك بالفعل!

تشاهد تبادل حوار بين عيني وعيني "براء" بينما يديها مازالت أسيرة داخل قبضتي!

وقعتْ بنظرها حيث يديها المحبوسة داخل يدي ببسمة مستخفة، ثم سحبتها بهدوء فزدتُ من تشبثي بها دون وعي؛ زادتْ من حدة سحبها لها بوجه احمر غضبًا؛ فسرقتْ انتباهي أخيرًا؛ كاسرة سحر لحظة الوصال النادر التي كانت.

واللوم الذي كنتُ اتمناه من عيون معشوقتي الساكنة، وجدته في عيني عاشقتي المسكينة!

كان لوم كسير، نادم، مغلف بالكثير من القهر.. لأنها ببساطة: قرأتْ أمنيتي البائسة واستغلالي لها لتحقيقها، ثم حدجتني بنظرة أسف أخيرة!



ولم أدري أكانت نظرة أسف على حالها لأنها سقطتْ في فوهة عشق جحد بعشقها؟!

أم أسف لي على عدم مقدرتها لسحبي من شفا هوى أخرى لا تلقي لقلبي بالاً؟!

انسحبتْ ورحلتْ بصمتٍ دون نظرة زائدة ثم أغلقتْ الباب ورائها بهدوء، ليعم الصمت الدائم بيننا من جديد لدقائق معدودة!

وقفتْ أمامي تحتل مكان أخرى كانت فيه منذ قليل، ثم بترت صمتنا بسيف كلماتها الهادئة والمؤنبة وهي تغرسها في روحي دون رأفة:

-مابتردش عليا بقالك كتير، بقالك أسبوعين!

بقيتُ اتأمل عينيها طويلًا دون رد، ثم سألتها بذات هدوء كلماتها وأنا أضع يدي في جيبي بنطالي، متنفسًا بعمق:



-تفتكري مش حقي؟!

-لا مش حقك.

قالتها بثباتٍ وعيونها تضيق بإصرارٍ غريب رفعتُ لهم حاجبيّ مستغربًا، ثم طالعتها بعينين اكتنفهما الضيق.

هدر صوت الرعد في الخارج وكأنه أراد أن يشاركني بعض من الغضب الذي يغرق داخلي فابتعدتُ من محيطها بجبينٍ مقطب، وضرْوسي تصطك بانفعالٍ أحاول كبته، مخاطبًا إياها بسأم:

-الجو بيقلب.. يلا اروحك ونتكلم بعدين.

-لا، لازم نتكلم دلوقتي.

-بعدين.

كررتها وأنا ألتفُ بظهري بعيدًا عنها، وابتعدتُ عن محيطها عائدًا لمكتبي، فاستمرتْ في عنادها الهادئ وهي تلاحقني بكلماتها:



-بعدين إمته يا ضياء؟!.. احنا فرحنا قرب وأنت مصمم ماتكلمنيش كل ده!

استوقفتني تلك الجملة في منتصف الطريق وكأنها خرجتْ من عمق الجحم لتُصلِب قدمي بالأرض، وهذا المسمى يضربني باستهزاءٍ وكأنه يخرج لسانه لي شامتًا بعدم امتلاكي له رغم حضوره نصب عيني ويدي، يراهنني بفسوق أن أنال من سكينة غفوته ولو حتى للحظات.

زفافنا!

هل حقًا زفافنا سيكون قريبًا أم أنه بداية للعنة ألم أشدٍ وأقسى؟!

استدرتُ لها بوجهي من جديد وقد اكتسى بقناعٍ باردٍ، وأصريت على عدم خوض هذا الدرب:



-ماينفعش نفضل هنا في الجو ده، هوصلك البيت ونتكلم هناك براحتنا.

اقتربتْ بهدوء من مكتبي الذي انشغلتُ عنها بترتيبه ولملمة حجاياته استعدادًا للرحيل، وهي تصمم على الحديث من جديد:

-ضياء..

-براء.. أنا مش عاوز اتكلم.

رفعتُ وجهي لها بحدة أحدجها بعينين غاضبتين ونبرة زاعقة أنهيت بها محاولاتها، ثم ابتعدتُ آخذ معطفي وأنا أبتعد وآمرها بالرحيل دون استدارة:

-يلا.

ذهبنا لطريقنا إلى بيتها بسيارتي واكتنفنا الصمت دون أن يبادر أحدنا بمحاولة قطعه، ولم ينظر إحدانا لوجه الآخر حتى.



هدأ الجو الغاضب منذ الصباح قليلاً، وتساقطت قطرات المطر هادئة بروية واعدة بهدنة تُعيد بها الروح االشتائية الهادئة من جديد، ثم بعد دقائق قليلة عادتْ تنهال ببذخٍ مصحوبة ببرقٍ غاضب وصوت رعدٍ مدوي، وكأنها استثقلت الهدنة القليلة وحنثت بوعدها؛ ضاربة بدفء الأماني عرض الحائط!

علقت "براء" بشرودٍ وتقرير وهي تراقب الأمطار من زجاج السيارة دون أن تحرك يديها المستندة على ذقنها بسكون، ولم تحرك هذه الأجواء المقبضة فيها إنشًا:

-الجو كإنه كان معبي ومصدق فضى.

نظرتُ لها أتأمل سكينتها وهدوء ملامحها وداخلي يصدق على وجهي كلماتها بصمت؛ فربما ما بيننا بالفعل يطابق اضطراب هذا الجو المشحون رغم أن شتاءه لايزال في بدايته!



عُدتُ من تأملها للطريق من جديد وأنا أخبرها بهدوء مماثل لهدوئها:

-ماكنش ينفع تنزلي في جو زي ده.

-كان لازم اشوفك.

-كنت هاجي لك.

ابتسمتْ ابتسامة باهتة كانت التعبير الحي الأول المرتسم على وجهها منذ لقائنا، والتفتت إليَّ بوجهها وهي تطوف حولي بعيون هادئة:

-رغم إني مش مصدقاك بس مش مشكلة.. ماردتش عليَّ ليه وقولت إنك جي؟!

تنفستُ بحدة وانطبق فكّي ببوادر غضب بدأ في الطفو من جديد، ولم أعلق.



-أنت قولت لي آخر مرة إنك تعبت!

خرجتْ مني ضحكة مستخفة دون أن تصل لعيني أو أن يتغير بها وجهي، واستمررت في صمتي دون رد فاستدارتْ إليَّ بكليتها وهي تضيف بصيغة سؤال لا أدري أكان متألمًا، أم مؤنبًا:

-تعبت مني يا ضياء؟!

انقبض داخلي بشدة، وتجهم وجهي تلقائيًا في تقطيبة متأملة ومستاءة، لا أعرف من ماذا تحديدًا أو مِن مَن على وجه الخصوص!

وأثناء شرودي المتجهم المفكر، وصمتها الهادئ المراقب، فوجئنا بالسيارة تتعطل عن السير.. هنا، والآن، وفي هذا الطقس الكارثي!

نظرتُ لمؤشر السيارة بجزع وانتباه قد فات له الأوان، ترجلتُ من السيارة بعصبية بالغة وإدراك متأخر ضرب في رأسي تزامنًا مع



صوت الرعد في الخارج وأنا اتذكر بأنني نسيت ملئ الوقود في غمرة أحداث اليوم!

ذهبتُ إلى مقدمة السيارة مسرعًا بأمل معدوم لأتفقد مخزون الوقود علّني أكون مخطئًا!

مسحتُ بعصبية من على وجهي قطرات المطر التي أغرقته وأغرقت سائر ملابسي في لحظات، وأغلقتُ مقدمة السيارة ضاربًا إياه بغيظ أكثر من مرة، ثم تخصرت متأففًا وأنا أطبق على أسناني بعنفٍ لدرجة سماعي لصريرها الغاضب ونظري يتجه إلى السيارة بعجز.

ترجلت "براء" هي الأخرى من السيارة وارتسم على وجهها القلق الجاهل، ثم تساءلت بصوتٍ مرتجف وشفتين ترتعشان من البرد، وقد أُغرقت بمياه المطر في ثوانٍ بمجرد نزولها هي الأخرى:

-في إيه؟!



أشرتُ إلى السيارة هامسًا بصوتٍ مشدودٍ لآخر حد تحمل له وأنا أجاهد بداخلي لنيل الصبر:

-خشي العربية، وماتخرجيش منها طول ما احنا هنا.

اقتربتْ تضرب بكل تعليماتي عرض الحائط وهي تقف بجواري بعينين تمتلئين بجهلٍ مستفز في صدقه، سائلة بإصرارٍ مغلف بصوتٍ متفهم رقيق كأنها تهدئ من غضب طفلٍ صغير:

-إيه اللي حصل طيب؟

ضربتُ على مقدمة السيارة بعنفٍ وأنا أصيح بها بلجام غضبٍ منفلت:

-قولت لك خشي العربية.

-أنت بتزعق لي ليه؟! أنا عملت إيه لكل ده؟!



نظرتُ لها ولصمت المكان المظلم حولنا بعجزٍ غاضب لا يحتمل.. وجودها بجواري في هذا الموقف الكارثي وهذا المكان الأكثر كارثية والذين فجرا آلاف الاحتمالات البشعة التي يمكن أن تتعرض لها الآن داخل رأسي؛ وأخذوا يزيدوا من سخطي وغضبي وقلقي أكثر.. فسألتها بغضبٍ وحنقٍ حاد:

-أنت إيه اللي جابك أصلاً، إيه اللي جابك؟.. هتروحي ازاي دلوقت؟!

-زي مانت هتروح.

قالتها ببساطة رافعة كتفيها، واقتربتْ أكثر وهي تسأل برفق:

-إيه اللي حصل بس، قول لي؟!

-مافيش بنزين في العربية، نسيت أفولها!

-طب بسيطة، ممكن نوقف أي عربية ناخد منها أي بنزين.



باستهزاء رددتُ كلماتها وأنا أطالعها بنظرات غيظٍ، ورغبة مريرة في الصراخ من سذاجتها القاتلة تجتاحني بعنف:

-والله!! بسيطة، ونوقف أي عربية!.. في الجو ده هنلاقي عربيات هنا!.. ولو لقينا عربيات هنلاقي حد يقف لنا أصلاً!.. ولو حد وقف لنا أساسًا الله أعلم هيعملوا إيه واحنا ملطوعين كدا في الشارع لا حول ليا ولا قوة!.. أنت عايزة تجلطيني؟!

-طب ماتتريقش عليَّ، أنا إيه عرفني بكل ده، أنا بحاول ألاقي حل!

تأففتُ بملل، ونظرتُ لها محذرًا بذات الغيظ:

-براء أنا مش طايق نفسي، امشي على العربية واقفلي على نفسك.

صمتتْ قليلًا وهي تتنفس بعسر للحظات، وعيونها تضيق لتنظر لي محاولة تحدي قطرات المطر الحاجبة بين عينيها وصورتي، ثم همستْ بسؤالٍ ثابت رغم اهتزاز الأرض أسفلنا وكل ما عليها إلاه:



-يعني لو مشيت المشكلة هتتحل، وهتهدى؟!

نظرتُ لها بحنقٍ ولسانٍ منعقد، وقد شعرت في كلماتها برسائل مبطنة، ورهانٍ مخجل، وحديثٍ مؤلم لا طاقة ولا جاهزية لي به!

بصوتٍ مشحونٍ وأنا أضيّق عيني شبه شاردًا؛ سألتها السؤال الذي يغزو داخلي بصقيع الحنق والقلق أكثر من صقيع هذا الطقس:

-أنت جيتي ليه؟!.. ليه النهاردة؟!.. اشمعنا النهاردة بالذات؟!

-عشان اتكلم معاك.

-تتكلمي في إيه؟

ارتبكتْ عيناها وهربتا من النظر لي، ظلتْ تتحرك مشتتة على أي موضع إلا عيني.. فالتفتُ أواجهها وقد اشتد داخلي عزمٍ لا أدري منبعه:



-اتكلمي يا براء، أنا سامعك.

احتضنتْ نفسها تدلك ذراعيها وزمتْ شفتيها صامتة للحظات، ثم رفعتْ رأسها ونظرتْ لي بمقلتين معتذرتين وهمست:

-أنا آسفة.

-على إيه بالظبط، آسفة على إيه؟

-على اللي زعلك مني.

صمتتْ وصمتُ وأنا أبحر في زرقة عينيها رغم قطرات المطر وبعض الثلوج التي بدأتْ في السقوط وحالت بيني وبينها!

انبثقت أفكارٍ ساخرة بداخلي أن هذه الأجواء الشتوية الباردة مناسبة لاعترافات العاشقين الرومانسية المشتعلة بالحب بدلًا من هذا الجفاء المرير بيننا!

غمغمتُ بضيق بسؤالٍ لح بعنفٍ لكشف إجابته الآن:



-براء أنت هتتجوزيني ليه؟

-أول مرة تسأل السؤال ده!

-متأخر مش كدة؟!

سألتها ساخرًا ومعالم وجهي المتحجرة تتمزق بابتسامة مريرة.. ثم كررتُ على مسامعها السؤال من جديد، ومن داخلي أخذتُ أدعو وأبتهل لله أن تكذب!

وإن كذبتْ سأصدقها رغم يقيني بالعكس!

سأصدقها رغم يقيني بكذبها، بل وأتمنى أيضًا كذبها هذا!

أتمنى تلك الكذبة كشربة ماء من يديها، ترويني بها في صحراء قلبها التائه فيه، حتى وإن كانت شربة مسمومة!

أتمنى أن تخدعني وتُسكِّن ألمي المشتعل بمعسول الكلمات، حتى مع يقيني أنها مجرد كلمات!



أتوق لتقطيب بعض من كرامة رجولتي الجريحة وأنا أغض الطرف عن نزفها الدائم بيقيني بأن هناك آخر يسكن روحها حتى الفناء!

أبتهل كلمة حب خاوية تُخرس بها كلمات الجميع المحذرة من الوقوع في ظلام حفرة تمسكي بها الذي يسوقني إليها عشقي لها معصوب الشعور بأي إحساس آخر سواه!

سأكون مغفلاً، أحمقًا، ومثيرًا للشفقة ربما.. لكني سأصدقها راضيًا!

-عشان مش عاوزة أكون لوحدي يا ضياء. عشان أنا بقيت عاوزة اللي بتقدمه لي بعد ما كنت زاهداه. عشان أنت بقيت قشايتي اللي بتعلق بيها وأنا غرقانة. عشان أنت الوحيد اللي اطمنت وحسيت بالأمان معاه بعد..



سكتتْ تقاطع استرسال كلماتها التي أتت من العدم أثناء تفكيري البائس، وفصمت بها أمنيتي اليتيمة!

جنحنا إلى الصمت من جديد وانهمار المطر والبرد يزدادان شراسة حتى شعرتُ بهم ينخروا عظامي وينشروا الرعدة داخلي أكثر. فلم أعد أدري أهذا تأثير شراسة اعترافها الصادق كلطمة قاسمة، أم شراسة برودة هذا الطقس اللعين!

تشربتْ عيناي ملامحها الساكنة كعادتها معي دائمًا، رغم الذكرى دائمة البزوغ بقلبي لذات الوجه عندما كان يشع بالمرح والابتسامات منذ سنوات!

تساءلت بشرودٍ لا أعلم لأيٍ منا تحديدًا كان موجه، وعينين بعيدتين وأنا أنظر إلى عينيها الآسفتين المظللتين بتصميمٍ لا مبالٍ:

-وأنا ليه أعيش لوحدي؟



انقشع أسف عيناها وارتفع حاجباها بدهشة بدت لي صادقة، ثم اقتربتْ سائلة وهي تمس طرف ذراعي، تُملي على نفسها خواء كلماتها قبلي:

-لوحدك ازاي، أنا معاك.

-وأنت معايا بجد يا براء؟!

-تقصد إيه؟!

خرج غضبي من مكمنه ربما للمرة الأولى معها، وأنا أمسك ذراعيها أهزهما بعنفٍ وزعيقي الحاد يشق رياح صمتنا المريض ويبدله لعواصف عاتية تعري لنا مدى هزل علاقتنا المهترئة:

-أنت معايا.. أنت معايا؟!.. أنت بتكدبي عليَّ ولا بتكدبي على نفسك؟!.. أنت مش مع حد غيره، بعد كل السنين دي لسه مش



عايشة مع غيره؛ ومش راضية تقتنعي إنه خلاص.. راح ومش راجع.

همستْ بتحذيرٍ وعيون راجية الصمت الذي انهار داخلي مخلفًا ورائه بركان غضب احرقتني حممه قبلها:

-ضياء!

نفضتُ كتفيها بعنف ووجهٍ محتقن بالكره والعشق!

عشقٌ خالص لها، وكرهٌ خالص لي ولمعشوقها، وقد اكتست عيناي بتوحش وأنا أترجم دواخلي لكلمات:

-أنا مابكرهش في حياتي قده، أنا عمري ما كرهت حد بالشكل ده غيره، وبسببك أنت. بسببك أنت بس كرهت صاحب عمري وكرهت نفسي قبله. بسببك أنت بس يا براء مابقتش عارف حتى



استحمل اسمع اسمه ولو لحد غيره. بسببك أنت بس أنا بقيت أكره صاحبي اللي مش من حقي أكرهه أصلاً!

اتسعتْ حدقتاها شذرًا وفي أعماق عينيها نوح الألم بعنف، كما شحب وجهها وهي تصرخ مقاطعة كلماتي بحدة بان فيها اصطكاك فكيها بردًا وغضبًا:

-كفاية.. كفاية اسكت. ماتتكلمش عليه كدة!

رديت على صرخاتها بأعنف:

-ماتكلمش عليه كدة! أومال اتكلم عليه ازاي؟!

هزت رأسها بنهيٍ وبصوتٍ مبحوح:

-ماتتكلمش عليه أصلاً.. مش من حقك تجيب سيرته.

-مش من حقي اجيب سيرته بس من حقه يوقف لي حياتي!

-يوقف حياة مين! دا واحد ميت.. ميت!



هزتْ رأسها بذهولٍ نازف، وعيون متسعة تكاد تخرجان من محجرها وقد طفح الألم على كل شيء وهي تعيد الكلمة مرارًا!

كلمة حفرت معناها داخلي رغم إدراكي لها بكامل كياني، فلطمتني باتهام لا يغدو أن يذوب داخلي حتى يشرق من جديد كشمس الظهيرة!

فها أنا ذا بفضل العشق صرت جاحدًا.. سارقًا.. غادرًا.. وحي بلا حياة!

وهذا هو جزاء السارقين الملاعين؛ فتحمله طالما طمعت في ما ليس لك.

-ميت!.. مين الميت؟! يعني هو ميت، وأنا اللي حي!



بنبرة ساكنة تساءلتُ وأنا أشير على صدري مع كلماتي، فحجبتْ وجهها عني بكفيها تخبئه من عيني، وصوتها يهتز برجاء وحزم في مزيج لا يتقنه سوى عاشق:

-ماتتكلمش عليه كدة يا ضياء.

-ليه؟!.. بتتوجعي لما بتفتكريه! وأنت كنت نسيتيه أصلاً!

-مالكش دعوة ده شيء مايخصكش.

ارتجفتْ خلاياي بعنفٍ مع كلماتها وهي تبعد كفيها عن وجهها بعنفٍ وتصميم، لأجد صوتي يخرج بصراخ من جديد وقد أعمى بصري الألم:

-لا يخصني.

-لا مايخصكش. أنت وعدتني إن عمرك ما هتجيب سيرته بينا، وعدتني إنك مش هتفتح الموضوع ده ولا تدخله بينا.



صمتُ وكلماتها ضربتْ وتر السخرية داخلي، لكني لم أنل القدرة على رسمها على ملامحي حتى، فهززت رأسي رافضًا خداعها بوجه خلى من التعبيرات:

-أنت عمرك ما خرجتيه من بينا يا براء عشان أنا اللي ادخله!

-ضياء أنا ماكدبتش عليك ولا خدعتك، قولت لك إن أنا مابقاش عندي حاجة اديها لحد بعد مصطفى، وأنت قولت إنك راضي وموافق.. ورغم كدة عمري ما جرحتك ولا جبت سيرته قدامك مرة واحدة؛ احترامًا ليك.. يبقى ليه بتعمل كدا؟!

تنفستُ بعسر والهواء البارد حولي يطعن صدري كألم سهامٍ من جليدٍ حاد تنغرس في عمق النيران:

-مش لازم تجيبي سيرته بلسانك يا براء. ومش لازم تنطقي اسمه عشان تبقي بتحترميني.



ابتلعتُ ريقي بإرهاقٍ وأكملت:

-ولا لازم تتكلمي عنه وتجيبي سيرته عشان تبقي بتجرحيني. أنت بتعملي كل ده من غير ما تنطقي. عينييك اللي بتبص لي زي ما بتبص لأي حد ماتعريفهوش في الشارع، زي الغريب، وكأني حاجة زيادة في حياتك!.. سرحانك وابتسامتك كل ما حاجة تفكرك بيه، واللي عمري ما شفتها معايا مرة واحدة طول سنتين خطوبتنا!.. عدم محاولتك ورفضك إنك تنسيه، رفضك إنك حتى تدي فرصة واحدة للبني آدم اللي عشان يبقى في حياتك داس على قلبه وكرامته بالجزمة!

ده مش احترام ليَّ. أنت بتكدبي على نفسك، وأنا كمان كنت بكدب على نفسي بس كفاية لحد كدة.. كفاية.

-ضياء أنا..



هززتُ رأسي يائسًا، رافضًا استطراداتها، وعيوني تسدل ستار الاكتفاء من تلك المشاحنة بعزمٍ رغم حمرتها الظاهرة كخيط دخان رفيع يسفر عن اللهيب المشتعل في صدري:

-أركبي العربية عقبال ما اتصل بأخوك يجي يوصلك.

اقتربتْ هامسة باسمي برجاءٍ وتشبث مجهول الدافع واستطعتُ لمح الدمعات العالقة في جفنيها!

ورغم نظرة الألم، بحه الصوت، وتشبث الأيادي في لقاء نادر.. أصريت عليها بالرحيل وقد سرى خدر البرودة داخل أوصالي واصلاً لقلبي؛ فكبل بالوهن لا يشعر ولا يقوى على الجدل أكثر!

**



من قال أن ما كسر يمكن إصلاحه لم يضع في حسبانه بالتأكيد الكسر حد التفتت!

حبيبات التراب المنثورة من بنيان كان يومًا حصينًا ودُك بقسوة الزمن وتقاذفته رياح الفراق؛ بالتأكيد لن تُجمع وتُبنى من جديد!

من أشاع هذا، هو من خدع "ضياء" بإمكانية التئام كسر قلبي وتجبير تصدع روحي!

تسلح بهذه النظرية كسيفٍ بتار لمقاومة قلبي فتفاجئ به يتناثر كالرماد بعد اصطدامه بجداره الصلد.. ليسقط صريع الندم ويسقطني صريعة الخوف من الوحدة مجددًا!

نعم حاول ترميمي بعزمٍ وإصرار، ولكن فُتاتي المنثور بالفقد الملعون أبى.. وربما عجز عن تخيل ذاته منتصبًا من جديد ما لم يسكنه بنّائه الأول!



حتى وإن حاول بِناءه متيم متسلحًا بنبضات العشق، وحتى وإن جمع التراب وسقاه بشوق عينيه، وشكّله بيدين حانيتين من الاهتمام المحب؛ لن يحصل في نهاية الأمر إلا على قصرٍ من الارتباط بالاطمئنان الذي منحني إياه.. لكن دون عشق!

فسرح عشقي المهزوم بالموت لن يُبنى على أنقاضه سرحٍ آخر، حتى وإن نفت الكثير من التجارب قبلي!

فسروح العشق لا تبنى أبدًا من الأنقاض، وهذا ما غفل عنه حتى صفعته الحقيقة في غفلة مني على ما يبدو!

بعدما انفلت زمام تعقلي عندما شاهدت ثورة قلبه منفجرًا وهو يطعن في ذكرى حبيب غائب حاضر؛ فانفجرتُ بالمثل!

أدخلني سيارته قسرًا وظل هو واقفًا في الخارج مستندًا على إطارها، شاردًا مربعًا يديه على صدره وهو يحملق في الفراغ أمامه، مسافرًا بعيدًا عن أرض الألم الذي تبادلنا فيها سهام



الكلمات الجارحة لقلبينا منذ ثوانٍ، ولم يثنه هذا الصقيع القاتل في الخارج عن تصميمه على الابتعاد عن أي جحيم يجمعه بقربي من جديد حتى وإن كان الانتظار داخل سيارة واحدة لدقائقٍ معدودة!

وكأن سياط البرد باتت أرحم عليه من حرارة وجودي، وألمه العاصف أكثر رأفةً به من طيفي الباهت!

انفلتت من داخلي شهقة بكاء مكتومة تزامنت مع انحدار دمعة جديدة لا أدري من أي منبع ألم سقطت، فشاهدتّ التفافة وجهه الشحيحة تجاهي وكأنه سمعها، أو شعر بها، لكنه عاد لجمود وقفته من جديد!

لم تمر عشر دقائق أخرى، إلا وقد رأيت سيارة أخي تصطف بجانبنا وترجل منها وتبادل مع "ضياء" بعض الحديث، ثم أعطاه شيء يبدو أنه بعض الوقود النافذ من سيارته، ثم اقترب مني



وهو يسألني عن حالي بغية الاطمئنان، ومرأى دموعي الجافة وشحوب وجهي مع الجفاء الواضح بيني وبين "ضياء" أثار زوابع القلق داخله فبدت على عينيه جلية.

طمأنته بكلماتٍ مرهقة شحيحة؛ فشيعني بنظرة مشفقة متألمة وهو يخبرني أن أترجل وأستقل سيارته لنذهب إلى المنزل وسبقني إليها، فترجلت وتوقفت أمام "ضياء" الذي غمره ماء المطر وهو مستسلمًا له تمامًا وكأنه يطالبه بتطهيره من إثم العشق!

نظرتُ له بعينين تضخان ألمًا منه وعليه، وحاولت أن أُخرج أي كلمة لكن فشلتُ بجدارة، بينما عينيه لم تتبدل فيهما نظرة الفراغ الساكن، وكأنهما جمرتين خمدتا وتحولتا لقتامة رماد متطاير بعد ساعات من حريق مستعر!



ابتلعتُ غصة مشتعلة في حلقي الجاف ثم طالعته بنظرة متألمة أخيرة، وذهبت زاحفة بثقل قلبي حيث أخي ودفئ المنزل أخيرًا بعد كل هذا الثلج المحتل لجسدي وقلبي وروحي.

ركبتُ السيارة ببطء وقبل أن يفكر أخي بإلقاء سؤالٍ شاق على مسامعي ووعيِّ الآن، همستِ بإرهاق ورجاء أوقفه قبل أن يحاول البدء:

-أنا مش عاوزة اتكلم في أي حاجة يا أحمد أرجوك.

أماء برأسه متفهمًا بجبين مقطب، وشرع في الذهاب دون حرف وكنت ممتنة لذلك. أما أنا فكنتُ أشاهد ابتعاد أنعكاس صورة "ضياء" عني بالمرأة وهو ثابت على ذات الوقفة، وأخذ قلبي يؤلمني على ما آل له الأمر بيننا، وبدأ القلق يفترسني من أن يصاب بالتهابٍ رئوي بعد كل هذا الوقت تحت قبضة المطر النافضة وزئير رعدها الغاضب. ظلتْ عيناي تراقبه ودموعي تنحدر بصمتٍ



قلق حتى بات نقطة صغيرة في البعيد واختفى، فأغلقتهما وأنا أشدد على جفني مانعة نفسي من إراقة المزيد.

ضرب صوت الرعد بالخارج بعنفٍ فانتفضتُ وذكرى بداية اليوم معه تضربني بخوفٍ مؤلم. عقدتُ ذراعي أدلكهما في محاولة للسيطرة على انتفاضتي الخفية وأنا أفكر بآمال "ضياء" التي أُنهكت؛ فأصبح لا يستطيع الصمود أمام حقيقة هزيمتها التي تلوح كلما ظهرتْ أمامه عيناي الخاوية من عشقه.. يبدو أن هذه باتت حقيقة مؤكدة.

لكن لما يحاسبني أنا على مطامحه التي بناها على شاطئ أملٍ غُر أغرقتها أمطار الحقيقة الشرسة وقد حذرته من سوء الطقس المزمن لقلبي؟!



والتي تزامن كشفها مع ثورة بحر العشق المستسلم لـ"تيا" والذي ظن أنه لا يتأثر بالبعد والجفاء ففاجأه بالاستسلام والانحدار هاربًا من أراضيه لأخرى!

"تيا".. تلك العاشقة المتيم قلبها بنبضه الخاوي من حرارة عشقها، والذي رغم خواء خافقه من عشقها يتشبث بها تحت مسمى كاذب لصداقة منذ سنون!

لما إذًا يحاسبني ويده تقترف ذات الإثم؟!

ولما أخذتْ هي الآن على عاتقها إفاقته من ثمالة تعلقه بي بعد تشبثي به؟!

أين كانت في لحظات مقاوماتي الباسلة؟!



ربما لو كانت بثته تلك الكلمات قبل أن أتعلق بجدائل أمان وجوده لما تضايقت، وربما كنت شجعتها على محاولة علاجه من سقم هيامه!

لكن الآن وقد استسلمت أخيرًا لمجاراة الحياة من جديد بعد إلحاحٍ طال.. فلماذا؟!

لماذا جميعهم قرروا مداهمة حمق أفكارهم، وشحذوا همة محاولاتهم لإصلاحها بعدما اسفقتُ من ثُبات وحدتي وتشبثت بهم؟!

تشبث حاولتُ إظهاره ومزجه باعتذارٍ على عدم تقديم ما لا أملك في الحوار الدائر بين أعيننا وهو محتل كفي "تيا" وكأنه بذلك يعتذر لها عن بعد عينيه!

لا أدري لما لم يغضبني ذلك!



رغم أنني شاهدت رغبته في اندلاع ثورة غضبي جلية في مقلتيه لكني لم أشعر باجتياح هذا الشعور داخلي، وربما هذا ما أجج غضبه وألمه أكثر. هذا الغضب الذي نشب بشرارة صغيرة من كلماته عن "مصطفى" التي اعتصرتْ فؤادي ألمًا وغضبًا بغير تحمل.

"مصطفى".. صديقهم القديم وحبيبي الدائم.. من كان في يوم هو الرابط الوحيد بيني وبينهم!

هذا المجني عليه في عمق الحقيقة، والجاني في أكاذيب الجميع!

الجميع الذين تملكتهم الأنانية والجحود لرمي على جثته كل ضغائن الدنيا ولم يكفيهم أنه تركها لهم ورحل!

رجعتُ برأسي للخلف أعتصر دموع عيني المحتجزة والذكريات تعصف برأسي وتدور داخلها راسمة دوامة من الأمس أمام مرأى عيني. صفير الرياح تداخلت مع طنين صوته الحنون الآتي من



البعيد وهو يخبرني بوجوب فراق مؤقت، ولا داعي للحزن المحتل لعيني.. ليته علم أن الفراق المؤقت أضحى فراق دائم، ودموعي التي كان لا داع لها باتت إجبارية بأمر الموت!

تذكرتُ وتذكرتُ وتذكرتُ حتى أنهكتني الذكرى فسقطتُ في دوامتها تعتصرني بقسوة!

**



كانت خطوة معلقة، أو منسية!

مؤجلة التفكير ممكن، أو متأمل فيها أكثر من المفترض!

وربما فقط لم تكن سوى لحظة قدر عمي عندها البصر كما يقال!

أو تشبث بالآمال حد اليقين كطبيعة بشرية عند محاصرة الخوف!

كانت فرحة قريبة، فأضحت فرحة مؤجلة، ثم خوف خفي الحضور، فحزن خيم على القلوب!

كان المقرر إعفائه من الجيش تحت مظلة خدمة يقدمها له أحد أصدقاء والده ليلتحق بعدها بالشركة التي تعهد لهم والد "ضياء" بالعمل فيها مع أصدقائه كمتدربين حديثي التخرج، ثم يتم



توظيفهم رسميًّا إن أثبتوا جدارتهم الذي وجب عليهم إثباتها لأنها فرصة لن تتكرر. ثم بعدها يتمم زواجه على حبيبة العمر.

وتوالت الأيام تعد بالإجابة.. تم قبولهم كمتدربين هم الأربعة، وعليه هو أن ينتهي من ورق إعفاءه من الجيش ليلتحق بهم، ولكن كان للأقدار رأيٌ آخر!

ذهب في المعاد مطمئنًا لخط سير القدر على طريق الأماني والأحلام، فكل شيء كان ميسرًا. ليتفاجأ بعدها بحجر سقط بغتة على عالمه، هدم الطريق نصفين مخلفًا ورائه حفرة عميقة والكثير من الضباب، وحجب عنه مصير أحلام العمر!

يومها تم اختياره مجند في الجيش. وخدمة نيل الإعفاء تناثرت في رياح العجز عن تقديمها للحاجة الماسة لكافة أبناء الوطن في ذاك الوقت، وهكذا فخدمته يجب قضاءها وقضي الأمر.



يومها ذهب لها حائرًا، حزينًا، يموج داخله الكثير من الإحباط وبعض الخوف الذي واراه عن الجميع ببراعة.

ثم بقى يتساءل في نفسه هل من سبيلٍ لإخراجه من تلك الورطة المربكة.. ولم يجد؛ فاستسلم في النهاية صاغرًا مهمومًا لقبول الأمر الواقع والتسليم لكلمة القدر؛ فهي ضريبة وجب تسديدها.

ضريبة دم وروح. ضريبة وطن يجب دفعها. وسددها كاملة.

وعندما اعتصره الاختناق واليأس ذهب لصديقه "ضياء" مهمومًا، محبطًا وحزينًا بصدق على غير عادته.. فسانده وقتها وهو يخبره أن لا بأس، ليست بكارثة، وليحمد الله برأفته كونها سنة واحدة ولم يلقى على عاتقه أكثر. فقط فلينهيها سريعًا ويعود ليجد كل شيء كما تركه وربما أفضل. فتشبث بكلماته كصائم بحاجة لبضع قطرات من الأمل وصدَّق عليها.. فماذا لو تأخر كل شيء لعامٍ واحد!



ليس هناك الكثير من الضرر. فقط فلينهي هذا العام ثم سيسير بعدها كل شيء كما خطط له، متجاوزين تلك العرقلة البسيطة.

هكذا كان يبث لنفسه الأمل ويبثها على مسمع الحبيبة المحبطة.. الحزينة.. والخائفة.. فأخبار الجنود المتوفين كانت تنهال على الجميع بألم، فيدعوا لهم بالجنة، ولأهلهم بالصبر، ولنفسهم بعدم تذوق مرارهم!

بعدها كل شيء كان سريعًا.. وجد نفسه يبتعد عن الجميع بغربة ليست أبدًا من شيمه.. ينسلخ عن عائلته، أصدقائه، خطيبته!

ويمتزج في عالم آخر وحكايات أخرى!

كما اتسعت الحياة لتصبح أكبر من أحلامه الصغيرة!

مشكلاته صارت أكبر من تجهيزات الزواج واللحاق بها!

مخاوفه أضحت أضخم من ضياع فرصة عمل لا تعوض!



حياته، مشكلاته، مخاوفه.. كلها كانت على روحٍ تتأرجح على سلم الموت!

أرواح زملائه، أصدقائه، ورؤسائه.. أرواح عائلته الخائفة من خبر فقدانه في لحظة والمعلقة بأمان زيارته الدورية، داعين الله أن تنتهي فترة خدمته بسلام. وروحه التي شهدت الكثير من الانزواء بعد فراق الكثير من حوله ومن هم مثله. كجندي شهد وتعلم كيف يمكن للفراق أن يفرض أحكامه في أقل من لحظة!

فمرة يبكي نزفًا على صديق حديث العهد انحبست أنفاسه في صدره بطلقة رصاص. ومرة يبكي فرحًا على خروجهم جميعًا من أنياب الغدر سالمين. ومرة يزفر ارتياحًا عند عبور طلقة نهايته بجواره بعدما ضلت الطريق.

حتى أتى يوم لم يستطع فيه النوم.. قلبه كان خائفًا، وروحه مشتاقة، وكيانه كان يبتهل للفحة أمان بصوتها الشجي.. فقرر



محادثتها سرقةً كما يفعل أحيانًا كثيرة، ليتبادل معها الحديث والمزاح قبل بداية موعد خدمته.

-وحشتيني.

-أنت وحشتني أوي أوي.. بس خلاص هانت وأجازتك تيجي واشوفك.

كانت تتحدث بلهفة طاغية وشوق صوتها يطرب أذنيه فارتسمتْ على شفتيه بسمة مشتاقة، ليجد لسانه يرد عليها ببعض الشرود:

-معاك حق.. هانت.

أتت صفعة ريح باردة وهو يغير ملابسه ليخبرها ضاحكًا ببعض المشاكسة التي يعشقها معها:

-قاعدة أنت قدام الدفاية والجو هنا تلج.



-يا حبيبي، طب هم مش مسلمينك بطاطين هناك ولبس تقيل؟

قالتها بألم على حاله فرد هازئًا مداعبًا يخفف أثر الألم الذي لمسه من صوتها الشفاف لمسامعه:

-لا يا روحي ماتشليش هم... الخدمة هنا 5 ستارز.

-أنت بتتريق عليّ؟!

سألته مهددة بمرح فرد ضاحكًا بعشق:

-أنا أقدر يا باشا!

تنهد بعدها وقد أُعتصر قلبه من جديد بالخوف الملازم منذ الصباح فاستسلم صاغرًا لخوفه يترجاها بجدية:

-براء أوعديني إنك مش هتنسيني أبدًا.

لامته بصوت اختنق بعبرة تكونت من الخوف، ووخزها قلبها لهذه النبرة وتلك الكلمات الواشية بفراقٍ مرفوض:



-مصطفى أنا مابحبش الكلام ده، ماتقولهوش تاني.

تألم للحالة التي أوصلها لها حاله الغريب اليوم، ولكن قلبه ترجاه أن يترجاها خلوده في خليل عمره من جديد فطاوعه غائبًا برغبة أمان:

-أنا عارف إن قلبك عمره ماهينساني، ماتجبريهوش في يوم ينساني يا براء.

-مصطفى أنت كويس؟

-أنا بحبك.

رددها هامسة وبث فيها كل عشق العالم وصدقه. ساد الصمت بعدها يتخلله أنفاسه الباردة وأنفاسها الدافئة تدفئه، حتى لاحظ الصمت الذي طال والكلام الذي جف من الحلوق، فأخبرها وأكسب كلماته المرح الذي افتقدها من قليل:



-أنا لازم أقفل دلوقت ضروري، لو عرفت أكلمك بعدين هكلمك ومش مشكلة اتجازى يا ست، بس خلي بالك من تليفونك هاه.

أماءت برأسها غير قادرة على إيقاف دموع عينيها التي انهالت كفيضانات، وانتفاضة قلبها بخوف الإدراك المكبل بالعجز، لكنها اقتنصت بعض الثبات وهي وتودعه بأنفاسٍ تنهت:

-حاضر، لا إله إلاّ الله..

-سيدنا محمد رسول الله.

أغلقا الهاتف وسقطت دمعة خائفة من عينيها، وسقط هو في بئر قدر نهايته.

انهار كل شيء بعدها بانهيار خروج أنفاسه في حدثة مكررة. ابتعد جسده عن الحياة وابتعدت سعادة وروح كل قريب منه.

أمه وأبيه.. أخوه الصغير.. جميع أصدقائه وأقاربه..



و"براء"..

تلك التي شهد هو بدايتها وشهدت هي نهايته!

تلك التي كان صوتها آخر ما سمعه قبل الرحيل!

وكان صوته آخر ما ارتوت به قبل الذبول!

هو كان جل الحكاية في روايات الكثير، ولكن حكايته هو دفنت معه بدمائه!



(5)

عشق كحصى الخريف.

**

انتهت محاضراتها وتركت أصدقائها على الفور وذهبت له ولأصدقائه في مكانهم المعتاد عندما يجتمعون في الجامعة لإنهاء تكليفاتهم، أو الاتفاق على تقسيم المهام، أو حتى الصياح سويًا!

تسللت بخفة وفتحت الهاتف على صورة محددة، ودون أن تعلن وجودها أو تشعرهم بها، وقفتْ خلفها مباشرة تسألها مقاطعة تركيزها فسمعتْ شهقة مفاجأتها الفزعة:

-بالله عليكِ ده منظر؟!

تطلعت "تيا" إلى الصورة في الهاتف ولم تحتَج سوى ثانيتين لتدرك ما تقصده فابتسمت ابتسامة خفيفة ولم تستطع أن



تواري رفضها الأنثوي فهزت رأسها نافية بصدق وأمانة، ليصدح صوت "براء" بانتصار وهي تتطلع إلى "مصطفى" المنكفئ وجهه بتركيز أمام الحاسوب:

-شفت، شفت، أهو ظهر الحق.

أبتعد بنظره مجبرًا وشق وجهه المتحير ابتسامة مذنبة، وانتهج ضرب التملص و"الاستندال" بجدارة:

-يا ستي والله أنا ما ليَّ ذنب، دي مشورة الجهبز ضيا منه لله.

وعندما سمع اسمه يُزج بين الحديث أُجبر على الانتباه والمشاركة بعدما كان يمارس -كما العادة- كل أساليب التجاهل وضبط الذات في حضرتها لكيلا تنفلت عيناه محلقة على أغصان عينيها الآسرة بشوق وحسرة وخيانة؛ وقد كان الوحيد الذي لمح خطواتها المتسللة تجاههم منذ بداية وجودها!



نزع نظارته وهو يميل بوجهه تجاه صديقه متسائلاً وهو يلوي شفتيه بمسكنة، ومازال على درب تجاهلها ينازع:

-ماله ضيا، نيل إيه ضيا؟!

-مش أنت اللي قولت على اللون ده؟!

-مش أنت اللي سألت؟!

-مش أنت اللي اقترحت؟!

-وأنا اللي اتدبست!

كانا يرميان الكلمات ككرة متواصلة بينهما دون توقف وكلٌ منهما يبعد عن نفسه تهمة مسؤولية اللون، فقاطعتهم "براء" صائحة بوجه متبرم منزعج وهي تجلس جوار "تيا" التي لم تستطع وقتها كتم ضحكتها على طريقتهم وهيئتهم مع تعليق "براء" فصدحت



ضحكتها بشدة ونظرت لـ"ضيا" بتلقائية لتجده يواري نظرته تجاه أخرى لخاطر صكّ صداقة!

تلقت الطعنة بصمت فخفتت ضحكتها تدريجيًا وحل محلها ابتسامة شرود حزين. ورغم وغزة قلب تجاهلتها وهي تداريها عن الأعين، صرحت دون انتباه بمعلومة لم يخبرها بها مباشرةً، لكنها علمتها وتشربتها روحها، وحفظها عقلها، واستأنس بها نبض قلبها كما غيرها الكثير عندما انزلق بها لسانه قبلاً:

-ضيا بيحب اللون الأخضر.

زوى "ضياء" ما بين حاجبيه مستغربًا مع ابتسامة صغيرة وتعلقت أنظاره بعينيها متسائلاً مصدرها لهذه المعلومة الخارجة منها بشكل تلقائي، فهو لا يتذكر أنه أخبرهم بهذا صراحة من قبل أو تحدثوا عن هذا من الأساس!

لكن ولما لا؟!



أليست "تيا" هي سيدة التفاصيل الصغيرة، تفاصيله إن أردنا الدقة!

قاطع وصال عينيهم صوت "براء" تضيف:

-الأخضر لون جميل.. في الخس، في الجرجير، في الملوخية يا ستي..

قطعت استرسالها ونظرت لـ"ضياء" بنظرة زاجرة خطيرة وهي تستطرد:

-مش في أوض الشقة.

أشار تجاه مصطفى يبيعه في أقرب محطة وهو يخلي مسؤوليته بعيون بريئة، لم ينتبه للمعة السعادة التي سطعت فيها مع ضحكة خافتة من طبعه حين المزاح:

-هو قال لي إنها أوضة أطفال.

-وإيه علاقة أوضة الأطفال بالأخضر بردو؟!..



فين الرابط معلش مش فاهمة؟!

-اللون الأخضر بيحسن النفسية، والأطفال محتاجين ألوان تحسن نفسيتهم.

-أنت بتفتي يا ضياء!

-لا والله صدقيني مش بفتي، أنا متأكد من اللي بقوله لك.. الأخضر مفيد لنفسية الأطفال.

استنكرت كلماته بوجهها ثم نفضت رأسها وهي تبسط كفيها أمامهما تلقنه كلماتها آمرة كطفل صغير:

-بقول لك إيه يا ضياء معلش.. ممكن تخليك أنت في الميكانيكا وتسيب لي أنا الديكور.

هز كتفية وغمغم متصنعًا عدم الاهتمام، وأصر ببسالة على عدم إظهار تأثره المبتهج بمشاركتها أي حوار:



-أنت الخسرانة.

-معلش يا ضيا، ماحدش منهم مقدر مواهبك يا أخويا.. بس أنا مقدر.

أضافها "مصطفى" ضاحكًا دون أن ينظر لهم وهو مستمر في عمله على الحاسوب فرفعت "براء" حاجبها اعتراضًا:

-خسرانة ومواهبه!!

ثم أضافت ببعض المكر تُشهِد عليه من يشهد له قلبها بالحب، وعيونها بالوله، وكلماتها بالدوران في فلكه:

-طب بالله عليك يا تيا.. أنت ترضي اللون ده يتعمل في شقتك!

كادت تجيب أن نعم تقبل بكل رحابة صدر إن كان اقتراحه لبيتٍ يخصهما، ليس فقط لترضيه بل وستسقط في عشقها راضية أيضًا!



لكنها آثرت الصدق طالما الأحلام أبت أن تهبط من علياء خيالها إلى ألم واقعها فأجابت:

-بصراحة لا.

صفقت براء بيديها انتصارًا ثم أشارت للرجلين شامتة ببعض الخبث:

-شوفتوا! تيا اللي هي تيا قالت لا.

زحفت ابتسامة على شفتي "ضيا" وهو يضيق عينيه وينظر لها بلومٍ يعلن به صدمته وخيبة أمله:

-ندلة.. ماكنش عشم خمس سنين عشرة وأدوات بتتنسي كل شوية وادبس أنا في مشاركتهم.

-الله! أكذب يعني؟!

-لا ازاي عيب، خلاص يا مصطفى اعملها..



قال جملته الأولى متهكمًا مازحًا، وكاد أن يتمم الثانية باقتراح لون الفيروز الذي تعشقه هي وعلمه هو من أبيها عندما تحدثا ذات مرة، لكن مقاطعة "براء" أبت أن يرد لها صاع توتر اهتمامها بلكمة تركيزه:

-لالالا.. أنت ماتقولش اقتراحات تاني، أنت ممنوع من أي إبداء رأي في أي شيء يخص بيتنا.

ثم اتجهت ناحية "تيا" وألقت كلماتها التالية صريحة دون محاولة مواراة:

-تيا اوعي لما تتجوزوا تعتمدي عليه في اختيار أي حاجة، اوعي.

تجهم وجه ثلاثتهم بمفاجأة، وغرق وجه "تيا" في احمرار متوتر وقلبها في ألم حزين، بينما "ضياء" حمحم بعسر وأعاد نظارته لموضعها وأكمل ما كان يفعله قبل دخولها بصمت يداري به أمواج وعواصف داخله، ببنما اقترب "مصطفى" منها وهو يجلس



قبالتها ليحجب وجهها عنهما ليخفف إحراج المعنين بالزواج، وسألها بصوت خافت هامس ووجه مصدوم بينما عيناه تودان الصراخ بالضحك على هذه الزاوية المحرجة التي حشرتهم فيها حبيبته المجنونة:

-أنت بتقولي إيه؟!

-بس خلينا نخلص دول بيستهبلوا.

رددت عليه الهمس بآخر وعيناها تشاركان شفتاها الضحكة بالفعل؛ فهي لا تستسغ إنكار الأحباء لنبضاتهم.

لا تستسغ بُعد القلوب ولا تستسيغ ضياع دقيقة من دون تصريح واضح بالحب، ومن ثم الغرق في نعيمه!

لا تستسغ المواراة ولا الحلول الوسطى في العشق!

وليتها استساغت قليلاً!



**

عطاء الحب دون أخذ احتضار!

بث الشوق دون تجرعِ الهيام في المقابل قاتل!

كشوكة في خصر عشقٍ سقيم، كلما تحرك إنشًا سرت داخله رعدة ألم لا تطاق، وعند التوقف يئنّ الجسد بحسرة عشقٍ مكبلة تطلعات أشواقه!

ورغم هذا العذاب المضني المتواصل لا أقوى على نزعِ تلك الشوكة مني والعيش حر دون ألامها!

ألم تكن شيمة العشق الركض جراء اشتعاله!

الجنون والتحليق هما نبضتاه ودونهما يخر قتيلاً!

حمى تضرب القلب، تلهب حرارته حد الغليان فتحرم نبضاته استقرارها المعتاد!



أما الحب من طرف واحد حارق حد الاشتعال.. بارد حد التجمد.. مُشتت حد الانشطار.

يُذبل الفؤاد والروح!

كوردة سُقيت بإخلاص وضنت بنثر شذى عبيرها في المقابل؛ فانهار بستان العشق بعدما ذبلت وروده!

سقطتْ أوراقه إثر رياح إصرارها على حرماني من الفوز بقلبها. سقطتْ بعد يقين أن صلابة الماضي لن تجابهها هزل حاضرنا. همد جسد العشق بعدما أصابته حمى برود المعشوقة، وسقط على أطلال جنان لم تُعمر سوى في الخيال والآمال!

كما همد جسدي بعدما بقى وحيدًا فريسة صقيع طقسٍ نهشه؛ مستغلاً سكوني بعد صدمة وجوب البتر!



ضربتني الحمى فرقدتُ طريح الفراش لأكثر من أسبوع يقتات على جسدي المرض وعلى قلبي الألم؛ فغبتُ في عالم آخر من هلاوس وذكريات كثيرة.. أغيب مع ضحكاتها وأتوهم أنها تهديها لي.. حتى يبزغ من العدم وجه آخر فتصفعني الحقيقة!

أتذكر إشراقها في الماضي وأبني عليه جنان من الحب، ثم تسقط فوق رأسي دافنة نبضات العشق أسفل ركام صمت ملامحها وانطفاء بسمتها الدائمين!

فتحتُ عيني أخيرًا بعدما اكتفيتُ من اختناقي بهلاوسي، فوجدتُ الهدوء والصمت يحيطون بي وأنا ساكن على الفراش والكثير من الأغطية الدافئة تحاصرني.

حاولتُ الاعتدال والقيام بصعوبة فشعرتُ بثقل رأسي يدفعني للنوم والغياب في عالم الضباب من جديد، لكني عُدتُ أتذكر جحيم حلمي الملازم في المنام، فقررتُ مواجهته في الصحو تلك



المرة والاكتفاء من أصفاده التي تكبلني في المنام قبل الصحو.

نزلتُ بقدميّ على الأرض بصعوبة، متحاملاً على همدان جسدي وقمتُ أخرج من الغرفة وذهبتُ لأخذ حمامٍ دافئ طويل ثم تدثرتُ جيدًا بثيابٍ ثقيلة وذهبتُ إلى الشرفة أجلس فيها؛ أستنشق بعض الهواء المنعش علّه يساعدني على الإقدام أخيرًا على خطوة النهاية!

شردتُ قليلاً أتذكر لقائنا الماضي واستبسالها في الدفاع عن ماضٍ هو السكين الثابت في منتصف قلب أُبتُلى بعشقها، وكيف لها أن تتبدل في لحظة بفضله وأنا من قضيتُ سنوات ولم أنل منها اهتزازة واحدة من تلال ثباتها!

كيف لوجهها أن يتحول من الاعتذار للاتهام!

كيف لصوتها أن ينقلب من الهمس إلى الصراخ!

كيف لعينيها أن تتحولا من الموت إلى الاشتعال!



كيف لجسدها المستكين أن ينتفض غاضبًا!

فقط عندما يذكر اسمه!

"مصطفى"!

صديق الأمس، ومشعل جحيم اليوم الذي صرت أبغض سيرته، وأبغض ذاتي أضعافًا، ولا أرى فيّ سوى شخص خائنًا قذرًا لهذا!

لكن لما وحدي من يشعر بهذا الشعور البغيض؟!

أنا لم أتقدم خطوة حتى ابتعد هو أميال وأميال، فلما لا يبتعد محترمًا إياي كما كنت منذ سنون؟!

لما لا يحترم حرمتي وينأى من قلبها اليوم، كما احترمت حرمته وأبعدتُ روحي المحترقة عنهما ذات أمس؟!

لما لا تغادر روحه من روحها كما اختفى وجوده من محيطها؟!



قاطع اشتعال أفكاري صوت أمي تصرخ مؤنبة وهي تتحس حرارة جبيني:

-ضيا أنت إيه اللي قومك من سريرك وأنت تعبان؟

أمسكتُ بكفها أقبله مطمئنًا إياها:

-ولا تعبان ولا حاجة، أنا بقيت زي الفل اهو.

-لا تعبان.. أنت لسه دافي.. وكمان إيه اللي قعدك في الهوا؟.. كدة هتبرد وتعيَّ أكتر.

-متخافيش عليَّ أنا بقيت كويس صدقيني، أنا بس محتاج أشم هوا؛ اتخنقت.

جلستْ بجواري واحتضنتْ وجنتي بكفها وأطالتْ النظر إلى عيني بتلك النظرة التي امتزج داخلها الألم بالشفقة اليائسة وبعض



البغض، فأمسكتُ يدها وأنا أقبلها مبتسمًا محاولً طمأنتها.. على ماذا؟!

صحتي العليلة، أم قلبي الملتاع، أم روحي المغتالة!

لا أعرف ولا يهم.. فقط كل ما يهمني تلك السكينة التي تشربتها من نظرتها فحسب. وكأنها تهدهد روحي بتلك النظرة المتفهمة المحتوية لكافة أوجاعي وحيرتي دون الحاجة لطعني بكلماتٍ مهمومة ألفظها أنا، أو كلماتٍ جارحة تُطلقها هي كما الجميع!

قاطع جلستنا دخول أبي وصوته المعلق ممازحًا:

-يا عيني يا عيني.. دي راحت عليَّ بقى.

-دا أنت الخير والبركة.. شوف ابنك بقى: خارج يقعد في الهوا دلوقتي وهو لسه تعبان.. بقى ينفع كدة!

-لا طبعًا ما ينفعش، ده بيستهبل.



-إيه يا أبو حميد، ما تخليك محضر خير دا أنا قاعد في البلكونة يعني مش ع البحر!

-أنت بتهزر!

قالتها أمي مؤنبة بنظرة زاجرة، فرد أبي ضاحكًا وهو يضرب كفًا على كف ثم لوح للخارج غامزًا بدوره:

-طب والله معاه حق، بعدين بدل ما أنت عمالة تفرهدي فيه كدا، قومي اعملي له حاجة دافية يشربها.

-هعمل لك ينسون يدفيك، ولا اعمل لك سحلب؟

بصوتٍ أكسبته شقاوة وأنا أشير لها بيدي غامزًا في محاولة لبث المرح وعدم إثارة قلقها أكثر:

-واحد سحلب بالمكسرات، وفي المج الكبير.



أشارتْ تباعًا لعينيها، ثم نظرتْ لأبي نظرة خاصة وهي تعلن له شروعها في صنع قهوته المفضلة دون الحاجة للطلب ثم غادرت، وجلس أبي بجانبي يطمئن على حالي الآن فأجبته ببضع كلمات مطمئنة؛ فربت على كتفي ثم اكتنفنا الصمت لحظات، غصتُ أنا داخل أفكاري، وغاص هو في محاولة فك شفرة ملامحي..

-على فكرة براء كل يوم بتتصل أكتر من مرة تطمن عليك، وجت هي وأخوها مرتين.. بس أنت كنت في دنيا تانية ماحستش بيها.

قالها بصوتٍ متمهل وعينين مراقبتين؛ وكأنه يتحسس خطواته على أرض متروسة بالألغام وقدرها المحتم الانفجار في أي لحظة!

أمأتُ برأسي دون رد ولم تزد كلماته في صدري سوى اشتعالاً وسؤلاً وحيد يعوي داخل رأسي.. مَن منا حقًا الذي لم يشعر بالآخر؟!

-هتعمل إيه؟!



من جديد صدح صوته المتمهل مبعثرًا كل أفكاري، ليبعث لي بأخرى غيرها.. ماذا سأفعل؟!

وهل بقى لي خيارات أخرى!

ألم أكتفي بعد من هذا الخذلان الذي وقعتُ في بئره دون قرار!

ألم تكتفي رجولتي من المهانة، ويكتفي قلبي من الألم!

أبقى لي سوى ضربهم برصاصة رحمة تنهي الأمر، وكفاهم خسائر!

لكن.. لما هذه الصيغة تحديدًا وأنا لم أحكي شيء عن تفاصيل لقائي الأخير مع "براء"؟!

ولكن ومع ذلك لم أُفاجأ بصيغة سؤاله وكأنه يعلم تفاصيل لقائنا الأخير كاملة.. وهل بقى من لم يتعرف على أحجية حكايتي الناقصة مع "براء" لتخفى على والداي!

لكن.. أتراها هي فعلت؟!



أبعدتُ تلك الأفكار التي تنهش رأسي وتقاسمتُ تنهيدته السابقة وأنا أرد عليه بذات الطريقة المبهمة:

-أنت تفتكر هعمل إيه؟

هز رأسه نافيًا شيء ما، ثم أقر:

-سكوتك مش مريحني.

-ولا مريحني.

ألقاها لساني تباعًا دون وعي مني وكأنه أبى إلا أن يقول قبسًا من الحقيقة!

تنهد تنهيدة طويلة ثم ألقى بآخر جملة أتحمل سماعها الآن:

-أنا حذرتك من الأول.

-عارف يا بابا ومش حمل أي تأنيب.



-سيبني أكمل كلامي.. أنا حذرتك من الأول وقولت لك الطريق مش سهل وهتتعب.. قولت لي عارف ومستعد. قولت لك مش هتحبك وتنساه بين يوم وليلة.. قولت لي ماعنديش أطول من الوقت. كنت واثق، ومُصِر.. إيه اللي جد لاستسلامك ده؟!

بقيتُ صامتًا للحظات أسترجع ذات الشخص الذي يتحدث عنه متذكرًا سذاجته، وكم وددت لو ضحكت ملء فمي عليه!..

لكن كل ما بدا عليَّ هو سكون ملامحي وهدوء نبرتي التي لا أعلم من أين أتيتُ بها:

-مش أنت اللي علمتني لما أفشل ما كبرش واعترف!

-بس أنت مافشلتش يا ضياء.

-أنا عمري ما فشلت في حاجة في حياتي قد ما فشلت معاها.



قلتها بابتسامة واثقة أُخفي بها درع حلمي المكسور وسيف عشقي الضائع، فكرر أبي مستطردًا:

-أنت مافشلتش يا ضياء. براء اتعلقت بيك، خايفة تزهق أو تتعب فتسيبها بعد ما بقيت مهم عندها.

ضحكة خافتة صدرتْ مني وأنا أكرر ورائه بتهكم مرير:

-مهم عندها!.. أنت بجد مصدق اللي بتقوله يا بابا؟!

أكتنفه الصمت لحظات وظلتْ عيناه مسلطة على عيني دون أن تحيد للحظة، وكأنه يحاول الوصول لمدى صدق عدم تصديقي لكلماته، ثم تمتم في النهاية:

-لو مش شايف ده يبقى مابتشفش.

-ماحدش شايف اللي جوا براء قدي، براء ماعندهاش استعداد واحد في الألف إنها تعيش برا الماضي اللي كان ملكه.



قولتها له بشيء من عنف؛ مستنكر كلماته المدافعة عن وهم يريد استمرار تشبثي اليائس به، فأكمل هو بتقريرٍ لائم وكأنه يفند الحقيقة المجردة غير عابئ بأعاصير دواخلي:

-أنت مستعجل.. فاكر اللي هي جَنته في عمرها كله أنت هتنسيه لها في سنة ولا أتنين؟!

انتفصتُ غاضبًا متحسرًا على عمري الذي يسترسل من بين يدي سُدى، وعلى عشقٍ معجون بالذنب لا أنال منه سوى الطعنات:

-لا مش سنة ولا اتنين.. أنا بقالي خمس سنين بدور في دوامتها، بلف في ملكوتها يمكن تحن وتنتبه لي.. أنا موقف حياتي عليها من يوم ما بقت حرة وهي ولا هنا!

صمتُ أتذكر ما فات من عمر.. أتذكر بعد الاستفاقة من فاجعة موت صديق كان الأقرب والأغلى على مدار خمس سنوات، وبعدما أنار شعاع الأمل الأناني الخبيث واسترسل يحيط داخلي



بخفة وبطء.. بعدما بدأتْ روحي بالوسوسة وقلبي بتزيّن شجرة عشقها المحرم، ثم استسلامي لهما وأنا أحاوطها باقتراب دون محاصرة لمحاولة نيل الهبة الذي ساقها لي القدر.. إصراري على مساعدتها بعد رسوبها في سنتها الثانية في الكلية والأولى في تخصصها بعد رفضها دخول الامتحانات حدادًا على الحبيب الراحل، كصديقٍ قديم حتى تتمم دراستها وتتخرج.. وفكرة ساذجة وسوس لي قلبي بها ببناء ذكريات هادئة تخصني معها وحدنا في ذات المكان الذي سُلب عشقي فيه!

وبعد أربع سنوات وعند تخرجها قررتُ الإقدام على خطوةٍ أوسع وأكثر صعوبة.. تبتعد ولا أبتعد ولكني لا أضغط في المقابل.

تثور فأهادن..

تتحير فأحاصر..

ترفض فأناضل..



حتى قبلت أخيرًا فارتج قلبي سعادةً وهو يستعد لاقتحام محرابها أكثر. ولكن ما لم أحسب له حسابًا أن هذا المحراب صار حطامًا بعدما هربتْ روحها التي أعشق نحو سماء سكنتها روحه، أو ربما دُفنتْ في الأرض مع بقايا ذكراه!

ورجوعي خاوي الوفاض بعد كل هذا الوقت، أتأمل فراغ ما جنته يدي وغنائم شحيحة لم ترقَ حتى للفتات!

ألا يكفي كل ما فعلته في السنوات الست الفائتة!!

-مش كفاية كل ده؟!

قولتها بصوتٍ مسموع أحدث أبي أو أحدث نفسي لا أدري، وكأني كنت أسرد على مسامعه أفكاري!

-لو كنت فاكر إنه كفاية عشان تبتي حب بنفس قوة حبك يبقى كنت بتضحك على نفسك.



تجاهلتُ لفظة "قوة" أنكرها، وركزتُ على كلمة "عشق" أهزء منها بحسرة:

-معاك حق.. أنا فعلاً كنت بضحك على نفسي وطمعت في حاجة عمرها ما كانت لي.

قولتها بثباتٍ منهيًا الموضوع، رافضًا أي كلمة تشعل أي أمل بائس داخلي من جديد، فسمعتُ زفرة أبي الهادئة قبل أن يعتدل في جلسته ليواجه الشرفة مثلي، واكتفينا بالصمت ثوانٍ قليلة ثم قطعه صوته من جديد بسؤال:

-براء بالنسبة لك إيه يا ضياء؟!

سؤالٍ مؤلم بقيتُ أفكر حائرًا في جوابه بين صراخ قلبي كونها كل شيء، وعقلي الذي يناضل كي يقنعه وإياي أنها لا شيء!



-عارف لوح الإزاز الكبير اللي محاوط بيت مرمي في نص الصحرا في عز الثلج!.. لوح إزاز ماقدرش اعيش وهو مش موجود بيحميني من برد غيابها اللي بيضرب روحي، وفي نفس الوقت مقدرش اعيش حياتي كلها معاها من غير ماحس إني.. وحيد، ميت. كدا ميت مخنوق من الوحدة، وكدا ميت غرقان في وجع بعدها!

خرجتٍ مني زفرة طويلة وأنا أميل بجزعي للأمام محاوط رأسي بكفي مستكملاً:

-براء حلم اتحول لكابوس أنا مش قادر اصحى منه، بس أكتر من كدا هموت وأنا نايم ماسك فيه.. أعمل إيه؟!

هززتُ رأسي حائرًا وأكملت بصوتٍ بدأت شحنات الغضب والألم في الظهور فيه أخيرًا:

-أنا غلطت في إيه؟!.. غلطت إني حبيتها!.. أنا ماحولتش أقرب منها غير لما هو بعد.. وبعد للأبد. ماحولتش ولا فكرت للحظة حتى



أخرب عليهم حياتهم، واتمنيت لهم السعادة وأنا قلبي بيتقطع. ليه لما بقت سعادتي مشروعة القدر بردو مستخسرها فيَّ؟!.. ليه هي مستخسرة قلبها فيَّ؟!.. هو أحسن مني في إيه؟!.. هو أصلا ماحبهاش قدي، ماحدش حبها قدي.

قمتُ من جلستي أقف أمام السور وأستند عليه، سامحًا للهواء البارد بغزو صدري الملتهب، ثم أعلنت هزيمتي بصوتٍ خفيض:

-أنا تعبت. أنا استاهل ارتاح وأعيش مع واحدة بتحبني أنا، مش واحدة عالمها كله محصور في غيري حتى لو ميت. استاهل واحدة لما تبقى معايا ابقى متأكد إنها بتفكر فيَّ أنا وبس، مش ابقى متأكد إنها عايشة جواها مع حد غيري.

-وأنت استخسرت قلبك في اللي بتحبك ليه؟

رماها أبي بصوتٍ هادئ فتلفتُ له متفاجئًا مقطبًا جبيني وعقلي يرفض تحليل كلماته:



-قصدك إيه؟!

-أنت فاهم قصدي كويس.. ويا ترى لما تتجوز واحدة أنت متأكد إنها مش بتفكر غير فيك أنت وبس هتعمل زيها أنت كمان وكل تفكيرك هيبقى معاها هي وبس؟!

صعقني سؤاله وأثقل قلبي بالمفاجأة والذنب فوق الألم، وأتت كلماته التالية بلا تردد لتتمم اشتعالي باليأس:

-بص يا بني آخر حاجة هقولها لك عشان أخلص ضميري قدام ربنا.. لو فاكر إنك هتعرف تعدي من غير خساير تبقى بتوهم نفسك. أنت ابتليت بقلبك وهتتوجع هتتوجع.. فحاول تختار الوجع الأقل، وحاول تختار إنك ماتوجعش حد عشان بس تحس براحة لحظية.. صدقني هتندم.

قال كلماته الأخيرة وهو يتحرك نحوي يستند على السور أمامنا، شارد العينين والخاطر؛ فأتت واثقة قاطعة وكأنها محملة بيقينٍ



من شاهد هذا العرض البائس من قبل، بل وكان له فيه دور البطولة!

أنا أعرف حكاية أبي الذي كان يعشق ابنه خاله قبل زواجه من أمي ولكن دون تفاصيل!

نعم لم أشعر بقسوة هذا الحاجز بينهما من قبل ولكن طالما وجدت فيهما هذا العطاء غير المتكافئ.. طالما كانت أمي المانحة ببزخ العاطفة وأبي المراعي بود العقل البارد!

لن أكون جاحدًا وأصف حياتهم بالفشل، ولكنها أيضًا ليست بناجحة ولا تشبه أو تقترب إنشًا مما أطمح له وأتمناه. فطالما تمنيت أن أمنح بنسيم الحب، لأبادل بمطر الحب.

طالما تمنيت أن أعزف أنغام الوله على أوتار حبيبتي، لتتراقص بجنون العشق على أراضي قلبي وتهدي دقاته خبال الغرام.



طالما حلمت أن أجني ثمار عواصف العشق بسيل الهيام.

لكن ترى هل هذا ما تطمح له "براء"؟!

أم فقط لا تأمل سوى بعلاقة منح من طرف واحد مكتفية هي فيها بود العقل البارد!

-كمان حط في حسابك إن فرحكم قرب، وبنات الناس مش لعبة عشان نسيبهم قبل الفرح بأسبوعين تلاتة.

انتشلتني كلماته مرة أخرى لتصفعني مرة أخرى وتدير رأسي إلى زاوية أخرى للحكاية لم أحسب لها حساب أو تزور تفكيري الجامح في سماء عشقٍ تقف له البشر على الأرض بالمرصاد!

-لكن بردو أنت وطاقة تحملك، عشان ماترجعش بعد سنة ولا اتنين وتندم وتقول تعبت.



قالها مهادنة، مساندة، متفهمة ومحذرة، وكأنه قرأ الاختناق فحاول إرخاء الحبل الذي لففته بنفسي على عنقي وما كانت كلماته سوى اليد التي تشدها بقسوة!

دقيقة صمت وأخرى أعلنت بعدهم بمنتهى الصدق:

-أنا طاقتي خلصت.

ربتْ على كتفي بشيء من تفهم ومؤازرة.. فغمغمتُ هامسًا بقراري علّه يثنيني لآخر مرة لعلني استسلم من جديد، لكنه لم يفعل:

-أنا هروح لها بليل.

ظللنا الصمت لحظاتٍ ثم صدح رنين هاتفه فأخرجه من جيبه وأخبرني بما كنت أتمناه وأخشاه:

-دي براء.. أكيد متصلة تطمن عليك زي كل يوم.



فتح الاتصال وتبادل معها بضع كلمات ثم طمأنها عن صحتي التي بدأتُ في استردادها، ثم صمت قليلاً قبل أن يخبرها بزيارتي في المساء، وسمعت طلبها بمحادثتي فرفع عينيه لي يسأل الجواب فهززتُ رأسي رافضًا وذهبتُ لغرفتي أستعد لطوي صفحة الألم ودفنها في أعماق الجحيم حيث قلبي!

**

قالوا كثيرًا أن وقوع البلاء أهون من انتظاره.. كذبوا.

فالخوف وانتظار الألم لا يقارن أبدًا مع وقوعه أمام ناظريك!

ليت الأمر يتوقف عند هذيان الخوف دون أن يتجسد في الحقيقة بالفعل.. ليت أشباح الأفكار السوداء ظلت أشباحًا ولم تتحول لشياطين تتراقص على طبول الهلع لنبضات خافقٍ مرتعد!



فمنذ آخر لقاء بيننا أو آخر مواجهة -للدقة- لم أتبادل معه كلمة، ولكني علمتُ أنها النهاية. لن يسامحني أبدًا على كلماتٍ خرجت بلسان صدقي يلقاها هو رصاصات في جسد آماله الهزيلة، وتمزيق رباط بيننا أكثر هزلاً.. ولا يعلم أن هزل هذا الرابط هو عصمتي الوحيدة بمرور الحياة!

تمنيتُ حقًا تجاهل اعتصار خافقي مع جحود كلماته عن الراحل بجسدٍ دون روح، ولكنني لم أستطع لجم جوارحي والتظاهر بالتسامح!

انفجرتُ وأعترف بالخطأ، كما انفجر هو الآخر ولن يعترف به كخطأ!

مر ما يزيد عن أسبوع وهو عليل في الفراش، وقد زادتني علته اعتصار ووخز قلبي ولن أتنصل من الذنب!



نعم أنا السبب وربما كنت كل الذنب كذلك. وجودي في حياته ذنب سيق له بكامل وعيه ولم يقاوم، بل أنا من قاومتُ، وقاومتُ، ثم خضعت.. ليأتي الآن يلملم أذيال الندم الخائب ويأخذ قراره بالرحيل بعد أن داعب رغبتي في الحياة من جديد، وشطر بماعول وجوده تسليمي بالعزلة كحليف لباقي العمر، ورضاي بانتظار ألم الموت وحيدة!

لا. فهذه المرة أيضًا سأقاوم، ولكني لن أخضع.. لن أسمح له بالتسليم فالأمر أصبح لا يخصه وحده. ربما لم أُعطِه ما يأمل به، لكني كذلك لم أستسمحه أن ينفض رمادي كي يحي نيران وحدتي أسفلها لتأكلني من جديد ويرحل!

ظالمة ومظلوم!

لا. لا هو مظلوم ولا أنا بظالمة.. ولا حتى العكس.. نحن فقط سقطنا في متاهة من متاهات الحب، لا أمل في الخروج منها إلا



بالألم، لذا سنتشاطره. لن أتجرعه وحدي ولن يحتسيه بمفرده؛ بل سنتقاسمه كما وعدني قبلاً.

ذهبتُ له مرتين مع أخي، ووجدته ساكنًا بجسدٍ مرتعش وحرارة مرتفعة ولا يدري بما حوله.. فازداد اللوم في عيون أخي، والألم المعذِب في قلبي. أخي الذي كان ينظر لي بتأنيب دائم وكأنه موقن من أن هذا الجفاء لن يخرج سببه عن صندوق الماضي الذي لم أحرقه كما يرجون ويفرضون، بل فقط دفنته بأعماقي، وهذا أقصى استطاعتي. لكنه كذلك لم يتحدث معي بشيء بشكل صريح.. فقط.. نظرات لائمة، نظرات لستُ بحاجة لها وهي داخلي تتنامى وتطعنني بلا هوادة كل يوم مع معرفتي باستمرار مرضه وألمه، وعجزي عن تقديم الشفاء والراحة له.

واليوم مع اتصالي اليومي لحماي العزيز في ذات التوقيت؛ أتخطى مهاتفة حماتي -التي لا تستسيغني على الإطلاق- للاطمئنان عليه



ثم الدعاء بشفائه، وأُكملها سرًا بأمنية سماع صوته اللائم وهو يداعب أذناي!

لكن هذه المرة كانت مختلفة، فأتت بطعنة الخوف بعد ربتة الراحة!

جسده شفي من صقيع الشتاء، لكن قلبه لم يشفَ بعد من صقيع كلماتي!

أصبح بخير لكن كعادته مؤخرًا يرفض مخاطبتي!

وأخيرًا.. سيزورنا مساءً بعد الذي كان ودون أن يتماثل للشفاء الكامل حتى!

لستُ بلهاء لدرجة أن أتخيل أو أخدع نفسي بأنه اشتاق لي لدرجة إتيانه لي مريضًا غاضبًا، بل هو يخشى تثبيط همته ورجوعه في قراره بعد أخذه أخيرًا بدفعة بلهاء مني!



هو يخشى البعاد، تمامًا كما أخشاه، لكن هل يعلم أنني صدقًا أخشى فراقه حد الهلع؟!

وإن علم هل سيصدق؟!

هل يعلم أن طوال غيبوبته القصيرة كانت دموعي لا تتوقف؟!

هل يرضى هكذا؟!

هل إن أخبرته بذلك لن يرحل؟!

هل سيتفهم ويصفح مثلما كان دائمًا؟!

أملي تلاعب برأسي واستشهد بحنانه المعهود، وقلبي أخبرني أن هذه المرة هي الأخيرة وأننا على أعتاب فراق جديد!

جلستُ بخيبة ودمعاتي لا تتوقف وحسرتي تزداد.

جلستُ أنتظر المساء.. أنتظر الرحيل الجديد.

*



جلستُ أنتظر طلتها الأخيرة وقلبي كذلك ظل في انتظارها بمنتهى الوداعة الملهوفة. أما عقلي فكان صارمًا واقفًا لنا بالمرصاد وهو يحدثني آمرًا بلا أي شفقة أو رأفة بأننا قطعنا نصف الطريق بالحديث صراحةً مع أخيها أن كل شيء قسمة ونصيب، وبقت فقط المواجهة الأخيرة -التي لم يبتلعها هو- ثم سنمزق صفحات هذه الحكاية للأبد!

أطعته مجبرًا ولكن كانت لعيني رأيً آخر.. لمعة أخرى؛ لمعة ملهوفة باختناق عندما قال لي أخوها أنها تريد الحديث معي لمرة أخيرة!

وافقتُ متألمًا، مستثقلًا رؤيتها ربما للمرة الأولى، وملهوفًا عليها ربما للمرة الأخيرة!

وافقتُ محاربًا صراخ عقلي الرافض؛ فما في القلب يستحق وداعًا لائق.. وداعًا بدأت رمال عداده في التساقط عندما دخلت هي.



دخلت بذات الهيئة التي تركتها عليها من أسبوعٍ مضى؛ دامعة معتذرة!

ألمتني نظرتها وقلبي انتفض فألجمه عقلي وساق ناظري بعيدًا عنها؛ مذكرًا إيانا بكل ما قيل، وما لم يُقَل!

فجنحنا لوداعة الصمت المتألم من جديد.

جلستْ أمامي على أريكة مقابلة وصمتت هي الأخرى وهي تراقبني طويلاً، لكني كنتُ عبدًا مطيعًا لسوط العقل الرحيم وظللتُ مبتعدًا بعيني عن حبيبتها.

-هتسيبني يا ضياء!

كان استنكارًا عاتبًا أكثر منه سؤالاً أو تقريرًا!

نظرتُ لعينيها وقتها ويا ليتني ما نظرت؛ فها هي تلقي عليَّ طلاسم عشقها من جديد من فقط نظرة!



نظرة معها كُبلت بسحرها متسائلاً ومترنحًا للحظة فيما وراء هذا السحر المُسكر.

هل يجتمع في المقل الاعتذار مع العتاب!

كيف لعينيك أن تفعلها يا من تجمع فيك كل الأحباب!

كيف لعتابك أن يُنعِس عقلي بهذا الغياب الخلاب!

ولاعتذارك أن يضرب حلمي بعذاب فوق عذاب!

كيف للحظة مسروقة في سكن مقلتيك أن تمنيني أن أكون حبيسها أبد الدهر موصد ورائي كل الأبواب!

كيف لنظرة امتزج بها سحرك بعشقي أن تكسر من على قلبي كل أصفاد خذلانك، وتجعله للحظة محلقًا فوق السحاب!

كيف لك يا ساحرة أن تخضعيني بلا مقاومة مني ولا حساب!



كيف في كل مرة تدُكي حصوني أقف على أنقاضها أبارك ما حل بها من خراب!

ومتى يشفى كياني من إدمان هذا السراب!

قاطع حديث عيوننا النادر عقلي الذي انتفض من غفوته من جديد مصيحًا بانتهاءه من غفوته لهنا، وأننا اكتفينا.

وحقًا أنا اكتفيت من تلك المتاهة التي أدور بها.

-أنت شايفة في حل تاني لينا؟

قلتها ببعض الجفاء التي حافظتْ عليه نبرتي وملامحي، لكن لعيني كما دائمًا معها؛ لها رأي آخر!

-أنت وعدتني مش هتسيبني!

قالتها خافتة..

-وأنت ما وعدتنيش بحاجة!



وقولتها مقرًا بمرارة احتفظتُ بها داخلي.

-أنت بتلومني؟! أنت..

قاطعتها بإشارة من كفي أوقف ما أعرفه ولا أود سماعه من جديد:

-وافقت. عارف إني وافقت.. بس صدقيني يا براء أنا تعبت.

-وأنت جي تتعب دلوقتي؟!

قالتها هامسة وقد سقطتْ دمعة مؤنبة من محجرها:

-دلوقتي يا ضياء!.. قبل فرحنا بأقل من شهر!

-فرحنا! أنت لسة مصدقة إنه اسمه بجد فرحنا!

-أنتَ عاوز إيه؟!



هبتْ واقفة أمامي وقد انقشع هدوءها الحزين وهي تسأل بصوتٍ معبد بالدموع وعينين طغى فيهما العتاب على الاعتذار؛ فأجبتها هادئً بالرضا الزائف.. فما أريده خارج حدود مدينتها المحتلة:

-أنا مش عاوز حاجة.

-لا عاوز، ما هو مستحيل تكون كرهتني فجأة وبالسرعة دي.

قالتها بتأكيد أصابني ببعض رثاء الذات، وباقي دموعها تحررت من سد أجفانها لتبتلع قلبي أنا بالغرق فيها ومرارة ألمها!

وقفتُ أمامها بدوري سامحًا لعيني بالتحرر أخيرًا والتحليق على ملامحها وعينيها بلهفة، أخبرها بكل صدق الكلمات وإخلاص النظرات:

-أنا عمري ما كرهتك ولا عمري هكرهك، ولا عمري حبيت حد قدك.. ولا حتى عاوز أحب حد بعدك.



-أنت عاوز إيه؟!

تلك المرة قالتها هامسة بعيونٍ مضطربة وأنفاسٍ متهدجة..

وأكملتْ:

-أنا مش هعرف أنسى اللي فات.

قالتها معتذرة بشيء من ألم، فسألتها بمنتهى الضيق:

-والمطلوب مني؟!

تساقطتْ باقي دموعها وهي تُذكِرني بصوتٍ متحشرج ينبئ بدموعٍ حبيبة أخرى على وشك التحرر:

-أنت قولت لي مش هتسيبني!

-بس أنا تعبت.

-أنت قولت مش هتسبني مهما تعبت!



عدلتها بشهقة بكاء خرجت خفيضة ودموعها تنساب وهي تهز رأسها رافضة مغمضة العينين، ولم أصدق أنا ما نطقتْ به!

أتحاكمني بعشقي أم تطالبني بإفاء وعدٍ قطعته في سكرة آمالي؟!

لكنها محقة فأنا من هرعت على الحلم ناسيًا بأن حلمي نارًا لن تحرق سواي!

وكم استفزني أنها محقة بالفعل لذا صرخت بها بكل الغضب الذي يعتمل في صدري:

-أنت أنانية يا براء.. أنانية ومابتفكريش غير في نفسك وبس.

-أنت اللي خلتني كدة.

-معاك حق، وأنا اللي بقولك دلوقتي آسف.. مابقتش متحمل.

-ضياء..



همستها الأخيرة كانت متعبة مغمضة العينين لكنها لم تحرك في غضبي ساكنًا، وأكملتْ وكأنها تعترف بخطيئة لا سبيل للتوبة منها وتخجل التصريح بها مفتوحة العينين:

-ده كان بالنسبة لي عمر.

جملتها الخفيضة كانت لطمة لم تصب القلب بالنزف بل أخرست ضجيج نبضه للحظات!

نعم فهي بالفعل محقه، ولكنها نست شيء هام، أو حرفين مهمين.. هو بالمسبة لها العمر، وهذا فرق جسيم: فتلك الـ"ال" هي جل المشكلة.

هو كل العمر منذ كانت طفلة ورأت صورته البريئة وحتى فهمت معاني الحب وتشربته جميع خلياها، فمن أكون أنا لأسرق منها العمر!



ترجمت خواطري مكلومًا بملامح صامتة، وقلبًا ذبيحًا ينتفض وعقل مؤنب لانجرافنا لهذا الحديث من جديد:

-معاك حق. وأنا آسف إني حاولت اسرقك من عمرك.

-ضياء..

قالتها راجية.

-وآسف إني بأنانيتي فكرت آخد مكان مش مكاني.

وألقيتُّها متأسفة لها وإياي.

-ضياء أرجوك.

همَستها متشبثة العينين والنبرة.

-وآسف أوي إني بحبك.

وقولتها نادمًا بصدق مفتور الفؤاد.

-ضياء..



همَست بها ضائعة بعيونٍ زائغة.

-بحبك أكتر ما أنت حتى بتحبيه.

وهمستُها صادقًا بظلال بسمة عشق.

-ضياء..

همَستها رافضة.

-سلام يا براء، وشكرًا. شكرًا عشان دي كانت أجمل فترة من حياتي رغم كل وجعها.

وقولتها ثابتة؛ قاطعًا كل طرق الرحمة والألم، ثم ذهبتُ أغادر من أمامها لأختلي بقلبي المكلوم في حلمه الأوحد!

حتى سمعتُ صوتها يقاطع خطوات أقدامي نحو مشنقة البعد وهي تهمس بحرقة استفزتني:

-ضياء أنا محتاجة لك.



-وأنا كمان محتاج لنفسي يا براء.

همستُ بذات الحرقة المتعبة، فأوقفتني باقي كلماتها التي كانت كالماء البارد على جسد يشتعل:

-ضياء أنا بحبك.

تسمرتّ مكاني لحظاتٍ غالبًا كانت طوال؛ فلستُ أذكر كم كانت ولستُ أذكر إن كنتُ قد شعرتُ بهم من الأساس!

التفتُ لها بكامل جسدي ببطء غير مستوعب الكلمة.. لأشهد في وجهها صدق الجملة، وفي عينيها حرارة الكلمة، وجاء بعدها صدق النبرة وأطاح بعقلي واعتراضاته الصارخة لعمق الجحيم وهي تكرر:

-بحبك.



وعندها صار قلبي يضرب بعنف غير مستوعب هل تقولها وتعيدها حقًا أم أننا نتوهم!

وهل نتوهم صدقها أم نتوهم سماعها من الأساس!

لكن مهلاً.. "براء" لا تكذب، هي لم تكذب قط.

أو على الأقل "براء" لا تكذب في مشاعرها، وإن حاولت فإنها تفشل بجدارة!

-"بحبك".

قالتها من جديد هامسة تلك المرة!

فأتت همستها الخفيفة كرياح عاتية؛ هدمتْ كل قلاعي الرخوة، ووقف قلبي يهلل مباركًا من جديد هزيمته!

أما العقل، فقد غاب مع خمر الكلمة.. وأخرسته المفاجأة!

*



قولتها وكررتها مرة وأخرى لكيلا يظن بأنه تهيأها، أو يتظاهر بعدم سماعها!

فإن كان مفتاح بقائه في تلك الكلمة سأقولها.

إن كان وجوده مقرونًا فقط باعتراف عشق..

إن كان تعب وتلك الحروف هي مسكن ألمه..

فسأقولها ولا يهمني مدى صدقها أو قوتها، فكل ما يهم الآن وجوده.

كل ما يهم ألا يتحول هو الآخر إلى ذكرى.

كل ما يحتل كياني أن يكون بالجوار.. فقط بالجوار ولا يهم شيء آخر.

كل ما يهم أن تستمر حكايتنا مهما كان ثمن الألم.



فمهما عظم الوجع والألم وافترت علينا نبضات قلبينا وجحود أحلامنا.. لن يكون كألم معايشة حكاية خلقت لتدفن!



انتهى الجزء الأول..

حكاية خلقت لتدفن.

وإلى اللقاء مع الجزء الثاني..

على أنقاض الحكاية.



" مصطفى "

" هي البداية والنهاية، بداية العمر بجانبها ونهايته بجوار أنفاسها وعزف حِبَالَهْا الصوتية لحروف اسمي دون حاجز، ووعد بِعُبق الذكري داخل روحها، وبالنسبة لي گ العسل يُذيبُ مُرّ الليالي دون حضورها جواري"...



" براء"

" تفتحت زهرتي على ملامحه الهادئة، دفء حروفه، حنان كلماته التي تَضُمُني من بعيد، حِمَائِيَتُه المتواجدة على الدوام، حُلمٌ الصبا والشباب والعمر بأكمله إن قُدر لنا البقاء، وطني ومن لي من وطنٍ سواه، صديقي وتوأم روحي وحياة بأكملها بجواره"



"تيا"

"الحب كـ السحر، يأتي في العمر مرة واحدة فقط، ومحظوظٌ هو من ناله كاملاً دون نُقِصان، هو دقة القلب الأولي والأخيرة، حُلمٌ الشباب والكِبْر، ولكنه حُلمٌ يُداعب دواخلنا ولكن لا يحدُث يبقي في القلب كـ علقم لا يزول بمرور الدهر"



" ضياء"

قالوا لي أنني موهوم، خاسر في حرب لا طرف بها غيري، ولكنني تمسكت بها، وإن كانت الحرب لأجلها، فهي فوزٌ مهما بلغت الهزائم، انتصر فقط بكلمة من بين شفاهها گ نغمة كمان تُداعب قلبك وتشعرك بأنك تملك جناحي بِخُفِ فراشة، إنه الحب، وحبي منقوص دونها، وحياتي كذلك أيضا، ولكني اخترت البقاء لعلي أصل لكيانها ذات يوم وأحُصل على كمالي الحب والدفء والسُكِني"

إهداء من المبدعة/

نورهان حازم.



الجزء الثاني

على أنقاض الحكاية.



بعد خمس سنوات.



(1)

البرودة والدفء!

**

آه على سهدِ الليالي..

ليتني ماكنت يومًا عن دياري أُحجبُ.

-رولا شاهين.

-دعني أرى عينيك.



تيا

زهرة الألم المطروحة من بذرة الوَحشة.. ستذبل.

شوكها الطاعن بحدة في خلاياّ.. سيسقط.

قطرات دمائي المخضبة.. ستجف.

سينتهي كل هذا ولن يبقى سوى الأطلال.

ورقة زهرة شاحبة.. شوكة ألم صدئة.. بقعة دماء جافة.. سأجمعهم وأحفظهم وأواريهم في حَيّزٍ بعيدٍ بأعماق قلبي. أبتعد بهم عن صخب نبضاته الحية، عن بريق لون الحركة الرافضة لسكون دقيقة حداد، عن جنون إلزامية الاستمرار رغمًا عن أنف صرخات قلبي. سأتوارى لحظاتٍ هناك حيث غرفة الذكرى.. أقف وأتأملها، وأتأمل ألمها، ثم أقرر الاكتفاء وأغلقها للمرة الأخيرة



وأرمي مفتاحها في عمق محيط العشق الذي لفظني مستغنيًا، مستكثرًا ومستنكرًا إبحاري فيه من قبل.

سأوقِف نبض الألم الملازم للعشق وأستمر. يجب أن أستمر!

هكذا كنتُ أبث نفسي لأقويها وأوئِد أحلامها الساذجة حية في قلبي.. ثم ابتعدت!

للمرة التي لا أدرك عددها ابتعدتُ وبطريقة قاطعة تلك المرة، وكنتُ أنوي ابتعادًا أبديًا!

كنتُ أنوي الاستقرار في أرضٍ غريبة، باردة؛ علّها تنثر بعض من هذا البرود على اشتعال عشقٍ منقوص فينطفئ ولا يبقى منه سوى رماد الذكرى وشبح الألم!

كنتُ وكنتُ وكنتُ.. ولكن هيهات!



فلم أجني من كل ما انتويتُ سوى سنين عمر ضائع في بلاد غريبة، وقفتُ فيها يائسة مستسلمة تحت سحابة وحدتي المقبضة؛ فغمرني جليدها وتغلغل بخلاياي!

لم أحرز غير ألم فراق زائد، واشتياق قاتل، وحنين لأيامٍ دافئة!

لم أظفر سوى بالفشل من جديد للمرة التي توقفتُ عن عدها!

لم تنطفئ جزوة العشق من عمق قلبي كما كنتُ آمل، ومع ذلك كان يئن طلبًا لرشفة دفئ من هذا البرود الذي يحاوطه!

كما كانتْ روحي تهيم بعيدًا وتسترحم العودة لأحضان الذكرى!

ذكرى ليست للحبيب، ولكن للوحيد في الكون الأغلى منه.

تألمتُ وتأملتُ؛ فقررتُ العودة، وحزمتُ أمتعتي وكل ما يتعلق بي وقررتُ الرجوع حيث موطني وموطن آلامي.



أنهيتُ كل ما يتعلق بي في هذه البلدة الباردة، ورتبتُ كل شيء في الوطن لتحضير عودة لن يتبعها غربة أخرى.. بالجسد والروح دون القلب على الأقل، وطلبتُ من مدرائي عدم إخبار أحد بالشركة برجوعي، ولنترك كل شيء وكل ترتيب وترقية وتغيير وكل تلك التفاصيل لحين تمام العودة. والمبرر المتاح أني بحاجة ماسة لأجازة وعزلة بين ربوع الوطن قبل أن أعود للعمل ودنياه من جديد. والسبب الحقيقي.. رغبة في الغرق بين الدفء حتى أستفيق من التجمد الذي حاوطني، ثم التقويم العاجل!

تقويم خلجات الوجه، ولغة الجسد، ونداء العينين. أولئك الذي لا أعرف ولا أضمن ردات فعلهم عند صدمة رؤيته من جديد بعد كل هذه السنوات من البعد الصارم، والاشتياق المسكين، والحسرة الذابحة عندما يُصفع العشق برؤية خاتم زواجه من أخرى وهو يزين بنصره!



لا لن أقوِمِ نبضات القلب فقد يئست منها منذ زمن، فقط يكفي تقويم الأفعال لأجل خاطر كرامة وكبرياء!

فلأتحكم بما أقدر عليه، ولأترك ما لا أقدر بين أصابع القدر تتحكم فيه كما يشاء. ورغم التوتر، والحيرة، والخوف، وكذلك الألم المحتم.. ها أنا ذا أخيرًا أربط حزام الأمان استعدادًا لإقلاع الطائرة من برد برلين إلى دفئ القاهرة.

أرجعتُ رأسي للخلف وأنا أسترح على ظهر المقعد، وأغلقتُ عيني بعدما استطاعت زفرة توتر أن تتحرر من بين الكثير من الانفعالات التي أحاول كبتها بصرامة مؤقتة حتى العودة إلى البيت في الوطن وليتحرر وقتها ما يشاء حتى ولو كان الصراخ!

وفي اللحظة الأخيرة قفز شيطان الخوف يوسوس بسؤال: هل أنت واثقة من قرار العودة لموطن الألم دون أمل؟!



هل حقًا رؤيته من جديد حتى وإن كانت مصادفة إثر تجنب ستحاولينه هو القرار الصحيح؟!

خرجتْ زفرة ألم متوتر من جديد، وقد بدأتْ الدموع في التجمهر في مقلتاي طالبة لحرية السقوط فاستسلمتُ لقوة حشدهم وتحرروا تباعًا، ثم حاربتُ الوساوس بيقين التفكير الشهور الفائتة.. نعم أنا واثقة، وأجل بالتأكيد هذا القرار هو الصحيح.

فكرتُ، واستخرتُ، وقررتُ.. كفاني غربة.

فيبدو أنه كتب عليَّ الخوض الدائم في حرب خاسرة..

فلأخوضها وأنا أتمتع ببعض الدفء إذًا.



والحلم الصامت في قلبي ببدو مهمومًا كالأيام..

يطارده يأسٌ وأنين..

حلمي يترنح في الأعماق بلا هدفًا..

واللحن حزين.

-وحدي أنتظر خلف الباب.

-فاروق جويدة.



براء

ما من أبخل من القدر.. وما من أكرم منه!

ما من أقسى من الزمن.. وما من أرحم منه!

وما من مغفل غير الذي يأمن للدنيا، وما من أحمق غير الذي ينأى عن عيشها!

فأنا من بخل عليها القدر بالعشق، وأجاد عليها بالونس..

من قسى الزمن عليها بالموت، ثم رحمها ببعض الحياة..

وقد كنتُ المغفلة في الدنيا التي آمنَت وأدمنَت، ولكن لم أستطع الاندماج بدور الحمق كثيرًا؛ فقررتُ من جديد عيشها؛ ولكن بقلبٍ دائم التوجس والتأهب للغدر.

هذا ما توصلتُ له وأدركته فعشتُ به حياتي منذ سنوات..



أو هذا ما توصلتُ له وعشتُ به الباقي من حياتي تحديدًا منذ أن مات هو!

فقط هو دون ذكر أسماء لأجل خاطر عاشق، وزوج، وونيس.. لأجل خاطر كرامة واحترام ذات وخوف واحترام لله. هذا ما أملتني إياه أمي كثيرًا قبل الزواج وأمّنت ورائها موافقة؛ فصدقًا لم أكن أنوي العكس، ولكن فقط كنتُ أجهل الكيفية وعانيتُ حتى وصلت.. فمرنتُ الحديث، وألجمتُ الخيال، وأسكنتُ الحسرة والأماني.. وارتميتُ في بحر الدنيا.

ولكن ليت العمر، والذكريات، والعشق مثل الأسماء تختفي وتنزوي عند النأي عن ذكرها!..

هي فقط تتأقلم وتعتاد على ألم الفقد، تتكيف منزوية في بريق العوض محترمة ومستسلمة لقوانين الحياة.. فهبة الله لخلقه عند الخروج من جنته كانت التأقلم والتكيف لمساعدتهم على الحياة.



والهبة الأرحم عند مصيبة الأرض الأولى كانت الرضا، والاستمرار، واستغلال العطايا.. عطاياه التي أحارب في حربٍ أحادية مع ذاتي لألا أجحفه حقه، ففعلتُ بامتنان كل ما تفعله الزوجة بحب.. بحجم طاقتي وقدرتي!

استيقظتُ في الصباح قبل معاد صحوه وأديتُ فروضي ثم وقفتُ في المطبخ أعد الإفطار بانسجام تام وأنا أستمع لأغنيتي المفضلة وأدندن معها بهمسٍ خفيض؛ فلم انتبه لخطواته حتى حاوطني بذراعيه وطبع قبلة طويلة متأنية على جانب فكي فخلعتُ سماعتي الأذن لأنتبه له، ثم استند بذقنه على كتفي دون أن يتحدث بحرفٍ كما المعتاد كل صباح، فأشرقتْ بسمة صادقة هادئة على شفتي:

-صباح الخير.

-صباح النور.. بتعملي إيه؟!



-بلعب شطرنج.

دنت منه ضحكة مخطوفة هي طابع مميز لضحكته كما لاحظت مؤخرًا، وتساءل بمشاغبة وصوته لم يتخلص من أثر النوم بعد فأكسبه دفئ مضاعف:

-إيه الخفة دي!

-مش أنت اللي بتسأل أسئلة ما تتسئلش!.. بعمل الفطار.

-اهو هو ده بقى السؤال.. بتعملي فطار إيه؟

-خلصت الفول والطعمية، والبطاطس بتتقلي، وبخلص الأومليت بالخضار اللي طلبته اهو.

-تسلم أيدك.

أشرتُ تجاه طبق الخضروات وأنا أعطيه السكين دون أن أحيد بنظرتي عن مقلاة البيض:



-اعمل السلطة بقى.

-سلطة إيه ما بعملش سلطات أنا.

قالها بنزق ممازح فنظرتُ له بتهديد وهمست بخطورة:

-طب اعمل السلطة بقى.

أخذ السكين راسمًا على وجهه القلق والامتعاض مغمغمًا:

-ربنا ع المفتري.

-بتقول حاجة!

-بقول هتعملي إيه في يومك النهاردة؟

قالها ببراءة مدعاه فابتسمتُ بدوري وأنا أخبره بتفاصيل اليوم:

-هخلص شوية حجات في البيت واعدي على ماما وهنطلع كام مشوار، وبعدين هطلع على الحضانة عشان في شوية مشاكل مع الولاد ومحتاجيني.



أنهى تقطيع ثمرتين بالعدد وترك الباقي ثم استند بجزعه ومرفقه على حافة المطبخ يستمع لخطة يومي بتركيز مهتم وهو يأخذ ثمرة خيار قضم نصفها بتكاسل، ثم لاكها ببطء عند سماع الشطر الثاني من جملتي وقد تحولتْ نظرته من الاهتمام المستمع إلى الاتهام المبطن والغضب الدفين محاطين بالخذلان بسرعة وتلقائية مبهرة أصبح كيانه يجيدها بلا جهد أو تمثيل.

أعلم تلك النظرة وأمقتها.. ولكن كما لا يحق له التعبير الصريح عن نظرته، لا يحق لي التعبير الصريح عن مقتي!

ولنبقى عالقين في عقدته المتورمة وألمي الصدئ حتى نتهاوى من علو سفح مراوغتنا البائسة.

-ماشي.. حاولي متتأخريش.. وماتنسيش نفسك معاهم فتنسيني هاه.



قال جملته بهدوء ووضع نصف ثمرة الخيار في الطبق من جديد دون أن يكملها، فأغمضتُ عيني بإرهاق ومقصد كلامه يصلني تفصيلاً فتنهدتُ وهمست اسمه برجاء متعب:

-ضياء!

لم يعلق على نظرتي ورجائي الهامس، وبقتْ عيناه على تعبيرهما المتهِم المترصد، ثم طبع قبلة أخرى على جانب فكي الآخر بآلية باردة لا تحمل دفئ سابقتها، وذهب دون إضافة حرف.

أخذ حمامه وبدل ملابسه ثم جلس بجواري يتناول فطوره بصمتٍ خالٍ من أي تحاور أو حديث أو مناوشات صباحية حافظ وأصر عليهم طوال فترة زواجنا الخمس الفائتة حتى آلفتها واعتدتها فارتبطتُ بها ممتنة مُطمَئنة، ثم عند خصامنا أو اختلافنا يأخذ هداياه من صخب الحياة وينزوي مبتعدًا عني رغم قربه!



هذا هو "ضياء" دائمًا: عندما يغضب أو يحزن.. يصمت ويبتعد ويعاقبني بحرماني من عطاياه الحية، موقنًا أن هذا هو أقسى وأقصر عقاب سيجعلني أهرول ملبية كل مطامحه وأوامره!

مستغلاً أنه هو من زرع في غابة قلبي الورود حتى نمتْ: فآلفتها وارتبطتُ بها، وهو من حاصرني بقربه فاقتنص الألفة والارتباط أكثر وأكثر فزاده هذا طمعًا أكثر وأكثر، وتعطش أكثر للمزيد!

لنعود دائمًا لنقطة الصفر كما حدث قديمًا عند إصراره في اكتشاف البئر لآخره فتفاجئ بجفافه القحل الذي أخبرته به قبل السقوط ورفض السماع بثقة مشفقة، ثم تفكيره في الهرب في منتصفه بعد أن نفض عناكب الخوف من الوحشة والوحدة: فجاء دوري بالرفض بعد أن تحسستُ خلو جدراني منهم بنهمٍ وانبهار!



لكن ومع هذا، ورغم أنه لم ينجح في ضخ ماء العشق المشتعل فيه كما خطط -وهذا ليس بذنبه بالمناسبة- فلقد نجح وبقوة في تزينه بالألوان ونثر الشمس في زواياه، أحاطه بالدفء بعدما افترسه البرد، بعث فيه من جديد صوت الحياة بعدما كان قد غرق في صفير الموت، فرش السكينة على أراضيه وعلق الأمان على جدرانه، زرع الورود في محيطه فنثر شذى البهجة بعدما طرد عبق الدمع!

وبقى ويبقى منتظرًا بعد كل هذا أن يغرقه طوفان العشق!

وهنا مكمن خلافنا الأبدي.. فأنا أريده كهفٍ هادئ تشرق فيه السكينة والمودة، وهو يصر على جعله بئر عميق مملوء بماء العشق لنغرق فيه سويًا!

فأين السبيل لاتفاق؟!

أو أين حتى المنتصف؟!



أنهى إفطاره كما بدأه وقرر الذهاب فأوقفته في منتصف طريقه لباب البيت:

-ضياء..

توقف ونظر لي بسؤالٍ صامت فتأففتُ معترضة ألومه وأوبخه على حدٍ سواء:

-بطل الطريقة دي وبلاش شعل العيال ده.. أنت بتغير من شوية أطفال في حضانة!

كانت عيناه تصرخ في عمقها أنه "ليس من أطفال بل من طفل واحد" ولكنها حافظت على التحافها بالعند متسلحة بالصمت ومدعية اللامبالاة، كما حافظ صوته على الهدوء العاقل المقيت:

-أنا ماعترضتش ولا اتكلمت تاني في الموضوع أصلاً يا براء.



-ما اعترضتش ولا اتكلمت، بس طريقتك دي مش اعتراض وولوي دراع مش كدة!

عقد ذراعيه أمام صدره، وقد ارتفع حاجباه متسائلاً:

-والله! والمطلوب مني إيه غير كدة مش فاهم!

-ضياء ما تحطش العقدة في المنشار، مش كل..

قاطعني قبل أن أتمم جملتي بحزم العينين، وفتح الباب يعلن الذهاب:

-أنا كدة هتأخر على الشغل.. سلام.

أغلق الباب ورائه وتملكني الضيق، ورغبة عارمة في ضرب رأسه في أقرب حائط علها تتخلص مما يعتمل فيها من حُمقٍ دائم منذ بدأتُ العمل!



تحديدًا منذ ما يقرب من عامين عندما تركت الهندسة وتفرغتُ للتعليم.. تعليم أطفال الروضة الذين وجدتُ معهم السلوى والمزيد من الدفء. ولكن دفئ يتخلله الكثير من الحذر، والحنق، والأفكار المتطرفة التي لا تطاق من قبل "ضياء".

هل سمعتم من قبل أن الأفكار تخرج من القلب؟!

"ضياء" لديه السبق في هذا. تخرج أفكاره من قلبه المتورم، فيخرس رأسه على الفور؛ فيطلب ويقرر بناءً على ما يمليه قلبه الغاضب متجاهلاً صوت العقل!

يطالب بتبديل محل عملي أو يفعل كما فعل اليوم ويبتعد مخاصمًا إن رفضت الامتثال لطلبه.. لمجرد أن أحد الطلاب يحمل اسم "مصطفى"!!



غير مدرك أنني إذا بقيت أترك أي عمل لمجرد وجود طفل يحمل اسم الحبيب الراحل وتعاملتُ معه بأريحية يظنها هو حنين، فلن أستطبع أبدًا العمل.. وما من حلول وسطى!

فإما ترك العمل أو تجاهله وعدم التعامل مع الطفل كثيرًا إلا إذا لزم الأمر!

وما ذنب الطفل ليشعر بالنبذ في تلك المرحلة من عمره، ولما يعاقب بذنبٍ لم يقترفه من الأساس؟!

أي هراء هذا؟!

هززتُ رأسي وتنهدتُ أُجلي كل هذا من رأسي الآن؛ وأنا أركز انتباهي على الأهم مما يعتمل داخلي من شكوك!

أدعوا الله برجاء أن يترفق بي هذه المرة ولا يحرق أمل الحياة في داخلي من جديد!



رجاء ممزوج بالتمني!

وتمني محاصر بالخوف!

خوف أصبح من تكويني.

**



علمني حبك سيدتي أسوء عادات..

علمني أفتح فنجاني في الليلة آلاف المرات!

وأجرب طب العطارين..

وأطرق باب العرفات!

-نزار قباني.

-علمني حبك.



ضياء

السنون لا تُشفِي. إما أن تهبك الرضا المتأقلم والاعتياد، وإما تُبليك بالعناد المثابر والطموح، أو تجعلك تتأرجح في المنتصف على حافتيها مختلاً.. فلا تدرك راحة الرضا ولا بأس العناد!

تمامًا مثلي.. أنزوي بين أحضان التأقلم فتغريني ذراعي المثابرة المفتوحة!

أرسو على شط الاعتياد الساخن فيصفعني موج الطموح البارد!

ولازلتُ على عهد الألم الآمل باقي.. استسلم مرة وأكافح أخرى. أنجح مرة وأفشل كثيرًا. ولكن لن أكون مجحفًا وأنكر أني قطعت شوطًا رائعًا في علاقتنا. فبعد الكلمة وإن كانت مفرغة من عمق الشعور، اقتنصتُ الألفة من بين براثن عزلتها، واغتنمتُ الانتماء



بعد هزيمة نأيها، ثم استوليتُ على الحياة والغد والخاطر..

ودفعتُ مقابلهم الكثير من الخيبة والفخر!

لكني لم أظفر بالعشق بعد، وربما لن يظفر القلب بما يأمل أبدًا!

ولكن لزال الطريق طويل على الاستسلام، ومتخم بالكثير من المنغصات والنواقص.. والمخاوف المؤلمة!

بل مخاوف لعينة!

وطاقة لا تفنى.. لكنها لا تستحدث من العدم كذلك!

طاقة تتآكل داخل القلب بهم وألم لا تشعر به.. وهُدر منها الكثير أثر مقابلة اليوم الغير محسوبة أبدًا!

فلم أكن أعلم أن أحد أهم النواقص ستتجسد أمامي اليوم بلا مقدمات أو سابق تحذير!

"تيا"



أتت من سفرتها الطويلة واليوم وجدتها بذاتها تقف أمامي!

هي دون غيرها ودون تغير يذكر.. وإن كان التغير في طول شعرها الغجري التي تركته حرًا في العمل في سابقة تعد الأولى لها!..

أو عيناها الخضراوان المحاطة بغشاءٍ من جليد لم تكن أبدًا تملكه، وتداري به كل ما أرادتْ أن تداريه!..

أو تحول بهاء ابتسامتها البريئة التي افتقدتها لأخرى دبلوماسية كانت في السابق لا تجيدها البتة!..

أو حُسنًا مضاعفًا أكسبته لها السنوات!..

وربما التغير لم يكن سوى في حجم المسافة بيننا!..

مسافة بعاد بحجم بلادٍ وقرات وعمر فائت قدره خمس سنوات..

أو ربما الضعف!



أغمضتُ عيني أجلي كل هذا عن بالي، ونظمتُ أنفاسي التي اضطربتْ بلقائها، ثم التهيتُ في مراقبة محيطها من العاملين، فقد كانوا يحتفلون بها مهنئين مُظهرينَ سعادتهم بعودتها لبلدها وعملها، ولم أشك في تلك السعادة أبدًا؛ فـ"تيا" حقًا محبوبة من الجميع هنا وربما محبوبة من الجميع في كل مكان.

وربما علم هؤلاء الجميع بقدومها وأنا آخر من علم وربما من أرادتْ له ألا يعلم أبدًا!

عند تلك الفكرة انبثق سؤالٌ ساذج داخلي بحزن: لما لم تخبرني بموعد قدومها!.. ونهرني عقلي مستخف: يرمي بسؤالٍ سام ويتحداني بالوقوف في وجهه وإعطاءه إجابة: بأي صفة أيها الأحمق عليها أن تخبرك عن عودتها؟!

الحبيب الذي لا يحب، أم الصديق المتزوج من أخرى؟!



تنهدتُ من جديد وأبعدتُ كل الأفكار عن رأسي وأغلقتُ عليها صندوقها الأسود التي بقيتْ فيه طوال غيابها، ثم اقتربتُ منها عندما خف الزحام لأهنئها بدوري بعودتها سالمة.

التقتْ عينانا للحظات وأنا آتي من بعيد فتصنعتْ عدم رؤيتي وصدقًا آلمني هذا؛ فبرغم كل شيء نحن كنا أقرب الأصدقاء لسنواتٍ!

اقتربتُ منها وتوقفتُ أمامها فابتسمتْ ابتساماتها الرقيقة دون مقاومة فانتعشتْ دواخلي بعد اختناق الصباح، وصدمة المفاجأة، وانتقلتْ ابتسامتها لي ممزوجة بفرحة حقيقية، وبعينين لم تتخلص من مفاجأتها بعد ظلت تراقب خلجاتها بدقة:

-حمد الله على السلامة.

-ازيك يا ضياء؟



تغضن جبيني تلقائيًا وحاولتُ الحفاظ على ابتسامتي بصعوبة عند سماع طريقة لفظها الجديدة لأسمي بتلك الهمزة التي تحشر نفسها للمرة الأولى ربما في نطقها، وكأنها أقسمتْ أن تقطع أي خيط بائس من ترابط أو تشابه أو اعتياد حميم!

نعم لقد فات ربما ما يزيد عن عشر سنوات لكني أبدًا لم أنسَ!

والسبب؟!

لا أريد التفكير فيه ولا يهمني.

أمأتُ برأسي مجيبًا ولم تخفتْ ابتسامتي:

-بخير الحمد الله.

-وبراء عاملة إيه؟!

قالتها مداهمة بهدوءٍ قبل أن أسترسل في أي حديث!



ابتلعتُ ريقي بعسرٍ وشعور غريب ابتلعني؛ وكأني ضُبطتُ متلبسًا بجرمٍ آثم، ولم أجد سبب أيضًا لهذا الشعور فأمأتُ برأسي دون رد، ثم بَدلتُ الموضوع كليًا وأنا أسأل السؤال الذي أحترق لمعرفته منذ أن سقطتْ عيني عليها:

-رجعت أمتى؟

-من حوالي شهرين.

قالتها بسلاسة مستفزة ولا مبالة أكثر استفزازًا، فرددتها ورائها مستغربًا وشيء من حنق بدأ يتسرب داخلي:

-شهرين! وماقولتيش لي ليه؟!

-وأقول لك ليه؟!



صفعني السؤال ولم أستطع الإجابة ولا حتى التعليق فاكتفيتُ بالنظر ولم أعلم كيف بدتْ ولا ماذا قالتْ، ثم حمحمتُ ببعض الحرج، وقد شعرتُ وكأنها صبتْ على رأسي نهرًا من جليد عينيها!

تحدثتْ بعدها بثوانٍ، ويبدو أنها رأفت بي قليلاً فقررتْ تغير الموضوع:

-فكرت انتقل لفرع اسكندرية، بس قولت لا.. مش هبعد عن بيت بابا الله يرحمه تاني.. كفاية كدة.

وهزيمة أخرى.. حيث أنها لم ترأف بي كما ظننت؛ بل قررت شن هجوم جديد ولكن في موضع آخر!

أثنيتُ على قرارها، وقد تركتُ التفكير في التفكير عما تشي به تعابير وجهي للحضور والمراقبين وهي أولهم منذ مدة؛ منذ الصفعة الأولى:



-معاك حق..

كادتْ تخرج ورائها الكثير من الكلمات ولكنها توقفتْ مُكبلة، ولا أدري أي كلماتٍ كانتْ وما الذي منعها من الخروج، وما أدركته بعد ذلك أني لم أكن أمامها بكامل تركيزي، بل كان أغلبه غارق في أمسٍ بعيد!

قررتُ تلك المرة تغير الموضوع كليًا وإدارة الحوار لاتجاه العمل نافضًا مظهر المثير للشفقة الذي نجحتْ في زجي فيه، وأقررتُ ضاحكًا مضيفًا لمسة مزاح لكسر هذا الجليد القارص:

-شكلك رجعتِ تاخدي مكاني بقى!

-أنت شاطر يا ضياء ماحدش بيعرف ياخد مكانك.

خانة صفر من جديد!



صفعة أخرى رنحتني كليًا لثانيتين من كلماتها التي تحمل في باطنها لومٍ مناقض لفخر الجملة المزعوم!

ولكنها لم تقصد الصفعة تلك المرة فقد توسعتْ عيناها واكتسي وجهها حمرة محرجة وقد أدركتْ أن الصفعة متبادلة على ما يبدو!

هذا الإدراك الذي لا يفيد بعد شد فتيل القنبلة!

قنبلة خلقتْ الجليد بيننا من جديد في أقل من جملة وإن كانت غير مقصودة، فيبدو أن السنوات التي قضتها في بلاد الثلج تركت بصمتها في روحها بنجاحٍ حزين!

ظلينا واقفين وقد اكتفينا من الحديث المحاصر بين ألم وألم والذي لا يصب سوى في موضع واحد محرج لها ولي فاكتفينا بالنظر.. وعلى الأقسى والأرحم بيننا أن يفك تلك الشفرة المؤلمة أولاً!



خاطر سخيف قاطعنا ودق في عقلي وقد كان الصوت الحكيم الأول منذ رأيتها يحذر بأن وقفتنا طالت أكثر من المفترض وأن اليوم مختلف كليًا عن أمس!

ويبدو أن ذات الصوت ضرب عقلها أيضًا، فهمّت بالرحيل:

-أنا لازم امشي عشان أجهز للاجتماع.. أشوفك فيه.

ذهبتْ مسرعة وكأنها تفر من اجتماع غير مرحب به إطلاقًا ومحصلته كانت ثقيلة على القلب!

أما محصلته عندي أنا فقد كانت كارثية.. تناحر داخلي بألف شعور من مفاجأة، وخوف، وسعادة، وغضب، واشتياق، وألم، وذنب، وخزي، و.. وغصة.

غصة مريرة ضخمة تُلكم صدري بلا رأفة أو رحمة.



وكلماتها بما فيها من لوم متألم واتهاماتٍ مبطنة لا أقوى على إنكارها. ومسؤوليتي عما توصلتْ له من ألمٍ واشتياق لبقايا ذكريات غالية مع والدها الراحل وقد تركتُها وفرتْ هاربة بفضلي، وأنا خير من يعلم أثر هذا على نفسها.. قسم روحي!

ألم أكن الشاهد الوحيد على عمق معاناة فراق والدها على قلبها وروحها عند رحيله، لأكون أنا بعد ذلك السبب اللعين في الفرار من كل شيء حتى تلك الذكريات العزيزة!

وكل هذا ظلل بذكريات لقاءنا الأخير؛ فعاد الحصار القديم.



(2)

وخشيت ما كنت أتمناه!

**

هذه سنين العمر ضاعت..

وانتهى حلم السنين.

-فاروق جويدة.

-عندما ننتظر القطار.



تيا

أكره أعياد الميلاد.. أمقتها. أو أمقتُ عيد ميلادي تحديدًا؛ يذكرني بكم الخذلان الذي اغترفته من الدنيا وبكم السنوات الضائعة التي من هزائمي اغتنمتها الدنيا.

ويذكرني بخيبة أعياد الميلاد منذ طفولتي.. فمنذ الثالثة عشر توقفتُ عن الاحتفال بصخب الحفلات ودعاوي الأصدقاء، تحديدًا منذ انفصال أمي وأبي.. حتى أنني أتذكر أن أمي أخبرتني خبر انفصالهما قبل عيد مولدي الثالث عشر بيومين تحت حجة أنني كبرت وصرتُ ناضجة وأستطيع الفهم والاستيعاب وكل هذه الديباجات!

ولم أكن وقتها ناضجة، ولم أستطع الفهم، ولم أقدر على الاستيعاب كما كانت تظن أو تصّبر نفسها مشفقة عليَّ؛ بل انفطر



قلبي بصمت، وتذوقتُ مرار ذرف دموع الفراق للمرة الأولى. ولكني مثلتُ التفهم والرضى كي لا أزيد من أحمالهما أكثر، وكان طلبي الوحيد لهما أن أحتفل بعيد مولدي بصحبتهما مجتمعين سويًا للمرة الأخيرة دون أي أحد آخر غيرنا ووافقا، ولم يتغير الكثير بعدها؛ فقد كان أبي يزورني يوميًّا تقريبًا.. كان ارتباطنا مريب للكثير، وتساءل الجميع كيف استطعتُ البعد عنه والعيش مع أمي، حتى هي نفسها تساءلتْ ذات السؤال مرارًا مستغربة ولكن ممتنة.. كما كنتُ أنا نفسي أجهل السبب الذي دفعني للاستغناء عن النوم كل يوم بين أحضان أبي كما كنتُ أعتاد واخترتُ أن أعيش معها، كنت جاهلة للإصرار الذي نبع داخلي بالتواجد الدائم مع أمي وخوفي من تركها للعيش وحيدة!

لكن بعدها بثلاث سنوات أخرى عرفتُ السبب.. فكنتُ أنهل من وجودها بجشع دون أن أدري قبل تمام الرحيل!



فبعد انفصالهما بتلك السنوات الثلاث توفتْ أمي. ماتت وتركتني أتذوق مرار دموع الفراق للمرة الثانية.. ولكن بصورة أكبر ألمًا وأكثر توحشًا!

انتقلتُ بعدها للعيش مع أبي الذي رفض الزواج مجددًا بعد انفصاله وأمي، واستحالت الفكرة عندما انتقلتُ للسكن بين أحضانه من جديد خائفًا عليَّ من أساطير زوجات الأب، كارهًا وحانقًا على حدوتة سندريلا، ومصرًا على عدم خوضي إياها؛ فاكتفى بي واكتفيتُ به، وازداد ارتباطي به أضعافًا عن ذي قبل، كما ازداد انطوائي أكثر وأكثر، وعانيتُ كثيرًا في مراهقتي وشبابي من هذه الانطوائية المريرة التي لازمتني طوال عمري تقريبًا..

حتى "سمر" والتي كانت صديقتي الوحيدة بالجامعة، كانت قبلها زميلتي في المدرسة الثانوية ولم يربط بنا أي صداقة حتى رأيتها في ذات الجامعة مصادفة فتمسكتُ بوجودها كالشخص الوحيد



الذي عرفته في ذاك العالم الضخم كما فعلتْ هي؛ فتآلفنا وربطت بيننا صداقة صادقة حتى تزوجتْ بعد التخرج وسافرتْ مع زوجها فانشغل كلٌ بدنياه وشبه انقطع التواصل.

ولم يكن لدي أصدقاء آخرون غير "رؤوف" المهاجر، و"مصطفى" الراحل، والذين تعرفتُ عليهم بالأصل بفضله هو..

وبالنهاية لم يتبقى سواه هو!

لم يتبقى سواه حيًا في الحياة، وفي القلب.. هاربًا من الحلم، والقدر!

لم أكن أعلم يوم قدم لي أدواته الهندسية بمساعدة باسلة، أني سأردهم له ومعهم قلبي للأبد مستغنية عن ملكية نبضه!

يا ليتني لم آخذها منه وبقى لي قلبي!

ليتني خسرتُ الامتحان ولم أخسر نبضي!



بل ليت عيني لم تُأسر برؤيته أبدًا فلم يغب عنها من سواه من الرجال وربما البشر أجمع حتى بدأتُ في فقد العمر الذي ربما أكون قد فقدته بالفعل!.. لأجلس مرحبة بالأربعة وثلاثين ربيعًا منفردة كليًا، بلا أسرة.. بلا أصدقاء.. بلا أحباء.. بلا بشر!

أجلس وحيدة في ذات اليوم من كل عام يمر وأنا أتساءل ماذا جنيتُ من وهم الدنيا سوى لحظات مسروقة من بُعد الجميع تحت ظلال الذكرى؟!

أجلس أتأمل وحدتي على مدار عمري الفائت ثم أعترف سرًا أن عدْو العمر حقًا: مربك!

دوران الأيام السريع على هذا النحو: مريع!

وكأنها تفر هاربة من وحش مفترس!

وكأنها تفر منا ونحن الوحش المفترس!



أو كأننا نحن من نفر منها وهي الوحش المفترس!

لا أدري حقًا.. كل ما أدريه أن السلام بين الأيام وبني آدم انتهى منذ عصور والخصام طال؛ فأصبحنا لا نشعر بمرور الأيام، ولا ترأف بنا هي!

فقط.. تلوح بكفيها بغير مودة وتهرب، ومحظوظٌ هو من رأفتْ به وأسقطتْ له صحبة وأسرة أثناء هرولتها الهاربة!

أغمضتُ عيني وهززتُ رأسي متنهدة أُجلي منها أفكاري وهزائمي، ثم قمتُ أكمل استعدادي للذهاب للعمل.

وقفتُ أمام المرآة وتأملتُ نفسي سارحة في ملامحي الهادئة التي كانت الوحيدة الواقفة بشجاعة تحارب نهب الأيام لكل عزيز فتمدني بكل خيبة!



وبنظرة محايدة صدقت على تعليقات الكثير.. فهذه ملامح فتاة لا تتخطى العشرينات من عمرها.

هكذا يعلق الجميع مستغربًا أو مستنكرًا عمري عندما أصرح برقمه بشيء من تحدٍ.. ولا أدري أعلي الفرح بهذا أم يجب أن تسكن الحسرة تصدعات قلبي الذي كُسر بمرور الأيام دون ظفر يذكر!

خرجتْ تنهيدة أخيرة وأنا أحط اللمسات الأخيرة من زينتي وأستعد للرحيل ليوم جديد في العمل.. يوم عادي جدًا لن يعلم أحد بأي تغير فيه. هذا ما كنت متأكدة منه، أو هذا ما كنت أظنه!

ففي منتصف اليوم وبعد إرهاقًا جم في يوم لم ينتهِ سوى نصفه، دخل المحاضِر بابتسامة هادئة أكسبتْ جاذبية ملامحه المتناسقة، دفء وود وتودد..

تودد أخشاه ولكني لن أصده بالطبع!



-مستخبية أنت عننا طول اليوم.

قال كلماته بصوت مرح مبتسمًا بلا تكلف، فرديتُ ضاحكة بصدقٍ وحنقٍ خفيف شاركته معه:

-ولا مستخبية ولا حاجة والله، اليوم بعيد عنك بس اللي مش عاتقني، وجاب لي صــداع.

لم يعلق وبقتْ عيناه على تأملها الدافئ المربك، وابتسامته الهادئة على ثغره لم تختفِ، فتلبسني التوتر وحمحمتُ وقد استشعرتُ حرج واحمرار بدآ في غزو وجنتي، ولم يكون هذا بجديدٍ معه مؤخرًا!

ترفق بي على ما يبدو وقرر مقاطعة إحراجي بنظرته، فتغيرتْ للفضول الطفيف وهو يمد لي يده بعلبة مغلفة معلقًا بابتسامة رائقة، ولم يختفِ منها نبرة المرح الودود:



-ماشي يا ستي، المهم إني كنت بدور عليك عشان أقول لك كل سنة وأنت طيبة.

نظرتُ للعلبة بريبة وعدم فهم وأنا أتساءل ضاحكة بخفة:

-إيه دي؟

-هديتك.

-بمناسبة إيه؟!

ضحك بمرح، ثم أجاب ممازحًا وكأنه يخاطب طفلة:

-عيد ميلادك طبعًا، أومال كل سنة وأنت طيبة دي بتتقال ليه!

لفترة لم أستطع سوى النظر للهدية الممدودة بها يده باستغراب وعدم تصديق، وشبح ابتسامة ساهمة تحولت لابتسامة صادقة بعدها بثوانٍ؛ لتزين ثغري بامتنانٍ جم وفرحة طاغية!

فرحة للغاية.. ربما فرحة لدرجة لم أشعر بها لسنوات!



فلأول مرة منذ سنينٍ طوال أُهدى في عيد مولدي!

أو أول مرة -منذ أن مات أبي- يتذكره أحد من الأساس!

-ميرسي يا بهي.

قولتها بابتسامة واسعة وعينين لامعتين ضُخَ فيهما اللهفة الممتنة،

ثم أشرتُ له بالجلوس وقد لاحظتُ استمرار وقوفه للتو:

-واقف ليه اتفضل أقعد.

جلس بخفة وقد استشعرتُ مراقبة عيناه لي وأنا أكاد أفتح هديته بلهفة واشتياق طفلة حُرمت من الهدايا عندما غافلها الكبر، ولكن يدي توقفت في المنتصف عندما هلّ هو.. عابس الوجه، منزوي الحاجبين، مهموم العينين!

وآه من تلك العينين العنبريتين المهمومتين منذ مدة.. منذ أن جئت تقريبًا!



لكني لن أخدع نفسي وأكون مثيرة للشفقة وأُرجع هذا الهم لي؛ فأنا خارج حساباته من الأساس.. بالتأكيد هو شيء يخصه وزوجته، وأيَّ كان هذا الشيء الذي يظلل عينيه بالهم والخوف؛ أتمنى أن يُحل ليحِل عليه السلام إن أمكن.

لكن وبجوار الهم كان هناك شيءٍ من غضب صرح عن نفسه بالصوت وبتقطيبة جبينٍ ازدادت للضعف وهو يدخل بلا استئذان لمكتبي كما فعل في القلب منذ سنوات:

-كنت بدور عليك.. مختفية فين طول اليوم؟

ورغم القلق على حالته المريبة منذ أيام، ونبضة قلب خائنة ودت لو فرت واحتضنته لتهادن غضبه وتمتص ألمه، لكني أجبت بوجه محايد وصوت جامد:

-كنت في زيارة للمصنع عشان الإشراف.. خير يا باشمهندس!



وضع يديه على خصره وارتفع حاجبه وفتر ثغره عن ابتسامة جانبية ترسل تكذيب مستهزئ واضح، ثم سأل بصوتٍ متهم وعينين صارختين بالغضب الذي لم ينتبه له على ما يبدو وهو يثبتهما على عيني بتحدٍ مريبٍ قاسٍ:

-وبالنسبة للتلفون بنشيله ليه طالما ما بيتردش عليه؟!

نجح في إشعال غضبي أنا الأخرى بهيئته وكلماته، وسألت نفسي حانقة أن هل يزين له غروره أني لم أرد على اتصالاته التي لم أعلم بها سوى منه الآن لأجل خاطر عشقي الساذج!

ازداد غضبي فازداد ججمود ورديت ببعض الحدة التي طالتْ النظرة والصوت، وحشرتُ الهمزة حشرًا قاطعة على نفسي كل سبل الانتماء إليه:

-ما سمعتوش من الدوشة يا ضياء في إيه!



طوح يديه وهو يجيب بصوتٍ ازداد علوه كما ازداد الاحمرار بعينيه الغاضبة واكتسبتْ زغرة حارقة:

-في إننا متأخرين على الاجتماع مع مدير الشؤن المالية اللي هيبدأ كمان ربع ساعة ومارجعناش أي حاجة بسبب حضرتك.

وأيقنتُ.. "ضيا" غاضب. بل "ضيا" مشتعل لسبب مجهول..

وأنا مخطئة ومتعبة؛ فلم أنتبه لجريان الوقت مني بهذا الشكل!

-ما ركزتش إنه قرب كدة.

قولتها مهادنة وقد زاغتْ نظرتي قليلاً واكتسبتْ نبرتي بعض التوتر باعتراف متوارٍ بالخطأ، لكنه لم يترفق بي واستهزأ حانقًا:

-ما طبعًا.. هتاخدي بالك من الوقت ازاي وأنت قاعدة هنا ولا على بالك، بس احنا جايين هنا عشان نركز ونشتغل، مش عشان نلعب يا باشمهندسة.



اتسعتْ عيناي بعدم تصديق لكلماته الموبخة، ولفتْ انتباهي ارتفاع حاجبا "بهي" ورجوعهما سريعًا من جديد، وقد كان التغيير الأول على ملامحه منذ دخول "ضيا" المقاطع لحديثنا.. لكن ظلت عيناه الصقرية المراقبة على حالها لم تتأثر مع شبح بسمة متناهية الخفة لم أستطع فك شفرتها أو فهم سطر من معانيها!

وبالنسبة للمهادنة فقد نُسفتْ بكلماته المستفزة فوقفتُ أواجهه غاضبة:

-أنا قولت كنت في أشراف على المصنع مش في دريم بارك عشان تقول لي بتلعبي.. ركز في كلامك من فضلك.

-والله! بس أنا شايفك دلوقت في الشركة مش في المصنع!

استعادتْ كلماته البرود وابتسم بباستخفافٍ وانقلبتْ عيناه للصمت المبهم وهو ينظر للهدية المغلفة التي لا زالت بيدي وقد أثلج فضولي المشتعل لمعرفة ما تحتويه بدخوله العاصف، ثم



انتقل منها إلى "بهي" الذي حافظ على ثبات تعابير وجهه وهو يبادل "ضيا" النظر دون أي ارتباك أو توتر كالذي شعرتُ به فقررتُ إنهاء هذا الذي يحدث؛ فتمسكتُ بالهدوء وأنا أحاول مرة أخرى امتصاص اشتعال الأجواء، ولم انتبه للإرهاق الذي زحف على صوتي بلا إرادة تقريبًا:

-أنا لسه راجعة حالاً من المصنع وكنت هراجع شوية حجات قبل ما اجي نتنافش فيها، خمس دقايق وهحصلك ونظبط كل حاجة.

عاد بنظره لي، وصمتْ ثوانٍ ثم أتم حديثة الخانق منذ دخوله بما يليق بالتتمة:

-ياريت تنجزي.

حدج "بهي" بنظرة أخيرة قبل أن يذهب كما جاء بينما كنتُ أنا أشتعل غضبًا وحنقًا، ولم يدُر في رأسي سوى أن بالطبع "براء"



أغضبته أو ألمته حد الغليان اليوم، ولم يلقَ مغفلة يلقي عليها حممه سواي أنا!

قاطع "بهي" شرودي المفكر وهو يقول بصوتٍ مبهم وعينين غير مقروءتين:

-الباشمهندس بقا صعب أوي اليومين دول.. مابقاش طايق حد.

كلماته أججتْ داخلي الحنق والكثير من الألم الذي رفضتُ إظهاره أو الاهتمام به فزفرتُ وجلستُ من جديد وراء مكتبي وقد انتبهتُ للهدية بيدي فتذكرتُ شيءً هامًا قد سقط مني في غمرة حماسي المسكين والمقاطعة العاصفة، فسألته زاوية بين حاجبي وعيني، مبتسمة بحيرة:

-بهي أنت عرفت منين إن عيد ميلادي النهاردة؟!

-بطريقي الخاصة.



قالها بابتسامة حلوة واسعة وغمزة شقية أعادتْ إحراجي واحمراري من جديد فهربت بعيني للبعيد.

ولولا تخمة القلب الممتلئ بالغاضب الراحل لكان سقط غارقًا في تلك الغمزة والبسمة.

لولا.. وياليت.

**



وأصابع الأيام تلدغنا..

ويفزعنا الشتاء.

-عندما ننتظر القطار.

-فاروق جويدة.



براء

أكره الشتاء.. أختنق بمجرد ذكر سيرته، وعند قدومه يتلون داخلي بسواد غيومه وكآبته؛ فأظل أتساءل عن المعول الذي سيضرب به روحي تلك المرة!

فكل فقد في حياتي لم يطعنِ سوى في هذا الفصل القاسي البارد.. وربما لم يمر شتاء إلا وحاربني بشراسة وكللتْ حربه بالظفر بالحرمان المؤلم!

واليوم.. أبعدتُ أغطيتي الدافئة عني واستيقظتُ قرب الظهيرة على ألمٍ لا يحتمل تمخض عنه رعبٍ شل كل أطرافي وأحرق كل ثباتي.

أنا أعرف هذا الألم المميت.. ععانيُ منه كثيرًا، وعانيتُ بعده أكثر!



ابتهلتُ لله أن يرأف بي.. وبه؛ فكفاه معاناة بسببي، وكفى روحي الغرق في علقم الخسارة!

جلستُ على طرف الفراش وكفاي تقبضان عليه بعنف الألم والخوف، أحارب للقيام وأحارب للجلوس.. ففي كلاهما ألم لا أتحمله!

التقلصات تزداد ويزداد معها أنيني، ودموعٍ لا أدري متى ولا من أين أتت ولكني أعلم أين ستصب.. فروحي الكسيرة دائمًا ما كانت وستكون المصب!

تحاملتُ وتوقفتُ على قدمي لتشق حنجري صرخة ألم جديد، فوقفتُ ويدي على الجدار أستند عليه وأنا أخطو خطواتٍ بطيئة لكي أصل إلى الحمام الملحق بالغرفة، ومع كل خطوة يتفتت جزء من روحي.. ليس من بشاعة الألم قدر حسرة الإدراك!



إدراك تحول ليقين عندما دخلت حمامي وأغلقته فهالتني قسوة الحقيقة رغم تأكدي منها سلفًا!

ألم أقُل من قبل أن من قال أن وقوع البلاء أهون من انتظاره قد كذب.. ظلتْ عيناي مسمّرة على موضع دمائي النازفة وبكيت طفلي دون انتباه بحسرة سبقها حسرات!

تطلعتُ في المرآة أمامي وأنا أستند بكفي على الحائط وجسدي يتلوى، ولم يفاجئني شحوب وجهي المحاكي للأموات، لكن فاجأني صمت عيناي المختنقة إلا من سؤال يموج بعنف الأسى.. لماذا من جديد؟!

لماذا من البداية من الأساس؟!

ما فائدة الأمل إن تتبعه صفعات الحرمان المتكررة؟!



ماذا نجني من زرع وردة في الصدور القاحلة إن كان مصيرها المحتم هو الذبول؟!

ما هي الحكمة من كل هدية تهدينا إياها الدنيا وتُعلقنا بها ثم تنتزعها منا مكشرة عن أنيابها بابتسامة بغض؟!

ولما حياتي أنا تحديدًا التي لُعنت بالعطاء غير المكتمل؟!

لما تبغضني الدنيا إلى تلك الدرجة بالغة القسوة؟!

ظل السؤال يدور بعقلي ويضرب قلبي كطفلٍ يلهو بلعبة بيده يخبّطها على الأرض والحائط مرارًا لا مباليًا لأنها لا تشعر، فهل أنا لعبة في يد الحياة لتنهل عليَّ بالتخبيط والضربات القاسمة لهذا الحد وتظنني لا أشعر!

لم يسفر عقلي عن جواب.. فقط توقف مبهوتًا وسمح لقلبي بحرية الأنين والصراخ بعدما اكتفى، فكف العمل ومحاولات



الإنقاذ وبات منهكًا لا يقدر على شيء، وأشفق عليَّ فترفق بي: أعلن الاستسلام، ورفع الراية.. فصرختُ..

صرختُ، وصرختُ، وصرختُ.. حتى بح صوتي وخارتْ قواي: فجلستُ أستند برأسي على الجدار أضربها برتابة وجسدي بدأ في الانتفاض من البرد والألم، ولكن روحي باتت لا تشعر سوى بالحسرة.. حسرة مريرة وأنا أعايش خروج الروح من روحي بصمتٍ والألم ينهشني بأنيابٍ من نارٍ وجليدٍ!

أعايش هرب طفلي من رحمي بعجز وصبر من باتت معتادة الأمر، لكنها لم تعتَد بعد حسرته!

فتلك لم تكن المرة الأولى.. هذه هي الثالثة الذي ينأى فيها طفلي عن التمسك بي ويفر هاربًا رافضًا السكن داخل ضلوعي!



ثالث طفل أُحرم منه خلال عامين. عامان جربتُ فيهما نوعًا جديدًا من الألم والحرمان، وشهدتُ على كسرة جديدة في فؤاده المعذب دائمًا بفضلي!

كانت كل كسرة خاطر يتبعها نزف في عينيه يداريه بالاحتواء المُطَمْئن ووعد من يقين بأن الغد سيحمل الأفضل معوضًا.. وها هو الغد يأتي بقسمة ظهر جديدة!

أترى هذا عقاب من الله لأني أصررت على تأجيل الإنجاب في بداية الزواج رغم إصرار "ضياء" على العكس!

لكني أقسم أنني لم أترفع عن الاحتياج أو أتكبر مستغنية عن الهبة، فقط أردتُ ترتيب الأمور معه والتوصل لنقطة وسط بين صخب مشاعره، وهدوء خاصتي.. حتى يأتي الطفل فيستطيع أن يقف على أرضٍ صلبة بين أب وأم متفاهمين؛ فحرمته من ممارسته لأبوته التي يتوق لها لثلاث سنوات حتى استسلمتُ



بدوري لاحتياجي الملتهب للأمومة؛ فقررتُ المغامرة ولم تسفر التجارب المتتابعة غير ذبح الروح والفؤاد في كل مرة أتجرع فراغ جوفي البارد بعد روعة دفء الامتلاء!

أم تراه ذنب الحبيب الراحل الذي حل غضبه على القلب؛ فحلتْ لعنته على أمومتي التي أقسمتُ في زمان العشق والأشواق ألا تكن سوى لأطفاله هو دون عن رجال الدنيا!

أم هو رفض تام من نطفة زوج عاشق أن تسكن رحمي ما لم يسكن هو القلب قبلها!

أم فقط كل ما في الأمر أنني ملعونة بالألم، ولا أعلم سبب لهذه اللعنة، ولا أدري سبيل للتحرر!

ملعونة وألقي بلعنتي على كل من يقترب مني فلا أسقيه سوى الألم والمرار!

ازدادتْ آهاتي ألمًا وعلوًا وسيل دمعاتي لا يتوقف، وازدادتْ حدة ضربي لرأسي بالجدار علّ هذه الأفكار ترأف بي وتَخرس لتتركني في حال سبيلي المظلم.

توحش الألم أكثر وبات يفترسني، وتواطأ عقلي معه يعيد ذكريات علمي الفرح المرتبك قبل ثلاثة أسابيع بالحمل، وكأن الدنيا تخرج لسانها لي.. حين استمد بي الشك؛ فأصررت أن أقطعه بالعلم؛ ورفضتُ ألا أحوله لغير اليقين.. أتيتُ باختبار حمل منزلي بعد أن تجاهلت خروج "ضياء" غاضبًا بعد اختلافنا الدائم في نقطة بعينيها، ثم صعقتُ بالنتيجة التي تمنيتها وخشيتها ولم أستطع الاكتفاء؛ فذهبتُ لإجراء تحاليل الدم للتأكيد التام، وجلستُ انتظر بقلبٍ خافق متلهف متدثر بالقلق المؤلم، ليقاطعني نداء موظفة الاستقبال وهي تطلعني على نتيجة تحليل الحمل مبتسمة ببشاشة تبشرني:



-حامل في الأسبوع السادس يا مدام، مبروك.

شيء من جنون الفرحة الاعتيادي امتلكني للوهلة الأولى، ثم ظلتْ تنهش فيه ضباع الخوف بافتراء حتى تركتني جثة نازفة الفرحة، مقطوعة الأمل، وبائسة الروح. شكرتها وأخذتُ نتائج التحليل وذهبتُ وعقلي يشتعل وقلبي ينبض برعب، ورغم أني كنتُ مستعدة لسماعها بعدما أجريتُ الاختبار المنزلي وعلمتُ خائفةً؛ لكن تأكيدها يقينًا كان أمرٌ آخر!

ذهبتُ انتظره في بيتنا بصمتٍ ولهفةٍ واحتياجٍ.. رغبةً في بثه الفرحة ونيل الاحتواء ومشاركته الرعب.

وكل ما ظننته من ردود أفعاله تتراءى أمام عيني، حدث.. فبعدما جاء من عمله متجهمًا شاردًا وقد ظننته على هذه الحالة بسبب مشاحنتنا صباحًا، قررتُ مصالحته والاعتذار، ولكن حالة خوفي أخرستني وأبقتني شاحبة متسعة العينين أطالعه باحتياجٍ سافر



الوضوح ودموعٍ مكبوتة؛ فاكتنفه القلق ونسى أو تناسى كل شيء وهو يهرول إليَّ خائفًا قلقًا، فارتميتُ في أحضانه والتقفني على الفور برحب صدره الذي تخشب بدوره هو الآخر عند سماع الكلمتين المشحونتين بدموع الخوف واللهفة!

وبعد الكثير من الصمت الذي شهدتُ على احتياج نبضاته الصاخبة تحت أذني كي تُهدئ من خوفها وتتحكم في لهفتها، أخذ يهدهد بكائي كطفلة، ويطمئنني كامرأة. يبتلع ريقه بعسر، يُحدِث ذاته ويعيد على مسامعي مؤكدًا، مطمئنًا نفسه وإياي.. فالله لن يخذلنا ولن يحرمنا مما نتمنى، فكلانا لن يتحمل خسارة كتلك مجددًا.. خسارة كهذه التي أتكبدها وأعانيها الآن ولا أريده أن يأتي ليشاركني إياها هذه المرة، لا أريد حملٌ آخر لذنبٍ جديدٍ يجثم على صدري.

كما أنني لا أدري ما الخطأ الذي ارتكبته هذه المرة!



فإن كنتُ في طفلي الأول ساذجة أجهد نفسي بالأعمال، وإن كان الثاني ضعيف حد عدم تحمله للحركات اليومية الخفيفة، فأنا التزمتُ هذه المرة السكون التام؛ حتى أنني لم أتحرك من الفراش سوى للذهاب للحمام والتزمتُ الجلوس الدائم في الفراش كالمرضى، وتحملتُ آلام ظهري القاتلة بسبب طول رقدتي الدائمة وقلة الحركة.. فأين وما خطأي؟!

أخذتُ أهذي متسائلة عن السبب واستمَرَ ضربي لرأسي بعنفٍ أكبر علها تخرس وتخرسني إلى الأبد:

-ليه؟ ليه؟ ليه؟ ليـه؟

توقفتُ وخاطر وحيد ابتلع كياني كثقب أسود.. أنا أبدًا لن آخذ رضيع خرج من رحمي بين أحضاني.



شعرتُ بقبضة من ثلج تعتصر فؤادي لهذا الخاطر؛ فأغمضتُ عيني بشدة وأنا أصرخ بأعلى صوتٍ تمكنتُ من الوصول إليه راجية:

-لا يا رب، لا.. يا رب.

ماذا سيفعل "ضياء" هذه المرة، وبأي كلمات سيواسيني ويصبر نفسه، وكيف سيكون حجم ألمه وهو يدرك جيدًا أن مع كل فقد تخفتْ الفرص أكثر!

وكيف سيبعد عني سهام عيون والدته الناقم عن روحي الملتاعة!

وكيف سأقف أنا بعد هذه المرة على قدمي من جديد!

فأنا سئمت من السقوط والقيام مجبرة.. تعبتُ وأُنهكتُ؛ فكيف سأفعلها من جديد؟!

لا أدري ولا أريد ولا أحتمل، ولم يسعفنِ سوى الصراخ فصرختُ..



-آااه.. آاااااه..

أنقطع صوتي في منتصف صرخاتي يحرمني من تلك الرحمة بعدما كُتم وانجرح من كثرة العويل فانخرس!

فصرختُ بصمتٍ مبحوح وأنا أتخيل رؤية وجهه الآن!

لا، لن أتحمل رؤية الحزن في أعماقه يداريه بالمساندة في كلمات!

فليته يغضب، يصرخ، حتى فليتهمني بأي شيء لا ذنب لي فيه، أو يبعد وجهه عن وجهي غير راغب في النظر لي.. أي شيء سوى فقط ألا يكون المضحي المتفهم على الدوام.

لا أريد الاتصال به لإنقاذ، ولا أريد رؤيته لاطمئنان، ولا أريد مقاسمة الألم باحتواء وأنا شاهدة على حسرته الخاصة مرتسمة في عينيه وهو يداريها ببأس.. فقط كل ما أريده الفناء.

الاختباء من سواد هذا العالم المقيت.



وربما أريد تسرب روحي مع روح طفلي لأستريح معه.

**



أدخلني حبك سيدتي مدن الأحزان..

وأنا من قبلك لم أدخل مدن الأحزان.

-نزار قباني.

-علمني حبك.



ضياء.

أكره الزحام.. وأكره الباب الذي يفتحه لعواصف أفكاري لتبتلعني على إثره، وأكره عقلي عندما ينفلتْ من لجامه الضعيف بالأصل إلى كل ما يؤرقني ويؤجج براكيني التي لا هم أو استمتاع لها سوى إحراقي بشتى الطرق.

تأففتُ وأنا أضرب على مقود السيارة بعنفٍ فصدح الصوت المزعج لزامور السيارة فانهالت تعابير الحنق من كل من بجانبي، ولكني تجاهلتهم وبتُ أزيد من الضغط أكثر وأنا أعلم جيدًا أنه لن يغير في الموقف شيء، ولكنه سيخفف بعضًا من الحنق الذي يغلي داخلي الآن.. وأنا جالس عالق في زحام طريق العودة للبيت بعد يوم خانق إلى أبعد حد، لا أود فيه سوى الذهاب للبيت والاحتماء بالاطمئنان عليها.



خلعتُ نظارتي ورميتها على المقعد بجانبي، ووضعتُ مرفقي على نافذة السيارة، أعتصر عيني بإصبعيّ تزامنًا مع خروج زفرة اشتعال. فتحتُ عيني وشردتُ أتذكر مشهدها وهي تخرج للمرأب مبتسمة مع هذا السخيف متجهين إلى سيارتها ووقوفهما يتبدلا الأحاديث بابتساماتٍ متسعة قبيحة، قبل أن يلوح لها بطفولية مستفزة وكأنهم أطفال في الروضة!

غمغمتّ من أسفل ضروسي المصطكة غاضبًا من نفسي ومنها ومن هذا السخيف "بهي" ومن الزحام:

-أنا مالي، أنا مالي!

ولإتمام الحنق حاصرني عقلي بكل مشاهد محاصرته لها التي لا تخفي على طفلٍ صغيرٍ منذ أن حطتْ بقدميها من جديد على أرض الشركة منذ أسبوعين.



لم تكن المرة الأولى التي يحاصرها أحدهم بهذا الشكل وربما لن تكون الأخيرة، ولكن هذا الكائن السخيف يثير داخلي حنق لا أستطيع السيطرة عليه.. فهو حقًا لا يستحقها وأنا خير من يعلم ذلك.. "بهي" لا يحبها، ولا تستحق هي أن تخوض ذاك الغمار، هي أرقى شأنًا وأعلى مكانة من هذا الحيز الضيق، ثم ألم تكتفِ من خوص التجارب الفاشلة التي لا تحصد منها سوى مزيدٍ من الألم! هي لن تنجح كما لم تنجح قبل ذلك فما الذي يدفعها لاستمرار بذل الجهد في فراغ محاولاتٍ فاشلة تبتلعها دون عائد!

-اخرجي من دماغي بقى.

قولتها راجية بجبينٍ منعقد ومطارق تضرب في رأسي، فخرجتْ زفرة أخرى لم تكن الأخيرة، ولكنها كانت محملة بالذنب وأنا أتذكر ابتسامتها المتسعة عندما كانت متمسكة بهديته كطفلة تتمسك بقالب ضخم من الحلوى، وانفجاري فيها أمامه نافسًا بعض من



القلق على "براء" والحنق منها.. ثم سماعي مصادفة لسؤاله عن كيفية قضائها ليوم مولدها جاهلاً بأن هذا اليوم كانت لا تحب قضائه سوى مع والدها، وغالبًا الآن لا تحب قضاءه مع أحد من الأساس.

أنبثق لومٌ خبيث لنسياني لذكرى ميلادها كما المعتاد، وغيظ دائم من ذاكرتي المثيرة للشفقة في حفظ التواريخ توارى حينما سمعتُ ضحكة ساخرة صدحتْ من اللا مكان داخلي، وسؤال شامت يتبختر بلسان يتراقص مغيظًا: حتى وإن تذكرتْ فماذا كنتْ ستفعل أيها الصديق المهمل؟!

رفعتُ كفي أحاوط بهما رأسي وضغطتّ عليها في محاولة لتسكين هذا الصداع المؤلم، وأخذتُ عدة أنفاسٍ عميقة ببطء وأنا أهمس بمنتهى الأمانة:

-هو اليوم أصلاً مش ناقصك يا تيا، مش ناقصك حقيقي.



نفضتها عن رأسي للمرة المائة اليوم وسلمتُ نفسي طواعية لضباع القلق تنهشني كما تشتهي للمرة الألف.. وعدتُ أتصل بـ "براء" للمرة التي توقفتُ عن عدها منذ الصباح، وذات الإجابة بعدم الإجابة هي كل ما أناله، ليبقى طنين رنين الهاتف في أذني يضرب فؤادي بخوفٍ لعينٍ، فيحاول عقلي تهدئته مذكرًا أنها ليست المرة الأولى التي لا تنتبه لمكالماتي وأفقد أنا صوابي لذلك، كالمرة الأولى التي بقيت أتصل بها ولم ألقَ أي استجابة ففقدتُ عقلي تاركًا كل شيء وأنا أركض للبيت، وكل ما صوره لي هلعي وقتها كابوسي المسائي الدائم بأنها تعاني الآن من احتضار طفلي وهروبه من داخل أحشائها من جديد.. لأصل إلى البيت وأجدها نائمة بعمق وسلام.. والمرة الثانية عندما أصريتُ على أمها أن تذهب لها بأقصى سرعة لتطمئن عليها وتهدئ روعي.. وتكررت المرات حتى اعتدتُ وتأقلمتُ مؤخرًا على الرغم من الخوف



الرابض بداخلي كوحشٍ ساكن يترقب اللحظة المناسبة كالآن للانقضاض عليَّ، فيجعلني أنزف ثباتي من جراح كوابيسي المتكررة.

هززتُ رأسي بعنفٍ وأنا أمسد جبيني وجانب عيني ضاغطًا عليهما بشدة علَّ هذا البركان المشتعل في رأسي يخمد ولو قليلاً ويهب لي بعض الصمت.. فأنا لا أحتاج سوى الصمت.. الصمت في رأسي ووجداني قبل أي شيء.

زفرتُ ببعض الراحة عندما فُتح الطريق أخيرًا، وقد بدأتُ أُملي نفسي الكلمات المتفائلة على أملٍ أن تمطر بعض السكينة داخلي وتقشع عني هذه الغيوم السوداء التي احتلتٍ سماء أفكاري.. هي بالتأكيد بخير ونائمة بسلام وأمان، وكل ما في الأمر أنها مرهقة وغارقة في النوم بعمقٍ كما أضحتْ مؤخرًا كثيرة النوم صباحًا،



كثيرة الأرق مساءً، كثيرة زرف الدموع في كل الأوقات بخوفٍ يقتات على روحها وأمالي.. هي بخير، بخير ونائمة بسلامٍ وأمان.

أخذتُ أكررها وأبتهل بها حتى وصلتُ أخيرًا فترجلتُ من السيارة ببعض التخبط وصعدتُ بهدوءٍ مدعيًا الثقة، وعندما دخلتُ البيت أخذ شعور الخوف المقبض يغرق قلبي في ثوانٍ دون أن أقدر على محاولة تحديه أو تجاهله!

أدرتُ رأسي أتطلع في تفاصيل البيت لأجد الظلام الخانق يحاوطه من كل الأركان وكأنه تحول لكهفٍ لم تشرق الشمس على جدرانه أبدًا.. فكان كل شيء ساكن حد الموت!

وعلى ذكر الموت نغز قلبي بشدة فهززتُ رأسي رافضًا، أعارض الفكرة كليًّا وأنا أعيد على دواخلي من جديد.. هي لازالت نائمة من إرهاقها لذا البيت غارقًا في الظلام، لكنها حتمًا بخير وطفلنا الماكث بجوار قلبها على ما يرام.



أخذتُ أخطو تجاه غرفتنا ببطء من تساق أحلامه لحبال مشنقة قرارات القدر، ووصلتُ لباب غرفتنا فضغطتُ على مقبضة بشدة أفتحه بسرعة نافضًا هذا الهاجس الذي يجعل عقلي يخشى إعطاء أوامره فيهادن الأفعال وهو يُبطء منها مشفقًا على ذاته من أثر الألم المنتظر.

دخلتُ ولم تكن حالة إنارة الغرفة أفضل حالاً من البيت بكثير؛ فقد كانت شبه مظلمة إلا من ضياءٍ خافتٍ بجوار الفراش فأشعلتُ النور بلا صبر وبنظرة سريعة اكتشفت خواء الفراش من وجودها فذهبتُ أبحث عنها مناديًا:

-براء، بر..

فتحتُ باب الحمام وأنا أكرر النداء باسمها ولم أكد أتممه ثانيةً حتى انقطع واحتقنت باقي حروفها في حنجرتي فأتمت الخناق..



فقد كان ذات المشهد الذي رأيته في كوابيسي طوال الأسبوعين الفائتين!

جالسة على أرضية الحمام الباردة باستسلام عجيب، عيناها منغلقتان بهدوء والدمعات حفرت أخاديدها على وجنتيها حتى يهيم لأي رائي أنها ولدت بهم، يداها مستريحتان على فخذيها وهي جالسة على إحداهما والآخر مفرود أمامها بتسليم، وأسفلها نهرًا من دماء.. دماء هي طفلي يعلن بها الرحيل!

لم أشعر إلا وأنا أجثو على ركبتي أمامها فاقدًا للنطق، والحركة، وللقدرة على التنفس حتى!

أغمضتُ عيني وضغطتُ عليهما بسبابتي وإبهامي بشدة زاعمًا أني هكذا سأستفيق من كابوسي المتكرر، لكني عندما فتحتهما من جديد صفعتني الحقيقة.. فقد تحقق كابوسي اللعين. فقدتُ طفلي كالمعتاد!.. لكن الأكثر رعبًا كان مرأى سكونها!..



وكأنها أخذتْ بكفه راحلة معه هذه المرة وتركوني أحارب جلبة غيابهما وحدي..

بلا رحمة من أي منهما!



(3)

وما بعد الألم!

**

إني دعوت الله دعوة عاشق

ألا تفرقنا الحياةُ .. ولا البشر ..

قالوا بأن الله يغفر في الهوى

كل الذنوب ولا يسامح من غدر

-فاروق جويدة.

-عندما يغفو القدر.



ضياء

مرت ساعات لا أدري كيف ممر إلى أن وقفتُ أمام باب غرفة العمليات التي اختطفوها مني بداخلها، رافضين منحي بعض الرحمة في رؤيتها ومراقبتها فقط وهم يحاولون إنقاذها. فوقفتُ وحيدًا شاردًا خارج الباب، أستند على الحائط بوجهٍ جامد وظهر متصلب وكل ما في يدعوا للاستسلام.

ظل الوقت يمر وبقتْ الأشباح السوداء تتراقص على كلماتهم الخبيثة قبل دخولها بأن حالتها صعبة من كثرة النزيف وعليَّ الابتهال والدعاء. فحاولتُ أن أحافظ على روحي من الانسياق وراء إدراك لهيب كلماتهم وأمنع عقلي من تحليل قصدهم الواضح كشمس الظهيرة.. ليس لخاطر شيءٍ سوى أن لا وقت لعيش حزني الخاص ولا مجال الآن للانهيار.



فقط دعوتُ بانتهاء كل هذا دون الغرق في تفاصيله، وكل ما منعني عن الصراخ، والغضب، والبكاء، والسخط على قدرٍ لا يكتب عليّ سوى المرارة والنقص الدائم: هو الخوف.

الخوف الذي يكبل المرء أحيانًا من العدو في مضمار الجنون، ثم يسقط روحه المعلقة في سماء الأمل فينثره إلى شظايا.

الخوف من الموت أن يخطو على شظاياي فيحولها إلى فتاةٍ باختطافها هي الأخرى مني للأبد، والخوف من غضب الله إذا أعلنتُ السخط؛ فأسقط في فوهة الجحيم بعدما تجاوزتْ خطواتي العارية السير على كل هذا الجمر المشتعل منذ سنوات وسنوات. أغمضتُ عيني واستندتُ برأسي على الحائط ورائي بإنهاك بدأ يبتلعني وحيدًا داخله كرمال متحركة.

وأعترف أني بحاجة لتربيتة أبي المساندة، ويد أمي المطمئنة.. ولا أقدر حتى على الحركة للاتصال بهم!



أعترف أني بحاجة لمشاطرة رعب فقدها مع أمها، والوقوف المآزر رغم انتفاضة النفس بجانب أخيها الغائب.. ولا أستطع إخبارهما! كل ما أقدر عليه هو الوقوف الصامت والانتظار بهدوءٍ بت أشك في المقدرة عليه.

أُنقذت أخيرًا بخروج الطبيب بوجه جامد يفتقر لأي تعبير، وحلقي الجاف منعني من إخراج حرفٍ واحد أشحذ به الاطمئنان من فم هذا المستفز الصامت، فكل ما قدرتُ عليه هو هز رأسي مستفهمًا، ويبدو أنه أشفق عليَّ مشكورًا فقطع صمته الغبي بكلمات شبه مطمئنة:

-هي بقت أحسن الحمد لله لكن هتفضل النهاردة وبكرا الصبح تخرج، وللأسف خسرنا الجنين، ويكون أفضل المتابعة مع دكتور نسا الفترة الجاية عشان أي حمل هيبقى فيه خطورة على الرحم.



ظلت كلماته تندفع بسرعة وتتراشق في عقلي المتأخر إدراكه خطوة ليحللهم ببطء متمسك بحبل نجاة واحد.. أنها أصبحتْ بخير. ستبيت في المشفى، فقدنا طفلنا، وقد نفقد الأمل للأبد في الحصول على غيره.. لكنها بخير وهذا وحده ما يهم الآن.

وبعد فترة لا بأس بها وبعد محاولة استفاقة إجبارية .. فعلتُ ما يجب فعله منذ أن جئنا إلى هنا؛ فاتصلتُ سريعًا بالجميع أخبرهم بمصابنا وأطمئنهم رافضًا مجيء أي أحد، وبالطبع لم يسمع لي أحد وأتوا جميعًا في مشهدٍ مكرر، ثم رحلوا جميعًا بعد الكثير والكثير من الحزن الذي خيم على الوجوه والألم الذي صرحوا عنه تارة، وسجنوه أخرى داخل نفوسهم رغم استمرار إعلانه عن نفسه بعنفٍ صارخ عبر نافذة ملامحهم المتحسرة.. ثم الكثير من الجدال بيني وبين حماتي وقت الرحيل بإعلانها أحقيتها في المبيت مع ابنتها وإصراري على وجودي بجانب زوجتي، حتى رضختْ



كالعادة لمبيتي معها مقابل اشتراطها كالعادة أيضًا أن تخرج من هنا على بيتها هي ليتسنى لها رعاية طفلتها كما يجب، ووافقتُ بلا نقاش باعتيادٍ وإرهاق. وعند منتصف الليل استفاقتْ فانتفضتْ روحي؛ غير مستعد لانهيارها الباكي التالي لكل إفاقة بعد خسارة.. ولكن وللغرابة لم ينجم عنها سوى الصمت الساكن ودموع تنحدر بهدوء، وهذا بالتحديد ملأ داخلي بالرعب!

وعند الرحيل تفوهتْ بكلماتها الأولى منذ إفاقتها معترضة على الذهاب لبيت والدتها ومصممة على الذهاب إلى منزلنا لأول مرة!

ولم أعلم أن مثل هذا القرار المفاجئ سينشر في قلبي التعس فرحة غريبة وغير مفهومة، فرحة تدفقتْ داخلي بنفس قدر الخوف وعدم الفهم القلق!

وعندها انتقلتْ والدتها للإقامة في بيتنا بدلاً عن ذهابها، وحاولنا إخراجها من حالة الصمت التي تلبستها وقُبلنا بالفشل المكلل



بالدمعات الغزيرة الصامتة. وظلت الأيام تمضي على هذا المنوال الخانق حتى تممت أسبوع كامل من الخسارة ولازالت ساكنة كزهرة شاحبة تنزوي ببطء طامحة في الذبول.

أذهب للعمل صباحًا بلا قدرة أو رغبة في شيء سوى مضي الساعات وأنا أعمل بنصف عقل وروح، ومتجاهلاً كل وأي شيء حتى ينتهي اليوم بسلام فأستطيع الفرار راجعًا إليها، فأعود لأجد استسلامها على حاله حتى كدتُ أن أختنق لوعة لهذه الحالة، فقررتُ كسر دائرة الاكتئاب هذه قبل أن تبتلعنا أكثر بالسفر إلى أسوان في رحلة قصيرة ونفذتُ أغلب الخطوات على الفور: أخذتُ أجازة أسبوعين من العمل، حجزتُ تذاكر الطائرة، وكذلك أتممتُ حجز البيت الذي سنقيم فيه، وترتيب البرنامج السياحي، وبقتْ فقط الخطوة الأخيرة والأصعب.. إقناع "براء" بالسفر. عدتُ من العمل مبكرًا بعد الموافقة على طلب الأجازة وبعض



الحماس ينمو داخلي.. دخلتُ البيت واستقبلتني حماتي ببسمتها الطيبة الدائمة فألقيُ عليها التحية وأنا أقبل رأسها:

-مساء الخير يا حبيبتي.

اتسعتٍ ابتسامتها وهي تقوم من جلستها وتربتْ على كتفي بحنانٍ وترد تحيتي بأخرى:

-مساء النور يا نور عيوني، هقوم أحضر لك الغذا بسرعة؛ أكيد جي من الشغل جعان.

قاطعتُ ذهابها بسؤال شبه متأكد من إجابته:

-براء كلت؟

توقفتْ متنهدة بتعب وزحف على وجهها الهم وهي تؤكد على ظنوني:



-والله يا ضياء كلت لقمتين في الفطار بالعافية بعد ما اتنبح حسي معاها، ولما سخنت الغدا بردو مش راضية تتغدا.. هروح أجهزه بمكن ترضى تاكل معاك.

أمسكتُ كفها أُقف ابتعادها لأُهِم بحياكة خطتي معها، وجلستُ على الأريكة ببعض الإرهاق وأنا أدعوها لمشاركتي الجلسة:

-لا استني، سيبك من الأكل وتعالي عاوزك في موضوع مهم.

رجعتْ تجلس بجواري وإمارات القلق ترتسم على محياها وهي تسأل:

-خير؟

-عاوز منك خدمة.

-أؤمر يا حبيبي.



التفتُ برأسي يمينًا ويسارًا ومثلت الخطورة المتآمرة بجبينٍ منعقد وأنا أميل بجزعي تجاهها ثم همستُ لها بصوت مسموع:

-عاوزة تحضري شنطة سفر لبراء.

سألتْ مبتسمة بنفس الطريقة الهامسة وهي تميل تجاهي بالمثل:

-ليه ؟!

-هنسافر.

هتسافروا!.. هتسافروا امتى، وفين؟

ورغم وضوح الفكرة إلا أنها تفاجأت بالفعل فأجبتها بالوجهة والتوقيت:

-أسون، والطيارة بكرا سبعة الصبح إن شاء الله.

-بسرعة كدا!

-احنا اتأخرنا أساسًا.



ولم تكن الكلمات تحمل معناها الظاهر فقط، ويبدو أنها قرأتْ ما أعنيه بالفعل فابتسمتْ بحنانٍ وانزوت نظرتها جانبًا بحزنْ شاردة لثوانٍ ثم عادت إليّ من جديد مغمغمة بتساؤلٍ قلق:

-بس تفتكر براء هترضى؟!

-ما هي دي الخدمة بقا، احنا مش هندي لها فرصة ترضى أو لا أصلاً، أنت تحضري شنطتها على طول وأنا أبلغها إن السفر بكرا، ونحطها قدام الأمر الواقع.

سكتت مفكرة لأقل من دقيقة ثم تهللت أساريرها وعلقتْ مبتسمة:

-حلو ده، خرجها أنت بس من الأوضة اللي دافنة نفسها فيها دي ومالكش دعوة بالباقي.

-سهلة دي متخافيش.. دقايق وتبقى برا وأفضي لك أرض المعركة.



-اتفقنا، وأنا هسخن الأكل بسرعة عقبال ما تطلعها، تاكلوا سوا هنا أكون أنا بخلص الشنطة.

-اتفقنا.

تصافحنا بعينين ظافرتين وابتسامة متآمرة سعيدة تشق ثغرينا، حاول كلٌ منا أن ينسى بها حزنه الخاص، ثم تركتها ودخلتُ غرفتنا بلا استئذان وفتحتُ كل الأنوار قاصدًا إزعاجها، ثم بدلتُ ثيابي ببطءٍ ناثرًا الإزعاج والصوت العالِ في كل لحظة، حتى سمعتُ طقطقة لسانها الحانقة وحركتها العصبية وهي تدفن رأسها أسفل الوسادة فابتسمتُ فرحًا لنجاحي في إيقاظها والحصول على رد فعل حي، ثم جلستُ على حافة الفراش وأنا أمثل الطاعة في الجلسة، والوداعة بالصوت، والتهذيب بالعينين كطفل بريء:

-برقوقة.. أنا جعان.

زفرتْ يائسة أو مغتاظة لا أدري، ثم علقتْ دون النظر لي:



-ماما عملا غدا بتحبه.. ناديها تسخنه وكل.

-والله عيب، يعني الست جاية تقعد معانا يومين نشغلها فيهم.

نظرتْ لي بطرف عينيها من أسفل الوسادة لثانية برسالة قرأتها مفداها "وكأنها المرة الأولى منذ أكثر من أسبوع!".. فحمحمتُ محرجًا في محاولة أخرى:

-احم.. طب يبقى عندنا شوية دم ونخليها ترتاح ويلا نسخنه احنا، كفاية إنها عملته يعني.

-مش قادرة أقوم، سخنه أنت وكل.

-لا ما أنا مش هاكل غير لما تكلي معايا.

أعادتْ كلماتها من جديد وهي تضغط على حروفها بغيظ:

-مش عاوزة أكل يا ضياء، قوم أنت كل.

-هتجوعيني يعني!



وقتها صرخت غاضبة بالفعل وهي تزيح الوسادة قليلاً عن رأسها لتنظر لي بعينين مشتعلتين:

-ضياء من فضلك أنا مش قادرة بجد، قوم أنت كل.

ابتلعتُ كلماتي التالية، وآثرتُ الصمت لدقيقة أو أقل لينطفئ غضبها ثم أكملتُ من حيث توقفتُ:

-خلاص بلاها أكل وربنا على الظالم والمفتري، نبقى ناكل لما نسافر بقى.

لم تعلق ولم تنتبه لي على ما يبدو فقمتُ من مكاني أجلس بجوارها وأنا أُزيح هذه الوسادة المستفزة من فوق رأسها بمشاغبة صبيانية:

-طب قومي جهزي لنا شنط السفر يلا.



تأففتْ بصوتٍ مسموعٍ ثم اعتدلتْ جالسة وهي تضرب بكفيها على طرفي الفراش، تنظر لي بحنقٍ وعينين يتدفق منهما الشذر:

-أنت رايق يا ضياء صح!

شعرتُ وكأن في كلماتها اتهام فنفيتها صادقًا وأكملتُ سيري بثباتٍ على خطتي:

-لا والله، واحنا متأخرين أصلاً، يا دوب نلحق نجهز الشنط.

-شنط إيه يا ضياء؟!

سألتْ بوجه ممتعض مغمض العينين وأجبتُ بسلاسة:

-شنط السفر.

-سفر إيه؟!

وهنا قد أتى دوري فصمتُ وأنا أتلاعب بفضولها ثوان ثم صرحتُ بابتسامة واسعة:



-هنشتي في أسوان.

لاحظتُ انزواء حاجبيها بانتباهٍ صامت دون أن تنبتْ ببنت شفة، فأكملت على الفور بحماسٍ مستغلاً فرصة انتباهها دون أن أضيعها:

-أنت مش كنت عاوزة تسافري أسوان الشتا اللي فات، قولت استغل الفرصة وأخدت أجازة أسبوعين من الشغل وهنروح نغير جو هناك.. استغلي الفرصة أنت كمان بقى بدل ما ارجع في كلامي.

صمتت فترة بعينين شاردتين ثم رمشتْ بهما مرتين قبل أن تغمضهما مغمغمة:

-مش عاوزة.



ورغم سيل الألم العاصف الذي أغرق صدري لهذه النبرة الخامدة وهذا التعبير الزاهد في كل ما كان أمنية.. إلا أنني منعته من التحرر كالعادة وحبسته داخل قناع من التأقلم والتجاوز:

-طب وتذاكر الطيران اللي اتحجزت دي، أعمل فيها إيه؟

-رجعها يا ضياء مش حوار.

-أرجعها! هي قرص جبنة رومي أنت مش عوزاه!.. دي تذاكر طيران.

-خلاص اديها لأي حد صدقة.

استغربتُ هنا بصدق ورفعتُ حاجبي غير مصدقًا وشق ثغري ابتسامة حقيقة تحولتْ لضحكة خفيضة:

-أدي لحد تذاكر طيران لسياحة في أسوان صدقة!.. أنت سخنة يا حبيبتي؟!



قلتُ الجملة الأخيرة وأنا أتحسس جبينها ببالفع فأبعدتْ يدي بتصريحٍ صامت بعدم الرغبة أو القدرة على مجاراتي، وتنهيدة مجهدة خرجتْ منها بصدق وهي تسأل بملل:

-أنت عاوز إيه يا ضياء؟

-عاوز نلحق الوقت اللي بيضيع ده، بقول لك تعالي بس نقعد في البلكونة عشان الجو هنا خنقة ومش هنعرف نتفاهم كدة.

أمسكتُ كفها وجذبتها خلفي خارجين من الغرفة رغم ممانعتها ومقاومة جسدها المتعب وكلماتها المعترضة وأغلقتُ الباب ببعض العنف لتسمع صوته حماتي، ثم جلسنا في الشرفة لبعض الوقت قبل أن أذهب لجلب الطعام لنتناوله في الشرفة مانعًا إياها من الهرب والانزواء حتى الذبول في الغرفة المغلقة.

وأخيرًا انتهتْ حماتي من المهمة وعلمتْ "براء" بالاتفاق المبرم وخروج مباركتها أو موافقتها عن التأثير على تنفيذ المخطط؛ معلنًا



أنها ستتم رضتْ أم اعترضتْ، ولا فارق ضخم إن كانت خطة هرب أم اختطاف؛ فاستسلمتْ.. لتتم خطة الهرب بنجاح.

**



مضينا مع الدهر بعض الليالي..

فجاء إلينا بثوب جديد.

وأنواع عطر ونجم صغير..

يداعبنا بالمنى من بعيد!

-فاروق جويدة.

-ويخدعنا الزمان.



براء

أجلس على متن الطائرة التي تستعد للهبوط حيث الجنوب بين أحضان دفء أسوان! .. فكالعادة كل قراراتي لا تصمد أمام بأس قرارات "ضياء"، لم أشعر سوى بالحصار فاستسلمتُ ولم أقدر على الإصرار على الاعتراض أكثر، فهذا يتطلب طاقة لا توجد عندي الآن. بل هو من أصر وكعادتي معه دائمًا رضخت. أصر على الهرب من الواقع؛ فسلمتُ وهربتُ.. فالهرب نعمة لا تقدر بثمن، ولا يعترف بتلك النعمة المُحرمة سوى من أُغرقوا مُكرهين في الاحتراق المتكرر لنيران الخذلان. أولئك من تمرستْ الدنيا على نشل كافة أمانيهم من بين أحضانهم الدافئة تاركة لهم برودة الخواء.



من استكثرتْ على سمائهم الضوء فتركتْ لهم الظلام الحالك دون قمر أو بضع نجمات حتى.

هبطتْ الطائرة وتنفستُ هواء البلد المنعش بقلبٍ مغلق يستصرخ التحرر، وبمجرد وصولنا للبيت الذي سنقيم فيه الأسبوعين ورؤية المنظر الخاطف الذي يطل عليه من الصحراء الممتزجة مع النيل الآسر: شقتْ بسمة إجبارية ثغري وأخذتْ في الاتساع كل يوم عن الذي قبله، كما نثرتْ الألوان -المرسومة بفنٍ مذهل في كل حدب وصوب بالبلدة- البهجة داخلي على استحياء أخذ ينزوي في كل يوم تاركًا خيول الراحة والاستمتاع تجمح داخل صدري المتعب لتهديه بعض السكينة. ولن أستطع الإنكار للحظة أن مجرد الهبوط على هذه الأرض كفيل بامتصاص كل حزن يعبق داخل الإنسان، كما كان البرنامج السياحي مبهرًا بحق، فلم نترك تقريبًا موضع في أسوان لم نزُره ولم يدخر "ضياء" جهدًا ولا وقتًا لتنفيذ



أي وكل شيء يشك للحظة أنه قد يسعد روحي، مستغلين كل ثانية لرؤية كل شبر، ولم يكفِ.. ذهبنا للأسواق واشتريتُ الكثير من العبايات النوبية المميزة، والأساور والاكسسوارات، والأقمشة، والأواني الفخارية، والأسبات الملونة، والتذكارات، وغيرهم الكثير والكثير من الأشياء.

اندمجتُ وربما امتزجتُ مع أهل البلدة فلم أترك أحد يقبل الحديث مع السياح إلا وتحدثتُ معه في أي موضوع وقد كانوا جميعهم مرحبين على الأغلب، والاستمتاع أيضًا بالكثير من الرحلات بالقوارب، ليلاً ونهارًا.

فوجدتُ نفسي بمرور الأيام أنسحق بين رمال هذا المكان الساحر وتتحرر روحي محلقة بين ربوعه، فانقشعتْ غيمة الحزن وأمطرت حماسًا عبرتُ عنه بكل شكل وفي كل جولة وكل معلومة ولو صغيرة أعرفها وأنا أشاركه إياها عن كل مكان وطأتْ فيه



قدمي رغمًا عن أي مرشد صاحبنا.. تمامًا كما اليوم ونحن نتجول في معبد "فِيلة"، وأنا أشير له ونحن على وشك الدخول للمعبد أُعرِفه عليه وكأنه لا يعلم:

-بص ده معبد "فِيلة" كان..

توقف وزوى حاجبيه يقاطعني باستخفاف:

-استني.. معبد إيه؟

-معبد "فيِلة".

-"فيِلة"، "فيِلة" يا جاهلة! اسمه "فيَلة".

قالها وهو ينظر لي بنظرة استهزاءٍ بها بعض من خيبة واشمئزاز ممازح، فرددتُ عليه بذات معالم الوجه همسًا حتى لا يسمعنا أحد من باقي المجموعة:

-بس يا ضياء بالله عليك وبطل أنت جهل.. اسمه معبد "فِيلة".



-"فِيلة" إيه.. أنا فاكر كويس أنا خدتها في الدراسات زمان، اسمه معبد "فيَلة" مش "فِيله" دي.

لم أستطع الاستمرار في الهمس أمام إصراره على "الفتي" فيما لا يعلم فعلى صوتي باعتراضٍ وحنق وأنا أمنعه من الاسترسال في هذا الهراء:

-يا ربي عليك، هو أنت لازم تقاوح في أي حاجة!

-لا أنا ما بقوحش، ده تاريخ يا حببتي مش هنهبد فيه كمان.

ضربتُ كفي ببعضهما بحنقٍ وزحفتْ ابتسامة يائسة مستمتعة بمناوشته على شفتي، ولم ننتبه أن المجموعة التي كنا بصحبتها كانت منتبهة لنا إلا عندما صدحت ضحكات بعضهم من الذين تفهموا حديثنا بالطبع، ثم علق المرشد بابتسامة لبقة:



-هي المدام بتتكلم صح على فكرة.. دي من المعلومات المغلوطة، اسم المعبد نطقه الصحيح "فيِلة" مش "فيَلة".

التفتُ له بعينين تنضح بالفخر والشماتة، وكورتُ فمي في محاولة منع ابتسامة واسعة وأنا أرفع كتفي قائلة بترفع واثق:

-شفت.

ولم أنتظر تعليقه وتقدمته وأنا أناقش المرشد في الكثير من المعلومات عن المعبد وعن حقبته التاريخية والكثير من المعلومات الأخرى.

وفي مساء اليوم ذهبنا إلى قرية قريبة نتجول فيها وارتديتُ عباءة نوبية مزركشة زاهية الألوان، ثم جلسنا نستمع للغناء النوبي المميز وموسيقاهم الرائعة، واستمعنا جاهلين لبعض كلمات لغتهم الخاصة بانبهار أطفال في الروضة. وأثناء جلستنا دعانا أحد الرجال الذي تعارف عليه "ضياء" لشرب قهوة "الجَبنَة" المميزون



بها، وبالطبع رحب "ضياء" بشدة لإدمانه إياها وافتقاده لها، وعندما جلسنا بجانب السيدة التي تصنع القهوة الخاصة ببعض الإضافات من الأعشاب؛ كان "ضياء" يمسك كل عشب ويسمي كل نوع من الأعشاب فتعلن السيدة خطأه مصححة اسم العشب بآخر، فلم أستطع سوى الانفجار ضاحكة معلقة من بين ضحكاتي:

-يا حبيبي هو أنا مش قولت لك ألف مرة أنت ما تتكلمش بعد كدة غير في الميكانيكا وبس، أنت لما بتخرج برا الميكانيكا بتعك يا ضياء.

نظر لي بطرف عينيه وقلب فمه وهو يأمر بأسف، مزهوًا بنفسه:

-بطلوا حقد يا أعداء النجاح، أنا كنت عارفهم أصلاً على فكرة، بس ما رضتش أعلن عن مواهبي قدام الناس.



ادعيتُ الموافقة بهزة رأس ولم أستطع التخلص من ضحكاتي أو إيقافها ولو قليلاً:

-أيوة صح عشان الحسد، دي حتى العين فلقت الحجر.

ضحك ضحكته الأثيرة، وقرب مني قهوته عارضًا بإغراء:

-طب خدي دُقيها كدة، والله حلو.

-لا ما بحبهاش أنت عارف.

-اسمعي الكلام، هيفوتك نص عمرك.

-شكرًا.

وعند أطراف الليل قمنا للتمشية في هذا الجو الخاطف ثم جلسنا على بعض الأحجار أمام النيل. طال تأملنا وطال معه الصمت ثم قام "ضياء" لإحضار شيء ما فشردتُ في السماء بنجومها المتلألئة وآلاف الأفكار تعصف برأسي تحاول هد سلامي



النادر، حتى عاد بعد فترة قصيرة وجلس بجانبي من جديد وفي يده كوب قهوة "الجَبنَة" التي أدمنها على ما يبدو، فالتفتُ له ببعض الذهول:

-مش معقول وربنا.. دي تالت مرة تشربها كدة في أقل من ساعتين.

ابتسم دون أن يلتفت لي مركزًا بصره على النيل أمامنا:

-طعمها جميل والله، هتخسري كتير لو ما جربتيهاش.

-ماشي يا سيدي، أنا راضية بالخسارة.

لف الكوب بيده يتأمله مفكرًا ثم نظر لي بابتسامة حلوة:

-عارفة فيها شبه من القهوة السوري، بس دي أطعم.



غرقتُ فيه للحظة وتشربتْ عيني بما جال في نفسي، ثم هززتُ رأسي مغمغمة بصوتٍ مسموع وبسمة خطا بعض الهم عليها بخطواته:

-بتعشق المُريا ضياء.

لم يعلق على كلماتي، وربما كان في صمته اعتراف وتسليم، ورجع يلفنا الصمت من جديد ونحن غارقين في سكينته حتى قطعها "ضياء" مستفسرًا بنبرة جادة:

-مافكرتيش تعملي دبلومة أو ماجستير في التاريخ؟

انزوى حاجباي باستغرابٍ حقيقي تزامن مع ابتسامة واسعة مستغربة؛ فسألتُ وقد انفلتتْ ضحكة خفيفة أثناء سؤالي:

-إيه ده، اشمعنا؟!



-يعني.. ملاحظ إنك بتحبيه ومهتمة بيه أوي، وثقافتك فيه واسعة، فليه لا؟!

-عشان مش أي حد غاوي تاريخ أو عارف فيه كام معلومة بقى أستاذ يعني.. الموضوع أكبر من كدة.

-أكيد طبعًا أكبر من كدة، بس الفكرة إن الهاوي هيعرف يكمل، وبعدين لو هو أستاذ أصلاً هيدرس ليه من الأول!

مدتُ شفتي بتفكير للحظات ثم صدقتُ بهزة رأس مقتنعة، وعليَّ الاعتراف أن الفكرة لاقت استحسانًا جمًا داخلي قبل أن يزيد من دفعها أكثر:

-فكري في الموضوع.. هتستمتعي بيه.

-ربنا يسهل.

ثم عاد الصمت..



وعادتْ ذكريات الخوف تضرب رأسي من جديد.. تلك الذكريات الحديثة جدًا، بنفس حداثة وجودنا هنا تقريبًا.. ففي نفس اليوم الذي قرر "ضياء" فيه السفر إلى هنا، علمتُ أنا أن عادت هي.. في نفس اليوم وأنا ممسكة بهاتفي بملل أبحث عن النوم، ضربتني أحد المنشورات لصديقة مشتركة ترحب بعودتها للوطن بتاريخٍ قديم!

فهاج داخلي الخوف المختبئ وأحرق غصن السلام الأخير الذي كان في نفسي.. نعم لقد أعاد ري روحي وسلامي بهذه السفرة الرائعة، لكن وبعد!

ماذا بعد انتهاء هذا الحلم؟!

ماذا بعد انتهاء جولة السلام والعودة لاختناق الواقع؟!

ماذا بعد ما تقرر الحياة أن تختطفه مني كعادتها معي في كل شيء غالي يحافظ على توازني؟!



ومع الصمت الذي طال تلك المرة لم أستطع كتم الأمر داخلي أكثر فسألته بهدوءٍ، حاجبة كل الرعب الذي يعربد في صدري عن نافذتي عيني حتى لا يقرأهما بمهارته المعتادة في فك شفراتهما:

-ما قولتليش ليه إن تيا رجعت مصر؟

كان الكوب الصغير على فمه يستعد لإنهاء رشفته الأخيرة لكنه توقف عند سماع الجملة!.. ثم أكملها ببطء ووضع الكوب الفخاري بجواره وأجاب بهدوء دون أن ينظر إلي:

- ماجتش مناسبة.

-كل ده ماجتش مناسبة؟!

نظر إليَّ بتصميمٍ.. وشيءٍ آخر، شيءٍ لم أستطع قراءته، ثم قال بجمودٍ مؤكد وبرغبة واضحة في غلق الموضوع:

-آه يا براء ماجتش مناسبة.



-وكنت ناوي تقول لي امتى؟

-في إيه يا براء، احنا هنفضل طول اليوم نتكلم عن تيا؟!

قالها بشيء من حدة وتأنيب مع جبينه المنعقد، وشردتُ أنا فيه.. لم تريحني ردة فعله، بل زادتْ من رعبي أضعافًا، ولكني دفنتُ شعوري لوقت بعثه المقدر ووافقته بهزة رأس وعدتُ للنظر للنيل من جديد.

سرحتُ بعض لحظات في منظر الضياء المنكسر على صفحة النيل الثقيلة بما داخلها من أسرار وحكايات مدفونة، ووجدتني أشاركه الكلام من جديدٍ بأمنية قديمة لا أدري لماذا قفزتْ داخلي الآن:

-عارف.. طول عمري كان نفسي أحضر الشروق من أوله وأنا في مركب في نص النيل.. أشوف كل لحظة لالليل وهو بيختفي وبيجي مكانه نور الشمس، ومافيش أي حاجة واقفة قدامي منعاني أشوف السما.



حاول الاندماج في تغير الموضوع ونظر لي مستغربًا بينما تقطيبة جبينه لم تنفك بعد:

-عمرك ما قولتي الموضوع ده قبل كدة!

هززتُ كتفي بجهل وأنا أخبره صادقة:

-عمري ما قولت لحد أصلاً.. كانت أمنية صامتة.

-طب يلا كفاية كدة عشان الجو اتأخر.

ذهبنا إلى البيت ثم نمنا على الفور؛ من إرهاق التجول المتواصل منذ ساعات الصباح الأولى.. لأجده يُقظني قبل الفجر مصممًا على خروجنا في هذا التوقيت المريب!

سألته أكثر من مرة عن وجهتنا لكنه تشبث بالصمت وجوابه الدائم بأني سأعلم عند الوصول، حتى وجدتنا نقف على شط النيل أمام قارب صغير، وساعدني في ركوبه ثم بدأ في التحرك بنا



نحن الإثنين فقط.. وعند منتصف النيل توقف وبسط ذراعيه يخبرني بابتسامة واسعة:

-السما والنيل كلهم بتوعك.

لكثير من الوقت لم أستطع الحركة ولم يتحرك هو أو يفقد ابتسامته، وفي لحظة واحدة كنت قد قطعتُ الخطوة القصيرة الفاصلة بيننا أضمه لي ولا أدري أكنت أبث امتناني أم أطمئن بحقيقة وجوده وحقيقة وجود هذه اللحظة، فشدد هو على احتضاني أكثر مجيبًا بصمت عناقه!

ولم أعرف حقًا أكان عناق، أم تشبث، أم رجاء!

ثم وبعد الكثير من الوقت على وقفتنا المحتضنة ابتعدنا وأشار إلى السماء ينبهني بصوتٍ هامس:

-الحقي الشروق قبل ما يضيع.



ثم ذهب للمقعد ورقد يستند برأسه على مرفقه، فذهبتُ أنا الأخرى وقلدتُ نومته بدوري، أستند برأسي على خشب المقعد ويداي ساكنة بجانبي ونظرتُ للسماء مراقبة..

ولا أعلم من أين خرج السؤال وأنا أنظر للسماء منتظرة إشراقها:

-ليه؟

-ليه إيه؟

-ليه مستحمل كل ده!

صمتْ.

صمت كثيرًا وهو يحملق في ظلام السماء، ثم أخرجها بسلاسة:

-مش عارف.

لم يكذب، ولم يراوغ، بل قالها صادقة وتبًا لصدقه الذي كان أبعد ما أحتاجه وأنشده الآن!



بدأ الليل بالانهزام وخيوط الفجر تبسط ردائها الآمن على السماء فاستسلمتُ للحظة المراقبة بصمتٍ دون تفكيرٍ زائد. ودقائق ربما امتدت لساعة أو أكثر حتى انتشرتْ زرقة الصباح على صفحة السماء بأكملها. التفتُ ناحيته مستغربة صمته لأجده ساكنًا شاردًا في السماء الصافية فوقنا فاندفع الفضول لأكشف ما بداخل رأسه، فسألته مبتسمة دون موارة:

-سرحان في إيه؟

-في الشمس.

-اشمعنا؟!

التف برأسه ونظر لي وطال صمته دون أن يبتعد بعينيه عني، ثم همس مصرحًا بأكثر الكلمات سحرًا على الإطلاق:

-أول مرة آخد بالي إنها بتشبهك.. بتشبهك في حياتي.



تصلبتْ نظرتي على خاصته ولم أقدر سوى على استمرار النظر له فقط، وبلا أي كلمات!

وبعد فترة ما لا أدريها.. قام من رقدته وهو يحثني على انتهاء الجولة مبتسمًا بإرهاق ونعاس:

-نرجع بقى؟

انتفضتُ من رقدتي أنا الأخرى بسرعة لأعترض برجاء:

-لا خلينا شوية، عشان خاطري.

تنهد تنهيدة مثقلة ثم ابتسم وهو ينظر لي مسلمًا:

-حاضر.. عشان خاطرك.

وبقينا.

رغم الإرهاق والمخاوف.. بقينا.

رغم ضجيج الرأس، واندفاع القلب.. بقينا.



لساعتين آخرتين.. بقينا.

ولأجل خاطري.. بقى.

**



الموج يجذبني إلى شيء بعيد!

يا شاطئ الأحلام..

يوما من الأيام..

جئت إليك كالطفل ألتمس الأمان.

كالهارب الحيران أبحث عن مكان!

-فاروق جويدة.

-أحلام حائرة.



تيا

خبطتان متأنيتان على الباب أعلمتني أنه هو؛ فصرحتُ بالدخول دون أن أنزع عيني عن عملها الآلي -لحسن الحظ- على الحاسوب لأن التركيز فر محلقًا تاركًا المجال للحيرة المعتادة في وجوده!

دخل معلقًا وابتسامته المعتادة تزين ثغره:

-صدق اللي قال الموظف المجتهد رزق.

-وأنت مش مجتهد ليه يا باشمهندس؟

-مجتهد والله، بس أنت اللي مجتهدة أوي فمش عارفين نحصلك.

نظرتُ له وأنا أضيق عيني، وشفتاي تنزويان للجانب بشبه ابتسامة وأنا أسأله محذِرة:

-ده حسد؟!



رفع كفيه أمامه ضاحكًا:

-حاشا لله.

شاركته ضحكته ببسمة واسعة وأكملتُ ما في يدي بعجالة والفضول يأكلني لمعرفة ما تحويه جعبة زيارته هذه المرة.

أنهيتُ ما في يدي ونظرتُ له أفتش عن جملة ما أقولها له، ولكنه قاطع بحثي وسأل مباشرة، لا يدري أنه أنقذني من حرج الصمت وألغام البحث عن كلمات مناسبة:

-هتخلصي شغل النهاردة في معادك، ولا قاعدة شوية؟

-لا في معادي.

-طب قولي لي فاضية بليل؟

أنزوى حاجباي بريبة من السؤال الذي يُطرح للمرة الأولى فسألت:

-اشمعنا؟



-يعني لو وراك أي خطط بعد الشغل، متفقة مع صحابك تخرجوا، أو هتزوري حد، أو أي حاجة.

شقتْ بسمة شاحبة وجهي بلا إرادة مني لهذا السيناريو البعيد وأجبته بهزة رأس نافية:

-لا ولا أي حاجة.. أنا مابعملش النشاطات دي أصلاً.

-خلاص يبقى نكسر القاعدة النهاردة.. أنا عازمك على العشا.

ومن جديد انبثق داخلي وعلى محياي ذات التعبير المرتاب وانزواء الحاجبين مع تغير طفيف في صيغة السؤال:

-ليه؟!

أجاب ضاحكًا وهو يمسد جانب وجهه بكفه وفشلتُ في تحليل معنى تلك الحركة:

-مابيتقلش كدة لما حد بيعزم حد على العشا على فكرة.



-أومال ببتقال له إيه؟

تلبسه الحماس وهو يجيب:

-بيتقال له طبعًا، أكيد.. الساعة كام؟

ارتفع حاجباي وانزوى ثغري باسمًا في شبه اتساع غير مصدقة لسلاسة كلماته:

-لا والله.. من غير ما يعرف السبب طيب؟!

طقطقة معترضة خرجتْ من فمه وهو يشير بكفه بلا مبالاة:

-الأسباب دي شكليات.. المهم الساعة ٨ كويس صح؟

تخبطتُ وارتبكتُ من سرعة وثبه للخطوات بهذه السلاسة وثقته في تخطيها:

-إيه ده أنا ما وافقتش أصلاً!

-بس أنت قلبك طيب مش هيهون عليك ترديني خايب الطلب كدة.



قالها بلطفٍ جم يستميل موافقتي ببراعة؛ فازداد التخبط أكثر وترنح عقلي حائرًا فهززتُ رأسي نافية:

-لا يا بهي، مش هينفع بجد.

-ليه مش هينفع؟!

وكأنه كان جاهزًا لاعتراضي فداهمني بسؤال مباشرة ثم تبعه دون فاصل سوى ثانية واحدة بكلماتٍ واثقة وبوجهٍ جادٍ مصمم وصوتٍ هادئ:

-تيا أنا محتاج أتكلم معاك في موضوع مهم.

-قول دلوقت.

-مش هينفع، لا دلوقت ولا هنا.

صمتُ حائرة من جديد، وفي صمتي الحائر اصطاد الموافقة وأجبرني عليها بكياسته وفضولي:



-نخليها سبعة أحسن.

صمتْ لحظتين وقرأتُ الحيرة على ملامحه، ثم ثنى رقبته سائلاً، فعرفتُ سبب حيرته:

-أعدي عليك؟

-لا أكيد.

قولتها بشيء من حدة متفاجئة وجبين انعقد تلقائيًا ولا أدري السبب، فوضع كفيه أمامه ضاحكًا بخفة:

-خلاص اللي تحبيه، هبعت لك لوكيشن المطعم.

قام بذات الحماس الذي دخل به، مضيعًا عليَّ أي فرصة أخرى للتردد أو الاعتراض، وتوقف عند الباب قبل خروجه يحرر آخر كلماته:

-الساعة سبعة.



قالها مؤكدًا مشيرًا بسبابته مع ابتسامة شقية ورفعة حاجب محذرة، ثم أغلق الباب ورائه بهدوء وذهب. وبذهابه انتشل وفر بثباتي وبعثر أفكاري ليبقى الفراغ الذي يتسيده هو!

فتناسيتُ كل شيء وأي شيء كنت أفكر فيه قبل دخوله، وبقى هو!

تخلصتُ من ارتباكي وإحراجي، وظل هو!

هو.. بكل ما فيه من أوصافٍ وتصرفات!

محاصِر، واضح، خطاه ثابتة، غير متعجل، عاقل لحد مربك، ومهتم لحد مخيف!

لأجدني مع كل خطوة أو فعلة منه، أتحول معه كطفلة صغيرة عاشت عمرها وحيدة في الصحاري وفجأة رُميت على شط الإعجاب فوقفتْ تبلل أصابعها باستحياء برذاذات الاهتمام



والأُنس.. وعندما تحاول التقدم خطوة أكبر بشجاعة يرتطم بصرها بزراع تلك الناضجة -وهو كل ما بقى منها ظاهرًا في هذا البحر الضخم- وهو يخبط بيأس طلبًا للنجدة والإنقاذ من أمواج الهوى الذي ابتلعها قبلاً، ولا منقذ!.. فتتوارى شجاعتها وتعود عن قرارها وتبقى متشبثة بالشط، فيثور الموج على هروبها منه وينهال داخلها مخبطًا زواياها.. ويموج بقلبها وعقلها وروحها، فتتخبط هي مرغمة في أمواجه بين رغبة إنقاذ، وأصفاد خوف، وقيد قلب!

وعلى هذا البرزخ شُطِرتُ وشُطِرتْ أفكاري وجوارحي.

ففي أحكام بحار الهوى والدنيا.. لا فناء الغرق متاح، ولا براح الحياة ممكن!

وبقيتُ هكذا لنهاية اليوم أترنح بأفكاري في فلكٍ ملغم أستطيع بحدثي استشفاف بواطنه.. أخشاها كالكابوس وأنتظرها كالقشة التي يتعلق بها الغريق.



فكرتُ للمرة الألف خلال باقي اليوم -الذي يمضي كالسلحفاة- بالذهاب له والاعتذار عن الدعوة، وفي كل مرة قبل أن أتمم خطوت الاعتراض أثبت باعتراض آخر..

فالعقل يحث والقلب يُثني.. والروح أثيرة للصمت الجاهل!

فاتبعتُ الأول وأخرستُ الثاني، وأشفقتُ على الثالثة متجاوزة إياها.. ثبتُ أقدام اعتراضي، وأطلقتُ صراح التجربة من جديد موافقة على خوض غمار المجهول.

وفي المساء وفي المعاد المتفق عليه، أو الذي حدده هو.. ذهبتُ.

كان مطعم فخم، راقي، وبسيط رغم ذلك.. وفي المجمل كان يشبهه ويلق به.

استقبلني النادل ورافقني إلى الطاولة الذي يجلس عليها، وبمجرد رؤياه تضاعف توتري -الطافح داخلي بوفرة من الأساس- وبمجرد



أن رآني هو توقف بتهذيبٍ يستقبلني فأمكنني من تأمل أناقته في بذلته السوداء والذي استغنى عن رسمية رابطة عنقها والچاكت الخاص بها، فتذكرتُ الساعات السابقة لاختياري لملباس اليوم، والتي كانت نوع من جحيم أُلقيت به بلا سابق تحذير: كنتُ لا أعرف ماذا يجب عليَّ تحديدًا أن أرتدي!

هل فستان سهرة سيكون مناسب أم أنه مبالغ به؟!

وهل عدم ارتداء شيء للسهرة سيكون قرارًا حكيمًا أم سيكون نوعًا من قلة الذوق؟!

ثم ناله مني الكثير من الكلمات الحانقة على إصراره على عدم إخباري بسبب هذه الدعوة.. ألا يجب على المرء معرفة هدف المقابلة لكي يستطيع تنسيق الملابس المناسبة لها على الأقل!

واختصارًا انتهي بي المطاف مرتدية "چمبسوت" أسود بحزام عريض عند الخصر، عاري من أحد الكتفين وشبه مغلق عند



الآخر بفتحة طولية لآخره، مبطن أسفلهم بكتفين يصلان للمرفقين بذات اللون الأسود، وزينة دافئة بتدرجات البني، وأحكمتُ رباط شعري بضفيرة عصيرة طويلة ساكنة على جانبي الأيمن.

جلستُ بعد أن أزاح لي المقعد بـ"چنتلة" خلفتْ داخلي الكثير من التوتر والرغبة في الفرار، وتبادلنا الثناء المجامل على إطلالتنا ثم تحدثنا في مقدمات فارغة عن العمل وكيفية انتهاء اليوم.. كانت ذبذبات التوتر تحاصرني من كل اتجاه، وكانت مشتركة على ما يبدو فقد فَقَد الكثير من جاهزيته وطلاقة حديثه، لكنه تغلب على هذا وهو يسألني مستثنيًا نصيبه من هذا التوتر الذي سألني عنه:

-مالك شكلك متوترة؟!

نفيتُ وبررتُ بجزءٍ من الحقيقة:



-لا مافيش بس أول مرة آجي هنا.

-أنت شكلك مش من هواة الخروج أصلاً.

علق بها بضحكة خفيفة، فوافقته معترفة:

-يعني بصراحة مش أوي.

-طب لما بتحبي تخرجي بتروحي فين؟

-أي مكان مفتوح، كمان مش بحب أروح مطاعم لوحدي، وبقالي كتير مش بخرج مع حد.

-قصدك بقالك كتير ما اختلطيش بالمجتمع.. خاصة المصري.

عدلتُ عليه ببعض الحرج:

-يعني خلينا نقول إني مش بعرف أندمج أوي مع الناس، سواء هنا أو برا.

-أحسن.



استغربتُ تعليقه فسألتُ:

-اشمعنا؟!

-عشان تفضلي محافظة على نفسك زي ما عرفتيها.. لو اندمجتي معاهم هيشوهوكي.

قالها بصراحة وبعينين شبه شاردتين، فأثار داخلي الكثير من الأفكار والحيرة تجاهه في رأسي.. أنا لا أعلم عنه تفاصيل سوى القليل، ولكني أيضًا أعرفه منذ سنوات قبل سفري؛ فهو من أقدم العاملين في الشركة.. لم تربط بنا زمالة قوية في الماضي قبل سفري، لكن الأمر اختلف عند عودتي، كما كنتُ أعرف أنه كان مرتبطًا وهذا أيضًا تغير ولكن غالبًا من قبل عودتي.. فترى في هذا سبب لكلماته أم أن هناك أسوء؟!

أجليتُ كل هذا عن رأسي وأنا أرتشف من كوب الماء أمامي وأسأله مغيرة الموضوع:



-المهم.. قول لي بقا كنت عاوز تتكلم في إيه؟

-طيب استني نتعشى.

-طيب نتكلم دلوقت ونتكلم واحنا بنتعشى.

-طيب..

قالها وهو يأخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه في زفرة طويلة وابتعد بنظره يراقب المحيط للحظات، فانشغلتُ أنا الأخرى بلا شيء وأنا أتظاهر بتثبيت سوار معصمي حتى هدم ثباتي بجملته الثابتة وعيونه المحاصرة:

-تيا تتجوزيني؟



(4)

بعض الحكايات نجاة، وبعضها اكتمال، وغيرهم.. طعنة.

**

يا فارس العشق هل في الحب مغفرة!

حطمتَ صرح الهوى والآن تبكيه!

الحب كالعمر يسري في جوانحنا..

حتى إذا ما مضى.. لا شيء يبقيه.

-فاروق جويدة.

-لإن الشوق معصيتي.



تيا

استيقظتُ في الخامسة صباحًا كروتين يومي طبيعي اعتدتُ عليه منذ الصغر؛ فأنهيتُ صلاتي وقراءة وردي الثابت من القرآن -كما علمني وأوصاني أبي منذ أن كنتُ طفلة- ثم القيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة.. وأخيرًا تناول فطوري من إحدى المعجنات الساخنة بيتية الصنع التي لا ينقطع دفئها من إحاطة بيتي مع كوب شاي بحليب دافئ، وأنا أستمتع بنسائم هواء الشتاء البارد، وأراقب المارة من الأطفال الذين يهرعون مع أمهاتهم لملاحقة وكب العالم الدراسي من شرفة بيتي قبل ذهابي لبداية يومي الخاص في العمل.

باختصارٍ كان يومٌ عاديًا ببدايةٍ عاديةٍ؛ ولكن بتغير بسيط.. أو تغيرين للدقة.. خاتم ذهبي يعانق إصبعي، واستعداد لإعلان!



فاليوم هو اليوم المبرم لاتفاقي مع "بهي" على إعلان خطبتنا في الشركة. ورغم توتري وعدم ارتياحي لممارسة هذه الأفعال والاجتماعيات الباردة، إلا أنني أعي جيدًا أن هذا ضروري ولا مفر منه؛ ومنذ الصباح أحاول التمرن على تلقي التهاني بثباتٍ وبابتسامة دبلوماسية خلقتها وهذبتها السنوات.

تأففتُ بتبرم وجلستُ على طرف الفراش بيأس بعد كثير من الفشل على التمرن أمام المرآة على نقش ابتسامة ليست عالية السماجة، وترديد كلماتٍ محددة للرد على بعض المجاملات والممازحات الثقيلة التي أنا موقنة من سماعها.

حاولت استجلاب الهدوء وأنا أبعد هذا عن رأسي وتذكرتُ عرضه قبل أسبوعين وإعطاء ردي بالموافقة بعدها بأسبوع رغم توتري الصاخب، ومن ثم حفل خطبتي القريب البسيط منذ يومين في مساء الخميس. برداءٍ ناعم كريمي اللون، وبذلة كلاسيكية، في



أحد المطاعم الراقية ودون أي مظاهر صاخبة للاحتفال وقد أصررت أنا على ذلك، ألبسنا الخواتم وأقمنا احتفالاً هادئًا.

كنا محاطين بأسرته الصغيرة من أبيه وشقيقته.. كان أبوه متفهمًا ودودًا، وأخته لطيفة وبشوشة حقًا، وهو.. هو كان لبقًا، واثقًا كما دائمًا، يبدو عليه الارتياح والرضا، ومحاطًا بدعم ومباركة أسرته الصغيرة!

بينما كنتُ أنا بمفردي تمامًا. وبخلاف منغصات اليوم من شعور قاتل بالحرج، وغصة مريرة من الافتقاد، فقد كان هناك شيء من ارتياح وأمل حاوطوني رغم كل شيء.

ولكن.. عند انتهاء اليوم، وبعدما أوصلني لبيتي وخلوتُ بنفسي أخيرًا، حررتُ تلك الغصة التي ظلت مكتومة داخلي طيلة ساعات؛ بكيتُ.. بكيتُ حتى نفذت الدموع فنمت متعبة من كثرة البكاء.



لأستيقظ في الصباح على لفتة لطيفة من باقة ورود وُضعت أمام باب بيتي مع بعض كلمات ناعمة ليست مبتذلة، ومزيلة في النهاية باسمه. ومع بسمة شاحبة وعينين مجهدتين سالت دموعي من جديد؛ للمرة الأولى في خطبة لي أشعر بهذا الكم من الوحشة والألم.. فرغم خطبتي السابقتين وانتهائهما بالفشل المتوجين بذات إكليل الانهزام المرصع بجملة "كل شيء قسمة ونصيب".. إلا أنهما كانا في حياة أبي ومساندته مع أمان وجوده وبهجته، وقد كان في كل مرة يصر على إقامة حفل فخم ناعم لأجل خاطري وإن أصررت على العكس؛ داعيًا به كل الأصدقاء والجيران، والعائلة القليلة والبعيدة جدًا من أبناء عمومته رغم التواصل الشحيح. كما كان دائمًا ما يشاركني في حيرة خطوة القبول، ووغز وجوب المغادرة، ولوعة تكرار الفشل.



كخطبتي الأولى والتي جاءت بعد فترة قصيرة من تخرجي، فتقدم خطيبي الأول للزواج مرة وثانية أصريتُ فيهما على الرفض، ثم ثالثة مُصِرة جاءت في أسوء توقيتات اكتواء القلب.. وافقتُ وقتها بكل ألم رؤيتي لمن ملك القلب وهو يحاصر من احتلتْ نابضه مصممًا في المقابل على احتلال كامل كيانها وحياتها وقد خلتْ طرقاتها أخيرًا من جيوش العشق، وسقط مرغمًا من عرشها ملكهم.

فبألم وبعناد طفولي أبله.. وافقتُ. ومع إصرار الخاطب الواثق، وقبولي.. وافق أبي على التجربة المبدئية بخطبة رغم عدم الارتياح.

وبسذاجة وبعدما شاهدتُ امتعاض المعشوق، ومعارضته الصامتة وقد كنتُ بوقتها أتمسك برداء صداقة مهترئة.. تأملتُ وانتظرت. ثم بصمته الغادر المجهول والمستفز.. أُحبطت.

وبخيبة أمل.. غضبت، وصمت.



وما أنقذني بعد ذلك من عنادي الغر ومن تلك الزيجة لم يكن سوى معارضة حماتي الافتراضية على كل شيء تقريبًا، ثم إعلانها الصريح عن معارضتها التامة لتلك الزيجة فتم فسخها بكرامة جريحة، والتي وجب عليَّ الآن شكرها حقًا لذلك؛ فقد كانت ترى ما لم يره ابنها بغرورِ الواثق من أي شيء يرغب ومستحق لكل ما يريد، ولما تغاضيتُ عنه أنا بحمق؛ صامة أذني عن تحذيرات أبي المتواصلة من الفشل المحتم.

وبعد أكثر من عام وبعدما يئستُ صدقًا من قصة لن يكتب فيها سوى مقدمة وفصل أول مشطور لن يكتمل، أتى الجار المهذب العاشق يطلب الوصال، وقد أعلن العشق صراحة فقبلتُ وقتها على استحياء، وأملٌ حالم باقتلاعه من قلبي ومداواته بآخر كان يداعبني بشدة.



ولكن بعد مرور الأيام، لم تسفر التجربة سوى عن شعوري بالعجز عن مبادلة العشق بالعشق ثم اختناقي بالذنب!

وبعدما نلتُ صفعة تكليل تصميم المعشوق المحاصر بالظفر وإعلان خطبته بحبيبته.. وبعد استنكاري لقبولها وهي غارقة في عشق آخر.. تلقيتُ الصفعة الثانية من نفسي تلك المرة بأن لما الاستنكار وقد أقدمتُ على ما أستنكره منها قبلها!

فاستفقت.. وقررتُ بأنني لن أظلم عاشق بمحاولة النجاة به من عشق تاه.. ولن أستطيع تحمل التنعم بعشقٍ بينما قلبي عالق بآخر.. وأنني لن أستطيع أن أكون نسخة مِن مَن نالت أمنيتي.

لذا أقدمتُ على إنهاء الأمر رغم الألم الذي خلفه في روحي، وقدمتُ الاعتذار بمرارة وبعض التردد، ولكن ما أسند ترنحي وقتها هو تشجيع أبي ومساندته في قراري على بتر الظلم قبل تفاقمه.. مصلحًا ظنه بما كنتُ أظنه بأن العشق مُعدي وسيصيبني بحرارة



نبضه في المقابل، ولكن بدتْ مناعة قلبي وقتها حصينة، لم يهزمها سواه بعدما زارها وفر هاربًا وراء حُمَّتُه الخاصة!

وبعدها بدأ هربي تدريجًا من صداقتنا المزعومة، ولم يعارض رغم بقاءه على التواصل والاتصال وإن كان متقطعًا.. حتى داهمني موت أبي على غفلة مني، ودك كل ثباتي!..

فلم يكن أحد بجواري مثلما كان هو كعادته الدائمة، ولكن بفارق زائد متمثل في خاتم ارتباطه بأخرى!

حتى استفقتُ قليلاً ثم بدأتُ في الانزواء من جديد عن الجميع الذي لم أكن قريبة منهم من الأساس.. ولكني نزعتُ منه الاستثناء واختبأتُ أتجرع مرارة الفقد القاسم من حياتي.. والتي عادتْ تفاصيلها تهاجمني الآن من جديد بلا رحمة، واتحددتْ مع شيء من قلق خبيث تسلل داخلي من أن ينتهي ارتباطي بـ"بهي" هذه المرة بالفشل أيضًا بعدما بدأتُ مرغمة في اكتشاف دروب التأقلم.



فوقتها فقط سأكون سلمتُ باحتراق كل سفن نجاتي من أنياب أمواج الوحدة في بحار الدنيا، وسأرفع راية انهزامي في الحياة للأبد.

وقتها ستعلن روحي الاكتفاء بعد نزف الحياة من طعناتٍ متفرقة في قلبٍ يعيش منفردًا في كهفٍ أنيق، يتلمس بعض الدفء من ذكريات جدرانه التي مر واستند عليها طيف أمانه ذات يوم وهو يشهق باكيًا بعدما ملّ الأنين الصامت ومنع البكاء الصارخ احترامًا لأحبار القدر التي كتبت بها حكايته!

اختنقتُ بشدة من أشباح هذه التخيلات فهززتُ رأسي برفضٍ وأنا أُبعد نافية عني تلك الأفكار القميئة والذكريات الخانقة عن رأسيّ، مؤكدة بأن تلك المرة ستكون مختلفة وسأتخلص من هذه المتاهة للأبد؛ فأنا حقًا مطمئنة لـ"بهي".



سمعتُ رنين هاتفي باسمه فعلمتُ بوصوله بالأسفل؛ فقد وعدني وصمم على المرور عليَّ اليوم للذهاب إلى العمل سويًا، وفي الحقيقة لم يكن اعتراضي قويًا على أي حال.

نزلتُ له وذهبنا صحبة للعمل وقد نسيتُ تمامًا نية التمرين على تلقي المباركات بالشرود مع حالي، ثم بالثرثرة معه منذ التقينا وحتى وصولنا.

مر نصف اليوم بسرعة مريبة وجاء وقت الراحة سريعًا لأول مرة، فدخل إلى مكتبي يسأل بابتسامة واسعة وصخبٍ بدأتُ أعتاد عليه:

-جاهزة؟

هززتُ رأسي وأجبته بصدقٍ مازح وابتسامةٍ يشوبها المرح مع بعض التوتر:



-لا.

-مش مشكلة، ولا أنا.. تعالي نرتجل.

قالها ضاحكة وهو يحتوي كفي دون إنذار، ثم سحبني وراءه نحو المقهى الذي غالبًا ما نتجمع فيه جميعًا في استراحة الغذاء. حمحم بصوتٍ عالٍ يجذب انتباههم لنا، وقد بدأ التساؤل الفضولي بالفعل يتراقص من عيون البعض من منظر يدينا المتشابكتين:

-احم احم، ممكن آخد من وقتكم دقايق.

سمعتُ بعض الهمهمات والهمسات الضاحكة والعيون مسلطة تجاهنا بفضول مربك؛ فقبضتُ على كفه دون انتباه مني وقد فاجأتني تلك الحركة أكثر منه، فشدد هو من ضمها أكثر ونظر لي يأسر انتباهي له؛ فقلل بعض من توتري وابتسم مخاطبًا الجمهور دون أن يبعد أنظاره عني:



-أنا والباشمهندسة تيا خطوبتنا كانت الخميس اللي فات. وحبينا نكمل فرحتنا بمشاركة الخبر معاكم.

بدأ الجمع بالتهليل المبارك، وإلقاء المباركات، والأحضان والقبلات المجاملة تنهال علينا من الجميع، وقد كانت عيني تطوف عليهم بانتظام مع ابتسامة شاكرة رزينة، وأعتقد أنني لم أستطع التحكم الكامل في اهتزازة توترها. وأثناء دوران عيناي بين الجميع لمحته يقف بعيدًا بجبينٍ منعقد وعينين غامضتين مثبتتين على كفينا المتشابكين!

توقف الزمن للحظة وصدمة وجوده ضربتْ كياني كبرقٍ من جليد صلبتني برودته في موضعي وسمرتْ عيني عليه، وسؤال واحد يعصف داخلي: ألم يكن في أجازة مفترض العودة منها بعد ثلاثة أيام أو أكثر!



لما هو هنا الآن إذًا وقد حمدتُ الله على أنه لن يكون حاضرًا فيضاعف بوجوده توتري؟!

قطع حملقتي الغير مصدقة به مرور إحداهن أمامي ومباركتها لي: فانتزعتُ تركيزي عنه مؤقتًا إليها.. وعندما بدأ الجمع في الانسحاب تدريجيًا شاهدته يقترب تجاهنا ببطء، فتبخرتْ أمنية أن يكون حضوره ما هو إلا محض وهم بعدما أكد عليه وهو يقف أمامي صامتًا لثانيتين ثم بارك بصوتٍ هادئ، بينما عيناه ظللتهما غيمتين وحجبتْ كل ما ورائهما عني:

-مبروك.

-الله يبارك فيك يا ضياء.. شكرًا.

قولتها ببعض الثبات تمنيتُ أنه لم يخذلني، وعيناي مركزة على خاصته التي ارتحلتْ إلى عيني الواقف جواري والذي قد اختفى منهما المرح وحل قناعٍ صامت على كامل وجهه..



طال الصمتُ من الجانبين للحظاتٍ شعرتُ بها بالأرض تدور من أسفلي من كم توتري، حتى قطعها "ضياء" أخيرًا بذات المباركة الهادئة المغلفة بالبرود، ليرد عليه "بهي" بذات اللهجة:

-مبروك.

-شكرًا.

وأخيرًا التف مغادرًا بهدوء مثير كما جاء دون حرف زائد.. وعندها ناوشني قرارٌ قديم أحجمتُ عنه رافضة فيما مضى، وعاد ينبش في صدري ويترسخ الآن فيه بحتمية.

يجب على إحدانا ترك هذا العمل وقطع آخر خيط واهن يربط بيننا للأبد.



وبالطبع وكالعادة دائمًا؛ فالمبادر بالانسحاب من معركة سقيمة لعشق تائه سيكون المكسب فيها نكسة، والخسارة فيها نزف كرامة وحياة.. هي أنا.

**



قد يبرأ الجرح.. والتذكار يحييه.

إن تُرجع العمر هذا القلب أعرفه..

مازلت والله نبضًا حائرًا فيه.

-فاروق جويدة.

-لإن الشوق معصيتي.



براء

انتهت العطلة.

انتهت بأيامها العشرة.. انتهت بروعتها، وسحرها، وسلامها.. انتهت وعدنا إلى بيتنا وعالمنا بروتينه من جديد.

انتهن ولكن أثرها الناعم داخلي لم ينتهِ.

وبحظ حالفني للمرة الأولى ربما في كل حياتي: عدنا قبل الموعد المحفور بالروح والذاكرة بيومين فقط!

في مساء يوم الخميس دخلنا بيتنا باشتياقٍ جم وفرحة قصوى رغم بهاء الرحلة التي ستظل محفورة في القلب والوجدان، ولكن عند دلوفنا إليه شعرتُ بفرحة حقيقية ممزوجة بالكثير من الراحة.. تشبه راحة الوصول لو تعلموها.. فالبيت وإن كان



الشاهد الوحيد على كافة الانكسارات والهزائم؛ سيظل الملاذ الآمن.

وبعد العودة، ورغم عدم انتهاء الأجازة التي أخذها "ضياء" والذي كان يريد تقضية بقيتها في الاستجمام بالبيت ورفضتُ أنا بشدة وجوده اليوم تحديدًا.. ولم يعارض كثيرًا مقتنعًا بعدما أخذ يفكر بصوتٍ مسموعٍ أن عمل الأيام الفائتة سيتراكم عليه حتى يبتلعه ومن الأفضل العودة مع بداية الأسبوع بالفعل قاطعًا بقية أجازته.

وهكذا ودعته اليوم صباحًا وهو ذاهب للعمل وتجهزتُ أنا الأخرى للذهاب إلى الروضة التي شبه أعمل به بدوام غير كامل، ثم بعدها الذهاب لقضاء واجبي السري بالجمعية الخيرية التي كان متطوعًا بها في زمن ولّى، وكان دائمًا ما يتحدث عن شعوره بأنها جزءٌ من روحه وليست مجرد مكان للعمل التطوعي.



ذهبتُ وبعد الترحيب الدافئ المعتاد لمعرفتهم الوطيدة بي، وبعد إتمام الزيارة وإجراءات التبرع السنوي باسمه والمساعدة في بعض الأعمال بقلبٍ مفعم بالكثير.. انتهتْ رحلتي وعدتُ للبيت من جديد براحة ممزوجة بحنينٍ قاتل والكثير من الدمعات الحبيسة.

دخلتُ غرفتي ثم اتجهتُ إلى حمامي لآخذ حمام دافئ؛ أزيل به أثار الألم الذي ينخر داخلي، خرجتُ وبدلتُ ملابسي ثم اتجهتُ ناحية موضع خاص في خزانة الملابس واستخرجتُ منها صندوقي المغلق.. هذا الصندوق الذي لا يُفتح سوى مرتين بالعام.

أخذته وجلستُ على طرف الفراش أفتحه بعدما مسحت على تفاصيله ببطء، ثم أخرجتُ منه مفكرتي القديمة وفتحتها مستخرجة منها أوراق السنوات الخمس الفائتة؛ أُتمم عليهم وعلى ترتيبهم ثم وضعتُ معهم الورقة الجديدة، وعِدتُ قراءة ما



نُقش على أوراقها من كلمات قَهرٍ فَتَر، رُسمت بأحبار وجع الماضي الذي بهتْ ولم يُمحَ!

تنهدتُ وأنا أخرج أوجاعي التي اجتمعتْ واعتصرتني ببعض زفرات ودمعة شجن حبيسة رفضتُ أن أحررها!

أغلقتُ المفكرة ووضعتها بجواري على الكومود واستلقيتُ على حافة الفراش؛ أتأمل سقف الغرفة وأنا سارحة في الماضي والحاضر والمستقبل!

وشيء من وخزة معتادة لكل مرة أختلي بنفسي بعد الغرق في محاولة تعويض طيف الراحل باعتذار يستحقه.. ويقينٍ قوي بخوف يمزقني دائمًا بأن "ضياء" سيحزن إذا علم وربما يغضب.

ولكنني لا أقدر على الانصياع والانسحاق التام لرغبته في الاحتلال الكامل والتجاهل والنسيان التام لمن كان ورحل!



أنا الآن معه بكليتي كل يوم، فألا يحق لي وله يوم واحد هو ذكرى رحيل لطَيّف العمر الغائب!

ظلتْ الأفكار والخواطر المؤلمة تقفز في رأسي وتطحنها بلا توقف..

حتى اختطفني النعاس دون تحذير مسبق!

**



عرفت كثيرا..

وجربت في الحرب كل السيوف.

وعدت مع الليل كهلاً هزيلاً..

دماء وصمت وحزن.. وخوف.

جنودي خانوا.. فأسلمت سيفي..

وعدت وحيدا..

أجرجر نفسي عند الصباح..

وفي القلب وكر لبعض الجراح.

-فاروق جويدة.

-لا شيء بعدك.



ضياء

عندما تتضافر الأقدار أثناء غفلتك مكونة جديلة طويلة سميكة تلتف على عنقك لتقسم على خنقك.. لا تحارب أو تقاوم، ولا تأمل في نجاة.. فقط استسلم.

عندما تزحف فراشات السعادة داخل قلبك وتعم السكينة داخل رأسك في سلام مشترك وتتم هدنة للمرة الأولى على أمرٍ طالما اشتد بينهم النزال عليه.. فالتخف.. ولتحذر.. ولتعلم أنها النهاية.. أو تلك التي يطلقون عليها صحوة الموت!

تلك الصحوة التي كنتُ قد ذهبتُ بها في صباح اليوم للعمل مقررًا قطع الأيام القليلة الباقية في أجازتي لإنقاذي من براثن أعمال ستتراكم عليَّ لا محالة، وقد كانت خطة قدرية مقيتة منها لأتلقى الصفعة الأولى في منتصف اليوم!



تلك الصفعة التي سمرتني مكاني وهو ممسك بكفها بحميمية مغيظة ثبتتْ عيني عليهما دون إرادة أو انتباه، وهم يعلنون خطبتهم منذ يومين أمام الجميع!

ولم أستطع فهم أو إدراك ما يشتعل داخلي سوى الغضب الذي تسرب ببطءٍ خبيثٍ كحية بثت سمها داخل أوردتي، وكل ما دوى داخلي وأرسلته لها صراحة متمنيًا أن تفهمه وأنا أنظر لها من بعيد.. أنها مغفلة!

ومع كل الهرج والفوضى التي ظلت تلهو بداخلي لم ألقَ بديلاً سوى الذهاب صاغرًا للمباركة على حماقتها.. فذهبتُ كالمساق للجحيم ووقفتُ أمامها برغبة جامحة في الصراخ فيها آمرًا باكتفائها من حمق تكرار المحاولات الفاشلة التي لن تسفر سوى عن ألمٍ وكلماتٍ جديدةٍ من بعادٍ وندمٍ تضاف إلى دفتر عمرها الحافل بهم بالفعل!



ولكن ما انبثق بدلاً من ذلك كلمة مباركة باهتة، تلاها واحدة للخطيب المعني بعد الكثير من الصمت المتراشق بنظراتٍ غير مفهومة لنا ولكنها محسوسةً بعمق، ثم ذهبتُ بثباتٍ كما جئت: لأختفي داخل مكتبي من جديدٍ في محاولة يائسة للتجاهل، وبقيتُ أكرر على رأسي أن الأمر لا يعنيني ولا يخصني وأنها هي نفسها لا تخصني وفلتضرب رأسها الأحمق بالحائط إن أرادتْ وأكرر قسم وراء آخر أنني لن أصبح متاحًا لتلقي إسناد ترنحها عند الفشل المحتم من جديد.. وتوجتْ كل تلك المحاولات بتاج الفشل مزين بزمردة متوهجة من حمرة الغضب!

لم أقدر على إكمال اليوم والتركيز فعدتُ في منتصفه بعدما قطعتُ قطع أجازتي بنية استكمال باقي الأعمال في الغد، ويكفي مفاجأة اليوم التي امتصتْ كل طاقة داخلي، بل وزحفتْ على المخزون الاحتياطي!..



فقررتُ الذهاب والاحتماء داخل صومعة عشقي علها تنجيني من نيران نشبتْ في قلبٍ وعقلٍ ليس لها فيهما رقعة كي تلتهمهما وليس به أكسجينً يخصها كي تنشب من الأساس، ثم ذهبتُ مرددًا على ذاتي للمرة المليون أن الأمر لا يعنيني، وهي نفسها لا تخصني!

وعندما دلفتُ إلى المنزل وقابلني هذا الصمت دون صخب حركة ملكته المعتادة داخله اندفع شيءٌ من قلقٍ مقبض من أعمق نقطة خوف داخلي لم تُطمس بعد وقد تذكرتُ مشهد مماثل حد التطابق، فاندفعتُ بحدةٍ تجاه غرفتنا وفتحتها بجزعٍ ذاهل من تكرار كابوسٍ احتل إدراكي عنوة، ناسيًا أنه تم بالفعل وليس هناك جديد يدعو للقلق!

سكنتُ لحظاتٍ أُطلق صراح أنفاسٍ حُبست دون وعي مني عندما وجدتها غافية بهدوء دون غطاء يحميها في هذه الأجواء الشتوية الناهشة.. فتركتُ مقبض الباب بعسرٍ بطيء ليصدر صوتًا مزعجًا



محاكيًا صوت نبضاتي الغير مستقرة. تقدمتُ ناحيتها ببطءٍ وابتسامة لم أنتبه أو أركز معها الآن مسقطًا وصفها من اهتماماتي لكنها بقتْ تزداد ببطء وأنا أقترب منها حتى جلستُ بجوارها على طرف الفراش أتأملها وداخلي يُأمّن مصدقًا كلماتي التي احتمتْ دواخلي بها منذ قليل كون وجودها في الحياة لا يقبل بإشراك سواها بأي موضع حتى وإن كانت بؤرة أفكار، وآلام، وغضب.

دثرتها بغطاءٍ ثقيل ثم قمتُ بهدوءٍ أغير ملابسي، وعند استقامتي وقعتْ عيناي على دفتر رمادي غريب، أراه للمرة الأولى!

استغربتُ شكله كما وجوده، فتلك الألوان الكئيبة هي أبعد ما يكون عن ذوقها الناعم المشرق بالألوان!

أخذته وأنا أقلبه بين كفي بفضولٍ متساءل، وأسفر تفكيري اللحظي على كونه أعجبها وهي قادمة فقررتْ شرائه كهدية لي، وقد تذكرتُ محادثتنا من قريب على أن دفتري الخاص واشك



على الانتهاء وأني في حاجة لاقتناء غيره ففعلتْ هي. فتحته بابتسامة ممتنة سعيدة، وكنت محق.. فقد كانت بالفعل هدية! هدية في غاية السماجة ولم تكن منها!

كانت هدية قدر متمثلة في صفعة مدوية لعشقي الساذج على وجهه المماثل لوجوه المهرجين البلهاء، وقد كنتُ في هذه اللحظة سيدهم!

صفعة غير رحيمة أبدًا؛ أدارتْ رأسي حتى كسرته.

ارتحلتْ نظرتي على الحروف تنهشها بصعقة غاضبة وقلبٍ مشتعل.. كلماتٍ مخطوطة بمنتهى الصدق المتألم منذ خمس سنواتٍ أو يزيد في ذات التاريخين؛ تاريخ ميلاده وآخر لوفاته كما صرحت في إحدى الرسائل!



كلماتٍ وكتابات تبث فيها تعريف المرار الخام للبعد والحسرة والشوق.. وقد كان من تلك الأعوام المكتوبة بخط يدها السنة التي كنا مخطوبين بها!

وعند عام زواجنا الذي أحفره داخلي بأقصى درجات حمق العشق توقفتْ الكلمات ليتبدل مكانها بوصولات تبرعاتٍ باسمه مزيلة بتوقيعها بذات التاريخين من كل عام، وبانتظامٍ صارم يكشف مدى الإصرار على الكسر والنجاة بآخر!

وكأنه اعتذارٌ صامت من قلبٍ لا يتحمل ذنب مشاركة جزء من حياته بجوار آخر هو مجرد زوج أحمق!

مادتْ الأرض أسفلي ولم أشعر سوى باهتزازِ قلبٍ هان وانسحق أخيرًا، وشعور حارق بالخيانة يحتل رأسي ناثرًا فيه حمم براكين كل شعور خذلان وألم عاصرته وخبأته في يومٍ بسببها.



أغمضتُ عيني وشددتُ على إغلاقهما بينما كانت صفحات الدفتر تحتضر بين قبضتي الملتاعة بغضبها.. فتحتهما بنظرة اكتفاء وكره تزامنًا مع إلقائي لدليل انهزامي المؤكَد بعنفٍ لأقصى موضع ممكن، وذهبتُ بخطواتٍ غاضبة تدهس روحي قبل الأرض أرنو بها لابتعاد فوري عنها وعن الجميع. جذبتُ الباب ورائي أغلقه بعنف غضبي حتى شعرتُ به يكاد يتفتت وورائي وقد وصلتُ للحد الأقسى والأقصى والأحدث في مقياس الألم والغضب!



(5)

قد كنت بجاني عندما هرب الجميع.. وبغمضة عين مطمئنة

لوجودك؛ اختفيت!

**

تغيبين عني وكم من قريب..

يغيب وإن كان ملء المكان.

فلا البعد يعني غياب الوجوه!

ولا الشوق يعرف.. قيد الزمان.

-فاروق جويدة.

-تغيبين عني.



ضياء

مر من الأيام ثلاث ولا مهزوم على درب العشق سواي.. قضيتُ مبيتهم في فندق مصممًا على الابتعاد عن نيران وجودها التي كانت تؤنسني بضيائها والآن باتت تحرقني.. ومتغيبًا عن العمل، متمسكًا بإكمال أجازتي المشؤمة -التي كنتُ قد قطعتها بالفعل- في محاولة تغافل فاشلة عن هجران تلك التي كانت فيما مضى تهديني بطيف وجودها السلام، والآن لا تكف عن نثر المزيد من الضجيج في نفسي.

وهكذا مضتْ الأيام.. مع كل طوية جفن في محاولة حثيثة لنيل قبس من سكونٍ وصمت؛ تتوهج على الفور شياطين جلد الذات وهي مادة لي ألسنتها مغيظة بشماتةٍ راقصة على أوتار كلماتهم المتسائلة بتهكم..



"أيها الأحمق هل ظننتُ يومًا بأنك حقًا ستكون لها كاملاً كافيًا؟!"

"مسكينٌ أنت إن تأملت أن زورق هيامك سيتمكن من انتشالها من بحر عشقٍ سحيق، حتى وإن صار بحرًا أسودًا لا حياة فيه وذرَاته مشبعة بملح دمعاتها."

"كفاك وهمًا: فهي لا تهوى سوى الاختناق بذكراه وتجود عليك بشهيق لحظاتٍ من حياة: فلا تطمع في مزيد."

"مقارنتك فاشلة ساذجة وأمالك حمقاء طفولية.. هل رأيتُ يومًا من يستبدل نبض القلب بمجرد طيف باسم؟! "

"إليك القسم بكافة الأشكال، بأن إن رُميت في بحر ذات يوم ذكرى لك وأخرى له، لن تتوانى في اختياره وإنقاذ ذكراه هو دون لحظة تفكير أو عقد مقارنة لثوان."



"ما رأيك أن نراهن أنك إن رحلت أنت، ستتجدد دمعاتها ولكن على ذكرى رحيله هو.. ولن تنزع من خير قلبها الكبير سوى دعوة رحمة عابرة كأي غريب! "

وعند تلك النقطة تحديدًا اكتمل اختناقي فشعرتُ بأن أنفاس الحياة تكاد تُسرق من رئتي وكأن شياطين الكون تجثم على صدري بإصرارٍ على إنهائي وكأن في اختناقي نجاتهم!..

ولا أستطيع صب غضبي ونثر ألمي أو حتى محاكمة أي أحدٍ سواي!

وضرب قلبي بسياط استحقاق الألم وعدم استحقاق أي من نجاة، صار قدريًا.. فأنا من لم يرأف بحاله لأطالب بالرحمة من الغير!

أنا من لم أحارب بالتمسك بالحرية وتضرعتُ لإتمام الأسر!

ألم أهلل مرحبًا فاتح الذراعين لحكم إعدامها فيما مضى!..



عندما تهاوت كل دفعاتي المهلهلة في محاكمة عشقها، وتنازلتُ عن هزل البراءة متمسكًا بسجن حبها الرحب وقتما حكمت هي صادحة بكلمة "أحبك" منذ أعوام!..

متناسيًا أو متغافلاً أنها كانت وستظل.. مجرد كلمة!

كلمة كانت كالطوق لفتها وقت الحاجة حول عنق عشقي لتتحكم به كيفما شاءت، وقد كانتْ بالذكاء الكافِ للتقتنص توقيتها المثالي.. كما كنتُ متمسكًا بالضياع الأبله والمثير للشفقة فيها وأخذتُ يدها أساعدها على لف أنشوطة كذبتها وإحكامها أكثر حول عنقي.

والآن ها أنا أتأرجح مختنقًا بعدما اختل ثباتي عندما هُدمتْ أرض ثقتي في الظفر بضربة واحدة منها!

حاولتُ إبعادها عن رأسي وترتيب أفكاري عائدًا مجبرًا لعملي الذي بات مؤخرًا يؤرقني هو الآخر بمن فيه.. وحاولتُ صدقًا تناسيها هي



الأخرى والتركيز على ما يخصني فقط والسير على درب التجاهل التام الذي رسمته هي وأجبرتني على انتهاجه.. لكنني لم أنجح!

نعم كدتُ بالفعل في النجاح وأنا أنغمس في عملي وأبعدها عن مرمى تركيزي بتفاصيلها التي باتت معقدة مؤخرًا، ولكن بمجرد ظهورها في مشهدٍ واحد بصحبة الزوج المستقبلي المزعوم تناثرتْ كل محاولات الصمت واكتمل زحام رأسي بضجيج وجودها.. فاختفى هدوئي وثباتي على الفور وتملكني الغضب من جديد، وبتُ لا أفكر سوى في أنها مغفلة لا تدري حجم حمق فعلتها وترتكب خطأً قاتلاً لن تتحمل تبعاته فيما بعد.. فببساطة وبمنتهى الصدق.. هي ليست براء. ولن تغفر لنفسها أبدًا أن تغفو بأحضان رجلٍ بينما نبض قلبها المستند على كتفه ينادي باسم آخر.



طرقتان على الباب أخرجاني من شرودي تلاهم دخولها؛ وكأنها قفزتْ من أفكاري لتتجسد أمامي!

-ضياء أنت راجعت التقارير دي قبل ما تمضيها وتبعتها لي؟!

سألتْ بجبينٍ منعقد باهتمام وتركيز وهي منكفئة برأسها على ما في يديها.. لم أرد ولم أهتم لمكنون كلماتها ولم أستطع إنقاذ رأسي المحترق بأفكاره السابقة منها والتي لم يخمد حريقها بعد!

بقيتُ صامتًا لحظات أتأملها وآلاف الأفكار تعصف برأسي، حتى رفعتْ رأسها ونظرتْ تجاهي متسائلة بشك وقد خبأتْ نظارتها اللعينة وهج عينيها:

-ضياء أنت سامعني؟!



تمسك بي الصمت قليلاً قبل أن يعفو عني للحظات سامحًا لكلمة واحدة فقط أن تنبثق، ولا أدري كيف خرجت مموهة مهمومة هكذا:

-لا.

-لا!.. لا ازاي يعني؟!

قالتها باندهاش وجبينها ينعقد أكثر منتظرة إجابة ما على ما يبدو وصمتت هي الأخرى.. ولكن صمتها كان حائر، بينما صمتي كان يتشتت ينهار. قمتُ من وراء مكتبي وخطيت تجاهها ببطء حتى وقفتُ على بعد خطوة منها، أواجهها وأتأملها مليًا وإدراكين أو اعترافين متأخرين يزوراني ببطء كلاهما أقسى وأسوء من بعضهما.. لقد مر زمن طويل لم تخطُ فيه عيناي بهدوء وسلام على تلك الملامح الهادئة.. وحقًا لقد اشتقت لملامحها الهادئة!

-ضياء!



قاطعتْ تأملي بتعليقها المستغرب اللعين باسمي مزيل آخره بهمزة أود حشرها في جوفها قبل إعادة نطقها مرة أخرى، فخرجتُ من فقاعة السلام اللحظي التي غمرتني داخلها ملامحها وسألتها أحاول استدعاء الحكمة:

-أنت متأكدة يا تيا؟

رجعتْ تزوي عينيها بجهلٍ وتطلعتْ من جديد للملف القابع في يديها تؤكد:

-طبعًا.. التقارير مش مظبوطة خالص، خد اتأكد بنفسك، راجعها وصححها.

أخذت الملف من يدها بصبرٍ نفذ وعينين اعتلى فيهما لهيب حرائقي ثم رميته بإهمال تجاه المكتب فسقط على الأرض ولم أهتم، بينما نظرتْ له هي متسعة العينين بصدمة ثم رجعتْ تحدجني بذات الصدمة..



-أنا ما بتكلمش على التقارير، أنا بتكلم على جوازتك يا عروسة.. متأكدة يا تيا ولا عملتي زي ما طول عمرك بتعملي؛ تاخدي القرار في لحظة وترجعي تندمي عليه شهور!.. ويا ترى صليتي استخارة وقالت لك هو ده!

كانت الكلمات المشحونة بالغيظ تخرج دون إذن أو تفكير، ودنتْ كلماتي الأخيرة مشبعة بالسخرية وضحكة مستهينة.. بينما أخذ منها الأمر لحظات حتى تمسكتْ بلجام صدمتها واندهاشها المنفلت، ثم توقفتْ وسألت متحدية برابطة جأش تملكها من زمنٍ وتشهرها في أي موقفٍ حرج تحتاجها فيه، وطالما حسدتها على تلك القدرة:

-أنت مالك؟!

-مالي! أنت مصدقة سؤالك بجد؟!



تلقيتُ سؤالها الصارم بعدم تصديق رغم بديهيته، فرديتُ عليه بآخر مستنكر مستهين.. لتؤكد هي بذات الثبات وهي تربع يديها أمام صدرها، راسمة بوقفتها وصوتها وصمتْ عينيها الثبات المطلوب لمساندة كلماتها أمامي.. ولكن عبثًا:

-آه يا ضياء مصدقاه، أنت مالك؟! يخصك في إيه أصلاً؟!

وبذات البرود المصمم، ووقفة الجسد الواثقة أجبتُ:

-لا يخصني.. عشان أنت عارفة كويس إن الحدوتة دي ما تنفعش، واللي أنت بتعمليه ده غلط في غلط.

-غلط! غلط!

بعينين متسعتين على آخرهما وقسمات وجهٍ حانقة ظلتْ تكررها وقد انقطع رباط جأشها أخيرًا.. ثم أكملتْ بعدم التصديق ذاته وهي تحرك يديها في كافة الاتجاهات بلا حيلة:



-أرد عليك أقول لك إيه؟!.. بالله عليك قولي أنت أرد عليك أقول لك إيه؟!

-قولي إنك غبية يا تيا.. قولي إنك ما بتتعظيش من اللي قدامك ومصممة تعكي الدنيا.. قولي إنك أدمنتى وبقى مزاج عندك توجعي نفسك وتحشريها في تجارب فاشلة.

بسقتُها في وجهها بلا شفقة أو رأفة وقد كنتُ في تلك اللحظة لا أرى سوى وجهٍ آخر لذات عملتي البائسة وعلى استعداد لدفع الباقي من عمري مقابل ألا تُزَج في هذا الطريق المحفوف بالنيران التي لا تنطفئ.. لكنها بادلتني الغضب وهي تدفعني بكفيها بعيدًا بثورة صارخة مؤكدة على عدم أحقيتي بالاعتراض:

-أنت مالك؟! أنت مالك؟!



-لا مالي ونص.. وما تحوليش تكذبي على نفسك بسكة التجاهل اللي ماشية لي فيها اليومين دول عشان أنت عارفة كويس إيه آخرها.

-أنت اتجننت صح؟! اتخبلت يا ضياء!

-اتجننت عشان..

لم تمهلني الفرصة لتكملة جملتي الصارخة وهي تقاطعني بتحدٍ:

-عشان إيه هاه؟! وعشان مين إن شاء الله؟! عشانك أنت مثلاً؟!

وكأن سؤالها كان ماء ثلجٍ ذائب انسكب من العدم فانطفأتْ نيران غضبي بلا مقدمات ولم يتبقَ منها سوى دخان مرارة ورماد ألم أسفروا عن وجودهم بفجاجة في صوتي المنهزم:



-لا.. عشانك أنتِ.. عشان أنتِ مش كدة ولا هتكوني كدة، ولا عمرك هتقدري على كدة.. فبلاش محاولات فارغة أنتِ عارفة أكتر مني إيه نهايتها، وعارفة زيِّ بالظبط إنك مش هتقدري عليها.

لدقيقة كاملة لم تعلق بحرفٍ ولم يصدر منها أي رد فعل، مكتفية بعدم كبت صوت تنفسها العالِ وهي ترسل من خلاله شرارات اعتراضها المتوجع. خلعتْ نظارتها وخطتْ خطوة واثقة نحوي وهي تتشدق بصوتٍ خفيض متحدٍ رغم الدمعات الحبيسة في مقلتيها:

-بلاش تبقى واثق أوي إنك تعرف اللي أقدر وما أقدرش عليه يا ضياء.

كلماتها نجحتْ في إشعال حرائقي من جديد وقدحتْ زناد التحدي بأينا سيبرع في إلام الآخر أكثر.. فنالتْ ما أرادتْ بعدما قابلت التحدي!



اندفعتُ بعيونٍ متقدة ويداي تنبش كتفيها بقسوة غير مقصودة، مجبرًا إياها على النظر لي وأنا أحاصرها مراهنًا بصوتٍ حادٍ مغلقًا عليها شرك التحدي الذي نصبته لي:

-خلاص، بصي لي دلوقت في عيني وقولي لي إن اللي قولتيه هنا من أكتر من خمس سنين وأنا وأنت عارفينه من قبلها بسنين اختفى.. بصي لي في عيني وقولي لي إنك هتعرفي تدي له قلبك وتنجحي في اللي فشلتي فيه سنين.. بصي لي في عيني وقولي لي إن حبي في قلبك انتهى.. بصي لي وقوليها يا تيا!

ظلت الكلمات تخرج بلا رادع والعينين تحول تحديها لرجاء بالنفي، وقد خفتت الحدة تدريجيًا وحل محلها الهمس المنهك.. ولكن مع ذلك لم يختفِ رهاني على فشلها.. ونجحت. وبرهان نجاحي اللعين كان شهقة ألمٍ وئدتْ نصفها بعدما خرجتْ من حلقها غَصبًا، ولم يتغير في خلجات قسماتها الكثير.. فقط نبع



منها نظرة جديدة.. نظرة بُغض تشاركتْ مع النبرة وهي تقذفني باتهامٍ أو تقريرٍ مزدري:

-أنت إنسان أناني.

-وأنت مغفلة.

لم تتم جملتها إلا وقد التصقتْ بها خاصتي دون تفكيرٍ بنفض اتهامها أو حتى تأكيده أو التفكير فيه، فحَنتْ رأسها لأسفل متسائلة بابتسامة سخرية وقد اُفترشتْ عينيها واهتز صوتها بعبرات المرارة:

-حقيقي!.. والمفروض اعمل إيه عشان ما ابقاش مغفلة من وجهة نظر سيادتك؟!.. اترهبن عشان اعجبك، ولا اعيش عمري راضية بدور أهبل في حدوتة الباشمهندس المسكين اللي بينفخ في أربة مقطوعة ومحتاج اللي يواسيه ويطبطب عليه؟!



نفضَتْ يدي عن كتفيها وقد عاد غضبها المحتد للسطح ودارتْ حول ذاتها بعجز فاتحة ذراعيها وكأنها تبحث عن حل لمعضلة في الجحيم، ثم استطردتْ آخذة بثأرها ببراعة قنص لم تفتقدها:

-إذا كنت أنت ومراتك أصلاً دوستوا على كل حاجة وكملتوا.. أنت دست على ذكرى صاحبك وهي داست على ذكريات عمرها.. مطلوب مني أنا إيه بقى؟!

وقفتُ أمامها مبهوتًا، وقد تممت الضغطة الأخيرة لطعنة سكِّين كلماتها في منتصف جرح متقرح داخلي أحاول مدارته بكل قوة ممكنة.. أو بتعبير أوضح.. بطحة رأسٍ أحاول مداراتها في كل لحظة وكشفتْ هي عنها الغطاء.. ومع هذا لم أستطع التبجح بالنفي، بل صدقتُ على الاتهام بمرارِ علقم لازلتُ غارقًا فيه، وتغافلتُ عن شق ذنبي ببعض الرأفة على النفس وأنا أأكد لها ببطء:

-هو كده.. هو بالظبط كده..



هزززتُ رأسي رافضًا ومؤكدًا على رفضي الواثق بهمسٍ خفيض، وبعيونٍ بدأتْ وخزات الألم في شق دروبها نحوها:

-أنت مش براء يا تيا.. أنت مش براء ولا عمرك هتكوني.

-وأنت مش مصطفى يا ضيا.. أنت بالنسبة لي مش مصطفى بالنسبة لبراء.

بلحظة واحدة، وبكلمات معدودة نطقتْ بها بعيونٍ غائرة وصوتٍ يحاكي في همسه همسي!. فرتْ الدماء من جسدي؛ وتركتني أترنح متخبطًا في ظلام معاني كلماتها.. ارتج قلبي كجبل ضرب أعماقه زلزالٌ قاسي وبرقٌ مهيب فخر كالحطام، تاركًا الرياح تعبث بحبيباته الباقية كيفما شاءت!.. وقد شعرتُ بحاجة ملحة بالسقوط والاختفاء بصحبته.

-وبهي مش أنت.



وهنا أتمت النحر..

جزّت آخر عرقٍ نابضٍ بالحياة باحترافية قاتل غير رحيم أراد أن ينهل من ألم الذبيح حتى رمقه الأخير، ونجحت!

وقد شعرتُ أن تلك الكلمات المعدودة قد سدتْ مجرى تنفسي للأبد وكأنها أقسى ما مر عليَّ يومًا!

قالتها بثقة وحزم ورحلتْ.. تاركة رسالة مريرة "أنك انحنيتْ فارتميتْ، وقد أُنتشل منك التاج وصار هو السيد!"

وبها قد رمتني قتيلاً وحيدًا في العراء للتو!

**



الشوق درب طويل عشت أسلكه..

ثم انتهى الدرب وارتاحت أغانيه.

جئنا إلى الدرب والأفراح تحملنا..

واليوم عدنا بنهر الدمع نرثيه.!

مازلتُ أعرف أن الشوق معصيتي.

-فاروق جويدة.

-لأن الشوق معصيتي.



براء

انقضتْ ثلاثة أيامٍ كاملة ولم يظهر أو يطمئنني باتصالٍ مشفق حتى وقف عقلي على حافة الاحتراق بنيران العجز، ولولا اطمئناني من والده على دوام اتصاله اليومي بهما لكنتُ فقدتُ آخر ذرات عقلي حتمًا.

جلستُ على الأريكة متأففة بأعصابٍ منفلتة ويدٍ مرتجفة بعدما تلقيتُ نفس الرد على اتصالي الآمل معاندة يقيني الصافع بأنه بالأكيد سيستمر في حظر مكالماتي على الأغلب برفضٍ واضح لأي تواصل. أغمضتُ عيني متذكرة كيف وصلتُ لهذه الحالة في اللحظة التي صفعني فيها إدراكٍ مرعب عندما انتفضتُ على صوت الباب المرتج إثر إغلاقه العنيف له ومن بعده صوت صفير الصمت حتى ظننته لوهلة كابوس.. ولكن تجعيد الأوراق والدفتر



المنزوي في آخر الغرفة لم يترك مجالاً للتأمل بالشك، وقطعه سيف اليقين بغيابه ومبيته خارجًا للمرة الأولى!

ومن وقتها ولم تتوانَ صفعات الندم والخوف عن ضرب رأسي للحظة.. فقد كان يجب عليَّ الحرص أكثر من هذا وألا أؤمن أبدًا لقدر أبدى خصومته معي منذ زمن.. خاصة وأنا أعلم مقدار الحزن والغضب الذي من الممكن أن يكون عليه "ضياء" الآن، بخلاف استحالة تفهمه لأي من كلماتٍ لا أعرف كيف أصيغها من الأساس!

أخرجني من دائرة جنوني وندمي المحتم صوت فتح الباب تلاه دخوله الصامت!

وللحظاتٍ ظننتُ أن قلة نومي أوصلتني للهذيان بوجوده لولا تأكيد حركاته البطيئة في المحيط فانتفضتُ بلهفة:

-ضياء!



أشار بكفه يوقف كلماتي الملهوفة ودخل غرفتنا دون صوتٍ واحد، ثم خرج بعد دقائق قليلة حاملًا بعض الثياب وانتقل بهم إلى غرفة جانبية صغيرة كانت مجهزة لأمي عندما كانت تمكث معنى الفترة السابقة.. دون أن يلقي نظرةً واحدةً تجاهي حتى وإن كانت غاضبة!

انتظرتُ دقائق كثيرة وأنا أحاول التمسك بالهدوء وتكوين بضع كلماتٍ لم أفلح في تكوينهم الليالي السابقة.. أخذتُ نفسًا عميقًا ثم طرقتُ الباب بخفة ودخلتُ دون انتظار لإذنٍ أعلم يقينًا أنني لن أحصل عليه، فوجدته يقف أمام النافذة يستند عليها عاقد اليدين شاردًا في المدى الواسع أمامه، وقد بدل ثيابه لأخرى بيتيه مريحة وكم أراحني هذا لعدم نيته في المغادرة من جديد.



لم يلتفتْ أو يولِ أي اهتمام لوجودي؛ فتضاعف ارتباكي وازداد عليه فرك كفاي لبعضهما، وبتوترٍ صاخب وصوتٍ مهتز تساءلتُ بأملٍ شاحب:

-ضياء ممكن نتكلم؟

-لا.

مختصرة.. قاطعة.. وبصوتٍ ميت أستمع له للمرة الأولى في تاريخ معرفتي الطويلة به.. فتلك النبرة حتى لم تخرج منه من قبل عندما جاء قديمًا معلنًا الرغبة في الهجر.. وهذا نثر الرعب فوق طرقات خوفي!

حاولتُ الشبث ببعض الشجاعة وتقدمتُ نحوه خطوة وقد اختفى اهتزاز صوتي وحل محله الهدوء في محاولة للمهادنة:

-ضياء لو سمحت..



-اطلعي برا يا براء وسيبيني لوحدي.

من جديد لم يمهل لكلماتي فرصة الميلاد مزهقًا روح محاولة تواصلي قبل أن تتنفس، فكابرتُ بإصرارٍ وأملٍ لا أدري مصدره:

-طيب أرجوك خلينا نتـ..

-قولت لا.

كانت تلك المرة أكثر حدة وأكثر علوًا، أجبرني بها على القفز بالكلام دون الانتباه لمدى دقته أو صحته في هذا التوقيت:

-ضياء صدقني أنت فاهم غلط.

دنت منه ضحكة خفيفة والتف نحوي بجسدهِ المتصلب ليصب في روحي بعض من علقم عينيه، زاويًا حاجبيه وزويتا عينيه بخفة متسائلاً، وصوته الدافئ بطبعه كان بعيدًا كبعد أجساد الموتى المتحللين عن أحضان الأحياء:



-فاهم غلط!

خرجت تنهيدة خافتة وابتسامته تتسع بينما عيناه..

كانتا نبعًا للمرارة، وفيضًا من ألم، وإعصارًا من غضب!

كانتا تلمعان.. تلك اللمعة المؤلمة.. لمعة كانت تعلن في عمقها عن استحالة اختزال وصفها في حروف، وترفعها عن السماح حتى لرحب السماء لاستيعاب احتراقها، وعن خبل من يأمل احتضانها وصبها في قالب شعورٍ واحد!

كانت نظرت أصعب من القدرة على الوقوف أمامها للمواجهة أو حتى طلب السماح؛ ففرتُ نظرتي منه للا شيء وأي شيء سواهما بعدم تحمل!

-أنا ما بفهمش أصلاً يا براء.



وأخيرًا انفك تصلب جسده وخطا نحوي خطوة ضئيلة فبات لا يفصل بيننا سوى الأنفاس المضطربة، ببنما العيون كلٌّ منها مسافرة في عالم غير الآخر:

-عشان أنا لو كنت بفهم ما كنش زماني عايش اللي أنا عايشه ده دلوقت.

عدتُ أنظر له على الفور بلهفةٍ معتذرة وألمٍ نادم، وخرجتْ شهقة بكاء خافت تلاها سيل من دموعٍ لا أدري كيف انفجرتْ دون إنذار هكذا وقد كنتُ أعاني جفافها الأيام السابقة!

توسلته وأنا أقترب منه خطوة أخرى ابتعدها هو:

-طب ممكن بالراحة وتقعد تسمعني.

-لا. لا عاوز اسمعك، ولا عاوز أشوفك.. ولو بأيدي يا براء هبقى مش عاوز اعرفك تاني أصلاً.



وكان حديثه الناقم هذا بمثابة سكينٍ أنبثق من العدم وأراق دمائي ببضع كلماتٍ طالما طاردتني في كوابيس الصحو والمنام وكم كنت أخشاها.. وأترقبها!

ذهب من أمامي وجلس على طرف الفراش مائلاً بجزعه للأمام، وفرد كفه على وجهه وأخذ يعتصر عينيه بإصبعيه ويفرك مؤخرة وجانب رأسه برتابة، ثم دون أن يفتح عينيه، وأمر بصوتٍ ضعيف رغم إصراره:

-سيبيني لوحدي.

عاندتُ صارخة بعدما شعرتُ بإنذارات الخطر تدوي داخل روحي:

-لا.. احنا لازم نتكلم، وأنت لازم تسمعني.

استوى من جلسته يبادلني العناد والصريخ بآخر وقد بان الغضب والاحمرار على محياه وانتفاخ أودجته:



-لا.. مش بمزاجك خلاص.. ما فيش حاجة بعد كدة هتبقى بمزاجك أصلاً.. عشان أنا خلاص جبت أخري.

أولاني ظهره والتف من جديد يقف أمام النافذة الزجاجية واستند بكفيه عليها، منكّسًا رأسه بانهزامٍ وتعبٍ جلي، وزفرة متوترة هربتْ منه أثناء صفعه لي بكلماته المهددة:

-أطلعي برا يا براء وسيبيني لوحدي، بدل ما وديني أنا..

لم أستطع سماع تهديده أيًا كان ماهيته فقاطعته متوسلة:

-ضيـ..

-أطلعي برا.

لم يمهلنِ الفرصة وقاطع مقاطعتي بحزمٍ، مغلقًا ورائي كل أبواب الرحمة وفاتحًا جميع الأبواب والنوافذ للخوف والألم الذي لا يعلم أنهم لا ينتظرون دعوته من الأساس للولوج واحتلال روحي.



فالخوف لا يأتي أبدًا كضيفٍ راقٍ يستأذن قبل الحضور.. بل يكسر الأبواب ويخيم في النفوس معلنًا الاحتلال!

والألم لن تقابله أبدًا بكامل هندامك.. بل سيباغتك وأنت عاري الأمل منزوع ثياب الأمان، تحاول التستر ببعض لحظاتٍ من جَلَدًا ورضا!

وكلاهما لن يكونا خصمًا شريفًا يتيحا لك فرصة التجهز بالعتاد اللازم، بل سيُجْهَزا عليك وأنت أعزل سيف ودرع!

**



هكذا نمضي .. حيارى

تحت أقدامِ الزمانْ.

كيف نغرقُ في زمانٍ..

كل شيءٍ فيهِ ينضحُ بالهوانْ!

-فاروق جويدة.

-تحت أقدام الزمان.



تيا.

كان يومًا قاسيًا، صادمًا، محطمًا لكل ما جاهدتُ لبنائه.. ببضع كلماتٍ مهاجمة لم أتوقعها منه أبدًا وحالة مريبة لا أدري سر احتلالها له.. هاجم بواطني المغلقة على غفلة مني؛ لم اتحضر لها بالقدر الكافي فأخذتُ أخبط في كل شيء دون تمييز..

ألمته!

نعم.. وتألمتُ له.

قصدتُ إحراقه بشعور الذنب!

نعم.. واكتويتُ معه.

طعنتُ غروره تاركة إياه يعاني مرار النزف!

نعم.. وطعنتُ عشقي معه.



نادمة؟!

هذا سؤالٌ معلق.. فقلبي في كل ثانية ينتفض ويتألم رافضًا ما فعله في حبيب العمر.. وعقلي يعارضه بضراوة مدافعًا أنني لم أفعل سوى غرس الطرف الآخر في صدره بذات النصل الذي رشقه قبلاً في منتصف صدري أنا!

وضعتُ المفتاح في مزلاج بابا بيتي وأدرته ببطء؛ وقد تطلب مني فتحه والدلوف والاحتماء بالداخل مجهودًا جبارًا!

وبمجرد الدخول وإغلاق الباب رميتُ حقيبتي على الأرض بتعبٍ واستندتُ بمؤخرة رأسي على الباب ورائي، مغلقة عيني بقوةٍ على دمعاتٍ تتوسل الهطول؛ فها نحن في عُش أماننا الصغير.. فلم أستطع منعهم وردعهم أكثر واستسلمت وهم ينحدروا ببطءٍ وهدوءٍ.. كلٌ وراء الأخرى بلا استعجال.



خَطوت خطوات بطيئة منهكة حيث الأريكة وارتميتُ عليها بإنهاك، ثم احتضنتُ نفسي كما كنتُ جنينًا في رحم أمي آمنة فيه غير متألمة، وقد حاكاه ظلام الأجواء وصمتها حتى شعرتُ ببعض الأمان اللحظي الذي قاطعه صوت رنينٍ مزعج من الهاتف القابع في الحقيبة المرتمية عند مدخل الباب، شعرتُ بحاجة ملحة لتجاهل الاتصال ففعلتُ.. ليعاود الرنين مرة أخرى فاضطررتُ للقيام والرد والاستمرار في ممارسة الحياة المخذلة على الدوام!

قمتُ بذات البطء وبرغبةٍ صارخة في إيقاف كل هذا العبث المسمى حياتي، وانحنيتُ جالسة على عاقبي وأنا ألتقط الهاتف من الحقيبة وتطلعتُ للمتصل المصمم فأنار اسمه كما توقعت..

"بهي".

أغلقتُ عيني أشدد عليها علني أختفي هكذا من هذا الوجود ولكن بالطبع فشلت؛ فالطبيعي هنا لا يحدث حتى تتحقق المعجزات!



كدتُ أجيب الاتصال ولكن صمت الهاتف فاجأني، فأخذته وقمتُ ارتمي على الأريكة من جديد بذات الوضعية منتظرة بثقة إعادة اتصاله.. وحدث. رن الهاتف وقبل أن يبدأ صوت الرنين المزعج في العلو كنتُ قد أجبته بصوتٍ حاولت رد بعض الحياة له، وأجابني بصوتٍ غامض مصممًا على أن نتقابل، ولم أستطع النجاح في جعله يخبرني بما يريد على الهاتف وإلغاء المقابلة، مؤكدًا على أنه أمرٌ هام لا يحتمل تأجيل أو مناقشته على الهاتف؛ فاندفع داخلي الفضول وظللتُ أفكر في ماهية هذا الموضوع المهم مشتتة ذهني قليلاً عن التفكير في مواجهة الصباح.

استعديتُ للذهاب وخرجتُ أقابله عند كورنيش النيل وفي بالي ألف سؤالٍ وألف موضوعٍ من الممكن أن يكون إحداهم هو سبب هذه الدعوة المفاجئة، حتى وصلتُ للعنوان الذي أملاني إياه وقد كان مطعمًا هادئًا مطل على كورنيش النيل.



أصر على طلب الغذاء وتناوله قبل أي حديث ووافقتُ مرغمة، متناولة منه بضع لقيمات طفيفة بشهية شبه منعدمة.

-إيه رأيك في الڤيو؟

خرج سؤاله الباسم وهو يتأمل صمتي.. وقد كان النيل في الليل حقًا ساحر فجذب روحي لتأمل تموجاته الهادئة، ونسيم الليل المداعب يهدئ من ضربات قلبي المنفلتة منذ الصباح، فأجبته بصدق شبه شاردة:

-جميل.. جميل أوي.

رجعتُ له بكليتي وأنا أشبك كفي ببعضهما على الطاولة أمامي سائلة بفضولٍ حقيقي بات كتمه محالاً:

-خير بقى جايبني على ملا وشي كدة ليه؟!



اقترب بجزعه من الطاولة الفاصلة بيننا وهو يعلق مبتسمًا باعتراض مناوش:

-هو أنا ما فيش مرة أقول لك عاوزة اتكلم معاك في حاجة وتديني فرصة أبدأ من نفسي أبدًا!

أجبته مدافعة، رافعة كتفي ببديهية:

-ما أنت ما بتبدأش غير لما بسأل يا بهي!

-ماشي يا ستي.. عامل لك مفاجأة.

تحمستُ حقًا والتمعتْ عيناي بانتظارٍ وفضول فسألته بترقب:

-مفاجأة إيه قولي؟!

اقترب وتحدث بحماسٍ فرح:



-النهاردة عرفت من الإدارة بخصوص الترقية والسفر لألمانيا، وأنا كنت مرشح للمنصب والسفر، بس ماكنتش متأكد لسة.. لكن النهاردة القرار اتمضى، وبقى رسمي.

اختفتْ البسمة.. وحل محلها وجوم احتل الروح قبل أن يرفع رايته على صفحة الوجه.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة والكلمات تتراشق في عقلي بإدراك قبيح!

السفر مرة أخرى إلى بلاد الثلج!

أعدْتُ ابتلاع ريقي الجاف في الأصل مرة أخرى برفضٍ تلقائيٍ تام، وقد بردتْ أطرافي من التخيل فقط!.. ثم أغمضتُ عيني وأنا أهز برأسي متسائلة ابتغاء نفي وقول وأنها نكتة سمجة منه وفقط:

-مش فاهمة يا بهي.. سفر إيه، وفين؟!



خفتْ حماسه قليلاً لرد فعلي وأجابني بشيء من ريبة، ثم أعاد حماسه من جديد في محاولة حثيثة لمشاركتي إياها:

-منا قولت لك يا تيا.. هنسافر فرع ألمانيا ونعيش هناك.

هززتُ رأسي بجهلٍ وعيون ترفرف بقلقٍ وقد تلبسني ضياعٌ وبرودٌ تام أخذوا يقتاتوا على ثباتي؛ فبات يهدد بانهيارٍ وشيك:

-بس أنت ما قولتش لي قبل كدة على الموضوع ده!

أبتعد يستند بظهره على ظهر مقعده، وتجعد وجهه بريبة مضاعفة واستغراب، ثم أجاب بثباتٍ وجاهزية لا يفقدهما أبدًا:

-عشان ما كنتش متأكد، ما كنتش عاوز أأملك بشيء وما يحصلش، كنت عا..

قاطعته غير مصدقة لتلك المصيبة الجديدة التي خطتْ فوق رأسي وقد بدأتْ أول التصدعات تشق ثباتي:



-تأملني!.. بهي أنا أصلاً مش عاوزة اسافر، مش عاوزة ارجع ألمانيا تاني واسيب مصر.

انعقد جبينه تلك المرة بشدة وتساءلتْ عيناه قبل لسانه:

-مش عاوزة تسافري! يعني إيه مش عاوزة تسافري؟! وليه؟!

-واحدة كانت هناك لخمس سنين وبعد كل اللي عملته هناك رجعت بلدها تاني من غير ما تبص وراها، تفتكر هترحب أو ترضى ترجع هناك تاني؟!

تسابقتْ كلماتي بحنق من سؤاله وقد تخضب وجهي بحمرة غضبٍ وليد، فكابر معاندًا بما يراه ويرفض أن يتطلع على سواه:

-أيوة بس أنت كنت هناك لوحدك، لكن المرة دي أنا هبقى معاك.

لم ألتفت لكلماته وأنا أدحض أي محاولة إقناع لن تفيد:

-مش مقتنعة يا بهي.



-مش مقتنعة ليه؟

-مش عاوزة.

-يعني إيه مش عاوزة؟!

-بهي أنا مش هقدر اسافر وابعد تاني.

-وأنا مش هقدر غير اسافر وابعد يا تيا.

كانت كلماتنا تتسابق بلا فاصل بيننا وكأن إن توقف أحدانا للحظة سيسقط بلا قيام وسيتمزق بأنياب وحشٍ ضاريٍ لا يعرف الرحمة!

صمتُ ثانيتين بأنفاسٍ لاهثة، وأكمل يضيف مهادنًا بإغراء مطمئن واعد، وأمل ينبعث من عيونه:

-هنبعد مع بعض.



أغمضتُ عيني ومسحتُ من أطرافها بعض الدمعات الفارة بظاهر كفي بعنفٍ وتجاهلتُ رسائل ورجاء عيونه المتوارية خلف صرامة تصميمه وأنا أشق طريقًا آخرًا للفرار:

-افترض الطلب ده ما كنش أتقبل؟!.. اعتبره ما اتقبلش يا بهي.

-ما افرضش وما اعتبرش يا تيا عشان هو أتقبل بالفعل.. وحتى لو افترضتْ زي ما بتقولي.. كنت هقدم على طلب هجرة واسافر بردو.

كلماته الغاضبة القاطعة فاجأتني واستفزتني وألمتْ جزءً متقيحًا داخلي فانفجرتُ بشبه صراخ:

-والله! والقرار ده أخدته لوحدك منغير ما تكلف خاطرك تعرف الحمارة اللي أنت ربطتها بيك صح؟!

-تيا وطي صوتك.



قالها زاجرة بهمسٍ مسموع وعيونٍ متسعة بتحذيرٍ في تعبير أراه على وجهه للمرة الأولى، فأغمضتُ عيني وأنا أتنفس أكثر من مرة في محاولة تهدئة اشتعالي ولم أفلح، ففتحتهما بتحدٍ وألم:

-وطيناه يا بهي.. قولي بقى ليه ما قولتش لي على الحوار ده قبل ما نتخطب؟..

وليه لما اشترطت عليك نقعد في بيت بابا ماقولتش لي إنك مش ناوي تقعد في البلد كلها أصلاً؟!

جز على أسنانه وهو يخبرني مشددًا على حروفه:

-كنت هقول لك في الوقت المناسب.

-الحجات دي ما فيهاش وقت مناسب، أنت لازم كنت تعرفني بيها من الأول عشان آخد قراري بنفسي.. ما عملتش كدة ليه يا بهي؟!



-ماكنتش متخيل إنك هتعترضي كدة.. ماكنتش متخيل إنك هتعترضي أصلاً وأنا فاكر إن ما فيش أي حاجة تعارض سفرنا واستقرارنا بعيد عن كل اللي هنا.

-لا. ما اسمهاش كدة.. اسمها عشان أنت ما لكيش حد هنا ومقطوعة من شجرة فمطرح ما أجرك ورايا هتتجري من غير اعتراض ولا إرادة.. صح؟!

تشكلتْ معالم الصدمة على وجهه وزوى ما بين حاجبيه سائلاً بغير تصديق:

-أنت بتقولي إيه؟!

-بقول الحقيقة واللي بتفكر فيه وبتتصرف على أساسه يا بهي.



رميتها باتهام صريح مقهور، فطل من عينيه تعبيرٍ لم أقرأه ولكنه أربكني.. خاصة حين تلاه بكلماته الرافضة مصححًا بصوتٍ هدَأ واكتسب وداعته من جديد:

-لا مش كدة يا تيا، اسمها إنك بتتصرف على أساس إننا واحد وشبه بعض.

-لو احنا واحد كنت على الأقل خدت رأيِّ.. ولو كنا شبه بعض كنت عرفت إني مش هحب ولا هقدر على الغربة تاني.

قولتها بمرارة وعينين مؤنبتين عادتْ فيهما وخزات الدموع من جديد!

وبعدها خيم صمتٌ ثقيل علينا طويلاً وكل منا ينظر للآخر بخيبة أمل وهزيمة مريرة، وبداخلي كانت الصفعات تتوالى على رأسي وروحي لعدم تشبثي باليأس قبل الوصول لهذا المفترق المخزي!



فاليأس رغم المرارة التي يتركها تتشعب في جوف العمر فهو رأفة ورحمة. رحمة من النار الحارقة حد التفحم الذي تتركها صفعة الأمل الهارب على وجنتى الأحلام.. ورأفة من نعومة الأمل الكاذب كحية تتحسسها وهي تلتف عليك بخبثٍ مستمتع، بطيء، حذر، حتى تتمكن منك وتعتصرك للرمق الأخير، وأنت من كنت بسذاجة تظنها الحرير الذي ستغزل منه رداء الغد الذي تأمل أن يكون عيدًا!

قاطع تأنيبي لذاتي سؤاله الأخير بعيونٍ رغم ضبابيتها قرأتُ فيها خاطر متهِم لم أهتم بنفيه أو أحاول مناقشته ودعم دفعاتي بقراري القاطع بترك العمل والذي كنت أنوي إخباره به في ذات العشاء، بل أجبتُ بصراحة..

-أنت ليه متمسكة بالقعاد هنا أوي كدة يا تيا؟!

-عشان أنا مش هبعد عن بيت بابا وذكرياتي معاه تاني يا بهي.



ثم صمتُ وصمتْ..

-مش هسيب مصر تاني يا بهي.. مش هقدر.

-وأنا مش هقعد في مصر تاني يا تيا.. أنا كمان مش هقدر.

قررتُ وضع النقطة الأخيرة لكلمة النهاية بصوتٍ مختنق وعيونٍ دامعة، ورد هو بذات النية والصوت سالكًا الطريق المعاكس.. وأيقنتُ وقتها بنحر آخر طرق النجاة التي تمسكتُ بها!

فقد تقاطعتْ الطرق في لحظة سُكر من خمر الأمل.. ثم عادتْ تفترق بعدما صُب ماء اختلاف الحاجة على رأس أوجاعنا.

وعدتُ أتذكر صباحي البائس الذي كلل بالانهزام في آخر خيط للنهار فيه..

ونبوءة عراف القلب تحققتْ أسرع مما كان يأمل أو يظن!



(6)

عشقك كمعول هدم معبد العشق على رؤوس العشاق!

**

آه يا لحنًا قضيتُ العمرَ.. أجمعُ فيه نفسي.

رغم كل الحزنِ عشتُ أراهُ أحلامي ويأسي.

ثم ضاع اللحنُ منّي.. واستكانْ.

واستراح الشوقُ.. واختنقَ الحنانْ.

-فاروق جويدة.

-تحت أقدام الزمان.



تيا

مر من الأيام الكثير وجاء معاد السفر!

سفره الذي قرره بمفرده وانتظر مني الطاعة والشكر ولكنني قابلته بالصدمة والغضب.

وقبل اليوم بأيام.. بعد البكاء والانهيارات ثم محاولة التماس الهدوء والتفكير بروية واتزان، بدأتْ محاولاتي الحسيسة في تمرير الموافقة إلى روحي وعقلي؛ عارضة أمامهم كافة الامتيازات الممكنة؛ ولكنهم ظلوا على حدود الرفض رابضين!

يتسلل شعور البرودة والوحدة إلى روحي بافتراء؛ فتنزوي منهم محتمية بالخوف والرفض. وشعور الإهانة والدونية يجتاحوا عقلي عندما تشتعل فيه فكرة أنه لم يطلعنِ على خططه ويخبرني



بها قبل إتمامها بلا أي اهتمامٍ أو احترام؛ فيحترق بالرفض القاطع الغاضب.

وفي نهاية المطاف سلمنا واستقرينا أن الانغماس بين البشر لم يخلق لنا ولم يكتب علينا النجاة بهم، بل كانوا هم الحبال التي التفتْ حول أيدينا؛ تقيدنا وتمنعنا من النجاة بالسباحة بينهم في بحار الدنيا.

هذا ما أمليته على نفسي مرارًا حتى أستطيع الصمود والنجاة لليوم.. وقد قابلته منذ أيامٍ قليلة هنا وهو يودع الجميع استعدادًا للسفر في مشهدٍ مشابه لآخر عشت ذات تفاصيله منذ أكثر من خمس سنوات. ودعته بعيونٍ تحاول مواراة الألم وخيبة الأمل، وودعني بعيونٍ تحاول تخبئة الحزن، وانفلتْ منها مناجاة للمرة الأخيرة.

وانتهت القصة قبل أن تبدأ.



ومع هذا لم يختفِ قراري الآسف بالرحيل، بل صار أقوى وأكثر إصرارًا عن ذي قبل. وبدون تأخيرٍ أو تسويفٍ أكثر وفي ذات يوم وداعه.. قدمتُ استقالتي.

قدمتها والحزن الصامت يرفع رايته على أرضي الخربة بعدما هدمتُ بيدي الصرح الأخير والوحيد الصامد فيه!..

فها أنا ذا أستغنى عن الشيء الوحيد الذي أحرزت فيه التقدم والنجاح، وأرمي مستقبلي الواعد في المكان الذي قضيتُ فيه كل عمري المهني وراء ظهري بلا رأفة أو ذرة تعقل.. والدافع قوي والسبب محتم.. وجوده.

وجوده الذي صار يثير داخلي أعاصير من الحنق والجنون الخارجين عن نطاق تحكمي.. خاصة بعد عقده هدنة أحادية الطرف متجاوزًا أو متجاهلاً كلماتنا الجارحة لبعضنا ذاك اليوم!



فقد صار سلس الأحاديث والتعامل وكأن شيءً لم يكن منذ أيامٍ ومنذ سنواتٍ قبلها!

وتلك الحالة أصابتني بارتباكٍ غير مدرك لمنبع الاختلال الغريب في تصرفاته المعاكسة لما مفروض أن تكون عليه؛ لذا اشتد قرارُ قطع آخر الخيوط الرابطة بيننا؛ راجية بعض الرحمة من لهيب رؤيته واستفزازه الذي صار بارع فيه مؤخرًا، وتجاهلي الذي صار ينافس براعته ويرهقني رغم تمكني منه.

وهكذا ينقضي كل يوم؛ أدعو الله أن يبدأ وينتهي دون الاحتكاك به فيعم حولي بعض السلام.. كاليوم عندما أوشكتْ نهايته أن تأتي بسلام أخيرًا. سلام لم يدُم بعدما طرق الباب بهدوءٍ ودخل دون انتظار لسماع الإذن، ثم جلس بثباتٍ ووداعة مريبين وهو يستند بظهره بأريحية على ظهر مقعد المكتب أمامي!



لم يتحدث ولم ينظر لي حتى وظل صامتًا؛ فاضطررتُ أنا للبدء بجبينٍ منعقد ولهجة مرتابة تساءلتُ بها بلا قدرة لأي مناوشات أو مواجهات جديدة لا طاقة لي بها حقًا:

-خير!

-خير طبعًا.. أنا بس جي اطمن عليك بعد سفر بهي.

رفع حاجبيه ببراءة في بداية الحديث ثم تحول إلى الإغاظة الماكرة وبسمة خبيثة ترتسم على شفتيه في ختامه!

وعلى عكس المتوقع لم أحزن أو أغضب، بل أعادتني تلك التعابير المناكفة إلى عشر سنوات مضتْ عندما كنا نتحدا بعضنا في أي وكل شيء ونبرع في استفزاز بعضنا البعض ضاحكين.

زحف الحنين الدافئ إلى روحي وكاد أن ينسيني ما تلا الماضي من قسوةٍ وخيباتٍ لكني تماسكتُ بحبال الصحو، مفضلة النجاة



بمرار حقيقة اليوم عن الغرق في شهد الحنين للدفء الخادع للأمس.

سجنتُ ابتسامة مُلِحة حاولتْ الفرار وأنا أغمض عيني لأحكم حولها السياج، وأعيد على روحي أن ما مضى قد مضى وانتهى، وأبدًا لن يعود. وبدلاً عن ابتسامة الحنين السجينة رسمتُ ابتسامة متهكمة وأنا أقر بكلماتٍ متهمة هادئة أعلم أنها ستضايقه:

-وشمتان طبعًا.

اختفتْ الابتسامة من على شفتيه وتبدل الهزل الضاحك من عينيه إلى مفاجأة مستاءة، وحل على وجهه الوجوم وهو يعقد جبينه بضيقٍ ويكررها ورائي مستنكرًا:

-شمتان!



هززتُ كتفي بلا تعبير ووجه بارد:

-أومال عاوز تقنعني إنك زعلان عليَّ مثلاً!

أعتدل في جلسته وهو يصحح بجدية وحزم:

-لا مش زعلان طبعًا.. بس ما اسمهاش شمتان.

-أومال اسمها إيه؟!

-اسمها فرحان إن ربنا أنقذك من التخلف اللي كنت هتعمليه في نفسك.

وعند لفظة "التخلف" الذي بثقها في وجهي وكأنها سبة أغمضتُ عيني يائسة، ثم أخذتُ بعض أنفاس أهدئ من غضبي الذي بدأ يشتغل داخلي من جديد:

-بص.. أنا مش هناقشك ولا هكلمك.. بس بجد يا ضياء كفاية كدة عشان أنا بجد على آخري.



قولتها بإرهاق وشيءٍ من رجاء ثم تجاهلتُ وجوده وانشغلتُ بلملمة حاجياتي؛ أستعد للرحيل والفرار من زاوية استفزازه المربك الذي يصمم على حشري به لدرجة تتملكني فيها رغبة كاسحة بضرب رأسه في أقرب حائط ممكن.

-على العموم أنا مش جي عشان اتكلم في الموضوع ده.

قالها وهو يضرب بأصابعه على أطراف المكتب بآلية وقد عاد للنظر بعيدًا لنقطةٍ مجهولة في الأفق؛ فانتزع من جديد أفكاري السابحة في فلكه من الأساس، لكني لم أتوقف عن التظاهر بتجاهله وأنا أستمر في الانشغال باللا شيء مغمغمة بحنق:

-أحسن.

-إيه حوار الاستقالة ده؟!



قالها بلا مقدمات وعادتْ عيناه تقتحم خاصتي ولكن تلك المرة بشيءٍ من حدة وعدم رضا!

-مالها؟

تحفزتْ جلسته والتفتْ لي وهو يتساءل باستنكار:

-هو إيه اللي مالها؟! يعني إيه هتستقيلي مش فاهم.. ليه أساسًا؟!

-عاوزة أجرب اشتغل في مكان جديد.

جاوبته بهدوء، فرفع حاجبيه باستهزاء معلقًا:

-والله؟!

-والله.

-أنت هتهزري؟!

قالها بلهجة محذرة ووجه مُصمت، فرددتُ عليه ممثلة الجهل وأنا أنفي بكفين مفتوحين:



-لا ما بهزرش.. بتكلم جد.

-بتتكلمي جد ازاي يعني مش فاهم!

تأفف طويل خرج مني وأنا أغمض عيني طالبة للصبر، ثم فتحتهما ببطء وأجبته بهدوءٍ مزينة ثغري بابتسامة سخيفة:

-محتاجة أغير عتبة.

حدجني بعينين اتسعتا بنظرة تحذير وآزرهما صوته المحذر وهو يتحدث بثقة:

-تيا ما تستهبليش.. قرار الاستقالة ده أغبى قرار ممكن تاخديه في حياتك، وأنا مش هسمح لك بيه.

جززتُ. على أسناني وقبضتُ على كفي وأنا أسأله بصبرٍ مستنزف:

-يا أخي أنت مالك.. تسمح ولا ما تسمحش ليه؟!..

حد وكِّلك واصي علي؟!



عاند مجادلاً وهو يضرب على المكتب بأطراف أصابعه مع كل كلمه يتفوه بها وكأنه يقحمهم في رأسي هكذا:

-لا لي دخل يا تيا، قولتها لك وهقولها لك تاني.. عشان أنت أعز صحابي، وعشان أنت مالكيش حد غيري يوقفك عن العك اللي ماشية تعكيه في حياتك ده... وكفاية النغمة السخيفة دي بقى، ماشبعتيش منها؟!

رمشتُ بعيني أحاول استيعاب كلماته وعقلي عاجز عن مجابهتها أو صدها بعدم تصديق لمدى.. "هزلها" و"حمقها" إن أصبتُ الوصف!

-ضياء فوق.. ده كان زمان.

أشرتُ بيدي تجاه رأسي وورائي أثناء حديثي شبه المنفعل، بينما صمتْ هو وطال صمته ثوانٍ قبل أن يسأل بوجهٍ هدأتْ قسماته وعينيه غابتا في شبه شرودٍ لم أستطع قراءة ما ورائه:



-وإيه اللي فرق زمان عن دلوقت؟

اتسعتْ عيناي بغير تصديق لمدى الإنكار أو "الاستهبال" الذي يعيش فيه ويصمم على مشاركته معي!

أغمضتُ عيني وأنا أهز رأسي بيأسٍ ثم حملتُ حقيبة حاسوبي وحقيبتي الخاصة وقمتُ من مكتبي متجهة للخارج:

-أنا ماشية عشان هي مش طالبة حرقة دم أكتر من كدة.

خرجتُ باندفاعٍ ورغبةٍ جامحةٍ في الفرار قبل أن يتطور الوضع أكثر.. خرجتُ من الشركة وأنا أسير بسرعة شبه مهرولة فسمعتُ خطواته المندفعة ورائي تتبعني بثباتٍ وتصميمٍ حتى وصلتُ إلى المرأب وتوقفتُ أمام سيارتي الصغيرة أفتح بابها باستعجال بغية الهرب، ولكن قبل ركوبها واختبائي داخلها منعني وهو يغلق باب النجاة الذي فتحته للتو!



التفتُ له مناقض لانتفاضة الغضب واليأس داخلي وأنا أسأله بملل حقيقي:

-هو في إيه؟! لا بجد في إيه؟!

وافق منفعلاً بهزة رأس زاويًا بين عينيه متخصرًا:

-تصدقي سؤال ممتاز.. هو في إيه فعلاً؟!.. كل ما اكلمك تجري وتتعصبي.. ليه؟!

-ليه؟! عشان يمكن كلامك كله بقى سمج ومستفز!

أشهر سبابته في وجهي برفضٍ موضحًا:

-لا، اسمها عشان كلامي ما بقاش يرضيكي ولا بقى على مزاجك زي زمان.

ابتسمتُ مستنكرة وأنا أُربع كتفي أمام صدري مرددة الكلمة ورائه، ثم استفهمتُ منه أخاطبه كطفل صغير يتملكه العند:



-زمان!.. ضياء.. هو أنت بجد مش حاسس إن في حاجة غلط؟!.. مش عارف مثلاً إن أنا هسيب كل حاجة في الشركة اللي حطيت فيها عمري، وكل اللي بنيته فيها بسببك!.. مش مدرك إن الوضع اللي بتقول عليه ده خلاص ما بقاش ينفع!

لم يمهل نفسه فرصة ورد مصححًا ورائي على الفور وكأنه تجهز لتلك الكلمات وحضر ردها مسبقًا:

-كدة.. ما بقاش ينفع كدة. عارف ومدرك كويس.. بس الحل مش إنك تسيبي الشركة اللي قضيتي فيها عمرك زي ما بتقولي وتهربي.. أنت لو فاكرة إنه هيتصلح كدة تبقي غلطانة.

خرجتْ ضحكة خافتة مني بلا إرادة وأنا أسأله منتظرة اقتراحه الفذ الذي سيمطرني به:

-والله! اومال هيتصلح ازاي؟!



تنهد بقلة حيلة وعيناه تنشد التسليم كصوته المُرهَق وهو يخبرني:

-لما نتكلم.. احنا محتاجين نتكلم بصراحة يا تيا.

وكلمة صراحة تلك أربكتني وزلزلتْ الحنق داخلي وزرعتْ بين شقوقه الألم.. رحلتْ عيناي تطوف ببطء على وجهه وملامحه التي كانت ذات أمسٍ أعظم أمنية وأدفى اكتشاف، وأضحتْ اليوم أقسى خيبة وأفظع سقطة!

ظللتُ أتأملها لحظاتٍ بروية وأريحية أطلقتُ لهما العنان للمرة الأولى منذ شهور مجيئي القليلة، والأخيرة قبل تمام الوداع!

وبعد ثوانٍ أصاب صوتي الخدر وأنا أخبره بفتور:

-نتكلم في إيه ضيا؟!.. احنا ما بقاش ينفع يكون في كلام بينا خلاص.. ما بقاش ليه فايدة.

-تيا..



كاد يقول شيء ما لكني أوقفته برفضٍ مصمم رغم سكون نبرتي:

-وحتى لو في فأنا مش عاوزة اتكلم.

وجدته بعد برهة صمتٍ متأمل يتساءل بغضب وليد:

-ليه ؟! ليه ؟!

كاد يكمل صرخاته لكن غضبه انتقل لي في لحظة وشد فتيل تحملي فانفجرتُ صارخة أقاطعه بحرقة وعدم تحمل لهذا الكم من الضغوطات التي تنبع وتصب في مملكته هو دون سواه:

-عشان مش عاوزة أشوفك.. سهلة ؟!..

عشان مش قادرة اتحمل وجودك حوليا أكتر من كدة.. مقنعة ؟!..

عشان نفسي اعيش في حياتي من غير ما ألاقي طيفك فيها.. واضحة ؟!..



عشان زهقت يا ضيا.. أنا زهقت. زهقت ونفسي تختفي من حياتي. نفسي أبعد من غير ما أدمر كل حاجة في حياتي عشان أنت ديمًا موجود بشكل ما فيها.. استوعبت؟!

انتهتْ صرخاتي وسكن صداها المدوي من فراغ المرأب حولنا الذي كان يشاركني الغضب، وشعرتُ بحنجرتي تؤلمني وقد صار ابتلاع ريقي مؤلم كألم صب الماء الكاوية على جرحٍ حي، ولكني لم أنشغل به وأنا أتلاها بمحاولة التقاط أنفاسي المنقطعة بعسر.

مسحتُ على وجهي بيدين مرتجفتين وقد شعرتُ به يشتعل بحرارة مريرة وأبعدتُ أطراف شعري وأنا أضغط على جانبي رأسي، وألم صداعٍ مضنٍ أخذ يزحف إليه مع دوار بشع وقف أمامي مكشرًا عن أنيابه وهو يوعدني بسفور صريح لاستعداده للانقضاض عليَّ والفتك بي في لحظة غفلة واحدة مني!

-وأنا مش هسيبك تبعدي تاني، مش هتمشي.



قاطع صوته الخافت غيمة الظلام التي كادت تبتلعني وقد سقطتْ مني تعبيرات وجهه في غمرة غيابي بمحاولتي التماسك وكذلك تحليل صوته وهيئة كلماته.. ومع إدراك جزءً من فحواها اشتعلتُ بضجرٍ وألمٍ مرة أخرى؛ فجززتُ على أسناني والشرر يتقد من عيني ثم تقدمتُ منه بلا مقدمات وأنا أدفع صدره بغلظة وأبعده من أمامي بعنفٍ آمر باطنه رجاء خفي:

-خلاص امشي أنت.. سيب لي حاجة في الحياة مرة وامشي أنت.

أحكم غلق يديه على قبضتي فوق صدره؛ يمنعني من الاسترسال في جنوني المنفجر ويطالبني بالهدوء بعينين حانيتين وصوت متفهم؛ لم أرحب بلطفهما رغم تعطشي القاتل لهما؛ فتمسكتُ بعنفي الغاضب قبل أن ينهار جدار تحملي للأبد:

-امشي يا ضيا، امشي أنت المرة دي.. أعمل حاجة واحدة في حياتك عشاني أنا.. وابعد. ابعد يا ضيا..



فككتُ يدي من قبضته وهمستُ بآخر كلماتي بغصةٍ مريرة وعيونٍ احتقنتْ بالعبرات الحبيسة، لكني تغلبتُ متفوقة عليهم بنجاح وتفوهتُ بهم:

-ابعد للأبد عشان أنا مش عاوزة اشوفك تاني.

والتفتُ على الفور بعد أمري أو رجائي لا فارق، ثم هرعتُ إلى سيارتي أختبئ داخلها وقُدتها على الفور بلا لحظة انتظارٍ واحدة وأنا أُسرع بالفرار من جبروت حضرته.

**



والحلم الصامت في قلبي..

يبدو مهموما كالأيام..

يطارده يأس وأنين.

حلمي يترنح في الأعماق بلا هدف..

واللحن حزين.

-فاروق جويدة.

-متى تأتين؟!



ضياء

فرتْ. هذا أقرب تعبير أجده يَصدُق في وصف ما حدث ويحدث دائمًا.

فرتْ وكأن كل وحوش الأرض تطاردها متمثلة في هيئتي.

فرتْ في لحظة كما باتت تفعل كلما رأتني أسير خطوة نحو إصلاح صدع علاقتنا وإرسائها على شطوط السلام كالماضي.. رافضة بكافة الطرق المعلنة وغير المعلنة أي تلصص مني على محيطها الصغير، أو أن تجود هي بصدقة صغيرة من طيف حضورها الرؤوف على عالمي التائه الذي لم أكن يوم بحاجة ماسة لوجوده كما أنا الآن.

أتوق للمسة من يقينها وهي تهدم أسقف توتري على وحوش حيرتي وتوهتي بسحرٍ خاص اكتشفتُ ألا تملكه سواها، متمثل في بضع



كلماتٍ واهتمامٍ صادق. أو حتى طيفٌ خافت من رحيق عنايتها التي تغمرني بسكينتها الآسرة وهي تخبرني كعادتها القديمة أن كل شيء سيكون على ما يرام، وببراعة روحها الناعمة تنجح بانتشالي من نيران حروبي الدائمة لنسائم السلام.

ولكنها أبتْ، وابتعدتْ، وفرتْ هاربة.. ولم أتفاجأ. فدائمًا ما أحتاجه يقع على أرفف المستحيل رغم أنه مع الآخرين يقبع بين حدود المتاح!

أيقنتُ وصدقتُ على هذا ولكني لم أتأقلم بعد. فزحفتْ الخيبة داخلي بعد مواجهتين كلتاهما كانت أسوء من الأخرى وفي غضون أسبوعين أو أقل.. ومع كثرة الأصوات التي تنبح داخل رأسي وتكاد تصيبني بالصمم أو الجنون؛ حاولتُ إسكاتهم وإخضاعهم لصمتٍ إجباريٍ ولو مؤقتْ واتصلتُ بـ"نوح" كالرفيق الوحيد الباقي لي



أطلب مقابلته على وجه السرعة، اتفقنا على المكان ثم ذهبتُ له من فوري رغم فرق التوقيت الطويل نسبيًا عن المعاد المحدد.

جلستُ في سيارتي بركنٍ بعيدٍ على جانب النيل وارتكنتُ برأسي على بابها شاردًا في الليل الذي بدأ يعلن استفاقته من هزيمة معركة الصباح وشن حربه بضراوة من جديد على شمس النهار وهو يوقن من فوزه عليها في تلك الجولة.. وفي هذه اللحظة تحديدًا.. تذكرتُ "براء".

ونيران كلماتها المشتاقة تحرق روحي وتمتزج مع طنينٍ شرس لكلماتٍ منفعلة بصوت أخرى وهي تأمر بالابتعاد الأبدي.. فشعرتُ وكأن رأسي تُعتصر اعتصارًا.

انتهتْ الحرب.. وحل المساء. وسماء الليل المعتمة بلا قمر أو نجوم لتضيء هذا الظلام الخانق تسيدتْ الأجواء محاكية ظلام عالمي الداخلي بدقة سوداوية!



غرقتُ في ظلامي الذي كاد أن يبتلعني لولا مجيء "نوح" أخيرًا، فتح الباب الجانبي لسيارتي وجلس ينتشلني من على حافة الجنون:

-إيه يا عملي الأسود.. جايبني على ملا وشي ليه؟

-مخنوق.

أجبته بكلمة واحدة دون أن أحيد ببصري عن تأمل سواد السماء أمامي ولخصتُ بها شعوري كاملاً والذي يشبه بالفعل اختناق غريق.

-وإيه الجديد؟!

قالها ممازحًا في محاولة واضحة لتلطيف الأجواء ولكني لم أستطع مجاراته فأغمضتُ عيني وأنا أزجره منفعلاً بإرهاق ملول:

-لو هتستظرف من أولها همشي.

وضع كفيه بيننا يهدئ من انفعالي واعتدل من جلسته المسترخية:



-خلاص خلاص، اهدا.. اتخانقت مع مراتك ولا إيه؟

-يعني.

-وبعدين؟

تأففتُ بعنفٍ وصوتٍ عالٍ وأنا أمسد جبيني بتعب واعترفتُ بمنتهى الصدق:

-أنا زهقت وتعبت.

-ليه إيه اللي حصل جديد؟!

حاصرني الصمت كثيرًا بين ظلام خانق ولهيب حارق وظللتُ معلقًا في المنتصف بينهم أحاول الفرار منهم والنجاة بحكيهم وإخراجهم من رأسي ولكني عجزت منهزمًا!

لم يقاطعني مشكورًا؛ تاركًا لي الوقت لجمع أسبابي الكثيرة والتي لم ينسل منهم سوى:



-تيا عاوزة تستقيل.

زوى ما بين حاجبيه وتساءل بحيرة وجهل:

-وهي تيا رجعت مصر أصلاً، ولا قصدك هتستقيل من هناك ولا إيه مش فاهم؟!

-رجعتْ من مدة.

بانت المفاجأة جلية على محياه فعلق باهتمامٍ جادٍ أخيرًا:

-لا والله!! ماقولتش يعني؟!

اعتدلتُ في جلستي بتوترٍ أخبره والذكرى تضربني بحسرتها من جديد:

-موضوع البيبي اللي راح ربكني ولخبطني وكان في نفس معاد رجوعها تقريبًا.. والهانم كمان من ساعة ما رجعت وهي كل يوم بحوار وسايقة عليَّ العوج!



خرجتْ جملتي الأخيرة محملة بالحنق بلا إرادة مني، ليبدأ هو وصلة سخريته بابتسامة مستنكرة:

-لا ازاي مالهاش حق.. تسوق العوج على البشمهندس ضياء بنفسه.. ازاي الكلام ده!!

-أنت هتهزر!

حدجته بطرف عيني حانقًا، ورد هو هازئًا:

-والله ما في حد بيهزر غيرك.. كمل يا حنين.

-مافيش.. من ساعة ما جت وهي مش طيقاني وبتتلاشى تتعامل معايا أصلاً.. وحصل كذا موقف زي الزفت آخرهم النهاردة.

اكتستْ عيناه بتعبيرٍ غامض وتساءل:

-امممممم.. ومراتك رأيها إيه في حوار رجوع تيا ده؟.. بتحكي لها على المواقف دي؟



ابتلعتُ ريقي بارتباك معترفًا:

-مالحقناش نتكلم فيه.

-ازاي يعني؟!

-اتخانقنا على موضوع أهم.

-موضوع أهم قولت لي.

قالها ضاحكة وهو يمسد قدميه ببطء وآلية وعلقتْ ابتسامة سخرية على شفتيه، فصرَّرتُ على أسناني بغيظٍ وأنا أزيحه بكفي مبعدًا:

-نوح.. انزل أنا هروح.

-استنى بس.. ما أنت اللي مكتم يا عم ومابقتش تحكي حاجة.. واحدة واحدة كدة بس وهات التفاصيل كلها.



زفرة مضطربة تحررتْ من صدري وأنا أمسح بكفي على وجهي ثم بدأتُ في سرد تفاصيل الشهور الماضية محتفظًا ببعض التفاصيل الخاصة داخل قوقعة نفسي وكان من ضمنهم سبب مشادتي وخصامي مع "براء" مكتفيًا بالخطوط العريضة. وعند انتهائي اكتستْ ملامحه بقناعٍ مبهم ثابت وضاقتْ عيونه وهو يسأل مباشرةً، ممهدًا لي الطريق إلى جحيم ضياعي فاتحًا أبوابه أمامي على مصرعيه:

-وأنت كنت متضايق من ارتباطها بزميلكم ده ليه أصلاً طالما إنسان كويس وأخلاقه مش وحشه؟

-عشان ماينفعش ليها.

أغمضتُ عيني رافضًا طرح الفكرة من جديد وقولتها بشكلٍ قاطع وأنا أضغط بعنفٍ على فكي محاولاً باستماتة عدم فقدان



السيطرة على غضبي المتقد، بينما رده هو كان حاضرًا على الفور بسؤالٍ متحدٍ رغم معالم وجهه الثابتة:

-أومال مين اللي ينفع؟

دافعتُ صادقًا دون تفكير:

-ماعرفش.. بس هو مابيحبهاش ومايتنفعهاش.

ضيق عينيه باتهام وهو يسبر أغواري بسؤالٍ ممتعض:

-ولو كان بيحبها.. كنت هترحب وتقول آه هو ده اللي يستاهلها، ولا كنت هتقول بردو.. لا، ماينفعش. ماينفعش تتجوز واحد وهي بتحب واحد تاني.. زي ما سبق وقولت.

قطبتُ بضيقٍ متذكرًا ذاك الماضي الذي نبشه بكلماته بينما صمتْ ثانيتين ثم استطرد بتهكم وعيونه ترسل لي شراراتٍ زاجرة:



-ولو كانت قالت إنها بتحبه وهو بيحبها، كنت هتقتنع وتسلم ولا بردو كنت هتكابر وتقول.. لا، دي بتكذب على نفسها ولسة بتحبني أنا وأنا لازم أفوقها.

حديثه كان كسهامًا من نيران رشقتْ في صدري ورأسي على حدٍ سواء.. بعينين ذاهلتين ووجهٍ ممتقع سألته بصدمة لا أدري أكانت من فجاجة صراحة كلماته، أم من قسوتها، أم من.. صدقها الذي رفضتُ الاعتراف به:

-أنت بتقول إيه؟!

أجاب بعنفٍ وهو يقذف بكفٌ يده تجاهي بزعيقٍ حادٍ:

-بقول اللي مش عاوز تسمعه عشان تضحك على نفسك براحتك.. وخد بالك، كل ده وما تكلمناش إن أنت أصلاً مالكش دعوة تقبل ولا ما تقبلش.. اللي تعمله في حياتها صح غلط أنت



مالكش دخل فيه.. يكش تتجوز تاجر مخدرات وتعمل شفت كارير وتشتغل رقاصة.

كلماته كانت كبنزين سكبه بقصدٍ مؤذٍ على نيراني فأوصلها لحدود السماء، ومع جملته الأخيرة تحولتْ النيران لبركانٍ ثار وانفجر ونثر حممه في وجهه وقد انتفختْ أوداجي وأنا أصيح هائجًا بتحذيرٍ مبحوح الصوت جاحظ العينين:

-نوح!

-بلا نوح بلا زفت.. أنت اتجننت يا ضياء شكلك.. واحدة داخلة على خمسة وثلاثين سنة.. مش عاوزها تتجوز حتى لو جوازة غلط من وجهة نظر معاليك، دا أنت بجح يالا!.. وبعدين هي المدام تنكد عليك تروح تطلعه على الغلبانة اللي عاوزها تحت الطلب.

مع كل كلمة كان يتفوه بها كنتُ أشعر وكأن العالم يدور من حولي بسرعةٍ لا تحتمل؛ وتنثر كل الثوابت والحقائق حولي بعشوائية



مقيتة وأنا واقف في مركز العاصفة مغلول الإرادة والحركة، حتى أتتْ صفعات كلماته الأخيرة فأسكتت ضجيج كل شيء بغتة واحتل الصمت الغاضب داخلي من جديد، فجززتُ على أسناني وقد خار صوتي من الهياج للخفوت الآمر بجدية خطرة:

-نوح.. ما تتكلمش عنها كدة.

صمتْ وضيق عينيه متأملاً طويلاً ثم ألقى بسؤالٍ كقنبلة موقتة لم أحسب له حساب:

-عن مين فيهم يا ضياء؟! عن اللي ظلماك ولا اللي بتظلمها؟

وصمتْ.. والسؤال ترك أثرًا كالعلقم في نفسي.. فإن تجاهلتُ دور المظلوم راضيًا، فأنا أعي جيدًا وأعترف باقترافي لدور الظالم بحذافيره دون إرادةٍ أو قصدٍ حقيقي مني!



وهذا لا يزيد الأمر إلا سوءً.. فبطولة الظالم تلك إن لم تلعبها بكامل إرادتك واختيارك الحر ستصبح كطوقٌ خانق على أنفاسك مهدية لك الموت البطيء بدل من المتعة المنتظرة منها!

مسدتُ عنقي برغبةٍ حقيقية في إيقاف كل شيء؛ مكتفيًا من هذا العبث ومحاولة حل هذه المتاهة المسماه حياتي.. فتلك الدائرة لن أتحمل الدوران فيها أكثر ويجب عليها أن تُكسر بطريقة ما، ولابد أن يكون هناك طريقة ما لفك لعنتها!

قاطعني متسائلاً بهدوءٍ عاد له من جديد:

-ومالها مراتك كمان؟! عملت إيه قلبك عليها كدة؟! ما انتوا كنتوا راجعين من الرحلة ثمن على عسل.

-اتخانقنا عادي زي ما أي اتنين بيتخانقوا.

عادت سخرية كلماته بنا من جديد لمربع صفر:



-آه قولت لي أتخانقتوا عادي.. وأنت طبعًا حبيت تعوض وجع قلبك ده بإن لا أنا استاهل اتحب والغلط من عندها طبعًا.. والدليل تيا اللي لسة عايشة بتتعبد في محرابي، مش كدة؟!

-نوح كفاية هطل.. كفاية.

قولتها برفضٍ منهك وطاقة مستنزفة ثم فتحتُ باب السيارة أهرب منها أو منه ومن حصار كلماته واستندتُ على مقدمتها بعدم احتمال، فلحقني هو مجاورًا في وقفتي صامتًا لأكثر من عشر دقائق كاملة كنتُ أحاول فيها فك الخيوط المتشابكة داخلي.. وكما كل مرة أحاول فيها حلهم وألقى تشابكهم غير قابل للفكاك؛ فأتيقن أن الحل الوحيد هو حرقها وإحراقي معها!

-ضياء أنت عاوز إيه؟!.. آخرة الحدوتة دي كلها إيه بقى عشان بوخت أوي؟



قالها بهدوءٍ ومسايسة لمحاولة إرضاء طفل صغير، وأجبته سارحًا صادقًا:

-ماعرفش.

أغمض عينيه قائلاً بنبرة صوت تتلمس الصبر:

-هو إيه اللي ماعرفش!.. عيل صغير أنت مش عارف هو عاوز إيه؟!.. ولوزي ما بتقول ما تعرفش يبقى خلاص شيلها من دماغك ومن حياتك واسمع كلامها وسيب أنت الشغل. اتنازل عن حاجة عشان العشرة اللي كانت بينكم بدل ما هي بس اللي عايشة عمرها اللي بيخلص تتنازل.

استمر هدوء كلماته رغم دوي صفعات مضمونها، فزجرته بعينينٍ غير راضيتين أسأله مستنكرًا:

-خلاص بقى هو ده الحل يعني من وجهة نظرك.



-هو مافيش حل غيره أصلاً.

-مش عاوزه.. مايلزمنيش.

-هو إيه اللي مايلزمكش! هو بمزاجك؟!.. بعدين أنت مستني منها إيه مش فاهم؟!..

طب ما هي كانت ممكن تتجوز وتكمل حياتها مطرح ما كانت مسافرة هناك.. إيه اللي فرق بقى؟!

-خلاص يبقى ماكنتش ترجع وتشقلب لي حياتي برجوعها.

عاد صوتي يعلو برفضٍ وعاد حنقه للطفو صائحًا:

-هو إيه اللي ماكنتش ترجع.. هي بلد أبوك؟!.. وعشان خاطر ربنا بس ما تلبسهاش لخبطة حياتك عشان هي كدة كدة متلخبطة لوحدها.

-يوووه أنا تعبت، أنا ماشي.



أخبرته وأنا أستعد بالفعل للرحيل بقرارٍ بالاكتفاء من حديثه الذي لم يزدني سوى تخبطًا وألمًا، فأمسك مرفقي يوقفني بأمرٍ حازم وصوته الغليظ لا يقبل الجدال:

-أقعد يا ضياء وما تبقاش عيل صغير.

عُدتُ للوقوف جواره من جديد صاغرًا، ومن جديد التجأنا للصمت بهدنة قبل أن يسأل وعيونه مسلطة على الظلام أمامه:

-بصراحة كدة أنت عاوز إيه من تيا؟!

توقفتُ عند السؤال المباشر طويلاً متأملاً فاكتشفتُ أنه أكبر من قدرتي على تشكيل إجابة شاملة له، ولكني حاولتُ بعد برهة صمتٍ مفكر:

-مش عاوز غير إنها تبقى موجودة زي ما كانت موجودة.. عاوز صحبتي اللي كنت بحكي لها كل دوشة جوايا وكانت بترتبها لي في



ثانية.. عاوز الإنسانة اللي كانت بتعرف تحاوطني بالهدوء بعيد عن أي دوشة.. عاوز السلام اللي كان بيتوجد بمجرد ما هي تحضر.. مش عاوز أوجعها بس أنا محتاج لوجودها.. عاوزها مرتاحة بس ما تبعدش.. عاوزها مبسوطة بس ماتوجعش نفسها بتجارب هي وأنا عارفين كويس إن نهايتها فشل. أنا مش عاوزها تتوجع تاني ولا تبعد تاني.. هي أصلاً مابقاش ليها حد غيري وأنا متلخبط من غيرها، فليه كل حاجة ماترجعش زي ما كانت؟! إيه اللي صعب في كدة؟!

-الصعب إنك متجوز.. واللي ينفع زمان مابقاش ينفع دلوقتي.. وإن الزمن بيجري وهي مش هتفضل عايشة عمرها كله على وهم في الماضي وراضية بدور على الهامش في حياتك.. وإن أنت وهي ومراتك عارفين إنها بتحبك!



تنهيدة متخمة خرجتْ مني وأنا أعلق متعبًا حانقًا على ذاك الشعور:

-يا أخي الله يخرب بيت الحب.

عاد الصمت يخيم علينا فأغمضتُ عيني وارتكنتُ بظهري على الزجاج ورائي متوسدًا برأسي على مرفقي وشردتُ في صفحة السماء السوداء، حتى اندفع صوته الهادئ من العدم من جديد باقتراحٍ توقف له قلبي للحظة:

-طب ما تتجوزها.

انتفضتُ من موضعي بصدمة وعيونٍ جاحظة وسألته مرة أخرى عن كلماته علني قد أكون قد أخطأت سمعها:

-نعم! قولت إيه؟!



-نعم الله عليك يا حنين.. إيه اطرشيت!.. اتجوزها. عشان اللي أنت عاوزه وبتقوله ده عك وماينفعش غير كدة.. وزي ما قولت هي مابقاش ليها حد غيرك، وبردو ماينفعش تبقى حوليك غير كدة.. وكدة كدة أراهنك إن مراتك ممكن تعترض أصلاً.

ابتلعتُ ريقي بعسرٍ وقد شعرتُ بالبرودة تزحف لروحي خوفًا من الفكرة ورفضًا ليقين كلماته الطاعنة لغرور عشق آسن:

-لا. واستحالة براء تقبل بكدة.. أنا متأكد. وأنا استحالة اعمل فيهم الاتنين كدة ومش هعمل في نفسي أنا قبلهم كدة.

-براحتك.. بس صدقني المتاهة اللي أنت فيها دي مالهاش حل إلا كدة، ففكر شوية بالعقل من غير قلبك اللي موديك في ستين ألف داهية ده.. يمكن وقتها هو أول واحد يرتاح.

ثم تحرك من جلسته ووقف أمامي وعيونه تشهر التحدي وتعلن الحكم النهائي واجب النفاذ بلا استئنافاتٍ زائدة:



-بس لو الغباء خدك وصممت تفضل حاشر نفسك في الدور المسكين ده يبقى ماترجعش تعيط ولا تلوم حد غير نفسك.. والأهم وقتها إن لازم تحترم نفسك وتقطع علاقتك بيها للأبد.

ثم استدار وغادر دون حرفٍ زائد وركب سيارته على الفور وغادر دون أن يلقي إليَّ نظرة واحدة جديدة، وتركني وحدي أعاني من تبعات جنون هذا الاقتراح!

**



ما كان خوفي من وداع قد مضى..

بل كان خوفي من فراق آت.

لم يبقى شيء منذ كان وداعنا..

غير الجراح تئن في كلماتي.

لو أننا.. لم نفترق!

-فاروق جويدة.

-لو أننا لم نفترق.



براء

عندما يقف الماضي أمام الحاضر وجهًا لوجه في مواجهة كارثية..

فلابد أن ينحني أحدهما مستسلمًا رافعًا راية الرحيل؛ حفاظًا على الأرواح من معاناة الرقص على حلبة الجنون.

ولكن.. ماذا لو عاند الحاضر ورفض أن يشارك إنشًا من عالمه مع طيف قديم؛ مبررًا أنه لم يقحم نفسه في عالم الماضي ولم يتشاركه مع أحد، وبناءً عليه فلا يحق لأحد أن يشاركه في عالمه الخاص الآن.. ويتوعد بانفجارٍ عظيم إن حدث العكس!

وماذا لو نشب الماضي أنيابه في هوامش حكاية اليوم؛ مكابرًا كونه هو حجر أساس جل الرواية وبدونه لذهبتْ أحبارها هباءً دون أن تُكتب من الأساس.. ووقف راسخًا يهدد إذا نُزع أو زُعزع من موضعه بأن يقذف بالحكاية كلها في ثقب أسود!



ووقفا الاثنان أمام بعضهما بتحدٍ متأهب لشن حرب ضارية لن يخرج منها خاسرًا سوى صاحبة الأرض المحتلة؛ أنا.

فماذا ستكون محصلة تلك المعادلة، وعن أي نتيجة ستسفر الحرب؟!

هذا السؤال الذي اكتوى به عقلي طوال الفترة الماضية وهو منزوي عني، يأخذ تلك الغرفة البعيدة ملجأ ومهرب مني منذ ما يقرب الأسبوعين، دون أن يزعن لمبادرتي بأي حديث معلنًا القطيعة!

تلك القطيعة التي تتغذى على روحي ببطءٍ وتفتح الأبواب بترحاب لإقامة أسوء كوابيسي بين أروقة روحي. ولأول مرة حقًا أغضب من حكاية الماضي وأندم على حكاية الحاضر.. وعندما أصابني هذا الشعور.. زارني هو!



زارني في غفواتي المضطربة ليزيدها اضطرابًا وتخبطًا وهو الذي كان قد توقف عن زياراته منذ سنوات!

فبعث سؤالٍ منهك في نفسي بقهرٍ وحنقٍ وليد!

ألم تجري العادة في كل الحكايات المشابهة بأن يأتي العاشق القديم في المنام ويمسد شعر حبيبته ويمسح دمعاتها برأفة، ثم يوصيها مبتسمًا بالنسيان وإكمال حياتها مع شريكها الجديد، ومن ثم يأخذ كفها بنفسه ويسلمها له وهو يوصيه عليها ويذهب للأبد!

فلما إذًا لم يحدث معي سوى النقيض؟!

لما أصبح يزورني بانتظامٍ ولا يفعل سوى النظر لي بلومٍ وغضبٍ دون أن يمنحني كلمة واحدة متفهمة أو نظرة عطوفة كما مضى؟!

وألم تجري العادة أيضًا أن يتفهم مالك حياة اليوم أثر الماضي الضارب في الجذور ويشارك صاحبة الذكريات لوعة فقد تلك



الذكريات، مع الشكر والامتنان لصديق الأمس الراحل الذي كان بمثابة حلقة وصل قدرية؟!

فلماذا الاثنان ينتهجان الدروب المعاكسة ويعاقباني بلا رحمة على ما ليس لي فيه ذنب ويمزقاني بهذا التضاد الأناني؟!

كنتُ أتمزق بحق طوال الأيام والليالي السابقة.. أتمزق بغياب "ضياء" المعاقب، وشعور بالذنب الآكل لقبر الذكريات الذي دفنت فيه -مرغمة- حكايتي مع "مصطفى"!

ولا أدري أي الطرق بها نجاتي من هذا الجنون.. إلى أن اهتديتُ في النهاية أنني لن أستطيع التفكير بحكمة من الأساس طالما ظل هو بعيدًا بهذا العقاب البارد؛ فصممتُ على إنهاء تلك المهزلة اليوم بعدم احتمالٍ لهذا الضغط أكثر من هذا، ودعم قراري تأخره عن رجوعه للبيت حد منتصف الليل!



جلستُ على الأريكة بتحفزٍ دون أي حركة لساعات وعيناي مسلطة على الباب في انتظار لحظة دلوفه بيقينٍ من اقترابها مهما طالت.. يقين ينخره وجود أخرى هي عين الخطر، ومركز الذنب، وعمق الخسارة.

تلك التي كُنت شاهدة على عشقها الناعم له وارتباطه بها الخارج عن نطاق المسميات والتصنيف. تلك التي هربتْ في أشد أوقاتي احتياجًا لهروبها، وعادتْ في أشد أوقاتي توسلاً لاختفائها. تلك التي أعلم يقينًا بحدث أنثى وضمير سارق معذب أنه عاد للجلوس من جديد بمقربة شطوطها؛ ينشد بعض السلم من أمواجها الناعمة بعيدًا عن نيراني الحارقة. تلك التي أهدتني النجاة بالبعد منذ سنواتٍ وعادت الآن كي تسحب بساط الأمان السحري من أسفلي لتجعلني أعاني آلام ارتطام السقوط!



نعم، فأنا بلا "ضياء" أعاني خلل توازن سيتبعه حتمًا سقوط مهلك!

أخرجتني دقات الساعة المتواصلة من هواجسي، وصوتها يسفر عن اثنتا عشرة دقة معلنة وصول منتصف الليل قبله!

ووقتها أخيرًا.. حضر.

حضر بحالٍ ليس أفضل مني كثيرًا: بكتفين مسدلين بانهزامية وعيونٍ تحكي أساطير عذابٍ حبيسة داخلهما، لكن كل هذا لم يُثِر داخلي شفقة أو نية لتأجيل انفجاري، كما لم يمنعنِ إعيائي ولا هزل روحي من أن أقف أمامه وأباغته بسؤالٍ واضح بلا أي اهتزازٍ أمنعه به من الهرب قبل حتى أن يحاول:

-كنت فين؟!



رفع كفه يوقف استرسالي بتعابير وجهٍ مرهق وأغمض عينيه دون أن يكلف نفسه حتى عناء رؤيتي:

-براء.. بجد مش طالبة معايا أي مناهدة.

لم أتماثل لهربه كما السابق وعقدتُ يدي أمامي أخبره بتصميم:

-عاوزة اتكلم معاك.

-بعدين.

قالها بذات الوهن الهادئ وهو يبتعد تجاه الغرفة الذي اتخذها مسكن، فالتفتُ أجذبه من مرفقه ووقفتُ في طريق ذهابه متسائلة بسخط:

-بعدين ده اللي هو امتى؟

-ماعرفش.



لم أتحمل بروده فبدأ غضبي في الانفلاتْ وبدأتُ بالصياح المنفعل:

-بس أنا عارفة وعاوزة اتكلم، ودلوقت.

-وأنا مش قادر اتكلم.

-وأنا مش قادرة ماتكلمش، هتجنن لو ماتكلمتش.. كنت فين يا ضياء؟!

ويبدو أنه لم يتحمل الكتمان أكثير ولم يتنازل لتهدئة روعي المنفلت؛ فشاركني الغضب وتقاسم معي هذيان الصراخ والتحدي:

-كنت في ستين داهية. كنت بشرب من البحر. كنت بخبط دماغي في الحيط.. أنت مالك؟! أهمك في إيه؟!



وكأن أصابته لوثتي واجتاحني غضبه؛ فضربتُ صدره صارخة وأنا أمسك بتلابيبه بعدما سلمتُ مقاليد خوفي الجنون:

-كنت فين يا ضياء؟

-كنت بخونك يا براء.. إيه رأيك في الإجابة دي؟

اقترب بوجهه مني متحديًا حتى امتزجتْ أنفاسنا المضطربة وقال جملته الأولى بعيونٍ متسعة بشماتة تشع جنون، والثانية بعيونٍ تضيق بفضولٍ مظلل بالألم.. وأنا لم أكن بحاجة لهذا التحدي ولا ناشدته ولم يكن لي أي تحمل لمجابهته أو تفهمه أو حتى إخماده باحتواءٍ متفهم أو اعتذار، كل ما كنت أحتاجه أمان أحضانه ودفئها واحتواءه المعتاد، ولكنه ضنَّ عليَّ بهما وقد سلك طريق الألم قاصدًا الطعن بقسوة وهو يستطرد ساخرًا بضحكة هازئة:

-بعدين خير!.. لتكوني بعيد الشر بتغيري على جوزك ولا حاجة!



ثم زوى حاجبيه وتحولتْ معالم وجهه لاستفهام جاد انبثق بألمٍ حاول إخفاءه واستعاضته باستهزاءٍ لا مبالٍ خانه وظهر الألم جليًا في عينيه حد السفور:

-صحيح يا براء.. هو أنت تعرفي حاجة عن الغيرة؟!.. حسيتي بيها قبل كدة؟

اتسعتْ ابتسامته وزادتْ سخريته وعينيه تقطر مرارًا عندما أكمل:

-عليَّ طبعًا مش عليه.

وهنا اندفعتْ حمم الهذيان والألم إلى عقلي وقلبي وشعرتُ وكأن هناك مراجل تغلي بخلايا جسدي!

أحقًا يسألني عن الغيرة؟!



يسألني عن الغيرة ولا يعرف حجم الرعب والهلع الذي أعيش داخله كل لحظة وهو بعيد من احتماليه فراره مني والذي بدأ بالفعل؟!

يسألني عن الغيرة ولا يعرف قدر العذاب والاحتضار الذي أعانيه من تخيل اللحظة الذي سيفتح بها الأبواب ويرحل دون رجوع؟!

يسألني عن الغيرة ويتجاهل نواح القلب المذعور من فقدٍ جديد؟!

يسألني عن الغيرة ويغض الطرف عن الاحتياج؟!

ثم ما الحاجة للغيرة من الأساس إن حُصِرَت بشعور فقد الملكية وترقب الغدر، وهل تجرؤ أن تقحم نفسها وسط تلك الأحاسيس المفترسة وتخلق لها مكانًا بينهم؟!

هراء.. كل ما يتفوه به هو هراء.



لماذا لا يشعر سوى بنفسه وألمه وفقط ولا يهتم سوى ببثي هذا الألم غاض الطرف عن أوجاع قلبي الخاصة؟!

انتفضتُ وأنا أسأله صارخة بحنق، وضجر، واختناق، وألم، وترنح واكتفاء.. أسأله بعدم تحمل، وعدم فهم، وعدم رضا، وعدم أمان:

-أنت عاوز إيه؟!.. عاوز إيه؟!

كررتها وكررتها حتى انشقتْ حنجرتي بجرحٍ نازف واستشعرتُ مذاق الدماء الدافئة بجوفي..

فصمتُ مرغمة!

*



ضياء

لثانِ مرة في ذات اليوم أسأل ذات السؤال.. ماذا أريد؟!

والإجابة أنني لا أريد قدر ما أحتاج.. أحتاج الصمت والسلام.

وكذلك لم يغِب عني احتياجها وسوء حالتها المنهكة بوضوح منذ أن حطت عيناي عليها من أول لحظة دلفتُ فيها للبيت، لكني تجاهلتُ كل هذا وأنا أجيبها بكلماتٍ نبعتْ من نهر الغضب لا الاحتياج:

-عاوز اعرف أنت حاسة باللي حاسس بيه ولا لا؟!..

حاسة بجهنم اللي جوايا بسببك ولا لا؟!..

حاسة بالنقص اللي أنا حاسة بسببك ولا لا؟!..

حاسة بروحي المسجونة في كوابيس من رسم أديك ولا لا؟!..



حاسة بعمري اللي بيروح على الفاضي وهو بيجري ورا حلم هو أصلاً حقه وأنت مستخسراه فيه ولا لا؟!..

حاسة بكم جحودك ولا لا؟!

وجهها الآسر الملطخ باصفرار الإعياء.. شعرها الجاف المعقوص بإهمالٍ بعيدٌ عن بريقه المعتاد.. عيناها الحبيبتان التي ظللتهما الهالات السوداء ونظرة حاقدة مريبة تفترشهما.. وشفتاها الكرزيتان التان فقدتا رونقهما المغوي وأحتلهما الشحوب!

كل هذا بعد كلماتي.. تضاعف!

كسخطها الذي تنامى وهي تكمل بإصرارٍ على القضاء على آخر نقطة تحمل في اليوم، بكلماتٍ مبحوحة وشت عن جرح حلقها بعد صراخها الدامي منذ لحظات:

-وكنت بتلاقي الإجابة مع مين بقى يا ترى هاه؟!..



ويا ترى المرة دي قالت لك طلقها بدل سيبها؟!..

ولا قالت لك أنا حذرتك وأنت ماسمعتش كلامي؟!..

ولا قالت لك معلش، قدرك الأسود واستحمله؟!

أخذ الأمر مني ثانيتين لاستيعاب كلماتها ثم ابتلعتُ ريقي بعسرٍ من مفاجأة سيرتها على لسان "براء" خاصة وفي هذا التوقيت تحديدًا أيضًا!

نظرتُ لها بشيء من توتر وأنا أسألها:

-قصدك إيه؟!

-تفتكر أنت قصدي إيه يا ترى؟! أو.. قصدي مين يا ترى؟!

وكأن كل الطرق غير الممهدة تلتف وتتشابك لتصل في الختام لسيرة مغارة سلامها المستحيل!



اقتربتْ مني أكثر ورفعتْ رأسها بتحدٍ وقد انخفض صوتها المبحوح للهمس:

-قالت لك إيه يا ضياء هاه؟!

كانت تتحداني بألم وقبلتُ التحدي بذات الألم وتقاسمه الحنق والعجز.. انحنيتُ برأسي إليها أقطع المسافة الفاصلة بيننا وبذات الهمس أجبت:

-قالت لي ابعد.

-وهتبعد؟

-أنت إيه رأيك.. ابعد؟!

هزتْ رأسها بآلية بطيئة وقد أُحتل كل وجهها بالشحوب:

-هتعمل إيه؟!



-قولي لي أنت اعمل إيه.. أبعد وادوس على نفسي، ولا اعمل زيك واحط الدنيا كلها تحت رجلي وأنا باخد كل حاجة بأنانية من غير ما أفكر في اللي قدامي ده هيتحمل أنانيتي وخيانتي ولا لا؟!

-خيانتي!

كنت قد انفصلتُ لوهلة عنها وأنا أتكلم بلا وعي أو تركيز وكأني كنتُ أحادث ذاتي، ولم أنتبه لوقع الكلمة إلا عندما كررتها هي بوجهٍ ممتقع وعيونٍ زائغة.. وقتها فقط نلت صفعة الإفاقة!

ووقتها فقط قبلتُ بالهزيمة، وكدتُ أعتذر، وأنفي، وأرضى بالتمزق الدائم بين حبٍ مضنٍ، وغيرةٍ قاتلة، وافتقادٍ ملتاع.. كدتُ أرضى بالانتحار حيًا؛ مفضلاً نجاتهما عني.. فلأبتعد عن "تيا" ولتحظى بسلام غيابي.. ولأرضى بفتات "براء" ولتطمئن هي بوجودي وإن كان مصيري الاحتراق!



كاد لساني يتحرك بإعلان الندم وهدهدة روعها وأخذها بين أحضاني لأنتزع عن قلبها الخوف وأزرعه في روحي ألم.

كدتُ وأوقفتني كلماتها المنتقمة وهي تطلقها بابتسامة ساهمة:

-بس أنت فعلاً زيّ يا ضياء، سواء بعدت ولا لا.. أنت بتعمل اللي أنا بعمله بالظبط ويمكن أسوء كمان.

ارتددتُ للخلف بجزعٍ وداخلي يهتز مع كلماتها وابتعدتُ خطوة اقتربتها هي وشبّت على أطراف أصابعها تقترب من وجهي:

-أنت مش أحسن مني يا ضياء.. ولو أنا خاينة زي ما قولت فعلاً فأنا ماخنتكش أنت.. أنا خنته هو.

كدلو ماء بارد سقط من العدم على روحي فأطفأ لهيب الذنب وبدله ببراكين الغضب والألم والكثير من الحقد، فابتعدتُ..



ابتعدتُ عنها خطواتٍ بطول الغرفة التي جمعتنا كأرض معركة شاهدة على احترقنا فيها سويًا ووقف كل منا على طرفها المناقض للآخر، وبقينا صامتين لفترة طالت وطالت حتى أكلتْ نيراننا نفسها واستحالتْ رمادًا متطايرًا بيننا.

-يبقى خلصين يا براء.

أشرتُ نحوها بعيونٍ ثائرة انفجر بها الألم والحقد:

-افضلي مقتنعة إنك بتخوني هو..

ثم أشرتُ نحوي بعيونٍ منتقمة تبغي الخلاص:

-وأنا هرحم نفسي منك ومش هبعد عن تيا.

أكملتُ متحديًا وأنا أقترب خطوة مع كل كلمة:

-لا دا أنا كمان هقرب أكتر، ومش هرضى بشوية راحة اتأملهم بعيد.. أنا هخش دنيتها كلها، وهسلمها دنيتي كلها.



توقفتْ كلماتي وتوقفتْ أمامها خطواتي من جديد واستخدمتُ اقتراح "نوح" الكارثي كسلاحٍ منتقم وأطلقتُ رصاصة رحمتي ورصاصة هلعها بكلمة واحدة:

-هتجوزها.

ونجحتُ في إرباكها فسألتُ متشفيًا:

-إيه رأيك؟

-مش هيحصل يا ضياء.

بهمسٍ نافٍ قالتها وبذات الهمس أثبتها:

-لا هيحصل يا براء. ومن هنا ورايح مش هعمل غير اللي يريحني وبس.. حتى لو كان اللي هيريحني ده هيتعبك ويوجعك.

وضحكة هازئة انبثقتْ مزاحمة كلماتي:



-وطبعًا مش وجع حب ولا غيرة لا سمح الله.. ده وجع خوف إن المغفل اللي أنت مسكاه من قلبه يفوق من التوهة اللي تايهة في ملكوتك، ويتحرر منك.

وبذات الضحكة الهازئة اعترفتُ بقهرِ عشقٍ بتُ أمقته:

-بس ماتخافيش أوي، أنا عمري ما هتحرر منك.

شاهدتُ دمعاتها تتحرر ببطءٍ وشحوبها يزداد ولم أهتم:

-عشان أنا ملعون بيك.

كانت صارخة، مزلزلة، غاضبة، مغلولة الإرادة ومنزوعة الخلاص.

صمتُ ثم نفيت بعد برهة صغيرة من تفكيرٍ ناقم:

-ولا أقول لك.. خافي يا براء. خافي يمكن تحسي بواحد على ألف من اللي أنت معيشاني عمري حاسس بيه.



ثم ذهبتُ وتركتُ لها المنزل بلا تردد، هاربًا من محراب عشقها بعدما أسقاني السعير وألبسني رداء الرعونة والبله!

بعدما كفر إيماني بتراتيل العشق وصار إلحادًا، وصلواتي المتضرعة بالسكن بجنةِ القلب انقلبتْ لقسم بجرها لقعر الجحيم!

وبعدما هُدم معبد العشق على رؤوس العشاق!



(7)

عشقتك في منتصف المحيط بلا قارب أو زورق نجاة!

**

وقال: أنا الدهر أغفو قليلاً.. ولكن بطشي شديد.. شديد!

فأعبث بالناس ضوءً وظلا.. وساعات حزن وأنسام عيد!

وأمنحهم أمنيات عذابا.. يعيشون فيها حياة العبيد!

وألقي بهم في ظلام كئيب.. وأسخر من كل حلم عنيد!

غدا في التراب يصيرون صمتا..

وتمضي الليالي على ما أريد.

-فاروق جويدة.

-ويخدعنا الزمان.



براء

قيل قديمًا لا تقبض بعنفٍ على الرمال الساخنة حتى لا تتسرب من ثنايا كفك وتتفاجأ فيما بعد أنك لا تملك سوى حفنة من فراغ!

فماذا لو اتبعتْ النصيحة وحاوطت بكفيك على حفنة أمانك بلا ضغط أو تضييق، فقط حاصرت زواياها بهدوءٍ وخفة.. ومع هذا تطايرتْ من يدك مع الريح تاركة لك برودة الفراغ!

فأين الخطأ فيما فعلت، أو أي مما لم تفعله كان المشكلة؟!

ماذا كان يجب عليَّ أن أفعل تحديدًا لكيلا يحدث ما حدث بالفعل؟!



فها قد مرتْ أيامٌ ولم يتحدث معي سوى مرة واحدة برسالة نصية باردة، عبارة عن كلمات آمرة استشعرتُ صارمتها تتقافز من حروفها الساكنة: مفدها بأنه سيقيم في بيت والديه وعليَّ أنا أيضًا بالذهاب لبيت أبي رحمه الله كي أقيم بصحبة أمي هذه الفترة ولا أبقى بمفردي بالبيت.. وفقط!

وكنت قد شعرتُ بالألم يتملك مني والهواجس القلقة تكاد تفقدني صوابي؛ فاتبعتُ أوامره وذهبتُ لأول مرة بدونه إلى بيت أبي، أحاول الاحتماء داخله والتمتع ببعض الأمان الذي بدأ يتسرب من بين يدي، والتمس في حضن أمي بعض من الحنان الذي في طريقي لفقده من آخر!

وأخبرتها ببسمةٍ كاذبة وعينين حاولتُ التحكم في صرخات عذابهم أنني سأبيتُ معها ليومين أو أكثر، وبررتُ وجودي المريب بدونه على غير العادة بأن والدته مريضة فاضطر للمكوث بجوارها قليلاً



حتى تتحسن حالتها بعض الشيء وأني لم أعرض المبيت معه لأجل علاقتي المتوترة مع والدته فجئت هنا كي لا أكون وحيدة بالبيت. كذبة ساذجة ولكنها ابتلعتها مرغمة..

-ارتابت؟

-بالطبع.

فهذه هي المرة الأولى التي يترك فيها "ضياء" المنزل ويبيتْ خارجه مهما وصل سوء الأوضاع.. فحتى عندما كنتُ أتركه أنا وأبيتُ هنا بصحبة أمي بعد كل خسارة لطفلٍ من أطفالي كان هو يصر على عدم ترك منزلنا ليقتاتْ عليه الفراغ والصمت؛ ويرفض كل عروض والدته بالمكوث عندهم لحين عودتي والتي كانت لا تغيب لأجل ألا أتركه يتجرع الخسارة بمفرده هناك.

-حاصرتني بالأسئلة فيما بعد عندما لم يظهر لمرةٍ واحدة أو حتى يهاتفني؟



-بكل تأكيد.

فهذه ليست فعلةً طبيعيةً من أي زوج وخاصة "ضياء"، كما أنني أيضًا لم يزُرني الضياع ويحتل كياني بهذا الشكل السافر منذ زواجي!

وبالرغم من كل مراجل الألم التي تغلي فيّ، وبرغم حاجتي الماسة لمشاركة أي شخصٍ بما يموج داخلي من رعب.. استطعتُ الهرب من حصار أسئلتها الأيام السابقة مؤجلة مواجهة ستضيف على جبال همومي الكثير وجلستُ في غرفتي أتجرع وحدي الضياع والندم وبعض من تيهٍ وجهل!

فأنا حقًا لستُ أدري فيما أخطأت.. فماذا لو لم أقدر على الغرق في عمق الموت ولا الجنوح إلى قمة الحياة؟!

ماذا إن لم أستطع سوى الوقوف في المنتصف والتنقل بينهم: تارة أتنعم بالحياة وأخرى أستكين مع الموت؟!



ماذا كان عليَّ أن أفعل سوى التمزق بين العالمين راضية؟!

أكان يجب عليّ إما الدفن حية ما بقى لي من عمرٍ على ذكرى الحبيب، متجاهلة ما فطرتُ عليه من احتياج لصحبة وونس؟!

أو أن أردم وُديان ذكريات عمري وأحولها لصحراء بلا ظلال تنجيني من حريق الذنب، حتى يمنّ عليَّ الزوج العاشق ببضع قطراتٍ من غيث وجوده؟!

وهل هذا ممكنًا من الأساس؟!

هل هناك شجرة وقفتْ راسخة بجزعها وأغصانها دون أن تستند ملتحمة بجذورها؟!

وهل هناك شجرة مبتورة الأغصان وقفتْ بجذعها منفردًا بلا أوراق تزهر فيها الحياة إلا وقُطعتْ ونُسفتْ وكأنها لم تكن؟!



ظلتْ هذه الأسئلة تتقافز داخلي وأنا شاردة أراقب عصفورًا يحفظ طعامه في عشه الموضوع على غصن شجرة شبه مكسور!

ترى أبناه بعد كسر الغصن غاض الطرف عنه وعن احتمالية سقوطه وهدم العش؟!

أم أن الكسر قد شق الغصن بعدما بنى العصفور عشه الصغير عليه؛ ولأنه كان أوهن من أن يتحمل ثقل بيته الخفيف؟!

ولا أعرف لما ذكرني هذا العصفور بـ"ضياء"!

قطع تأملي دخول أمي وجلوسها بصمتٍ بجواري فصمتُ أنا أيضًا وظللتُ أراقب العصفور بفضولٍ لمعرفة ماذا سيفعل عندما يتم الكسر ويسقط؟!

-جوزك ما اتصلش بردو؟!



كان سؤالاً صريحًا مهمومًا به لمحة غضب، فأجبتها بالنفي ببساطة:

-تؤ.

-أنا مش فاهمة إيه البرود اللي أنت فيه ده.. وازاي كل ده جوزك مايجيش يسأل عليكي ولا حتى يكلمك!

-مشغول.

حديثها كان منفعل وكلماتي الشحيحة كانت ساكنة، فأكملتْ هي بلهجة محققة مؤنبة:

-ومن أمتى ضياء كان بينشغل عنك يا براء؟!.. دا ساب كل اللي وراه واللي قدامه وسافر معاك عشان يحسن نفسيتك بعد اللي حصل وماكنش بيفكر غير ازاي يسعدك ويطلعك من اللي كنت



فيه.. دلوقتي بقى مشغول يجي يطمن على مراته زي ما أي راجل بيعمل وهي بايته برا، ولا قادر حتى على حتى مكالمة تليفون!..

أنت عملتي إيه بالظبط قلبكم القلبة دي؟!

لم أستطع الرد فجنحتُ للصمت كعادتي لكنها لم ترضَ به كجواب كما سبق؛ بل أصرتْ على المعرفة وهي تضغط على كلماتها بتصميم:

-إيه اللي حصل يا براء؟.. وشوفي لك كذبة غير كذبة أمه العيانة دي عشان مش مقنعة لعيل صغير.

يبدو أن المماطلة انتهتْ هنا واستأذنتْ بالرحيل، فمهما أجلتُ إخبارها وكذبتُ سيأتي وقت ما للمصارحة وكشف الأوراق.



وقد حان هذا الوقت بالفعل على ما يبدو.. التفتُ لها وأبعدتُ عيني وانتباهي عن مشاهدة العصفور ونظرتُ لها لحظتين قبل أن أخبرها بثبات:

-ضياء هيتجوز عليَّ.

ورد الفعل المتوقع حدث تفصيلاً متمثل في شهقة مفاجأة وضربة صدر تزامنًا مع صرختها المصعوقة:

-يا مصيبتي.

-ليه مصيبة؟!

سألتها بهدوء وبوجه خامد، وصمتت هي بصدمة جديدة ثم رددتْ ورائي مستنكرة بعينين متسعتين ووجهٍ ممتقع:

-ليه مصيبة؟! بتسألي ليه مصيبة بجد ولا بتهزري؟!

-لا مابهزرش.. عشان جوازه مش المشكلة قد جوازه من مين.



صمتُ وشاهدتُ القلق المتسائل يتضاعف على وجهها فأكملتُ:

-ضياء هيتجوز تيا.

ألقيتُ الاسم وتركتُ لها الوقت الكافي لتذكره وما يتبعه من ذكرياتٍ وأحداثٍ وعمرٍ مضى كنت أثرثر لها بتفاصيل كل شيء حتى هم ويقيني عندها بأنهم ثنائيٌ خفي!

-استحالة.

قالتها بإنكار ورفض، وأقررتُ بثباتٍ ويقين:

-لا مش مستحيل ولا حاجة؛ أنت عارفة ضياء لما بيحط حاجة في دماغه مابيوقفش غير لما بيعملها.

-أنت ساكتة وباردة كدة ازي؟!

-مفروض اعمل إيه؟!

-أغضبي، ارفضي، اقلبي الدنيا وماتقعديهاش.



-ولو عملت كل ده وعند أكتر، وصمم أكتر، وبعد أكتر وأكتر!

أجابتْ بإصرار وقسوة رغم سحابة الدموع الوليدة في عينيها:

-هدديه إنك هتسبيه؛ وهو بيحبك وهيرجع لما يحس إنه هيخسرك بسببها.

رفضتُ بهزة رأسٍ بطيئة واعتراف:

-مش هعرف، وهو مش عبيط عشان يصدق كدة حتى لو حاولت.

كادتْ أن تقول شيء لكنها توقفتْ لسببٍ ما ثم نظرتْ لي بتركيزٍ وهي تضيق عينيها وسألتْ باتهامٍ غير متوارٍ وعينين بدأ الغضب المشتعل يتولد فيهما بإدراك متأخر:

-أنت عملت كارثة إيه ووصلت الدنيا لكدة؟!

وبجملة الاعترافات أجبتُ بذات النمط الهادئ الذي يستفزها أكثر على ما يبدو ولا تعلم أني أخبئ خلفة جحيم من رعب مرتعد:



-شاف بالغلط وصولات التبرع باسم مصطفى اللي كنت بتبرعها باسمه السنين اللي فاتت.. ماحصلش غير كدة.

رفعتُ كتفي بيسر عند انتهائي وكأن الأمر بسيط لذلك الحد، وبان الهلع على ملامحها وهي تقف بجسد تصلب وضربتْ على فخذيها صائحة بهمٍ وعتابٍ غاضب:

-تاني!.. تاني!.. مصطفى تاني يا براء!.. تاني!

وقفتُ أنا الأخرى أمامها بسخطٍ؛ وقد نسف اتهامها المبطن له هدوئي؛ فتساءلتُ بألم يمزق صدري:

-وهو مصطفى كان فين أولاني عشان يبقى تاني، مصطفى ماله أصلاً بالتلاكيك دي كلها؟!

-لا ليه؟!.. عشان هو السبب في الهم اللي أنت فيه ده.. فوقي يا براء مصطفى مات.



-فايقة وعارفة، وأنا ما عملتش حاجة غير إني بهديه أمنية رحمة في موته ده.. أنا ماغلطتش.

-لا غلطتي.. عشان أنت عارفة جوزك بيغير عليك ازاي منه، خاصة إنه كان صاحبه وعارف ارتباطكم ببعض كان عامل ازاي.

انتفضتُ صارخة بدفاعٍ عمن لا مدافع له ويصمموا جميعًا أن يلقوا عليه بكل الآثام مستغلين عدم وجوده في تلك المحاكمة الظالمة التي نصبوها من الأساس:

-يبقى صاحبه اللي غلط مش أنا.. وحتى لو أنا غلط فمصطفى ماغلطش عشان أتبرء منه واهرب من سيرته وذكرياته كإنه ذنب أو تهمة ارتكبتها أو كإنه حاجة مالهاش قيمة ولا سعر في الحياة ودوره خلص بمجرد ما مات وكلكم مستخسرين فيه حتى ثواب الترحم عليه.



صمتتْ ونظرتْ لي دامعة لا أدري على أي شيء تحديًا، ثم أشاحتْ بوجهها مبتعدة تجلس من جديد وهي تهز قدمها بتوتر.

-وطبعًا الهانم ما صدقت واصطادت في المياة العكرة.. أتاريها راجعة منمرة على تقيل.

استشعرتُ محاولتها في طوي الصفحة دون القدرة على الوقوف والمحاولة لوصول لحل لمتاهتها كما نفعل جميعًا؛ وقالتْ كلماتها بشيءٍ من حقدٍ غريب عليها فتجاوبتُ معها شاكرة لتغير سيرته التي تنضح بالألم، وأجبتها بيقين:

-تيا مش هتوافق يا ماما أنا متأكدة.

نظرت لي بلا فهم وتساءلتْ وأجبتُ:

-ازاي يعني؟!



-تيا بتحب ضياء من قبل ما أنا اعرف الاتنين أصلاً، ومش هتقبل تكون رقم ٢ في حياته.

بان على وجهها سرورٍ مستحٍ وعلقتْ متأملة:

-طب لو أنت واثقة من ده يبقى كدة مافيش مشكلة، حاولي أنت تعقليه بس وتشيلي الفكرة دي من دماغه.

هززتُ رأسي بآلية ونظرتُ شاردة في البعيد الهارب:

-أنا واثقة.. زي ما أنا واثقة بردو إن ضياء مش هيسيبها غير لما توافق. هيفضل وراها لحد ما تستسلم وتوافق.

عادتْ تنتفض غاضبة من جديدٍ متسائلة وهي تجزّ على أسنانها بعنف:

-وأنت فين؟! هتسيبيه يتجوز عليك؟!!

والسؤال ألقاني في جب الألم على حين غرة.. أين أنا؟!



والإجابة أنني أسير مكبلة في أرض الخوف.. أنا ببساطة كسجينة في زنزانة الوحدة، حُل عنها الوثاق ولكن بأمر مراقبة مشدد مع أمر أكثر صرامة بزجها في ذات السجن من جديد إذا صدر عنها أي هفوة أو خطأ صغير.. فرافقني الخوف من السقوط وارتكاب ذاك الذنب حتى اقترفته بغفوة غبية مني؛ والآن انتظر حكم المعاقبة بالوحدة والقتل البطيء بالفراق من جديد!

-لو وقتها هيرضى يفضل معايا للأبد هرضى يتجوز عليَّ.

قولتها صادقة بقرارٍ ظل يتنامى داخلي طيلة الأيام السابقة..

فإن كان زواجه منها هو الثمن الذي يرتضيه ليبقى بالجوار ولا يرحل فسأدفعه راضية، وإن كان هذا هو كفارة ذنب عدم قدرتي على محو الماضي من دفتر عمري فسأسدده قانعة، وإن كان هذا هو رد الدين المناسب لمحو شعور السرقة والاستيلاء على ما ليس حقي فسأرده قابلة!



قاطع أفكاري الجانحة غمغمة أمي العاتبة والغير مصدقة:

-هتسيبيها تاخد جوزك منك يا براء؟!

-طب ما أنا اخدت منها حبيبها قبل كدة يا ماما!

دافعتْ صارخة بحنق:

-مش مشكلتك، هو اللي جه لحد عندك وجري وراك وطلب يتجوزك بدل المرة ألف.

-ومش مشكلتها بردو، عشان هو بردو اللي هيروح لحد عندها ويجري وراها ويطلب يتجوزها بدل المرة مليون.

اتسعتْ عيناها بصدمةٍ وغمغمتْ تسأل بلا تصديق:

-أنت بتدافعي عنها؟!

-أنا بقول الحق.

هزتْ رأسها ننافية وهي تؤكد لنفسها وتعيد على مسامعي:



-لا أنت اتجننتي، اتجننتي بجد.. ولو أنت هتسكتي فأنا مش هسكت وهخرب الدنيا، وهكلم اخوكي يرجع من سفره ويوقفه عن اللي في دماغه.

قالتها تغادر بعزمٍ متألم فأوقفتها بفرضية هامة تاهت عن بالها ولم تغِب لحظة عن بالي أنا:

-ولو قال لكم عاوز أبقى أب وده حقي!

والجملة ألجمتها فوقفتْ بجسدٍ متحفز واستدارتْ لي ببطء بوجهٍ فرت منه الدماء:

-تقصدي إيه؟!

-أقصد إن الموضوع أكبر مما في دماغك يا ماما.



ثم صمتُ وأغمضتُ عيني بقوة مستنزفة وتنهدتُ أخرج بعضًا من ثقل ما يعتمل داخلي، ثم طلبتُ منها بصوتٍ مرهق يائس ومستسلم:

-محدش يتدخل في الموضوع ده يا ماما من فضلك وسيبيه يمشي زي ما ربنا كاتب له يمشي.

حملقتْ فيّ للحظات بلا تعليقٍ ثم التفتْ من جديد تغادر بقلبٍ سكنه الهم والألم وبانا على ملامح وجهها ونبرة صوتها المستنكرة:

-أنت اتجننتي يا براء.. أنت اتجننتي.

قالتها تشير بيديها يائسة ثم تركتْ الغرفة كالإعصار الغاضب.

عدتُ لمكاني من جديدٍ أجلس أمام النافذة المفتوحة وشعور الشفقة عليها يخلق لنفسه مكانًا بين الكثير من المشاعر القاتلة ليقتات عليَّ بجانبهم هو الآخر.. ثم رجعتُ بنظري لمشاهدة



الغصن المكسور والعش المهدود لكني لم أجد ما كنت أراقبه متأملة منذ دقائق.. فقد طار العصفور!



ونظرتُ لليل الجحود وراعني..

الليلُ يقطع بالظلام يَدَ القمر.

والأغنياتُ الحائراتُ توقفت..

فوق النسيم وأغمضت عين الوتر.

-فاروق جويدة.

-عندما يغفو القدر.



ضياء

هل سمعتم عن رجل طارد الشمس وقت المغيب ظنًا منه أن لا حياة بلا شمس؟!

فظل يهرول خلفها كاسحًا كل منطق، متجاهلاً توسل قدماه بلحظة توقف!

يقهر ويضيق الخناق أكثر على نبض قلبٍ ينفجر من ألم الهرولة وراء المستحيل، متغاضيًا عن انقطاع أنفاسه وضيق صدره حد الاختناق؛ وظل يركض ورائها بلادٍ وبلاد، متحديًا كل العوائق ومحاربًا أي حكمة!

وبعد كل هذا.. وكما تقتدي طبيعة الكون والبشر.. سقط الرجل وأعلن الهزيمة فالاستسلام!



فلتغرب شمس النهار كما تشاء، ولتتركه لظلام الليل يجهز عليه ويخنقه بعتمته كما يحلو له!

ولكن.. وللمرة الأولى.. وبفضل ألم إنهاك حرب اللحاق بالشمس، جلس مستسلمًا يتأمل سكينة الليل مسترجعًا الهدوء الذي كان ينثره في نفسه، وقد نساه في غمرة أماله المحمومة باقتناص الحياة من وهج الشمس في كل لحظة من عمره!

ورأى بالقمر ما لم يرَه طوال سنوات عمرٍ كان فيه يخشى الظلام!

فبفضل خوفه من صمت الليل ووحدته لم ينتبه لقمره الذي يضيف على وحشة ليله الأمان والسكينة، بل ويفوق سلامًا ورفقًا بضياه الخافت عن ضياء الشمس المشعة!

فخَرَّ مستسلمًا لثبات راحة لم يتزوقها منذ زمن!



ثم فكر، واقتنع، واتخذ القرار.. فليغرق في نعيم الهدوء والسكينة بين أحضان قمر الليل، وليترك المعاش بحروبه التي تبث الحياة في الأوردة لشمس النهار!

هذا الرجل لم يكن أبدًا ببعيد، إنه أنا.

فبعدما هدأتْ شعلة الغضب واختبأتْ جزوته أسفل رماد البعد عن مُشعلتها، اتقدتْ نيرانٌ أخرى من التفكير ورغبة الوصول لخريطة نيل بعض الراحة من تلك المتاهة.

أقمتُ لأيام وحيدًا في غرفتي القديمة ببيتِ أبي.. تلك التي آوت قديمًا كل الذكريات والتخبطات والقرارات المصيرية، وتشهد الآن أيضًا التخبط في أخذ قرار جديد بحتمية النجاة بالغرق!

وقد أخبرتُ أبي وأمي بحدوث مشكلة ما بيني وبين "براء" للفرار من حصار أسئلتهم ونظراتهم الفضولية القلقة، وأعلمتهم بحسم أنني لستُ مستعدًا لسرد أي تفاصيل، وكل ما أريده وأحتاجه

فقط هو الصمت والانفراد بذاتي لإراحة أعصابي قليلاً.. وبالتأكيد استشعروا مدى عمق المشكلة وخطورتها نظرًا لمبيتي خارج المنزل لأول مرة منذ زواجي!

وهكذا استطعتُ بأعجوبة اقتناص بعض من الفراغ الذي أحتاجه وأنا أطلق العنان لعقلي للوصول إلى القرار الصحيح.

وبعد التفكير الهادئ والتحليل العميق في محاولة انسلاخ عن تلك الحكاية المرهقة للنفس والأعصاب، ومحاولة الابتعاد لرؤية وتأمل الصورة من خارج الإطار.. توصلتُ أن حل "نوح" لم يكن بهذا السوء الذي ظننته للوهلة الأولى، ولم يكن كذلك فرصة عظيمة لمضايقة "براء" ورد الصفعة لها فحسب، بل كان وبمنتهى العملية حل يرضي جميع الأشخاص ويعيد تقسيم وتوزيع نصيب الألم لكل طرفٍ من أطراف هذه الحكاية. وكما قال أيضًا لم تكن المعضلة في موافقة أو اعتراض براء؛ فالمساومة هنا محسومة بلا



كثير من الجدل، بل الأزمة الحقيقية ستكون في معارضة "تيا" ورفضها الذي أثق تمام الثقة أنه سيكون باتًا وسيحتاج الكثير من الجهد والإلحاح لدحضه.

وعندما أخبرتُ الجميع بقراري المفاجئ.. وبعد الصمت الطويل بذهولٍ طاغٍ.. تضاربتْ ردود الأفعال كما توقعتُ تمامًا.

فأبي غضب ورفض بشدة، وأمي هللت مؤيدة تدعم قراري برغبتها الحارقة بحمل الحفيد الغائب بين أحضانها والذي قد سقط من حساباتي سهوًا لتأتي أمي وتقحمه في المعادلة فتثقل كفة قراري أكثر. كما تطوعتْ بالبحث والإتيان بالعروس، ثم صمتتْ مصدومة تصاحبها صدمة أبي المضاعفة حينما أخبرتهما هوية العروس المختارة بالفعل!



وقتها ارتسم الرفض التام على ملامح أبي والاستياء على وجه أمي تزامنًا مع جملة مستنكرة مزقتْ قلبي بصدق: "ودي بسنها ده هتعرف تخلف وتجيب عيال! "

وقتها حقًا تملكني غضب جديد لم اتعرف عليه من قبل.. غضبٌ حارق من التقليل من شأن وإهانة أحدٍ غير مسموح لأي شخصٍ -مهما كان- بإهانته أو انتقاده بتلك القسوة وكأنه دون المستوى.. وامتزج غضبي بذنبٍ مدرك أنني أسقطتُ الكثير من الاحتياجات الطبيعية لنيلها الونس والأمومة في غمرة احتياجاتي أنا بأنانية فجة!.. ورغم أن تلك الأنانية لازالتْ قائمة ولن تنهدم؛ ولكني أحاول صادقًا تعديل اتجاهلها وتوجيهها لمسارٍ صحيح.. فأعلنتُ رفض كلماتها بصرامة ورفضتُ الاستمرار في الحديث معلنًا أن قراري نهائيٌ ولا حاجة لي لمناقشته؛ فاشتعلتْ الأجواء في البيت الهادئ، وقابلتُ اشتعاله بالصمت والتجاهل. وبالنسبة لها هي



فقد رضختُ مؤقتًا لطلبها أو قرارها بالابتعاد وعدم الرغبة في رؤيتي.. فصرتُ أتلاشى مقابلتها والحديث معها أو الوجود داخل دائرتها من الأساس، في محاولة لمهادنة ألمها وامتصاص غضبها المشتعل تلقائيًا برؤيتي حتى أقدر على اقتناص فرصة الاقتراب بأقلِ قدرٍ ممكن من الخسائر.

إلى أن جاء يوم نهاية الأسبوع فقررتُ تمزيق تلك الغيمة من السلام الكاذب، والذهاب لبدأ جولة حرب طويلة الأمد آمل أن بنهايتها سيُمنح كلينا السلام. ذهبتُ لعنوان بيتها الذي أحفظ تفاصيله عن ظهر قلب بعدما قضيتُ فيه الكثير من أيام شبابي بصحبتها وأبيها عندما كان يستدعيني منفردًا لهزيمة "عشرة دومنة" ساحقة أو على مرأى ومسمع الشهود ولم يكن غيري يستطع مجاراته في تلك اللعبة، أو يأمرني موبخًا بشيءٍ ما حينما أضيق على ابنته الحبيبة خناق استفزازي القديم لها..



ارتسمتْ بسمة ساهمة وأنا جالس داخل سيارتي أراقب البيت بعينين تبصرانه بشرودٍ مسترجع السنوات الهاربة، وخاطر مؤلم اعتصر صدري فجأة.. أنا أفتقد هذا الرجل!

حقًا كان رجلٍ رائع الخلق، متقد الذكاء والحكمة، وذاخر بالعاطفة.. تلك العاطفة التي كان يغدق بها على كل من اعتزت بهم ابنته وقد كانوا معدودين على كل حال، مُلخصين في مجموعة صغيرة من خمسة أفراد دائمين التواجد فيه؛ فقد كان هذا البيت حاضنًا لنا جميعًا في أوقات الأزمات والانتكاسات الدراسية، وحتى حلقات النميمة والحسبنة من الفتاتين على أساتذة الجامعة، والمخططات الشريرة التي كنا نتشاركها ثلاثتنا: أنا و"مصطفى" و"رؤوف" وكنا ننسجها حولهم آملين فعلها بشر وجرأة غائبة، ومأوانا الحاضن في توقيت التجمع والاستعداد لـ"زنقة الامتحانات" والتي كانت لا تنتهي طوال خمس سنوات..



وكان دائمًا ما يشاركنا الجلسات والاهتمام، ويساعدنا بالنصائح والاقتراحات، وشرح بعض النقاط الصعبة حين الحاجة؛ فقد كان من حسن حظنا أنه مختصًا في هندسة الميكانيكا أيضًا؛ وهذا كان سر عشق "تيا" لهذا التخصص وإصرارها على دراسته وبراعتها فيه. كما كان كثيرًا ما يشاركنا باقتراحاتٍ مشاغبة جانبية ويهتم بنا بصدق، ويختصني بمعاملة مميزة نظرًا لمكانة صداقتنا الخاصة أنا و"تيا" التي كنا نتشاركها سويًا بتميز دونًا عن الباقيين. تلك المكانة التي حرمني منها بصرامة وقرارٍ آمرٍ بالابتعاد عن ابنته وقطع خيط الصداقة بيننا عندما شردتُ أنا عن تلك الابنة الغالية وأهديتها خيبة الأمل المؤلمة كما قال قبل أن تتم خطبتها الأولى على متعجرف بشع، فاكتفيتُ بإظهار الامتعاض والمعارضة الصامتة بلا جرأة على الحديث وبخوفٍ من ردة فعل أبيها الذي قطع بالفعل حبل التواصل بيننا.



ازدادت حدة الغصة في جوفي وتسلل شعور خبيث بالخذلان فقررتُ الاكتفاء من اجترار الماضي والتركيز على ما ينتظرنا في المستقبل ومعلق الآن. نزلتُ من سيارتي وصعدتُ الدرج على عجالة وقد اختفتْ كل الكلمات وتبخرتْ التجهيزات التي بتُ أتمرن عليها الليالي السابقة وكأنها لم تكن!

دقّيت الباب بلا انتظار لحظةً واحدةً لترتيب أي حديث وقطعتُ توتر التخيل بالغمر في الواقع. انتظرتُ دقيقةً كاملةً أو أقل قليلاً حتى فتحته ممتعضة تتساءل بضجر عن سبب إزعاجها، بطلة عشوائية.. مهرة!

فقد كان ضوء الظهيرة يشع خلفها من نوافذ المنزل المفتوحة على مصرعيها، وهي ترتدي سترة شتوية واسعة بعض الشيء وقصيرة باللون البرتقالي الغامق بأكمام مشمرة حتى مرفقيها، وبنطالاً ضيقًا من الجينز الغامق.. بينما شعرها الغجري الطويل معقوص



في ضفيرة دائرية مثبتة على مقدمة شعرها وبعض الخصلات القصيرة منسدلة على جانبي وجهها!

نظرتْ إليَّ بعينين متسعتين بلا تصديق ومعالم الصدمة تجتاح وجهها بثغرها المنفرج قليلاً، بينما كان كفي يديها ملطخين بعجينٍ أبيض لزج كاد يتساقط منهما.. فسرتْ بهجة غريبة داخلي من مشاهدتها على هذا الشكل أنستني توتري؛ فأشرتُ لها أنبهها بابتسامةٍ متسعة وعينين مأسورتين بتلك الهالة الدافئة:

-تيا العجينة هتقع من أيدك.

اختفتْ الصدمة وانتبهتْ لما بيديها بشهقة خافتة وهي تلف كفها حول نفسه؛ تمنع العجين من التساقط ثم جرتْ إلى المطبخ بلا كلمة فدخلتُ للبيت بهدوء وأغلقتُ الباب وأنا أتأمل البيت الدافئ الذي لم تتغير فيه تفصيلة واحدة سوى رحيل ربه.



هاجمت ذكرى آخر مرة كنتُ فيها هنا وقت وفاته ووجودي بجوارها في محاولة لمساندتها في كارثة فقده التي كنتُ أعلم عمق تأثيرها القاتل عليها ومدى فقد التوازن الذي ستعاني منه، وقد حدث بالفعل عندما اعتزلتْ ونأتْ عن الدنيا بمن فيها؛ رافضة أي تواصل مع أي أحد.. حتى أنا ثم ابتعدتْ عني أميال عندما حاولت التجاوز والاستفاقة.

كانت لحظات قصيرة استرجعتُ فيها تلك الفترة المؤلمة حتى خرجتْ هي بيدين نظيفتين خاليتين من العجين، ثم اتجهتْ للباب الذي أغلقته ورائي بلا انتباه أو نوايا دنيئة كما صور لها المشهد على ما يبدو، والتفتتْ لي بجبينٍ منعقد وعينين حانقتين متسائلتين!

**



رفقا.. بدمع الناس..

ما بين أحياء المقابر..

تصرخ الأنفاس في ليل السكون.

في كل جزء من شوارعها جراح.. أو خطايا أو جنون!

رفقا بدمع الناس يا زمن الجنون.

-فاروق جويدة.

-ومات الحب في مدينتي.



تيا

يوم الجمعة الآسر يهل من جديد.. هذا اليوم الذي أشعر به كشعاع شمس مطمئن يشق غيوم غربتي ووحدتي اللتان تحتلا سماء حياتي.. رغم أني في العادة فعليًا لا أرى فيه أنسي ومع ذلك أشعر فيه براحة طاغية وأنا بعيدة عن مضمار البشر، فأحتمي بفقاعة دفئه وأنا أقف في مطبخ بيتي في الصباح أجهز مخبوزات الأسبوع كما كانت عادتي القديمة مع أمي، ثم أجلس في الشرفة أراقب الغروب وأنا أسترجع ذكريات أبي وحديثنا الدائم سويًا؛ فأشعر وكأني ما زلتُ محاطة بدفئهما ووجودهما رغمًا عن أنف الرحيل.

ولكن اليوم وفي غمرة اندماجي المنهمك في صنع قطع السينابون، ومراقبة حبات الماكرون.. فوجئت برنينٍ مزعج على باب البيت



فظننته حارس العقار أو زوجته تبغي شيء ما، أو ترغب في إعلامي بأحداث وقرارات اتفق عليها سكان البيت، أو أن تخبرني بشيء لا يهمني كما جرتْ العادة؛ فذهبتُ حانقة وأنا أتساءل ماذا يريدون الآن ويقاطعوا انشغالي بسببه. فتحتُ الباب بيدٍ لم أزِل من عليها أثر العجين الذي أعجنه بيدي لانشغال المخبز الكهربي بعجينٍ نوع آخر، فتفاجأتُ بآخر شخص في الكون أتخيله يقف أمام بيتي وفي هذا التوقيت أيضًا.. "ضيا"!

"ضيا" يقف أمام باب بيتي وعلى وجهه أمارات الاستمتاع وبسمة مغيظة!

ظللتُ أحملق فيه بعيونٍ غير مصدقة؛ شبه واثقة بأنه وهم وأن حالتي أضحتْ تسير في اتجاهٍ خطير؛ فبالتأكيد هذه هلاوس صورها عقلي أمامي الآن؛ رأفةً بقلبٍ مسكين أنهكه البعاد الذي رضخ له الفترة الماضية بعد أمري الصارم له بالابتعاد!



اقتنعتُ بهذا وكدتُ أبتعد آمرة إياه بالخروج من رأسي ثم النواح على ما أوصلني له والبحث عن مساعدة طبية لعدم تكرار تلك الهلاوس من جديد، لكنني استفقتُ على كلماته المحذرة مصحوبة بضحكته المميزة المقطوعة آخرها وهو يشير لكفي التي كاد أن يسقط منها العجين:

-تيا العجينة هتقع من أيدك.

شهقتُ بإدراكٍ متأخر ضرب رأسي بغتة لمظهري الفوضوي الذي فتحتُ به الباب وأشعل غضبي من ذاتي، وكونه هنا بالفعل بمنتهى الثقة التي لا أدري منبعها تحديدًا زاد من اندلاع حرائقي أكثر.. وتلك الأريحية التي دخل بها البيت بل وإغلاقه للباب خلفه بمنتهى التلقائية والاعتيادية المهذبة وكأنه فرد من أصحاب البيت استفزتني!



فأضحيتُ أحاول كبت آلاف الأحاسيس المتضاربة داخلي وهم يتنازعون عن أحقية كل منهم في الظهور. غسلتُ يدي واطمأننتُ على سير مخبوزاتي وحفظهما كي لا تفسد بفضل مقاطعته متجاهلة لذة خائنة في عمق القلب لوجوده هنا كما كان قديمًا في زمنٍ مبهجٍ مضى، وأخرسته عنوة وأنا أستحلف له بكل قسمٍ إن لم يختبئ ويُخرس دقاته الصاخبة تلك حتى رحيله لأسلط عليه كل الكلمات السامة الجارحة التي يستحقها وقتها.. ثم خرجتُ بوجهٍ متجهم أجدتُ رسمه على ما أظن وأعدتُ فتح الباب من جديد والتفتُ له وأنا أتساءل عن سبب تلك الزيارة بلا كلماتٍ تاركة لحنق عيناي الكاذبة تلك المهمة!

طريقة ترحيبي الخاصة أحرجته على ما يبدو فحنى عنقه لليمين قليلاً ومسد رقبته ببطءٍ ثم تنحنح وغمغم مبتسمًا:

-احم.. ازيك؟



استهلالاته مضحكة!

حقًا بدايته الهادئة والغير متماشية مع مقابلتي السخيفة أضحكتني؛ فحاولتُ منع ابتسامة واسعة انفجرتْ داخلي بلا إذنٍ أو ترحيب؛ فهززتُ رأسي بسماجة حاولتُ بها مواراة تلك البسمة المنفلتة من عقالها وأحطتها برداء مستخف ثم تساءلتُ بقلةِ ذوقٍ مقصودة وملامح ملولة متشحة بالسماجة:

-خير يا ضياء؟!

زوى ما بين حاجبيه وشبه بسمة خفيفة ارتسمتْ على ثغره وهو يجيب مستنكرًا بلهجة مازحة:

-إيه المقابلة دي!.. في حد يعامل ضيوفه كدة؟!

-وفي ضيوف بتيجي من غير معاد؟!



لم أتجاوب مع محاولته للمزاح وكسر الحاجز الذي أجاهد لبنائه فقولتها بوجهٍ صامت التعابير إلا من رفعة حاجب متساءل بغية إحراجه، لكنه لم ينجرف لرغبتي كذلك وسأل بتحدٍ:

-ولو كنت طلبت معاد كنت هتوافقي تديه لي؟!

-لا.

-جاوبتي على نفسك.

طرقع بإصبعيه تجاهي وهو يجيب متشفيًا ببسمةٍ ماكرة وكأنه نال مني اعترافٍ بصحة فعلته، فتأففتُ وأنا أربع كتفي أمام صدري أسأله مباشرة:

-خير يا ضياء؟!

تحولتْ ملامحه هو الآخر في أقل من ثانية واحدة من الهزل الممازح لملامح جدية لا تقبل نقاش وهو يجيب:



-عاوزة اتكلم معاك في موضوع مهم.

صمتْ وسرق انتباهي بحق، وماهية الموضوع المهم الذي أتى به إلى هنا هذه المرة تثير فضولي؛ فشجعته موافقة بهزة رأسٍ وعينين منتظرتين. نظر لي في عمق عيني بتأمل وتركيز وكأنه يحاول تحليل وفك شفرات معادلة معقدة قد أنهكته، ثم سأل بجدية خالية من أي مرح كان يحاول نثره منذ قليل:

-أنت رجعت ليه يا تيا؟

أخذ مني الأمر ثانيتين لإدراك معنى السؤال وما ورائه، ثم عقدتُ جبيني بغيظٍ منه وأنا أستفهم في محاولة لإثنائه عن الخوض في هذا الموضوع:

-نعم!! معلش السؤال تاني كدة.



تقدم خطوة وهو يكرر ذات السؤال -رغم تحذير عيناي- بلا اهتزازٍ في النبرة أو خلجات الوجه ولا حتى رفة جفن:

-أنت رجعت ليه يا تيا؟

رمشتُ بعيني بلا تصديق، ثم سألته غير مصدقة بذات طريقته الهادئة:

-هو أنت حالف تحرق دمي بشكل دوري؟! حد مسلطك عليَّ؟! جي تفرسني؟! هنخلص امتى يا ضياء؟!

خرجَ السؤال الأخير مني بانفعال لم أأتمالك ورد هو على الفور بإصرارٍ وجدية ودون لحظة للتفكير:

-لا ماحدش مسلطني عليك ولا قاصد أضايقك، وأنا جي عشان نخلص فعلاً يا تيا بس بجد عايز اعرف.. أنت رجعتِ ليه؟



صمتُ وركزتُ نظري على عينيه؛ أحاول قراءة ما ورائهما ويواريه ببأسٍ غريب عني!

وبعد تفكيرٍ قصير صارحته بإجابة سؤاله بمنتهى الصدق:

-لكل الأسباب إلا أنت. صدقني أنت كنت السبب الوحيد اللي أخر رجوعي سنين وحيرني ومنعني إني أقطع غربتي اللي رميت نفسي فيها بسببك وارجع بلدي بدل المرة ألف. فضَّلت الغربة عن رجوعي بلدي كتير عشان مايحصلش اللي بيحصل دلوقتي ده، لكن ماقدرتش ورجعت لما جبت آخري يا ضياء.

صمتُ من جديد وصمتْ معي، وشهدتُ أثر كلماتي وهي ترسم رتوش ألم في عينيه التقطته بوضوح ومنعتُ وجعي الخاص من مآزرته بالارتسام على ملامحي وعيوني أنا الأخرى متسلحة بجلد وقسوة كلماتي. بينما هو هز رأسه وقد تحولتْ عيناه من الألم للتساؤل المعاتب بنبرةٍ هادئة خفيضة:



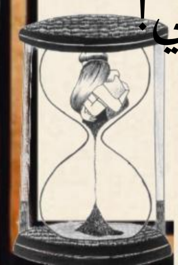
-ليه ضياء؟!

باغتني السؤال وفاجأني حقًا؛ فلم أكن يومًا أتخيل أنه يلتفت أو ينتبه حتى لهذه التفصيلة الصغيرة في طريقة نطقي لاسمه، والتي اتسلح بها في محاربة نفسي أحيانًا، والرأفة بها فالسماح بنطقه بطريقتي المحببة القديمة بيني وبين نفسي أحيانًا أخرى!

ابتلعتُ ريقي بتوترٍ وليد، وعطفتُ على نفسي مفكرة أنه بالتأكيد لا يقصد ما وصل لي، وتساءلتُ بارتباكٍ حاولتُ إخفائه ولكني فشلتُ على الأغلب:

-يعني إيه؟!

اقترب خطوة متأنية يقطع بها طول المسافة الكبيرة بيننا واكتستْ ملامحه بقناعٍ غامض وارى أسفله كل أفكاره وشعوره، ولم استسِغ تخبئة نفسه خلف هذا القناع الغامض وتصدير الجهل لي عما تقصده ملامحه التي كانت دائمًا كالكتاب المفتوح أمامي!



وبذات الصوت الخفيض الذي شعرتُ به يتسلل داخلي بخطورة لا أعلم أكانت مقصودة أم لا أعاد سؤاله:

-ليه ضياء؟! كانت طول عمرها ضيا يا تيا!

أمتقع وجهي ولم أرد. لم أستطع الرد أو أقوَ عليه فتهربتُ وأنا أعترف أمام نفسي بالجبن والانهزام، وسألتُ محاولة تغير الموضوع مختبئة وراء دور الهجوم في محاولة تغافل عن انهزامي في هذه الجولة:

-أنت جي ليه؟

حطتْ عيناه على خاصتي تكشفني بلا جهد وبعثتْ لي إشاراتٍ واضحة بكشفي بسفور جارح، ثم بنظرة أخرى نبأتني مطمئنة بأنها ستتغاضى عن المواجهة؛ سامحة لي بالهرب هذه المرة.. وصمتُ.



صمتُ طويلاً جدًا، وعيناه أسرتْ عيني غير سامحة لهما بالهرب أو الاختباء، واحتلني صمته وتلك النظرة المختلفة أكثر من كلماته فتمنيتُ للحظة لو يدوما للأبد!

لحظة واحدة استفقتُ منها عندما بخر غيمة الصمت من حولي وأخرجني من قوقعة السلام النادر معه مؤخرًا؛ وهو يجيب على سؤالي الذي نسيته بكلمتين اخترقتا سمعي كأسهمٍ نارية ألقاهما بثباتٍ وثقة:

-عشان تتجوزيني.

ولوهلة ظننتُ بأنني أتوهم من جديد وأن الهلاوس عادتْ أشد مما سبق!

رمشتُ بعيني أكثر من مرة علّه يختفي من أمامي وأتأكد من هلوستي قبل أن تغريني فكرة قتله أكثر ثم الاحتفاظ بجثته مُحنطة كتذكارٍ حبيب أحتفظ به في نيش أمي. لكن صمتْ وجهه



وبأس عيونه أخبراني أن ما سمعته قد قاله بالفعل، فضيقتُ عيني وأنا أهمس متسائلة بتهديد:

-نعم؟!

-أنت سمعتيني يا تيا.

قالها بعينين اتسعتا بتحذيرٍ وحنق صارم، بادلته إياه بآخر مغتاظ ومع ذلك حافظ كلانا على هدوء النبرة:

-سمعتك آه.. سمعتك وتأكدت إن أنت اتجننت بجد، والله العظيم أنت اتجننت بجد. اتهطلت وعقلك خف وخرفت بدري بدري يا ضياء.

ضيق عينيه وانبثقتْ بسمة جانبية غير مفهومة ولا موضع لها الآن، ثم أخذ سكينٍ صغير من طبق فاكهة قريب وظل يحركها



أمام ثغري صعودًا وهبوطًا مهددًا بصوتٍ عاد له نغمة استمتاعه الممازح وعينين لامعتين ضاقتا بمشاغبة:

-أنت لسانك بقا طويل خدي بالك وأنا مش هسكت على كدة كتير.

سحبتُ من يده سكين الفاكهة وأنا أشهرها أمام وجهه بتهديدٍ أكثر صراحةً وصدقًا:

-طب امشي من وشي يا ضيا، امشي بدل ما ارتكب جناية.

مال بجزعه للخلف وهو يفتح كفيه أمامه كحاجزٍ بيننا واتسعتْ ابتسامته مع تحذيره الضاحك:

-طب حاسبي بس لاالسلاح يطول.

-طب الحق انفد بجلدك بقا بدل ما يطول بجد وتخرج من هنا على المشرحة.



قولتها وأنا أجز على فكي، وبداخلي يتقافز الحنق كحبات البوشار، بينما اعتدل هو في وقفته المائلة بتحفظ واكتسى وجهه بيقينٍ مستفز وهو يعلق بجديةٍ اختفى منهى الهزل الضاحك:

-مش ههون عليك.

-يا صبر أيوب.

وهنا كنتُ فقدتُ ثباتي بالفعل فصرختُ بلا وعيٍ وأنا أرمي السكين من يدي بعيدًا فهبط يلتقطه بسلاسة وأعاده موضعه على المنضدة وهو يعلق بجديةٍ هادئةٍ غريبة وقدرةٍ أغرب على التنقل بين الهزل والرصانة في أقل من لحظة والتي أثارتْ جنوني بصدق:

-على فكرة أنا بتكلم جد، ومش هسمح بأي هروب منك.



كدتُ أجادله وأصرخ به نن جديد ولكني انخرستُ غفلة وكأن أحدهم حط بيده على فمي يمنعني من جدلٍ عقيم وأدار رأسي لاتجاهٍ مضاد فاعتصرني الخوف فجأة، وحقًا لا أدري لماذا!

فقط خفتُ عليه بصدق!

وكل ما اهتدى إليه قلبي الوجل وعقلي القلق: أنه إما جن بالفعل، أو أنه على حافة الجنون الذي ينوي على ما يبدو أن يسحبني إليه معه!

ولم أشعر بانجرافي وراء هذا الخوف إلا وأنا أهمس متسائلة بألمٍ نبع من قلبي واحتل كل خلاياي، وعيناي تمشط تفاصيله سريعًا بقلقٍ وليد:

-أنت إيه بيحصل معاك؟! بجد مالك فيك إيه؟!

-محتاجك.

*



ضيا

"أحتاجها".. لا أعرف كيف خرجتْ الكلمة بهذه السلاسة دون لجام أو لحظة تفكير؛ فلم يكن وقتها الآن ولا موضعها ولا أدري كيف لم أتحكم بلفظها!

فقط كل ما أعلمه أن صراخها الحانق عندما انتهى وعادت نغمة صوتها المبحوح بطبيعته لهدوئه المعتاد ممتزج بنبرةِ قلقٍ صادقٍ -غير متوقعة- افتقدتها كثيرًا؛ اختلتْ الخطط وتسيدتْ التلقائية فقولتها بلا وعي!

تجاهلتُ خواطري كما تجاهلتُ الكثير منها منذ رؤيتها وأكملتُ أتمم مرغمًا الطريق الذي سرتُ به بلا وعي:

-واعترفي وخليك صريحة مع نفسك، أنت كمان محتجاني.



عادتْ عيناها للتجهم من جديد وانعقد جبينها وهي تضم كتفيها متسائلة:

-وبعدين؟!

لم أفهم السؤال فزويتُ حاجبي بجهلٍ صادق وأنا أرده لها:

-وبعدين إيه؟!

-آخر المهزلة دي إيه؟!

-آخرها نتجوز.

كانت الثقة تُصفع بالثقة والتحدي ينازعه آخر، ولم يكن إحدانا على استعداد للانهزام ولكن الأكثر إصرارًا هنا هو من سينتصر. وبالطبع لن أسمح أن ينتصر هنا سواي.

عضتْ على جانب شفتيها السفلى بغيظٍ وسمعتُ صوت تنفسها يتسارع وهي تشير لي بسبابتها محذرة:



-بص.. أنت إن شاء الله هتكون جي تستظرف عشان لو خيالك صور لك..

لم أمهلها الفرصة لتكملة حديثها وأنا أقاطعها بثباتٍ حاد:

-لا أنا بتكلم جد فعلاً، وولا جي استظرف ولا زفت.. ومافيش حد بيستظرف في الجواز أصلاً ففوقي.

ظلتْ ترمش بعينيها بوجهٍ محتنق وارتفع حاجباها وهي تغمض مشيرة تجاه الباب بهدوءٍ آمر:

-أطلع برا.

قوستُ فمي بخيبة وهززتُ رأسي مغمغمًا بخيبة؛ أحاول امتصاص غضبها ببعض المرح:

-أخلاقك وضيافتك بقوا في النازل يا تيا.

-ضياء أنا مابهزرش، أطلع برا.



ظلتْ على حالة جمودها بإصرارٍ، فجنحتُ للتحدي والعند من جديد؛ أبارز ثباتها بآخر وبردودٍ حاضرة مثلها:

-مش هطلع غير لما اسمع ردك.

-مش موافقة، برا.

-ومش ده الرد اللي أنا هقبله.

-عنك ما قبلته، أطلع برا.

-مش هطلع يا تيا.. ومش همشي من هنا غير لما توافقي، يا إما تقولي لي أسباب رفضك واحد واحد عشان امحيهم لك وتوافقي بردو.

لم تأخذ وقت في الرد وفتحتْ يديها على مصرعيها تصرخ بجنونٍ وغضبٍ عاد لها من جديد، ولكن مع فارق أن الألم التي كانت



مستميتة في موارته بعيدًا عني في عمق مقلتيها انفجر وبزغ جليًا كشمس النهار:

-عشان أنا مش هتجوز على ضرة يا ضياء. أنا مش مسكينة ولا مغلوبة على أمري للدرجة دي.

-أنت لا مسكينة ولا مغلوبة على أمرك يا ستي، أنا اللي غلبان وجي أطلب السماح وأقدم فروض الولاء والطاعة.. حلو ده؟

صمتُ أراقب وقع كلماتي عليها فقابلني الصمت والثبات وهي تشيدهم على ملامحها كسدٍ منيعٍ فاستطردتُ أكمل بالأهم:

-وانسي براء.. مالكيش دعوة بيها وولا كأنها موجودة.

-بس هي موجودة.

قالتها هامسة، فرددتُ واعدًا بذات الهمس:

-مش هتحسي بوجودها، أوعدك.



-آاااه.. وابقى أنا في نظر الناس الشريرة، خطافة الرجالة، اللي رجعت خربت حياتكم وضحكت عليك وبوظت حياة المسكينة مراتك.. مش كدة؟!

صرختْ باستنكارٍ حاقد بكلماتها الأخيرة ونجحتْ الخطوط الحمراء للألم الدامع في حفر أخاديدها في عينيها وخلفتْ دمعاتٍ أبية السقوط. فبصعوبة تغلبتُ على جفاف حلقي ورفضتُ بهزةِ رأسٍ وكلماتٍ نافية:

-لا مش كدة. وبعدين أنت من امتى بيهمك كلام الناس؟!.. والناس اللي خايفة من كلامهم دول أصلاً فادوكي أو هيفيدوكي بإية؟!

-وأنت هتفدني بإيه؟!

بهزةِ رأسٍ مستهينةٍ أشارتْ تجاهي تسأل مستهينة، ومع هذا تقدمتُ منها بخطوةٍ ملهوفةٍ وبوعدٍ صادقٍ أجبتُ:



-بأي حاجة، بكل اللي عوزاه وهتقولي عليه. هصلح كل اللي باظ واتأخر مننا.

قاطعتْ كلماتي بهدوءٍ رافض:

-مافيش حاجة بتتصلح يا ضياء، ولا في حاجة اتأخرت عننا عشان هي مش مكتوبة لينا أصلاً.

ألقتْ بكل ما أصبو إليه في قعر جحيم كلماتها فغضبتُ وصرختُ وشاركتني صرخاتي:

-لا في، وماتعنديش.

-أنت اللي ماتكابرش.

-أنا فعلاً ما بكابرش. بطلت أكابر وجيت لك، بطلي أنت عند وكفاية.



كادتْ تصرخ بشيءٍ ما لكن قاطع حرب كلماتنا دخول سيدة كبيرة في السن بوجهٍ محتقن تسأل بارتيابٍ:

-في إيه يا تيا؟! صوتك عالي ليه؟! ومين الواد ده؟! بيضايقك؟!

لم أعرفها لكنها فعلتْ بمفاجأةٍ أنستها غضبها مني، جرتْ عليها بلهفةٍ مبتهجة ترتمي في أحضانها فغبطتها سرًا، ثم سمعتها وهي تهمس متسائلة بصوتٍ مرتجف:

-طنط رحمة! أنت رجعت امتى؟!

-أنت اللي رجعتي من غيبتك الطويلة امتى؟!

هزتْ رأسها داخل أحضانها ولم تجِب فربتتْ السيدة على ظهرها بحنانٍ رؤوف زادوا من حسدي أكثر. ويبدو أنها شعرتْ بنقمتي الخفية فنظرتْ لي بتأملٍ متمهل ثم أشارتْ تجاهي برأسها وهي تسألها بارتيابٍ وعينين تضخان شرارات الحذر والتحذير:



-ومين ده؟!

ابتعدتْ عن أحضانها أخيرًا ومسحتْ بعض الدمعات الهاربة بثباتٍ وأخبرتها بجمودٍ عاد لها:

-ضياء زميلي في الشغل.

-وضياء زميلك في الشغل مضايقك ليه؟

لم تنتظر الرد منها وهي تلتف لي زاجرة:

-أنت مضايقها ليه؟

توترتُ وارتبكتُ لكني خبأتُ كل هذا داخلي بمهارةٍ وأنا أجيبها مبتسمًا أمثل البراءة والمسكنة، وقد زارني شعور مجهول المنشأ بأن هذه السيدة ربما في يدها حل عقدتي:

-عشان عايز اتجوزها يا طنط وهي مش راضية.. ينفع كدة؟!

-وإيه اللي مانفعوش إن شاء الله! هي حرة، مش حباك يا أخي.



نفيتُ بثباتٍ وأجبتُ بيقينٍ وأنا أعود بنظري لها أتحدى إنكارها بالعكس:

-لا بتحبني وأنا متأكد، واسأليها.

ابتسمتْ المرأة وعادتْ لها بوجهها الدائري الممتلئ تسألها بمشاغبةٍ محببة:

-طب طالما بتحبيه رفضاه ليه يا تيا؟!

ظلتْ تنظر لي بعينينٍ تمطرني ببغضٍ واتهامٍ متألم:

-عشان متجوز يا طنط.

امتقع وجه السيدة ونظرتْ لي ولم أهتم بالرد أو التوضيح؛ بل ركزتُ بصري على عينيها التي زادتْ من عيار بغضها وأكملتْ بتحدٍ مضاعف:

-وعاوزني زوجة تانية عشان يغيظ بيها مراته اللي بيحبها.



وعند سماعي لكلماتها تلك التي توشي بمجرى تفكيرها عن مدى الخبث التي تظنني به؛ امتقعتُ بذهول غير مصدق!

ولم أستطع الرد سوى بهزة رأس رافضة اتهامها، وبعينين مدافعتين ببأسٍ وقوة غير مصدقتين؛ اتهمتاها في المقابل بتدليس الحقائق للفرار من إثم العشق ورغبة الحياة.

واستمرتْ حرب النظرات بين اتهامٍ ودفاعٍ متبادلين طويلاً..

طويلاً جدًا!



(8)

إن كان بعادنا قرار.. فرجوعنا قدر.

**

ونظرتُ لليل الجحود وراعني..

الليلُ يقطع بالظلام يَدَ القمر.

والأغنياتُ الحائراتُ توقفت..

فوق النسيم وأغمضت عين الوتر.

-فاروق جويدة.

-عندما يغفو القدر.



تيا

"عشنا العمر نربي حمام، بس نسينا نقوم غيّة"

انبثقتْ تلك الكلمات من سماعات الأذن التي أضعها أثناء فترة الراحة التي أقضيها في غرفة مكتبي مبتعدة عن صخب العالم ومكتفية بما في رأسي من ضجيج، وبفضلها انفصلتُ أكثر وأكثر عن كل شيء إلاها!

ففي كل مرة أسمعها أشعر وكأنها لا تخاطب أو توصف سواي!

فكم قضيتُ من العمر أبني فيه أماني فرّت مني هاربة، ولم أستطع اختطاف منها ولو صورة أتأمل تفاصيلها عندما تتآكل الذاكرة عند الكبر!

أغمضتُ عيني وأنا أحسب كم مر من وقتٍ منذ أن أتى وبعثر هدوء عالمي كعادته الأثيرة ثم رحل واعدًا بالعودةِ من جديد.



نعم.. فقد انقضتْ خمسةُ أيامٍ وهذا السادس بعد ما كُشفتْ الأوراق وتجهزتْ ساحة الحرب لاستقبال معارك لم أسعَ لها ولم أرحب حتى، ولكني ككل محتل: لم يُستأذن قبل أن يساق إلى معارك دفاع عن سلامه وكرامته!

ولكن هل حقًا الحرب والدفاع المستميت لاستمرار اغتراب أرضي الهادئة عن صخب الصحبة المنقوصة هو عين الحق والكبرياء؟!

أم أن ربما عين الصواب في الانسحاب من كل المعارك وإعلان الاستسلام والتحالف بنصف رضا، ثم تسليم مقاليد الحكم لمحتلٍ عنيدٍ يزعم أنه مستعمر شغوف أتى لانتشال واحتي من وحدتها قبل أن يقتات عليها الزمان ويُحليها لغابة مقفرة!

هل عليَّ أن أرتضي بظلامِ سمائيِ الدائم ورفع أسواري المنيعة على حدودي والاكتفاء بصفيرِ صمت سنون الماضي والمستقبل؟!



أم أن الانغماس في حروب استحقاق عشقٍ هو نهاية عصرٌ طويلٌ من انعزالٍ خانقٍ لم أختره؟!

هززتُ رأسي برفضٍ مصمم وأجليتُ الفكرة من رأسي وقد شعرتُ ببدايةِ ألم يسري فيها، ثم خلعتُ سماعاتي وألقيتها على المكتب أمامي بإهمالٍ وشردتُ في كلماتِ "رحمة" والتي وهبني بها الله بعض الرحمة عندما عادتْ الآن تحديدًا لتشاركني وحدتي وتلك المفاجأة المربكة التي ضربتني على غفلة مني!

ففي الأيام الماضية بعد ما شاركتني الغضب من "ضياء" وسبابه ونعته بكل ألفاظ الجنون والخبال الممكنة والتي يستحقها.. أمرتني بالهدوء والتريث ثم التفكير المتأني!

عارضة أمامي كافة المزايا وكل العيوب، مع الإشارة لوجوب أخذ مرور العمر في عين الاعتبار، وفرصة الأمومة التي تتضاءل تدريجيًا



مع الوقت، ودقة متيمة من قلب عاشق لذاك القلب الذي أتاه يطلب الوصال!

ولا تعلم أن السبب الأخير هذا كفيل بثقل كفة الرفض القاطع والفرار هربًا من ألم رؤية من أعشق وأنا أتقاسمه مع أخرى، بل ومعاصرة عشقه الجارف لتلك الأخرى والتي إن قُرنت معها ستكون مقارنة أشبه بحبةِ رمالٍ أمام محيطٍ عاصفٍ!

وذاك التشبيه الذي انبثق من عقلي ذبح فؤادي وأسال دمائه في عيني دموعٍ سالتْ ببطءٍ واستحياء.

قطع خلوتي الحزينة مع ذاتي دخوله الفوري بعد طرقة واحدة على الباب دون انتظار لسماع الإذن في عادةٍ حديثةٍ باتتْ تستفزني، وعلق بصخبٍ ممازح وابتسامة مشرقة يستفزاني أكثر:

-بقالي يومين مريحك مني اهو.



علقتُ وأنا أمسد أجفاني متظاهرة بمحاولةِ إزالة الإرهاق ولكن في حقيقةِ الأمر كانتْ محاولة إزالة دمعاتٍ عالقة:

-يا رب ديمًا.

عيناه توارتا خلف غيمةِ حزنٍ ولكنه علق مبتسمًا بخيلاءٍ هادئ:

-من ورا قلبك أنا متأكد.

تأففتُ بضجرٍ وألم رأسي بدأ يزداد بحدةٍ مؤلمة، فأسبلتُ جفنيّ بإرهاقٍ ويأسٍ وعلقتُ بتعبٍ حقيقي:

-ضياء أنا ورايا شغل ومش فاضية لاستظرافك.

-مش هعطلك، هم كلمتين.

-مش عاوزة اسمعهم.

اعتدل من جلسته المستريحة بضجرٍ وعلق بامتعاض:

-تيا أنت مابتتعتيش؟!



-وأنت مابتزهقش؟!

-أنا فعلاً زهقت.

-يبقى خلصنا.

-خلصينا أنت.

كنا نتحدث بسرعة وبلا تفكيرٍ في الرد من أي منا حتى أتتْ جملته الأخيرة بصوتٍ قاطعٍ وعيونٍ مصممةٍ، يعلن بهما أن الكرة أضحتْ في ملعبي أنا ومع ذلك لن يقبل سوى بالنتيجة التي قررها هو!

وضعتُ رأسي بتعبٍ بين كفيّ ثم تأففتُ بصوتٍ عالٍ وغمغمتُ متسائلة بصوتٍ لم أدرك أنه مسموع:

-اهرب منك اروح على فين بس؟!



صمتُ وشاركني الصمت لفترة، وظلتْ رأسي مختبئة بين كفي بتعبٍ طاغٍ وقدرةٍ منعدمة على مجابهة بأسه الآن، حتى سمعتُ صوته يرد بخفوتٍ ناعمٍ مصممٍ:

-عليَّ.. اهربي مني ليَّ، زي ما أنا ههرب من كل حاجة ليك يا تيا.

رفعتُ رأسي ونظرتُ له بحريةٍ للحظاتٍ؛ سامحة لقلبي أن يتنعم بسحرِ كلماته التي كانتْ لتكون أكثر من رائعة لو فقط.. قيلت في زمنٍ مضى!

ثم أعلنتُ وجوب الإفاقة فهززتُ رأسي بنفٍ وإصرارٍ رغم خفة حركتها:

-أنا ماليش مكان معاك.

رفع حاجبيه أسفل عينين اكتستا بالتصميم، وضغط على حروفه بإصرار:



-أنت مالكيش مكان غير معايا.

اقتربتُ بوجهي بخفهٍ منه بحركة تحدي واضحة:

-أنا مكاني محجوز لغيري يا ضياء.

ضاقتْ عيناه للحظة وتجهم وجهه ثم نفى بهزةِ رأسٍ خفيفةٍ معلقًا بنفيٍمصممٍ واثق:

-مكانك طول عمره مافيهوش غيرك يا تيا.

وصمتْ من جديد وشاركته الصمت جاهلة الرد المثالي لكلماته التي تكبل عقلي وتمنعه من إيجاد الكلمات الصحيحة التي يجب أن يرد بها عليه!

قام من مكانه ثم تحرك ووقف أمامي كرسي، وبصلابة آمرة لا تتماشى مع رجاء عينيه:

-وافقي. كفاية مكابرة وتضيع وقت ووافقي.



وقفتُ أنا الأخرى أمامه بحدةٍ وأنا أتساءل بكيلٍ طفح:

-أوافق على إيه؟!

-هيكون على إيه يا تيا؟! على جوازنا.

خرجتْ كلماته حادةً بزعيقٍ حانقٍ ملول، لا تسمح بتلاعبٍ أو استخفافٍ فلم أستطِع سوى الجنوح للصمت حتى تمر عاصفة غضبه بسلام، ولكنها لم تمر ولم تتغير معالم وجهه فسألته مهاجمة في موضع ضعفه وأنا أعلم أن هذا السؤال سينجح في إرباك جيوشه الراسخة:

-هو صحيح ماقولتليش.. براء إيه رأيها في موضوع جوازنا ده؟!

وكما توقعتُ؛ فقد تبخر الغضب وامتقع وجهه وأغمض عينيه للحظتين مجيبًا بشيءٍ من ارتباك:

-مالكيش دعوة ببراء.



-ازاي بقى.. مش لازم اتأكد إن ضرتي مرحبة بوجدي ومش هتقول عليَّ سرقت جوزها منها.

قولتها بضحكةٍ هازئةٍ فأجابْ بهدوءٍ متخصرًا وقد عاد وجهه لارتداء قناعه الحاجب دواخله عني:

-براء مش معترضة.

ولا أعلم لما لم أتفاجأ، ولكني مثلتُ المفاجأةَ الزائفة ليصله تعليقي المستنكر باصطناعٍ واضح وبسمةٍ مستخفة:

-أووو.. بالبساطة دي.. معقول كدة؟!

-تخيلي!

بذات البسمة المستخفة قالها مع نظرةِ عينٍ جريحة!

ونظرة عينيه المتألمة تلك ألمتني بعنفٍ وقسوة.. ليس ألمًا على ألمه ولكن ألمًا على نفسي أنا!



واندفعتْ داخلي ذكرى آخر مرة رأيته قبل خمس سنوات عندما تشبث بيدي أمامها في محاولةٍ مثيرةٍ للشفقة لإثارة غيرتها التي اندلعتْ بعنفٍ داخلي الآن!

وغضبتُ.. بل غضبتُ بعنفٍ وأكلتني نيرانُ الحسرة وأنينُ الكرامة المنتهكة في السابق والآن؛ فقررتُ إبعاده للأبد والانتهاء من هزلية هذا الوضع بأقصر الطرق وأكثرها فاعلية وأنا أتحداه بصراحةٍ لا تحتمل تأويلاً أو تغافلاً:

-خلاص يا ضياء، أنا هوافق بس بشرط واحد.

وصمتُ أعطيه الوقت كاملاً ليقرأ شرطي واضحًا من تحدي عيني الواثقة قبل سماعه، وبعد دقيقة كاملة نطقتُ به:

-طلق براء.



صمتْ لحظاتٍ مثلي وهو يبعث لي برسالة واضحة دون اهتزازٍ من عينيه؛ "العبي غيرها" وقد قرأتها بالفعل كما قرأ خاصتي قبل أن أنطق بها، ثم أعرب عنها بذاتِ التحدي الذي بدأته:

-أنت عارفة إن ده مش هيحصل.

-وأنت عارف بردو إن ده مش هيحصل.

تجاوز كلماتي متجاهلاً وكأني لم أنطقها ولم يسمعها وأكمل:

-وعارفة إن أنا عارف إنك بتقولي كدة تحدي وخلاص، فماتحطيش العقدة في المنشار عشان تهربي يا تيا.

-هو أنت جايب الثقة دي منين؟

رد بتنهيدةٍ مثقلةٍ وحدثني بعينيه قبل كلماتهِ الثاقبةِ والتي لن أنكر أنها تلمستْ موضع جراحي المقرحة:

-من تعبي. تيا أنا تعبت..



بقالي ١٠ سنين بحارب وبحفر في بحر لحد ما تعبت وبقا نفسي ارتاح.. واكتشفت إني مش برتاح غير معاك.

صمتْ وتقدم خطوة أقرب حتى أصبح لا يفصل بيننا سوى خطوةٍ واحدةٍ، وسلط جيوش عيونه على خاصتي لتقتحم أرضي وتحطم حصوني بعدما ألقى تعويذة عشقه على جيوشي الرادعة وأوداهم في سباتٍ مفاجئٍ، ثم أشار تجاهي برأسه وسأل هامسًا بسؤالٍ هو أكثر من يعلم جوابه:

-أنت ماتعبتيش؟

همستُ معترضة بخفوتٍ وصوتٍ خرج بعيدًا، وكأنه كان صوتٌ آخر جنودي المُحاصَرين وهو يحذرني من الانصياع الغافل وراء ترنيمة سلامٍ مؤقت ينشدها المحتل:

-ضيا..



-نعم يا آخرة صبري.

واستفقتُ.. قُطع السحر وتوقفتْ الترنيمة الناعمة عن الانسياب وكُسر الحصار؛ فصَحتْ كل جنوديَّ الغافلة تزأر مطالبةً بالحربِ والنجاة بالابتعادِ من جديدٍ والفرار من نعومةِ تلك الرمال المتحركة في كلماتهِ وعيونهِ والتي كادتْ تبتلع همتهم!

-نعم.. قولت إيه؟!

-احم، أنا كان قصدي..

توتر وتغضن جبينه رغم شبح ابتسامة مستمتعة ارتسمتْ على زاوية شفتيه وهو يحاول إصلاح كلماته وشرح مقصده الذي لا أود معرفته من الأساس فقاطعته مكتفية:

-ما تقصدش.. بقول لك إيه امشي أنا ورايا شغل.

-تيا..



-بلا تيا بلا زفت، امشي، امشي.

-اسمعي بس.

-أنا لا عايزة اسمع ولا عاوزة اشوفك، امشي.

كلماتي كانت حانقةً بحقٍ وقاطعةً بلا فرصة لنقاشٍ وأنا أزيحه تجاه الباب حتى أخرجته قسرًا ثم أغلقته خلفه بشيءٍ من حدة، وغمغمتُ حانقة لنفسي بلا تصديق لجلافةِ كلماته:

-آخرة صبري!

ثم تأففتُ حانقةً من جديد ووضعتُ رأسي على الباب بتعبٍ وألمٍ الصداع وضجيج رأسي يزدادوا شراسة!

**



سئمت الحقيقة..

تشرد قلبي زمانا طويلا

وتاه به الدرب وسط الظلام

حقيقة عمري خوف طويل

تعلمت في الخوف ألا أنام

نخاف كثيرا

عيون ينام عليها السهر

نخاف الحياة.. نخاف الممات

نخاف الأمان.. نخاف القدر

-فاروق جويدة.

-سئمت الحقيقة.



براء

الضجيج والصمت.. الفراغ والامتلاء.. الذنب والبراء.. كلها أشياءٌ مناقضة لبعضها البعض. لا مكان لواحدةٍ فيهم إن زاحمها وجود الأخرى.. فالأضداداتُ خلقت لتتنافر ويبقى كل منهما في أقصى الطرف المعاكس للآخر لألا يجتمعوا أبدًا، والرابطُ الوحيدُ بينهم يكمن في عدمِ وجودِ أي رابط واختلافهم المطلق!

لكن ماذا لو تحدتْ تلك الأضداداتُ قوانينَ الطبيعةِ في افتراقهم الأبدي واشتاقوا لتواجدهم وامتزاجهم داخل دائرةٍ واحدة!

هل ستتحمل تلك الدائرة عبث امتزاج التناقضات، أم ستنفجر منتهية وهي تتخلص من نفسها مستريحة من هذا الجنون؟!

هذا السؤال الذي حصلتُ على جوابه اليوم!



كان يومًا عاديًا يمر كما مر الكثير قبله؛ هادئً، بطيءً، ومحشو بالكثيرِ من التناقضاتِ التي أشعر بها تغلي داخلي.

ذهبتُ لعملي التمس منه الهدوء بين صخب الأطفال ومشكلاتهم البريئة التي تشعرني أن الكون لازال به بعض الرأفة والسلام!

ولكن ومع انشغالي بهم والتفاعل معهم كعادتي، لم أستطِع هذه المرة الاندماج معهم أو تناسي ما في رأسي من ضجيجٍ وما في قلبي من حزنٍ وحيرة!

بل ولأول مرة يسحبني الحزن لعالمه عن عالمهم الشقي، ويحتلُ فؤادي الهمُ بدلاً من التنعمِ ببهجةِ صحبتهم.. فبقى وعيِّ دقيقة معهم ودقائق يفر جانحًا لذاك الذي استغنى عن الوصال هاربًا من العشق الذي يزعمه!



فها هي الأيام تمر وتكاد تتمم الأسبوع الثاني دون لقاءٍ أو حتى مكالمة هاتف وحيدة يطمئن بها على تلك التي تدعى زوجته، وكأنه وجد البديل بالفعل!

ووقتها ضربتني روحي بسؤالٍ مرتعب.. هل إن ظل على هذا النسق سيكون لي واحة ولو صغيرة على أراضيه، أم أنه سيستغنى عن تلك الأرض من الأساس في سبيل غمرها في أمواج أخرى، وتسليمها برضى لتصبح ضمن ممتلكات عمق بحر عشقها الهادئ؟!

انتشلني من آلام أفكاري صوت زميلتي وهي تطلب بعجالة:

-براء ممكن تخلي بالك من الولاد عشر دقايق بس؛ هروح أجيب حاجة من السوبر ماركت اللي هنا وآجي.

-تمام.



قولتها مبتسمة بترحيبٍ بأي شيءٍ يبعدني عن الجرعة اليومية لسموم أفكاري خاصةً لو كان الاندماج مع هؤلاء الفوضويين.

جمعتهم بصعوبة وأجلستهم في دائرةٍ واسعةٍ وتوسطهم وأنا أعرض عليهم بحماسٍ:

-يلا كلنا تعالوا نرسم ونلون سوا لحد ما ميس سارة ترجع.

ثم بدأنا بالرسم والتلوين وانتزعوا مني ضحكاتٍ صادقةٍ وظللتُ حولهم حتى تأكدتُ من اندماجهم التام فقمتُ أجلس بقربهم وسلمتُ نفسي للشرود من جديدٍ ليلتهمني هانئًا، ولكن تلك المرة انغرس سهمٌ ناريٌ في منتصف قلبي وسؤالٌ جديدٌ ينبثق داخلي: ترى إن تزوج ممن تهيم به وظلتْ باقية على عهدِ الوفاءِ لعشقهِ -على عكسي- ونجحتْ في أنا تشبع جوعه للحبِ من مأدبةِ عشقها العامر، واستطاعتْ أن تروي له ظمأه الطويل للأبوةِ بطفلٍ



عجزتُ أنا عن منحه إياه.. كيف وأين سيكون موضعي من تلك المعادلة مكتملة الأطراف؟!

جنحتْ أفكاري أكثر وهي ترسرم التخيلات لما سيكون عليه المستقبل الضبابي ولم أنتبه لتسلل "صالح": الطفل الصغير المشاغب وأكثر المحببين لقلبي هنا وهو ينسحب عن الجمع ويدخل إلى المطبخ إلا عندما سمعتُ صوتَ ارتطام زجاج مخيف ثم صوتَ صراخٍ وبكاءٍ عالٍ ومؤلم منه!

هرعتُ إليه بخوفٍ تحولَ لرعبٍ طاغٍ عندما شاهدتُ نافورةَ دماءٍ تخرج من أعلى رأسه مع بركةٍ مماثلةٍ أسفله ممزوجة مع الماء المنسكب والزجاج المكسور!

جلستُ بجانبهِ بقلبٍ يدقُ بعنفٍ ووجهٍ فرتْ منه الدماء، وأخذته بين أحضاني أحاول منحه الطمأنينة والأمان الغائبين عني!



وعندما فشلتُ في إسعافه صحتُ بهلعٍ مطالبة بأن ينقذنا أحد بعدما شعرتُ بشللٍ في قدمي يمنعني الحراك!

وبعد هذا صار كل شيءٍ بسرعة ولا أعرف كيف حدث؛ وقد كنتُ شبه مغيبةً عن الوعي!

لا أعلم كيف وصلنا للمشى وأنا متشبثة بالصبي بين أحضاني!

ولا أعلم كيف تركتهم يأخذوه ويبعدوه عني محتجزينه في غرفةٍ ما!

ولا أعلم كيف قضيتُ الوقتَ ولا كم قضيتُ ولا ماذا فعلتُ فيه!

ولا أعرف كيف جاء هو؟!

لا أعرف كيف علم، ولا متى جاء، أو حتى إن كان حقيقةً بالفعل أم أنه نتاج خيالي المرهق؛ رحمني بخلقِ وجوده لأنني في أمسّ الحاجة له!



كل ما أعرفه أنني أخيرًا.. ارتميتُ في أحضانه!

بعد كثيرٍ من المشاهدِ المتفرقة والكلماتِ المتقطعة التي لا أعيها ولا أذكرها، أصبحتُ سجينةً آمنةً في أحضانهِ!

فررتُ واختبأتُ من قبحِ العالم، ومن جروحِ الماضي، ومن ضبابِ المستقبل، ومن ظلمةِ أفكاري، ومن ألمِ هواجسي، ومنه هو.. في أحضانه هو!

مدركة ومسلمة بشيءٍ أخيرٍ ووحيدٍ..

أنني أبغى الحياة هنا..

أو الفناء هنا.

**



لا تتركينى قمرا تعيسًا..

كوكبا متسولاً بين الغصون!

لا تتركينى حرًا بحزنى..

واحبسينى بيد تصبّ الشمس فوق كوى سجونى!

-محمود درويش.

-لا تتركيني.



ضياء

اللحظة.. تلك المخادعة إما أن تكون هبتك أو لعنتك!

بها قد تنير دربك بعد ظلام، أو تخطف منك نظركَ مقررة لك العيش بالعمى للأبد!

وفيها إما أن تحلق في النعيم أو تُرمى في الجحيم!

وأنا اللحظة هي عدوتي الأولى. طالما أسقطتني من علياء سُحبِ سماءِ السكينة إلى الارتطام بأرضِ الجحود!

فبعدما خرجتُ مطرودًا من عند "تيا" بحنقها الذي أصبح يحيِّ ابتهاجًا قديمًا في نفسي، تلقيتُ اتصالاً قلب تلك البهجة لرعبٍ عارمٍ!



اتصالٌ من رقمٍ مجهولٍ لم أهتم به في بادئ الأمر وقد فكرتُ في تجاهله للوهلة الأولى وعدم قطع لحظة الاستمتاع النادر، ولكن حدسٌ ومض داخلي وأمرني بالاستجابة فورًا ففعلتُ!

وعندها أدركتُ أن كل ما يحتاجه الأمر لقلبِ الحياةِ رأسًا على عقبٍ ما هو إلا لحظة.. فقط لحظةٌ واحدةٌ على خطِ حياةٍ مستقيمٍ قد ترفعها إلى أعالي السماء أو تسقطها إلى أعمقِ نقطةٍ جحيمٍ في الأرض!

وأنا حياتي مليئة باللحظاتِ التي انقلبتْ عندها قصتي.. كهذه اللحظة وأنا أهرع لها برعبٍ اجتاحني عند سماع أنها الآن تمكث في مشفى لسببٍ ما لم انتظر سماع تفاصيله التي حتمًا ستكون قبيحةً مقبضةً أيَّ كانت؛ فذهبتُ من فوري دون أخذ إذنٍ بالرحيل في منتصف اليوم أو حتى إخبار أحد.. بعقلٍ يشتعل من الخوف، وقلبٍ ينخره الألم والندم متناسيًا وناسيًا كل وأي شيءٍ



سواها.. وبقيتُ طوال الطريق الذي كان طويلاً رغم قصره أؤنب نفسي لائمًا؛ فرغم كل شيءٍ ما كان يجب الانغماس في البعاد لهذا الحد!

نعم لم يكن مخططي بالارتباط بـ"تيا" عقابًا لها على تألمي منها، ولكن عزوفي وابتعادي عنها قد كان بالفعل هو انتقامي الذي اهتديتُ له، وأعترف الآن أنه ربما كان جاحدًا قاسيًا أكثر مما انتويتُ. وظللتُ على هذا الحال النادم الخائف طوال الطريق حتى وصلتُ لعنوانِ المشفى الذي أملتني إياه زميلتها التي زفَّت لي الخبر الأسود بوجودها هنا!

ووجدتها.. جالسة بجوارِ إحدى الغرف منحنيةَ الجزعِ بانكسارٍ وتواري وجهها وراء كفيها كطلفةٍ صغيرةٍ مختبئةً من العالم القاسي الذي خذلها مرارًا!



ومرآها على هذا الوضع شق صدري ألمًا وأدمى قلبي الملعون بعشقها رغم الخدر الذي أصاب جسدي تزامنًا مع خروج زفرةِ اطمئنانٍ وغمضةِ عيونٍ مستريحةٍ لكونها بخيرٍ ولم يصِبها مكروهٌ على الأقل جسديًا.. ولنترك جراح النفس لقاضي السماء يداويها بحكمته ويحكم فيها برحمته!

حدقتُ بها لثانيتين متأملاً وأنا أحاولُ جمع أعصابي من جديدٍ ثم اتجهتُ لها مسرعًا بلا قدرة على إصدارِ حرفٍ أو الانتظارِ أكثر دون أن اتأكد أنها بخيرٍ وأطمئن بأنها أضحتْ في أحضاني آمنة.

رفعتْ رأسها تطالعني بذهولٍ وتلهفٍ محتاجٍ لم أستطِع تحمل رؤيتهم فاقتربتُ احتضنها بلا حديثٍ ولكنها نأتْ عني مبتعدة وهي تسأل بنبرةٍ متهمةٍ وعينين مقهورتين:

-إيه اللي جابك؟

تجاهلتُ سؤالها المتهِم وردته بآخرٍ متلهف:



-أنت كويسة؟

-إيه اللي جابك؟

-براء أرجوك قولي لي، أنت كويسة؟

هزتْ رأسها ببطءٍ وبعينينِ تفيضان بالدموع ردتْ هامسة:

-الولد لو جراله حاجة يا ضياء أنا هعيش طول عمري مش مسمحاك.

ثم أكملتْ تغرس إصبعها في منتصف صدري باتهامٍ صريحٍ:

-عشان أنت السبب.

كما دائمًا.. أنا السببُ في كلِ خطأٍ وإن كنتُ حتى لا أعرفه!

وكما دائمًا.. تجاوزتُ اتهامها متغافلاً واقتربتُ ببطءٍ من جديدٍ لاحتضانٍ مطمئنٍ لكلينا محاولاً امتصاص هذا الألم المضنِ



والخوف الغاشم الذين ينهشاها ويتبجحا معلنين عن أنفسهم بسفورٍ في عينيها الغائرة:

-طب ممكن تهدي.

رفضتْ بوجهٍ محتقنٍ وصوتٍ مختنقٍ خرج منها طفوليًّا رغم كل شيء، واستمرتْ في هز رأسها ولكن بشكلٍ أسرع وأكثر تصميمًا هذه المرة:

-لا مش ههدى غير لما الولد يخرج ويبقى كويس.

ولتوي انتبهتُ لتكرار ذكرها طفلاً ما، ولم أفهم عن أي صبيٍ تتحدث ولا ما الذي حدث تحديدًا، لكني حاولتُ تمثيل المعرفة لبث بعضَ الأمان والثبات داخلها وأنا أقترب منها من جديد:

-هيخرج وهيبقى كويس، بس اهدي.

ومن جديدٍ أزاحتْ يدي بتصميمٍ حزينٍ رغم النداء بعينيها:



-ماتقربش مني، ابعد.

-حاضر يا براء مش هقرب.

ولكني لن أبتعد أيضًا.. وتلك أسرتها في نفسي ثم استطردتُ وأنا أحاول إجلاسها بهدوءٍ قبل أن تسقط بانهيارٍ تام؛ أشعر أنه اقترب لحدٍ مخيفٍ:

-بس ممكن تقعدي وتهدي عشان أنت كدة هتقعي.

-مالكش دعوة، مالكش دعوة بيَّ.

قالتها بعنفٍ صارخٍ وارتمتْ جالسة في أبعد مقعد عني!

زفرتُ بقوةٍ منهكةً وقلبٍ متألمًا وابتعدتُ عنها؛ أترك لها فرصة الهدوء بمفردها كما ترغب، ثم ذهبتُ لتلك الواقفة أمامنا وعلى وجهها إمارات القلق والخوف هي الأخرى ولكن بتماسكٍ مضاعف عن "براء" المنهارةً تمامًا.

استفهمتُ منها عما حدث تفصيلاً وأخبرتني عن انسحاب الصبي من الأطفال دون انتباهِ "براء" ودخوله المطبخ ثم سقوط دورق الماء الممتلئ فوق رأسه والذي تسبب في جرحها جرحًا ليس ببسيطٍ ولكنه ليس بخطيرٍ أيضًا، وأن الأطباء أخبروها أنه لا يحتاج سوى لتقطيبِ جرحِ رأسه والراحة، وأن الوضع ليس بخطيرٍ ولكن بالطبع لن يكون هذا رأي ذوي الطفل، وأيضًا "براء" لن تقتنع بهذا إلا وقتما تشاهده أمامها وهو يقف بخيرٍ ويمطرها بشقاوته المعتادة، وقد كانتْ محقة تمامًا.

رجعتُ لها وجلستُ بجوارها أراقبها بصمتٍ حتى همستْ بعد فترة بحسرةٍ طاغية، وكتفين متهدلين، وشعورٍ بالذنبِ والألمِ سطعا كالشمس من عينيها:

-أهله ماعندهمش غيره يا ضياء.. وحيدهم.



قالتها ساهمةً ومزيدًا من الدموع تنحدر ببطءٍ وهدوءٍ. ومبادرتها بالحديث ألقتْ داخلي شجاعة أن أقترب أكثر وأتمسك بيديها أحتوي انتفاضتها وأطمئنها، ولحسن الحظ استسلمتْ ولم تبعدها هي الأخرى كما ذراعي:

-هيقوم لهم بالسلامة، متخافيش.

-ولو ماقمش هعمل إيه؟!.. هعيش ازاي بذنبهم وذنبه؟!.. أنا مش ناقصة ذنوب أعيش بيها تاني، والله العظيم مش هقدر، مش هقدر.

كانت تذبل بروحها وكلماتها فلم اتحمل أكثر واقتربتُ من جديدٍ بعزمٍ أشد لحبسها بين ذراعي:

-براء..

-أبعد، أبعد، أبعد..



قالتها وكررتها بوهنٍ وعينين مغلقتين وهي تصد بكفيها صدري المتلهف لثقل رأسها عليه؛ فابتعدتُ صاغرًا وشعور غضب متألم انبثق داخلي من اللا مكان!

قامتْ تبتعد ووقفتْ بجانب غرفة الصغير بين زاويتي الحائط، وخبأتْ وجهها فيه وهي تحتضن انتفاضتها كطفلةً يتيمةً تائهةً بمفردها، ووقفتُ أنا على بعد خطوتين منها أراقبها بحسرةٍ وألم!

وبعد دقيقةٍ أو أقل حضر أبوا الطفل بهلعٍ ورعبٍ وارتج المكان على أثر صريخهم الخائف وكلماتهم المتوعدة.. فلاحظتُ تضاعف تشنج جسدها وأنينها المكتوم وتضاعف معهم شعورُ العجز داخلي عن احتوائها أو منع حقهم في تفريغ خوفهم بكلماتهم التي أثق أنها تنخر روحها الآن وتنزل على جرحها المفتوح بالفعل كلسع السياط!



حاولتْ زميلتها تهدئتهم وامتصاص قلقهم بكلماتٍ مطمئنة، ووقفتُ أنا أمامها وهي لتزال مختبئةً بجوار الحائط؛ أمنعهم من رؤيتها وصب سخطهم فوق ررأسها ولكني لم أستطع منع كلماتهم ونحيبهم المؤلم من التسلل إلى روحها!

وبعد قليلٍ من الوقت مر على القلوبِ الملتاعةِ كدهورٍ خرج الطبيب يعلن سلامة الطفل واستسلامه لثباتٍ عميق.. فهرع الأبوين لطفلهما بالداخل، وارتمتْ زميلتها جالسةً بإرهاقٍ وراحة.

ووقتها فقط التفتتْ لي وأعلنتْ السماح المستسلم وهي ترتمي بين أحضاني شاهقة ببكاء بدء نحيبه المكتوم على صدري وانتهى على صدري!

ووقتها فقط نلتُ شهقةَ ارتياح وقد شعرتُ بالرعبِ الذي جثم فوق روحي اللحظات السابقة يتفتتْ وأنا أشدد من احتضانها بكل ما أوتيتُ من قوة!



ووقتها فقط همستْ لي برجاءٍ مبحوحٍ ألا أتركها من جديد!

ووقتها أيضًا أيقنتُ أن لا سبيل لفك لعنتها ما دمت حيًا!



(9)

أُبتليتُ بقلبٍ أُبتلى بكَ!

واُبتليتَ بنجاة أُبتلتْ بي!

**

أنا وحبيبى صوتان فى شفةٍ واحدة!

أنا لحبيبى أنا..

وحبيبى لنجمته الشاردة!

-محمود درويش.

-يطير الحمام.. يحط الحمام.



تيا

أُبتليتُ بقلبٍ أُبتلى به! وأُبتلى بنجاةٍ أُبتلتْ بي!

هكذا أدركتُ أو توصلتُ أو سلمتُ أو تأملتُ!

بعد يومين غياب بسببِ انفلونزةٍ مريرةٍ أسكنتني الفراش ليومين غبتُ فيهما عن العمل دون إذنٍ أو خبر، وبتُ فيهما في عالم لا يعترف سوى بالا منطق واللا حقيقة واقع!

فارتميتُ أسبح بلا توقف في بحار الهلاوس والأمنيات.. مرة أتمرغ في نعيم الأمنيات والوعود التي تحيطني وتغريني بالاغتراف والنهل منها، ومرة أسلم مقاليد الخيال للنيران التي تندلع من داخلي وتأكل في طريقها كل سلامٍ محتمل!

فصار الخيال مزيجًا مربكًا ومريعًا لمقطعٍ مصورٍ من جحيمِ الغد الذي أخشاه ونعيم الحلم الذي أتمناه!



حتى استفقتُ في اليوم الثالث بعقلٍ ازداد تخبطًا ووحيرةً وتضاعف إرهاقه وسأمه.. ووقتها أدركتُ أيضًا أن كل ما أحتاجه هو أجازة!

أجازة من "ضيا"، ومن الوحدة، ومن التفكير، ومن نفسي قبل الجميع. كنتُ بحاجة للغرق في صفيرِ الصمت ووقف تدفق الصور والاحتمالات واختلاق المواقف والآلام والأحلام داخل عقلي المنهك، والاكتفاء من حقن سمومهما داخل روحي تارة والغياب بالسُكر من شهد حلاوتها أخرى!

ووسط كل هذه الجلبة والصراع أتى بعض السلام والراحة الذين سقطوا كقطراتِ غيثٍ على صحاري روحي متمثلين في عناية "رحمة" بي ومبيتها معي طوال اليومين الفائتين.. تطعمني، تعطيني أدويتي في معادها، تدثرني جيدًا في المساء وعندما أنتفض من



البرد، وتغذيني بالمشروبات الدافئة طوال اليوم سواء أكنتُ واعيةً أم لا.. كأم حنونة حُرمتُ منها من سنوات طوال!

وهذا الخاطر ضرب صدري بقبضةِ ألمٍ وافتقادٍ مرير!

وسؤالٌ خانق زارني وأعلمني كم أنا مسكينة بحقٍ عندما تذكرتُ مأساتي عندما كنتُ أمرض وحيدة، وتخيلتُ ماذا كنت سأفعل لو لم يضعها الله الآن في طريقي الفارغ والملتف حول ذاته بتيه!

وعلى ذكر سيرتها الحنونة أتت تحمل صينية عليها طبق مليء بالفواكه المقطعة وقطعتين من السينابون الساخن بجواره كوبين من الشوكولا باللبن، جلستْ بجواري تتحسس حرارتي ثم علقتْ ببسمةٍ مطمئنة:

-مابقاش في حرارة الحمد الله.

-الحمد الله.



غممغتُ بالحمد أنا الأخرى وتناولتُ من يدها قطعة السينابون وشرعتُ في تناولها بشهية مفتوحة!

سألتْ وهي تضع بجانبي طبق الفاكهة:

-حاسة إنك بقيتي أحسن؟!

-آه كتيير الحمد الله.

-هتكلميهم في الشغل تاخدي الأجازة اللي قولتي عليها؟

-هكلمهم بليل أطلبها وبالمرة أعتذر عن اليومين اللي فاتوا.. أكيد اتصلوا وأنا ماردتش.

وفتحتُ الدرج أخرج منه الهاتف تزامنًا مع حديثي المتذكر ووجدته مغلقًا بعدما فرغ شحنه فوضعته على الشاحن بجانبي بلا اهتمامٍ وتركته ثم عدتُ لقطعة السينابون خاصتي من جديد أكملها.



-النحنوح ماتصلش؟!

سألتْ بعيونٍ شقية وبسمة جانبية متلاعبة تواري خبثًا محببًا وهي تتناول قطعة السينابون خاصتها، فانفجرتُ بالضحك!

طريقتها في الحديث عنه ومزاحها الجاد والمحبب عند سيرته يروق لي ويرسم داخلي بهجةً غير مفهومة، وهذا الوصف الذي تصمم نعته به مضحكًا رغم شيء من صدقه؛ فالآن دونًا عن العمر بأكمله أصبح الوصف يليق بتصرفاته المستفزة!

رفعتُ كتفي وأنا أجيبها ببساطةٍ وصدقْ، ولازل أثر الضحك محفور على شفتي ببسمة واضحة:

-ماعرفش.. مابصتش على المكالمات لسة.

اختفى التلاعب من وجهها وصوتها وحل محلهم الجدية وهي تسأل:



-طب أنت فكرتي؟

انقشعتْ غيمة السلام والمزاح، وعاد الجو لسابق عهده من زوابع التفكير بالقبول لنيل حياة تمنيتها وإن كانت نصف، وأعاصير الإصرار على الرفض بكرامةٍ أبيةٍ وغيرة ملتهبة أعلم أنها لن تحرق إلاي!

تنهدتُ وأنا أجيب بجملة ألخص فيها المرار الذي يكويني ويكبلني فيمنعني من الهجرة لحلم العمر:

-هو متجوز يا طنط.

-بس عاوز يتجوزك.

قالتها مدافعة بسرعة غير مفكرة، فردتُ عليها أهاجم بذات السرعة غير المفكرة:

-على مراته. مراته اللي بيحبها.



صمتت ثوانٍ وقربتْ مني كوب الشوكولا بالحليب الدافئ وسألتني بخفةٍ وعيون يشعٍ منها دفئًا أكثر من مشروبي:

-وهي ؟.. بتحبه ؟!

والإجابة الأقرب للصواب: لا. بل هذا ما أنا أكيدة منه.. فـ"براء" إن كانت تحبه لاكتفى بها عن العالم ومن فيه، حتى وإن حُكِم عليه أن يُنفى في منتصف المحيط جراء عشقه لها لما تردد: شرط أن ينفى برفقتها!

لكن وبناءً على تلك الأحداث وهذا الإصرار بالهربِ منها لأخرى -كان حظي العسر أنها أنا- فمن الواضح أنه فشل.. وربما فشل بشدةٍ أيضًا.

وبهذا الخاطر بدأت تتشعب في قلبي وروحي غيرة مقهورة لا حق لي فيها، فرديتُ عليها ببعضِ السخط الذي عدتُ من جديد أصبه عليه وعلى نفسي:



-مايهمنيش بتحبه ولا لا، يهمني إن هو بيحبها.

-واللي لازم يهمك كمان يا تيا إنه رغم إنه بيحبها قال إنه عاوز يتجوزك.

حللتُ رغبته معاندة بتأكيد:

-عشان يعوض شعور الحب اللي عاوز حد يحبه له يا طنط، مش عشان سواد عيوني.

علقتْ ممازحةً وهي تبتسم ملئ فمها:

-أنت عيونك خضرا مش سودا.

واستطاعت نزع بسمة خجول مني أنستني غضبي.. ولكن ببسمةٍ مشجعة رجعتْ تجبرني على الانغماس في المقارنةِ والمفاضلة:

-طب تيجي نحسبها حسبة عقل.. أنت هتستفادي منه إيه؟.. وهو هيستفاد منك إيه؟



شردتُ أفكر في كلماتها وهززتُ رأسي ببطءٍ سارح وأنا أغمغم بقلبٍ مكسور الخاطر:

-أنا مش هستفاد منه غير وجع القلب يا طنط.

مسكتْ يدي ولفتْ رأسي نحوها تجبرني على النظر لعينيها ومشاركتها واقعية الحسبة لا حالمية وجل القلب:

-لا هتستفادي منه كتير يا تيا.. هتستفادي صحبة وونس هتحتاجيهم لما تكبري. هتستفادي راجل يكون في حياتك يحميكي ويبقى أمانك.. هتستفادي حتت عيل تلحقي تجيبيه وتشبعي بيه أمومتك. هتستفادي فرصة القدر رماها لك إن حبك القديم يرجع لك.

وبكلماتها داعبتْ وترًا حساسًا داخلي أحاول دائمًا أن أخفيه عن أعين الجميع في أعمق بقعة في نفسي، متناسية فطرة ليس بيدي حكم التحكم فيها.. وجود طفل!



وجود طفل ينمو داخلي لحظة بلحظة ويوم بيوم!

وجود طفل هو قطعة مني آخذه بين أحضاني في كل لحظة، أعلمه الحبو وخطواته الأولى، وكلماته الأولى، ومعارفه الأولى، ومبادئه الأولى!

وجود طفل يصبح رجل مبهر في سنوات تمر عليَّ كلحظات!

وجود طفل يكون لي الدنيا عندما تنتهي مني حولي الدنيا!

ارتجفتُ وانتعشتُ وانزويتُ فكابرتُ وأنا أكبل نفسي بقسوةٍ من الانسحاقِ وراء رغبة العدو في هذا الدرب اللذيذ، الناعم، الآسر، بروعته المهلكة:

-العيل اللي اجيبه وفي الآخر نتطلق أنا وأبوه واسيبه لوحده!

-وتطلقي ليه؟! وبعدين هو أنت كنت اتجوزتيه عشان تطلقي منه؟!



سألتْ بوجهٍ ممتقعٍ مستنكر فأجبتُها بصوتٍ مبحوحٍ إثر قهري المتألم:

-عشان هو مش بيحبني يا طنط، عشان حبي القديم ده مش بيحبني.

-لو مش بيحبك ماكنش طلب يتجوزك.

-طلب يتجوزني عشان غروره مش عشاني.

-حتى لو كدة.. الحب مُعدي يا تيا.

ورجعتُ من جديد للشرود وأنا أسترجع سنواتًا من عمرٍ مضى:

-لو زي ما بتقولي مُعدي فليه أنا ماعدتوش بحبي من زمان؟!..

وليه هو ماعداش براء بيه؟!

-نصيبكم شايل لكم بعض لدلوقتي، وكل شيء بأوانه.



أغمضتُ عيني وتنهدتُ بتعبٍ وكادتْ دمعة منهكة تفر، فاقتربتْ أكثر وأخذتني بين أحضانها وظلتْ تربتْ على ظهري بحنانٍ وهي تخبرني معترفة بشكلٍ مازح:

-بصي هو آه نحنوح وأنا مش طيقاه، بس شكله حنين وجدع.. وأنا عاوزة اطمن عليك قبل ما ارجع اسافر تاني.

انتفض داخلي عندما تذكرتُ أن المنحة الإلهية بوجودها مؤقتة وأنها كما أخبرتني اعتادتْ منذ سنوات على الإقامة عند أبنيها في محافظةٍ أخرى في أجازة الصيف، وتصمم مؤخرًا على قضاء فترة الشتاء هنا لعدم إشغال أحفادها عن دراستهم ولكي تضمن عدم استغلالها منهم لتحميهم من بطشِ أباءهم بسبب دلالهم الدائم والذي يحتالوا به عليها كي تلبي وتجبِر أبنائها على تلبية كل ما يشتهون!



-هو أنت لازم تسافري لأولادك في الصيف؟..ماينفعش تفضلي قعدة معايا؟!

قولتها بأعينٍ مبتهلةٍ متغافلةٍ أن مهما وصلتْ غلاوتي لن تقترب من غلاوة أبنيها وأحفادها إنشًا، بينما ابتسمتْ هي بحنوٍ واحتوتْ وجنتي تسأل بصوتٍ رؤوف:

-ولما اموت يا تيا مين هيقعد معاك؟

-بعد الشر عليك.

قلتها بألم ضربني بعنفٍ فطالعتُها بعيونٍ مؤنبةٍ مكتفيةٍ من الاغترابِ عن كل حبيبٍ بالموتِ، وجادلتني هي بكلماتٍ حكيمةٍ صادقةٍ لن يعترف بها حزني أبدًا:

-الموت مش شر يا تيا.. الموت نجاة من الدنيا يا بنتي.



قاطع كلماتي المؤنبة التي كدتُ ألفظها صوت رنين الهاتف فالتفتُ له مرغمةً لأجده من يلتف حول مداره القلب والعقل والحوار مؤخرًا، فصرحتُ لها:

-ده ضيا.

-هاتي أنا هرد.

أخذتْ الهاتف مني وردتْ هي صامتةً دون مبادرة بحديثٍ لم ينتظرها من الأساس وصوته الصارخ بغضبٍ وهو يتساءل عن سبب غيابي وإغلاقي الهاتف وصل لي واضحًا رغم تلك المسافة، فردتْ هي بثباتٍ وهدوءٍ غير عابئ بذاك الصراخ:

-أهلاً.

وبعد الهدوء وبعض الصمت سمعتُ ردها الجاف المناقض لوجهها الضاحك:



-لا معاك طنط رحمة جارتها اللي اتشرفتْ بطلتك البهية من يومين يا حبيبي. تيا جالها دور برد وتعبت شوية عشان كدة ماشفتش التلفون.

نظرتْ لي وأسبلتْ جفنيها ورققتْ صوتها وهي ترد عليه فكادتْ ضحكةٍ صاخبةٍ أن تنفلتْ مني من طريقتها الساخرة ولكني منعتها متحكمة فيها في آخر لحظة وأنا أضع كفي على فمي لأسمعها:

-لا ماتتعبش نفسك، هي بقت كويسة ومش محتجاك، محتاجة تستريح شوية بس.

وأنهتْ المكالمة بذات الطريقة الجافة المازحة، ثم أغلقتْ الهاتف ورمته بإهمال على الفراش وهي تُعلق بعيونٍ واثقة وصوتٍ شقي:

-أراهنك إنه شوية وهينط لنا هنا.

ومن جديد.. عادتْ ضحكاتي الصاخبة للرنين!

**



ليلاً من الشك الطويلِ أحاطني..

حتى أطل الفجر من عينيك نهرًا من يقين.

-فاروق جويدة.

-لو ترجعين.



ضياء

أُبتلتْ بقلبٍ أُبتلى بي.. فأُبتليتُ بنجاةٍ أُبتلتْ بها، وقلبٍ أُسر بغيرها!

هذا ما صرتُ أؤمن به، وعلمتُ نفسي تقبله!

وما زاد من إيماني هذا وقوفي على شفا الجنون عندما غابتْ عن الأرض المشتركة الوحيدة حاليًا التي تجمعنا!

غابتْ ليومين متتاليين من العمل، دون إنذارٍ أو خبرٍ ودون ردٍ على أي مكالماتٍ، ثم أصبح هاتفها مغلقًا، ودون سببٍ واضحٍ أو مبررٍ قويٍ. وعند محاولة التفكير في إن كان قد حدث شيءٌ أحزنها وجعلها تعزف عن المجيء طالما استمريتُ أنا في العمل معها منفذة تهديدها القديم؛ لم أجد!



لم أجد سوى طردها الحانق لي قبل غيابها مباشرةً ولم أقتنع به كمبررٍ لاختفائها.. فإن كان مبرر لغضبها واختبائها مني فلم يكن أبدًا مبررًا عقلانيًا للغيابٍ يومين متواصلين دون إعطاءٍ خبر لأي أحد، ناهينا أنه كان موقفٌ يقع في تور المزاح!

بقيتُ أتصل بها بلا توقف وتلقيتُ ذات الإجابة التي تثير جنوني: الهاتف مغلق، فظلت الهواجس تعتصر عقلي بلا رحمة، وكل ما احتل رأسي أنها ليست بخير.. حتى تلقيتُ أخيرًا رسالة النجاة بإعادة تشغيل هاتفها فانتفض قلبي صارخًا برغبةٍ فوريةٍ في الاطمئنان عليها فأعدتُ الاتصال بها لتجيبني أخرى!

أخرى قابلتها منذ فترةٍ قصيرةٍ وعلى ما يبدو لم تستسغنِ مطلقًا!

قابلتْ غضبي ببرودٍ وخوفي المتلهف بسخريةٍ واضحةٍ وأخبرتني متنازلة في النهاية أنها كانت مريضةً بالفعل وأصبحتْ بخيرٍ الآن!



مريضةٌ بمفردها كما كل شيء بمفردها، دون وجود أحدٍ يهتم بالاعتناء بها أو تمريضها!

وبإدراكِ وراء آخر وقعتُ في حفرةٍ ذنبٍ واعترفتُ أنني بالفعل كنتُ مغيبًا عن التفكير بالكثيرِ فيما يخصها ولم ألتفُ لسواي فقط!

أوقفتُ بصعوبة سلسلة التخيلات السيئة التي تعرضتْ وستتعرض لها وحيدةً والتي كادتْ تبتلعني؛ وقررتُ الذهاب والاطمئنان عليها رغم رفض السيدة "رحمة" التي تعاملني بقرف وكأني أكلتُ إرثها!

تجاهلتُ تعليماتها بألا أذهب لها وذهبتُ من فوري دون انتظار وقت آخر، لتفتح الباب وتستقبلني هي، وعندما رأتني رمتني ببسمةٍ سمجةٍ وعيونٍ غير مرحبة.. ولم أستغرب بسمتها ولا نظرتها ولا استقبالها بأكمله، بل ما أصابني بذهولٍ حقيقيٍ ورغبةٍ عارمةٍ بالصراخ حنقًا كان صوتها الذي صدح معلنًا بانتصار:



-ده النحنوح يا تيا..

واللفظ كاد أن يصيبني بذبحةٍ صدريةٍ؛ فبقيتُ أحملق بها للحظات بغيرِ استيعاب، ثم تقدمتُ وأنا أسألها بلا تصديقٍ متظاهرًا بعدم السماع وأنا أضيق عيني بخطورة محذرة:

-إيه؟! الـ إيه؟!

ولم تهتم وهي تسترجع بسمتها السمجة من جديدٍ مرحبة بغيرِ ترحيب:

-أهلاً.. إيه اللي جابك؟

-جاية اتطمن على تيا.

قولتها بصوتٍ ملول ووجهٍ استعار منها بسمة السماجة فردتْ هي على الفور متسائلة دون تغير معالمها ووقفتها المللولة:

-ليه؟



-ليه إيه؟! أنت مش قولتي إنها تعبانة.. عاوز اشوفها.

-وقولت بردو إنه دور برد ومش مستاهلة تتعب نفسك.

أغمضتُ عيني وأنا أتنفس بعمقٍ وأستغفر في سري طالبًا من الله إلهامي الصبر، ثم جززتُ على أسناني وأخبرتها:

-معلش، أنا بحب التعب.. أنا مدمن للتعب.. فعاوز اشوفها واطمن عليها.

-نايمة.

قالتها ثابته بالوجهِ والنبرةِ ببنما عيناها كانتا يتراقص بهما التحدي الشامت!

رفعتُ حاجبي بغيظٍ وحنقٍ وصلا داخلي للحلقوم.. فإن تجاهلتُ إعلامها عند وصولي بأن "النحنوح" قد أتى، فكيف أتجاهل صوت ضحكتها المكتومة التي وصلتْ لنا صريحة الآن!



زفرتُ وأنا استغفر من جديدٍ، ثم أشرتُ للداخل عارضًا بصدقٍ قلقٍ خالٍ من راحة البال المستفزة التي تكتنفها:

-طب لو لسة تعبانة صحيها ناخدها لدكتور.

تركتْ طرف الباب التي كانتْ متمسكة به بكفها وأشارتْ به أمام وجهي ممتعضة:

-إيه الدلع ده.. دول شوية برد، ما بلاش سهوكة.

وبكل صدقٍ استطاعتْ امتصاص حنقي منها وغضبي من المختبئةِ بالداخل ورسم ابتسامة واسعة على وجهي وأنا أعلق ممازحًا بنيةٍ صافيةٍ في بادئ الأمر تحولتْ إلى اهتمامٍ غير بريءٍ عندما أدركتُ فحوى كلماتي:

-أهلاً؛ هو أنت بقا اللي هتبقي حماتي؟!

فتخصرتْ أمامي وهي ترد بتحدٍ لم يثِر حنقي هذه المرة:



-إن كان عاجبك.

اتسعتْ ابتسامتي لما تحمله كلماتها من مساندةٍ متواريةٍ وبدايةِ موافقة. وعندما سمعتُ شهقة تفاجئ من "النائمة" بالداخل اتسعتْ ابتسامتي أكثر وأنا أعلق بمكرٍ صاخبٍ:

-عاجبني يا ست الكل، عاجبني طبعًا، احنا نطول أساسًا!.. ها، هنقول مبروك على امتى بقى إن شاء الله؟

صمتتْ لبرهة ثم ضيقتْ عينيها وهي تسأل باعثة لي برسالةٍ لم ألتقطها في باديءِ الأمر:

-أنت مالكش أم؟.. مالكش أب؟.. مالكش أهل؟

-أنا ماليش خُلق والله يا حجة لكلامك ده، فهاتي من الآخر.

-والله؟!



ارتفع حاجباها بتحذيرِ أمٍ صارمةٍ فعدتُ أدراجي وأنا أصحح كلماتي متنحنحًا:

-احم، قصدي يعني حضرتك قصدك إيه؟

-قصدي إن الأصول يابن الأصول بتقول إنك تيجي بأهلك تطلبها، مش كل شوية تنط لنا زي طرازان بطولك كدة وتقول لها اتجوزيني، اتجوزيني.

قالتها بصوتٍ موبخٍ وعينين بُعث منها لوم دافئ!

وبشكلٍ مفاجئ وعلى عكس المفترض نمى داخلي امتنانٌ حقيقيٌ لتلك السيدة.. ليس فقط لوجودها بجوارها الآن تحديدًا، وليس لمساعدتي بالفعلِ في نيلها كما شعرتُ من قبل.. بل لإصرارها على سير الوضع بالشكل الطبيعي والذي لم يكن لولا وجودها.. وامتنانٌ آخر لمشاركتي ثقل محاولة تمرير كافة الأمور العالقة بحساسيتها المفرطة دون غمرها في مرارها بشعورِ الوحدةِ واليُتم.



لكني لم أظهر هذا الامتنان لها وأنا أتساءل متخصرًا، وبجبينٍ منعقدٍ ممثلاً نفاذ الصبر في محاولةِ لتخبئةِ تلك البهجة الحمقاء:

-وبعدين.

-هنفكر.

-لا. هتوافق مش هتفكر.. المفروض إن هي كل ده بتفكر.

وتلك المرة كانتْ كلماتي صارمةً وحنقي حقيقيًا، ولم تناقش أو تعارض بل تجاهلتْ كلماتي مصممة على غلق الحوار ها هنا:

-هات أهلك بعدين نبقى نتكلم.. ويلا بالسلامة كدة ورينا عرض أكتافك، وابقى بلغني قبل معاد زيارتك الكريمة أنت وأهلك عشان نعرف نستقبلكم.

وأغلقتْ الباب بوجهي دون كلمة زائدة!



وللتو فقط أدركت أنني طوال هذا الوقت أقف أمام باب المنزل دون تخطي عتبته!

تنهدتُ وشبح ابتسامة زارني سريعًا واختفى أسرع عندما تذكرتُ اندلاع عقبة الإتيان بأبي وأمي لهنا؛ فإقناعهم لن يكون هينًا بالمرة وكل منهم له أسبابه الخاصة للاعتراضِ والرفض!

ولكن لا بأس..

فالمكافأة تستحق حقًا تحمل عقبات السير في هذا الطريق.

**



ايديا في جيوبي وقلبي طرب..

سارح في غربة بس مش مغترب!

وحدي لكن ونسان وماشي كده..

وبابتعد ماعرفش.. أو باقترب!

-صلاح جاهين.



براء

أُبتلى بقلبٍ أُبتلى بي.. وأُبتلتُ بنجاةٍ لم تُبتلى بسواه!

أقر وأعترف وأود الخلاص من هذا البلاء الذي يحاصرنا.. فها قد رجعتُ بيتي من جديدٍ في ذات يوم الحادثة الأخيرة والذي مر عليه ثلاثة أيامٍ تقريبًا ومع ذلك لم أستطع تجاوزها!

وما لم أستطِع تجاوزه أيضًا هو رجوعه وإصراره على عدم تركي وحيدة والرجوع للمنزل سويًا، وتصميمه على اصطحابي لبيتِ أبي لأخذ حجياتي، وتجاهله مقابلة أمي الجافة له على غير عادتها والتي بالتأكيد علم من خلالها أنني أعلمتها بما ينتويه!

وسوى هذا لم يتغير شيء!

عدتُ إلى المنزل وعاد صامتًا من جديدٍ ولكن تلك المرة بعزوف مني أنا..



استكنت في غرفتنا، وطلبتُ منه بإرهاقٍ أن يتركني وحيدةً.. وفعل، عاد للمكوث بعيدًا في تلك الغرفة اللعينة بمفرده!

والسبب أني تائهة.. لا أعرف كيف يجب أن أتصرف معه ولا ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟!

وأعترف لقد اشتقتُ له!

رغم حزنه مني: اشتقتُ له. ورغم ابتعادي عنه: اشتقتُ له. عدتُ إلى بيتي نعم، ولكني لازلتُ مغتربة عنه فأشعر شعور اللاجئ وهو محرومٌ من الوطن الذي هجره باختياره!

واليوم الذي هو الثاني في بداية الأسبوع والذي انقطعتُ عن الذهاب فيه إلى عملي بالروضة أيضًا بإحساسٍ مريرٍ بالذنبِ وعدن الاستحقاق والتقصير: فقررتُ أخذ أجازةً طويلة المدى ربما يتبعها قرارًا دائمًا بترك العمل والتفرغ لحرب ومحاولة طرد الألم الساكن في صدري!



استيقظتُ متأخرة بروحٍ عليلة وجسدٍ كسول، ثم قمتُ مرغمةً وشعور الفراغ والصمت الذي أحاطاني كادا أن يخنقا روحي فقررتُ استغلال الوقت بالقيامِ بحملةِ تنظيفٍ شامل للمنزل، ثم اتجهتُ للمطبخ لصنع الطعام وقد اشتقتُ بصدقٍ لمشاركته أي شيءٍ وإن كانت وجبة غذاء.. وعندما انتهيتُ وحل الفراغ من جديد ذهبتُ إلى غرفته أتلمس منها طيفًا منه أثناء غيابه، والذي صرتُ مكبلة عن النهل منه في وجوده!

وكما توقعتُ تمامًا: فالغرفة كارثية: كل شيءٍ فوضويٌ وفي غير موضعه إلا مكتبه الذي يضع عليه أوراق وأدوات عمله بترتيبٍ ونظامٍ بصورة مستفزة!

زارتْ ضحكة عزيزة الحضور شفتي عندما تذكرتُ المرات الأولى التي تعرفتُ على هذا الجانب العشوائي والمنظم في ذات التوقيت



فيه والذي كاد يصيبي بجنونٍ غير مستوعب لهذا التناقض منه في بداية زواجنا..

رجل التناقضات!

أشرقتْ داخلي الجملة القديمة التي كنتُ أرميه بها متهمة بحنقٍ عندما كان يصيبني بلوثةٍ غير مدركةٍ لهذا الكم من التضارب فيه، ورده الذي كان دائمًا لا يخرج عن جملةٍ مختالةٍ مازحةٍ أن هذا ليس تضاربًا بل تميزًا، وضحكةٍ صاخبةٍ غابتْ عن سمعي منذ..

منذ زمن!

زمنٌ طويلٌ لم أنتبه أنه توقف فيه عن الابتسامِ والضحكِ معي إلا الآن!

ضربني حنينٌ قارث وحسرةٌ مريرة لهذا الإدراك؛ فأغمضتُ عيني أقفل صندوق الألم المدجج داخلي، ثم بدأتُ في ترتيب عشوائيته



الحبيبة ثم فتحتّ نافذة الغرفة المختنقة لأهب لها فرصة التنفس بشمسِ الصباح التي قاربتْ على المغيب!

جلستُ على طرف فراشه وبدأ رأسي كعادته مؤخرًا يتآمر عليَّ بأن كل هذا ما كان إلا نعيم مؤقت إلى زوال قريب: عندما تحتجز قلبه من اختطف قلبها فيما مضى ثم أُصبح أنا طرفًا زائدًا في معادلة مكتملة، مصيري التجاهل والحذف!

ومن جديدٍ عادتْ سهام الخوف والألم لضرب قلبي المحطم، وشعرتُ من جديدٍ باجتياحِ الغربة والبرودة لروحي فرقدتُ مكانه وانزويتُ على نفسي أحتضنها لأعوض احتوائه الدافئ الغائب عني!

وبعد وقتٍ لا أدريه سمعتُ صوت الباب يفتح وشعرتُ بحضوره يضفي دفئًا على برودةِ المكان حولي وعلى زمهرير الخوف بداخلي!

وبعد دقيقةٍ أو يزيد فتح باب غرفته بوجهٍ متغضن، ثم فُكت تكشيرة جبينه عندما رآني نائمة باستكانةٍ على مخدعه.



-كنت بدور عليك.

قالها بصوتٍ هادئٍ لم يغادره بقايا القلق بعد، فرفعتُ كفي بردٍ صامتٍ وانزويتُ جانبًا أفسح له مكانًا بجواري بدعوةٍ صامتةٍ لباها بذات الصمت بتلقائية وبلا تأخير، ثم احتوى رأسي على كتفه وأخذني بين أحضانه وظل يمسد على ظهري وكتفي بحنانه المعهود بيدٍ، وحرك الأخرى بنعومةٍ ورفقٍ على رأسي.. فاستكنتُ.

وبعد كثيرٍ من اللحظات التي كنتُ أغتنم فيها الأمان من بين أحضانه بجوعٍ ونهم، رفعتُ رأسي أطالع عينيه رغم عدم كفايتي بعد من استكانة رأسي على صدره، وهبط برأسه هو الآخر ينظر لي ولم تتوقف يداه عن محاولة نثر الأمان على ذراتي، ولكن لأول مرة.. تحمل زوايا عيناه همًا وأفكارًا تخص سواي!

لأول مرة أشعرُ بجزءٍ من أرضه غريبةً عني، وعلى شاطئها تجلس أخرى!



انبثق شعورٌ كريهٌ بعدمِ الراحة داخلي خبأته مرغمةً ثم سألتُ مداهمة بعد فترة صمتٍ أخرى:

-وافقت؟

وشاهدتُ أثر مباغتتي له جليًا على وجهه الذي أصابه التفاجؤ والتوتر الذين عبرا عن نفسيهما للحظةٍ واحدةٍ بجبينٍ انعقد ثم انفك وابتلاع ريقه الجاف، ثم اختفيا وحل مكانهما السكون وقد تجهز على ما يبدو في تلك اللحظةِ بأسلحته وهو يرد بكلمة واحدة هادئة:

-لسة.

رجعتُ برأسي لصدرهِ وأسبلتُ جفوني وأنا أغمغم بيقين موجع:

-هتوافق.

وصمتْ.. صمتْ دقيقة أو يزيد ثم أتى سؤاله بنبرةٍ غامضة:



-وأنت؟!

نال مني.. ليس ارتباكًا ولكن خوفًا وألمًا!

خوفًا من التمسك بالرفض فيرد هو بالاستغناء!

وخوفًا من التخلي عن الرفض فأُقابل بالاكتفاء!

وألمًا بات توءمًا ملتصقًا بي أينما رحلتُ أو فعلتُ!

-وهو أنت سبت لي اختيار؟!

قولتها بدلاً من آلاف الأشياء التي أود قولها، ثم رفعتُ رأسي له بتأنيبٍ وتحدٍ متواريان خلف جبهة كلماتي المستفيضة:

-رسالتك وصلت لما خلتني اروح عند ماما لوحدي يا ضياء.. يا توافقي يا هيبقى مالكيش حق لا توافقي ولا ترفضي أصلاً.

تفاجأ وغضب ودافع بإصرارٍ وثقةٍ نابعة من قلبٍ سمعتُ انتفاضةَ رفضه وغضبه أسفل رأسي المتوسدة إياه:



-لا أنا ماكنش قصدي كدة.

أعلم.. صدقًا أعلم، ولكني لستُ بهذا النبل لجعله يسير في طريق نجاته وهلاكي دون مشاركتي بعضٍ من الألم؛ فغمغمتُ هاربة بعيني منه قبل أن تفضح كذبي السافر:

-مش مهم.

-لا مهم، أنت عارفة إن أنا ماكنش قصدي كدة. وعارفة إني عملت كدة عشان ماتبقيش لوحدك، وعشان لو فضلنا وقتها مع بعض كان الوضع هيبقى أسوء وهنفضل نوجع في بعض أكتر.

كان صادقًا لحدٍ وقح وجعلني أندم على كذبتي الساذجة فعدتُ للاختباء بين أضلعه من جديد، ورأف هو بي ولم يعلق بل شدّ عليَّ بداخه أكثر!



وبقينا هكذا كثيرًا: أتشبث به ويخبئني داخله راضيًا، ولا أحد يستجري على البعاد أو الاقتراب أكثر!

ولكنني بالفعل أشتاقه.. أشتاقه لحدٍ موجع.. أشتاقه بعمقِ الخوف ومساحةِ الاحتياج داخلي!

بادرتُ باقترابٍ للمرة هي الأولى منذ زواجنا بقبلةٍ طويلة على فكه ارتد على إثرها للخلف بعينين تشع منهما الريبة والتعجب، وأعلم ما فكر فيه تحديدًا في تلك اللحظة: فقد بان جليًا في مقلتيه.. ما فكر أو ما تذكر!

فبالتأكيد يظن أني الآن أحاكي ما فعلته منذ زمنٍ عندما صرحتُ بكلمةِ الحب فقط لمنعه من الرحيل، لكني لم أعلق ولم أهتم وأنا أعيد الاقتراب بقبلةٍ هادئةٍ لشفتيه لم أقطعها حتى ارتخى تصلب جسده المتفاجئ، فابتعدتُ أنظر له متأملة وتلفظتُ بما يدمي قلبي وأكبله من الخروج، ولا أعلم لما اختار الآن تحديدًا للتحرر:



-هتبعدني عنك؟!.. لو شرطها إنك تطلقني يا ضياء هتطلقني؟

لم يرد.. وانهال على قلبي الذعر والهلع كسيلٍ غاشم، وظل ينبض بسرعةٍ قاسيةٍ منتظر رصاصة رحمة بالنفي أو سكين ثلم يمر عليه قاتلاً بالإيجاب!

نظر لي بعيونٍ مريبةٍ غامضةٍ بعثتْ في روحي رجفةُ احتضار ولم يجب بالكلماتِ والأحرف.. بل أجاب بلغةِ عشقٍ شغوفة وحروفِ وصالٍ مشتاقة، واستقبلتهم منه بذات الشغف والاشتياق وزدتُ عليهم الترحيب والسرور..

ولكني لا أدري أكانت إجابته تلك نفيًا..

أم اعتذار!

*



ضياء

عدتُ لها من جديدٍ بعد يومٍ طويلٍ مشدود الأعصاب، وبعد تأجيل التفكير في طريقةِ إقناع والداي للمجيء بقدمهم معي لطلب "تيا"، عدتُ للتفكير في حالة "براء" الغير مستقرة بعد تلك الحادثة، وتخبطها الواضح بين تشبثٍ وفرارٍ تثير في نفسي القلق! وإقرار مؤنب أنه ما كان علي تركها والابتعاد لتفكر هي في الابتعاد الدائم أو يقنعها أحدٌ به كورقة ضغط للعزوف عن قراري!

دخلتُ المنزل ووجدته هادئ كعادته مؤخرًا، مرتب، نظيف، ورائحة طعام دافئ تفوح منه.. ولكن بلا أثر لها!

فأخذتُ أبحث عنها في المطبخ وفي غرفتها وباقي الغرف ولم ألقَ لها أثرًا فنشب داخلي قلقٌ مجهول السبب، وذهبتُ لغرفتي التي



صرتُ آخذها مسكن في محاولةِ بحثٍ أخيرٍ فوجدتها نائمة مستكينة على فراشي!

وبعد راحة التأكد من وجودها، أتت دعوتها الصامتة بنداءِ عينيها للاقترابِ فاقتربتُ.. واكتنفنا صمتٌ دافئ قد هجرنا منذ مدة حتى قطعته بسؤالٍ مربك أجبتُ عليه بثباتٍ كاذب وسؤالٍ مرتبك!

وردها كان صفعة من كلماتٍ مؤنبة رفضتُ تلقيها دون دفاع!

بينما كان اقترابها التالي مريبًا!

مريبًا في هيئته ومريبًا في توقيته، ولم أستطِع في بادئ الأمر ابتلاعه أو تصديقه وقد عدتُ بذكرياتي لأمس سنواتٍ مضت!

لكن إصرارها على الاقتراب كان مربكًا قدر ما استشعرته صادقًا فلم أستطِع الامتناع أو التشبث بالتفكير أكثر، وكل ما أعرفه أن نداهة عشقها عادتْ تندهني ساحبة إياني للعمق من جديد!

فكيف لي ألا ألبي النداء!



(10)

فراشة شوق ونيران عشق!

**

وفي البين بين..

مكانٌ فسيحٌ لنهر تشظى..

على ضفتين!

-ربا أبو طوق.

-بين بين.



ضياء

اليوم عُقِد القران.

تجاور أسمينا على ورقة واحدة هي الدليل والشاهد على إتمام رباط غليظ بيننا لن ينفصم.

اليوم عُقِد القران.. وانهار أخيرًا سد صمودها الرافض وسلمتْ حصونها على غفلة منها بدفعة من غيرها سأظل لها ممتنًا ما حييت.

اليوم عُقِد القران.. وفتحت أبواب مدينتها تسمح لي أخيرًا للنهل من خيراتها المحروم طويلاً من طيبها.

اليوم عُقِد القران بعدما تأخر لسنوات طوال، وإدراك حديث العهد بأنه تأخر سنوات طوال.



اليوم عُقِد القران.. بعد توهة نفس طالت، وخوف فقد استوحش، وجبن من اعتراف التهم الكثير ثم تسليم بانهزام مُستهَلك القوى، وتنازُل عن التشبث بالمكابرة.. تلاهم حرب عزيمة توحشت وإرادة استفاقت وفك عنها الوثاق، بعدها شُنت حرب إقناع ضروس بأحقيتي في الارتباط مِن مَن أنشد على أرضها السلام.

فبعد شرط السيدة "رحمة" بالإتيان بأبي وأمي لطلبها رسميًّا، وقد نصَّبت نفسها الوصي عليها والقائمة بتيسير وتحريك الأمور العالقة في إحراج وجودها بمفردها كليًّا وحساسية عدم وجود فرد واحد يقف معها كعائلة العروس -وقد كنت ممتنًا لذلك صدقًا- أتى دوري في كسر باقي العقبات وإقناع والداي بالحضور لطلب يدها رسميًا زوجة لي.



ولم يكن رفض أمي أو امتعاضها -للدقة- هي المشكلة الكبرى بقدر أبي الرافض للفكرة والشخصية كليًا؛ فكان مصمم على أن ما أفعله هو ظلم بيِّن لها ولي، وأن زواجي منها ليس حلاً وإنما هو أقصى درجات الحمق وأني أزج نفسي في متاهة جديدة من متاهات الحب المظلمة والظالمة!

ولكن بعد مناقشات طالت، وجدالٍ قاسٍ من كلينا، وتحذيرات لا تنتهي.. استسلم أخيرًا لرغبتي في الخلاص.

ورغم معارضته وعدم اقتناعه التام فقد كان غاية في اللطف والبشاشة وقت جلستنا قبل أسبوع في بيتها للاتفاق أخيرًا على التفاصيل، بخلاف أمي التي رغم عدم خروج منها أي كلمة جارحة أو فعل مؤلم وقد التزمت بالتهذيب والذوق في كلماتها القليلة، ولكن لغة جسدها وملامحها كانا ينضحان بعدم الرضا.. لكني لم ألتف أو أهتم لكل هذا قدر اهتمامي وابتهاجي أننا أخيرًا اتفقنا!



أخيرًا انتزعت رضاها وإن كان صامتًا تائهًا.. فأثناء الحديث على تفاصيل المهر والمؤخر وخلافه من هذه الأشياء والذي كانت تتولاها السيدة "رحمة" المشترطة بحزم، وأبي الموافق بتفهم بعد اتفاقنا سويًا على الموافقة على كافة شروطها.. كانت هي صامتة هادئة وكأنها تشاهد مشهدًا بعيدًا لا يخصها؛ فلم تشارك بالقول أو الرأي في أي شيء إلا من شرطٍ وحيدٍ صارم والتي أملته بنفسها وبمنتهى العزم والثبات أنها لن تترك بيتها ولن تقبل بالانتقال معي لأي مكان آخر أعلنت نيتي في سرعة تجهيزه للانتقال والعيش فيه سويًا؛ وأن شرطها الوحيد أن انتفل أنا للحياة معها هنا!

واضعة بمنتهى الحزم شرط دلوفها لحياتي بدلوفي لعالمها أولاً، فإما العيش هنا في بيت والدها بصحبتها وإما الأمر محسوم بالرفض القاطع!



ورغم عدم استساغتي للفكرة وعدم ارتياحي لها فقد قبلتها مؤقتًا على مضض حتى تمام الظفر بها ثم البدء في محاولة إقناعها فيما بعد عندما تحين الفرصة المناسبة لذلك، وحتى يأتي اليوم التي ستربط بي ولن تستطيع الفكاك بعده..

وها قد أتى اليوم.. يوم عقد قراننا داخل جدران منزلها والذي من المفترض أنه أضحى أيضًا بيتي!

والذي شهد على الكثير فيما مضى ويبدو أنه سيشهد على الكثير في المستقبل، كما يشهد الآن أيضًا على اقترانها بي وكفها يحتضن كفي أثناء كتب الكتاب، وصوتها الخافت وهو يردد باختناق كلمات الاقتران وراء المأذون بنفسها لعدم وجود وكيل؛ كان وحده كفيل بشق صدري نصفين متألمًا، وشعوري بمسؤوليتي المباشرة -أو حتى الغير مباشرة- عن هذا بعد تأخر إدراكي الغبي أنها خلقت فقط لتكون بجواري، وبعد مكابرتي الساذجة



اللاواعية بتأخير ما كان يجب حدوثه منذ سنوات بالشكل الذي تستحقه وليس هذا المقطر بالهوان والحزن.. كل هذا ضاعف من الألم الذي كان ينهش صدري في تلك اللحظة.

واليوم كذلك وهو زفافنا الصامت التي أصرت على عدم الاحتفال به سوى بجلسة كتب الكتاب بصحبة السيدة "رحمة" ووالداي فقط، بالإضافة لـ"نوح" الذي كان شاهدًا على عقد قراننا مع إحدى أبناء السيدة "رحمة" اللذان أتيا بصحبة زوجتيهما وأبنائهما، والتي تفاخرت بهم مغيظة ومحذرة بطريقتها التي باتت محببة لي أن أولئك هم أهل العروس الذين سيقفوا في مواجهتي إن أحزنتها يومًا.

ورغم امتناني الصادق لهذه السيدة، ومع كل محاولاتها لبث البهجة وكسر التوتر والحرج، واندماج "تيا" البسيط في الأحاديث



والمزاح الدائر بين "نوح" وأبناء "رحمة" والذي شاركهم فيه أبي، ومعاكساته المناغشة لها وتجاوبها بمزاح خجول معه..

لم يخفت شعوري بالمسؤولية عن حزنها وتحفظها رغم وجوب العكس ولو قليلاً؛ فانتحى تفكيري المتسائل بخوف وفضول منذ الصباح عن حالة "براء" الآن، وخطت بهجتي وشعوري بالفوز والارتياح أخيرًا خطوة للخلف، وتقدمت هي على كل شيء محتلة الصدارة في الفكر والروح، ورغبة حثيثة تأكلني في تحريرها من شرنقة انزوائها واختبائها عن الجميع خاصة أنا!

حتى انتهى الاحتفال وحل المساء ورحل الجميع وبقينا وحدنا في البيت الذي من المفترض أن يضم كل أيام عمرنا القادم كما ضم أيامً ليست بقليلة من عمرنا الماضي!



ورغم دفء المكان الفطري وكأنه ممتزج بجدرانه.. ورغم بعض التغيرات التي قمت بها بإصرار مماثل لإصرارها فغير من شكل البيت الكلاسيكي قليلاً ولم يبدل من روحه..

مع كل هذا فقد حاصرني شعور غير مريح إطلاقًا وأجزم أنه ذاته سيطر عليها!

راقبتها ثوان وهي تفرك كفيها بتوتر واضطراب لم أشهدها عليهم منذ زمن؛ فأبعدتُ عن رأسي الزمان والمكان والمنغصات والتفاصيل المرهقة للنفس والأعصاب، وأبقيتها هي..

هي وبهائها ورقتها الآسرة التي انتشلني من صخب أفكاري وانزعاجها، ونجحت كالمعتاد في بث الصمت والهدوء المرتاح داخلي بعدما طردت عقارب الضجيج التي تلدغ روحي ورأسي ونشرت السلام والسكينة بلا كثير من الجهد.. فقررتُ كسر



اضطرابها كما كسرتْ توتري واقتربتُ منها ببطء معلقًا بامتعاض وزفرة ارتياح ممازح:

-حسيت للحظة أن الحجة رحمة هتبات معانا النهاردة وتنام في النص متقمسة دور خطاب النجاري.

انشق ثغرها بشبه بسمة لم تصل لعينيها المستمرة في التخبط في محجريهما بلا هدى، فاقتربتُ أكثر وأنا أضيق عيني:

-اعترفي.. أنت مسلطاها عليَّ صح؟

لم تعلق سوى بإغماض عينيها مع رفعة سريعة لحاجبيها، ثم رفعتْ أصبعيها تمسح على جانب عينها ببعض الإرهاق والتوتر وغمغمتْ بملامح مغلقة:

-ضياء..

وقبل أن تكمل قاطعتها ممتعضًا باعتراض:



-لا ركزي معايا بقا كدة عشان في شوية قرارات هتنفذيها ومش هقبل فيها نقاش.

تغضن جبينها بتساؤل صامت فاقتربتُ أكثر:

-الهمزة دي تلغيها من قاموسك نهائي.. مش عاوزة اسمعها في اسمي تاني.

ارتفع حاجبها ببداية تحدي لذيذ وعلقتْ معترضة:

-أنا حرة، لساني وانطق بيه الاسم اللي أنا عيزاه بالطريقة اللي أنا عيزاها.

-وأنا كمان حر اسمع اسمي بالنطق اللي عاوزه والطريقة اللي عاوزها من..

بذات الحاجب المرفوع والتحدي المرتسم ببسمة جانبية أجبتها، وعند نهاية الجملة توقفتُ قبل إتمامها بالكلمة الأخيرة وأنا



أستشعر وقعها الناعم داخلي قبل نطقها للمرة الأولى.. بينما هي نظرتْ لي أخيرًا تتساءل بريبة حائرة، وضاعفت خضرة عينيها المسلطة على عيني أخيرًا من سحر الشعور والتصديق على تمام الوصول:

-من إيه؟

-مراتي.

تفاجأتْ وارتبكتْ وظلتْ ترمش للحظات بعدما اتسعت عينيها قليلاً قبل أن تتمالك زمامها وتعود لـ"تيا" خاصتي القديمة، ليست تلك الخائفة الحانقة والمنزوية بعيدًا عني، وشاهدتُ التحدي يتراقص من مقلتيها من جديد وتلك المرة انتظرته بشوق مستعد:

-ضيا..



وقبل إتمام استفزازها المتحدي، أوقفتُ شفتيها عن الإكمال مكتفيًا بالثلاثة حروف قبل خروج تلك الهمزة المستفزة بقبلة ناعمة أوقن أنها الأولى لها وأنني الأول والوحيد من ظفر بخمرها الناعم، كما كوني المحتل الأول والساكن الوحيد لقلبها العاشق الذي انتفض واستشعرتُ علو دقاته مع تجمد جسدها وتوقف أنفاسه المتفاجئة..

وما تلا ذلك سقط في بؤرة جحيم!

ظل يختال طوال الليل وهو يتراقص على صدري بتشفٍ، وحتى أثناء النوم لم يعتقنِ وهو يطوف ويحوم ويكرر كل التفاصيل برغبة سادية لتعذيبي وعدم منحي الراحة ولو لبضع ساعات.. حتى استيقظتُ ظهرًا بقلب مثقل، ورأسٍ مُأجج، وجسدٍ كسول.. وكانتْ هي أول ما وقعتْ عليه عيناي وهي نائمة منكمشة كطفلة



وشعرها الغزير يخبئ أغلب وجهها ويظهر فقط أنفها المحمر المنتفخ من أثر بكاء الأمس.

اعتدلتُ أتسلل من جوارها أحاول عدم إيقاظها، وذهبتُ أغتسل بماء بارد رغم عدم الاعتدال الكامل لجو الشتاء الذي على وشك الفرار؛ محاولاً إخماد وجع الرأس الذي ضربني بعنف فور استيقاظي.. وبعد انتهائي وارتدائي لملابس بيتية مريحة في سابقة لم تحدث ولم يأتِ أبدًا في بالي أن تحدث داخل جدران هذا البيت، دخلتُ ووقفتُ بحيرة في منتصف المطبخ المرتب بشكل مستفز وأنا أجهل من أين يجب عليَّ البدء؛ وإنهاك رأسي لم يعطِنِ فرصة للتفكير أو الابتكار.

وبعد محاولات كثيرة للتركيز قفزت "هي" بلا سابق تحذير لتودي بكل محاولاتي في الجحيم وتشعل نار قلق متسائل بات تجاهله أصعب من تجاهل ألم الصداع، ولم أستطع تجاهل هذه المرة



نداء قلب متلهف لسماع بضعة كلمات تبث بعض الاطمئنان عليها فاستسلمتُ وأنا أبحث عن هاتفي الذي وجدته ملقى على أريكة بالخارج، فالتقطته وعدتُ أدراجي للمطبخ وكدتُ أتصل بها مباشرة لكن لمحة خاطفة للباب المغلق التي تقبع ورائه "تيا" نائمة أوقفتني على الفور وبلا أي مقاومة، وبزغ اعتراف مؤنب أن هذا الأوان لا يتحمل تشتت أو مشاطرة وأنه لها وحدها ولا يحق لأحد مشاركتها إياه مهما كان السبب أو تضخم الشعور أو الدافع؛ فبدلتُ الاتصال في اللحظة الأخيرة بمن أثق في موافقته على مساعدتي رغم حنقه.. وبعد رنين وآخر وقبل الثالث أتى صوته متهكمًا بلمحة قلق:

-والله عيب.. بقى في عريس يتصل الساعة دي؟!

-الساعة دي إيه! الساعة داخلة على واحدة!



-ولو، اللي اعرفه إن العريس اللي بيبقى متسربع على الجواز زي سيادتك أهله هم اللي بيتطفلوا عليه ويتصلوا، مش هو اللي بيتصل بيهم على الصبح.

تجاهلتُ رسائله المبطنة وأنا أحك مؤخرة رأسي بتعب وإرهاق:

-طيب ممكن بعد إذن حضرتك وبعيد عن التريقة أطلب منك طلب مش هعرف أطلبه من ماما للأسف.

-في إيه؟

بان في صوته الاهتمام والتحفز القلق، فزاد داخلي التوتر والحيرة من كيفية صياغة طلبي، ولكن لم يكن التردد حاضرًا بأي صورة:

-ممكن تتصل تطمن على براء؟

-وماتتصلش تطمن عليها بنفسك ليه؟



قالها بعدم رضا بعد فترة صمت استشعرتُ فيها محاولة تحكمه في غضبه، وصمتُ غير قادرًا على صياغة ما يعتمل بداخلي الآن فسألته بإرهاق قصدتُ ألا أخفيه علّه يشفق عليَّ قليلاً ويرضى دون مزيدٍ من الضغط أو اللوم:

-هتكلمها يا بابا ولا لا؟!

-حاضر يا ضياء، حاضر. خليك أنت في نفسك وفي مراتك التانية يا فالح.

-شكرًا.

قولتها بامتنان حقيقي وأنهيت المكالمة ببعض الراحة ولكن لم تختفِ أو تخف المطارق التي تضرب في رأسي بعد؛ فعقدتُ ذراعي على طرف المطبخ وأسندتُ رأسي عليه بإنهاك والصداع الشرس مستمر في نخرها. بقيتُ للحظات على هذا الوضع وأنا أستعيد ذكريات الأمس بكثير من الألم والاختناق وكثير من المسؤولية



تجاهها التي بدأتْ بقطرات خفيفة حتى زادت واشتدت وأضحت كالسيل!

نفضتُ عن رأسي كل شيء متجاهلاً المراجل التي ترقص داخل قلبي ورأسي وروحي، ووقفتُ أركز اهتمامي على ما يمكن تجهيزه كفطور صباح؛ باحثًا عن أي نوع من أنواع تلك الفطائر أو المعجنات المهوسة بصنعها وتناولها، ولا أنكر إتقانها لصنعهم حد الاحتراف منذ زمن.. وبعد بحث مُضني في كافة أرجاء المطبخ أسفر عن فشل زريع غمغمتُ لنفسي بصدمة حقيقة وعيون متسعة:

-يا ندلة، وأنا اللي كنت معتمد على الفرن اللي فتحاه عندك..

تأففتُ بضجر وشعور بالتورط والقلق حاصرني فذهبتُ للثلاجة أفتحها وأتأمل محتوياتها بيأس وعدم رضا عندما شاهدتُ محتوياتها وهززتُ رأسي محدثًا نفسي بقلة حيلة:

-أعمل إيه وأنت مابتكليش البيض!



أغلقتُ الباب بحنق وأنا أتساءل للمرة الألف كلما تذكرتُ تلك المعلومة:

-في حد في الدنيا مابيكلش البيض؟!

احتلتني ببسمة شاردة تحولت إلى ضحكة خافتة عندما استرجعتُ ذكرى المرة الأولى الذي اصطدمتُ بتلك المعلومة، ثم رجعتُ إلى المطبخ من جديد خالِ الكفيين، وأثناء حيرتي في إعداد وجبة فطور مناسبة، وانشغال جزء داخلي في التفكير في طريقة لمنع تسلل أي شعور بالأسى أو الضيق عند استيقاظها من هذا الوضع الذي يصر في حصرها في زاوية شعور الوحدة واليتم، صدح صوت جرس الباب بإصرار أزعجني للحظة قبل أن يضرب رأسي إدراك مخمن لهوية الزائر فابتهجتُ واتجهتُ على الفور لفتح الباب وقد صدق تخميني فاتسعتْ عيناي بفرحة انتقام وبسمة شريرة وأنا أنظر لها صامتًا وأقف مستندًا على طرف



الباب برسغٍ واحد ووضعتُ الآخر على الطرف الآخر للباب مقلدًا وقفتها القديمة، بينما زفرتْ هي بحنق وهي تحاول لململة والتحكم في زمام بسمتها المنفلتة على ثغرها وعندما فشلتْ حولتها إلى أخرى سمجة تختصني بها وهي تلقي تحية الصباح:

-صباح الخير.

رفعتُ حاجبي وازدادتْ ابتسامتي مرددًا:

-خير؟

نظرتْ لي هي الأخرى بذات الحاجب المرفوع وبذات النظرة المتحدية:

-فين تيا؟

-نايمة.



قولتها وأنا أغمز لها وأزيح رأسي للوراء بملامح وجه متشفية؛ أذكرها بالماضي القريب آخذًا ثأري ولكن هذه المرة امتزتُ أنا بالصدق، فزفرتْ بحنق من جديد وهي تغضن جبينها آمرة:

-طب اتزحزح كدة.

اتسعتْ ابتسامتي المغيظة وأنا أسألها دون أن أتحرك إنشًا:

-ليه؟

-اتزحزح وخلي عندك دم وشيل عني الصينية يلا.

زجرتني تلك المرة بنظرة حازمة تنجح دائمًا في استدعائها وقتما شاءت، واعتدلتْ في وقفتها فظهرتْ صينية طعام كبيرة تحملها وقد كانت واقفة بزاوية تمنع عني رؤيتها، وعند رؤيتها انفرجتْ أساريري وأنا أفسح لها الطريق وأهلل مرحبًا بحمل الصينية المنقذة:



-أيوة كدة.. اللهمَّ صل على النبي.. جيبالنا إيه بقى؟

قولت الجملة الأخيرة وأنا أشرع في رفع الغطاء عن محتوياتها وتوقفتْ يدي في المنتصف بصدمة عند سماع تصريحها بتهكم شرير:

-جيبالكم جبن وبيض.

-نـعم.. لا ولية جاية على نفسك!.. في محصول بيض هنا محدش هيكله غيري.. خدي يا ست الكل صينيتك احنا مابنشحتش.

ضربتْ كفيها ببعضهما وهي تستغفر، فوقفتُ أمامها متخصرًا أكمل مناكفتي لها وقد حسن وجودها من مزاجي كثيرًا وخفف من أحمالي أكثر:

-وبعدين فين صينية العشا يا حـمـاتي.

-في أوضة السفرة يا روح حمـاتـك.. أنت ماشفتهاش؟!



قلدتْ لهجتي وبغمزة مغيظة سألت بخبثٍ أشعرني بحرجٍ قاتل حاولتُ مواراته وأنا أحك مؤخرة عنقي هاربًا بعيني لثوانٍ عن عيونها الملتمعة بشقاوة خبيثة، ثم سألتها زاويًا ما بين حاجبي أتصنع الجدية الزائفة:

-احم، لا ماشقتهاش.. ماقولتليش ليه؟

-قايلة لتيا.. هي تيا ماقلتلكش؟

قالتها متقطعة، راقصة، شامتة، خبيثة، متحدية، فأجبتها بغيظ:

-لا ماقلتليش.

مطتْ شفتيها تتصنع الاستياء والأسف:

-أخص علـيـهـا.

وقبل أن أنفجر من الغيظ خرجت أخيرًا بوجه ضاحك، تضع كفها على وجنتها المائلة قليلاً لليمين وهي تراقبنا وتضم شفتيها في



محاولة واضحة للتحكم في ضحكة تود التحرر.. وأعترف أن خروجها قد أنقذني من هذه السيدة الذي أصبحتُ متأكدًا من أنها تمثل "عملي الاسود في الحياة".. وعندما انتبهت "رحمة" لخروجها أطلقت العنان لزغرودة عالية أغمضتُ لها عيني بشدة ثم فتحتُ شقٍ بسيط من عينٍ أراقب منه "تيا" بفضول والتي احتقن وجهها وخبأته وراء كفيها بحرج مماثل، وعند انتهائها من زغرودتها المدوية اتجهتْ نحوها وأخذتها في أحضانها وهي تتمتم بالبسملة وأدعية الحسد دون توقف، وكانت محقة في فعل ذلك بالفعل.. فقد كانت وهي تقف بوجها المخضب بالحمرة وشعرها الغجري الطويل مرتاح فوق مأزرها الوردي الناعم الذي تحكم إغلاقه حولها، والذي استفز خيالي وحرضه للانسياق وراء تخمين ما ترتديه أسفله تحديدًا ولكني ألجمته ببسالة احترامًا للسيدة "رحمة" المستفزة.. فبدتْ فاتنة أو أكثر.



وبعد انتهائها من فقرة الرقية أخذت تسحبها خلفها لغرفة النوم، فهدرتُ أتساءل بصوت متسلط وأنا لازلت أحمل صينية الإفطار الذي أقترب أن يصبح غدائًا:

-أنت واخدة مراتي ورايحة بيها على فين؟!

-خليك في حالك.

قالتها دون النظر لي واختفتْ فعمغمتُ متأسفًا بوضوح:

-دا الله يكون في عون مرتات ولادك والله العظيم.

-سمعتك.

تأففتُ وأنا أضع الصينية على منضدة صغيرة، ورفعتُ عنها الغطاء أتأكد من محتوياتها لأتكد من مزاحها بخصوص الجبن والبيض، وحمدًا لله كانت رؤوفة بي هذه المرة ولم تكن صادقة.



وبعد كثير من الوقت قضيته في اللا شيء فعليًا، وبعدما تجولت في كافة الشقة لثلاث مرات أو يزيد بضجر، وبعدما أعدتُ الاتصال بأبي وطمأنني بصوت مغلق عن "براء" وحاولتُ جاهدًا الاكتفاء بهذا القدر، وبعد الجلوس والتفكير في كافة الطرق الذي يجب عليَّ انتهاجها مع "تيا" حتى نستطيع تخطي صدمة البدايات دون المزيد من الخسائر.. وبعد الكثير من محاولة عدم التطلع للساعة وحساب توقيت مكوثها وفشلت بجدارة؛ لأجز على أسناني بحنق وغيظ يتنامى مع مرور الوقت مدركًا أنه قد مر ما يقرب من الساعتين ونصف وهي محتجزاها بالداخل!

فلم أحتمل أكثر وصرختُ بصوتٍ عالٍ وبحنق حقيقي وأنا لا أعلم ماذا تفعلان كل هذا الوقت:

-الرحمة يا رحمة.

-بس يا ولد.



صرختْ بها هي الأخرى بصوت عالٍ حتى تصِلني لا مبالاتها المنغمة بوضوح، فضربتُ بكفي على جبيني بعنف محاولاً التحكم في غيظي الذي يتضاعف!

**



أريد انهزامي!

فلا عيب أن أستريح قليلاً.

ولا عيب أن يستهل الفؤاد دروب الحياة بعكازتين!

-ربا أبو طوق.

-بين بين.



تيا

لا أدري ما الذي حدث ولا كيف حدث بهذه السرعة!

كل ما أدريه أنني سقطتُ في لحظة انفصال مغري عن كافة اعتبارات العقل والألم والحقيقة، ووقفتُ على السور الفاصل بين التشبث بألم الواقع والسقوط في عالم الغياب مع الخيال والآمال.. وللحظة واحدة حلقتُ في عالم ماذا لو!

فماذا لو كانت بالفعل فرصة كما تقول "رحمة" وحسابات المنطق؟!

ماذا لو كانت منحة قدر؟!

ماذا لو انهزم عشق "ضيا" وانتصر عشقي أنا؟!

ماذا لو أدرك أخيرًا أن "براء" بالفعل لا تحبه ويبغى منها الخلاص والمساعدة في من يسحبها من دمائه التي تسبح وترتع فيها؟!



ماذا لو كان قدره الوقوع أخيرًا في فخ العشق الذي نصبه لي قديمًا ولم أفلح في إنشاء آخر له أو سحبه وحبسه معي فيما نصبه لي؟!

ماذا لو حاربتُ من أجل حلم عنيد حاربته هو ذاته طويلاً ولم ينهزم؟!

ماذا لو استسلمتُ للحظة لما تحتاجه "تيا" دون النظر أو الاهتمام بأي شخص آخر؟!

وماذا لو كان فيه هو الخلاص كما فيه هو المعاناة؟!

ولحظة ماذا لو تلك كارثية.. كمخدر لا تستفيق منه إلا وأنت غارق في آثار إدمانه!

أو كفراشة شُدت لضياء اللهب غائبة مع خيالها الملون واسئلتها المتأملة في ماذا لو كان هذا الضوء بوابة عبور لعالم الضياء الأبدي الخالي من الظلام.. فاقتربتْ حتى احترقتْ!



احترقتُ!

احترقتُ كتلك الفراشة التي غابت للحظة وغبتُ معها في ذات اللحظة، تاركة حذر ظلام غيابه ومسحوبة لضياء وجوده بترنح استغله هو على الفور وأدخلني حيز لهيبه بلا أي فرصة نجاة أو فرار!

ترنحتُ بين احتراق وفرار عند زياراته ووالديه واتفاقهم على تفاصيل زواج هو زواجي!

احترقتُ ولم يمنحنِ فرصة تراجع مع التصميم والمباركة بسرعة إتمام الزواج بلا أي تأخير!

احترقتُ بنظرات المفاجأة وشهقات الاستنكار عند إعلانه ارتباطنا بين الجميع في الشركة للحصول على أجازة الزواج المشتركة!



احترقتُ بسؤال إن كان هذا حقيقة أم خيال، وهل "براء" بالفعل عالقة بيننا أم أنني أتوهم!

احترقتُ بقرصة صدر مثقل ودّ الانفجار بالبكاء قهرًا عند إتمام زواجي بنفسي بلا ولي؛ متحملة ضريبة فقدان أبي الغائب!

واحترقتُ بنيران قربه قدرما تجمدت بصقيع بعده!

احترقتُ بهاجس أن أبي وأمي لم يباركا في قبرهما زواجي من متزوج!

وتوالت الاحتراقات.. فتارة احتراق مؤلم، وتارة احتراق مخزي، وتارة احتراق لذيذ، ومرة احتراق خائف، وأخرى احتراق مؤنب!

ثم امتزجوا جميعًا مكونين لهب ضخم ابتلعتني وأحرقني وأنا على بعد خطوة واحدة من جنة حلم قديم!

فأسفر حريقي -بمنتهى الصدق- عن ليلة زفاف كارثية!



بعد قبلة ساحرة مربكة لم أصدق أن أحظى بمثلها أبدًا خاصة منه هو بعد كل هذا العمر؛ انقلب عالمي وانهار كل شيء!

نعم لم أكن غرة، ولم أكن ساذجة، ولم أكن صغيرة كذلك.. ولكني كنت وحيدة وخائفة بشدة وقد استشعرتُ الوحشة تنتشر وتتشعب داخل قلبي كسرطان كبلني من التنعم بالحلم!

فكل قرب منه كان يمتزج دفئه بنار من نيراني السابقة ليتلوه ابتعاد مني محتمية من ألم الاحتراق بهذه النار ومستغنية مرغمة عن دفئه!

وعندما تغلب هو أو تغلبتُ أنا لا أذكر على تلك الحرائق هاربة منهم وسمحتُ لروحي بالتحرر لثوانٍ والدلوف معه لعالم ساحر لم أكن أعرف إن كنت سأقدر على دخوله مع سواه أم لا.. وعندما هدأ وسكن كل شيء، اندلع فجأة سعير من أصوات ومشاهد متداخلة محتقرة ومستنكرة ومخذولة ومكسورة الخاطر



وكارهة ومتألمة.. وزحفتٍ تجاهي بشكل مرعب وبدأتْ في كي روحي بلا أي رأفة أو فترات استراحة.. لم أستطع تحمل جحيمها صامتة فأطلقتُ العنان لبكاءٍ متألم بدأ بأنين خافت وانتهى بصراخ ملتاع وأنا أعلن كرهي له ولزوجته وللعالم ولنفسي ولوحدتي وللدنيا وللموت الذي اختطف مني أبي وأمي وجعلني مستضعفة ذليلة بهذا الشكل.

كان انهيار مثير للشفقة احتواه هو باحتضان أحكم إغلاقه حولي ورفض تحريري منه رغم عنف محاولاتي للابتعاد والاختباء عنه وعن العالم أجمع.

وبمجرد أن خبأ وجهي في صدره واستشعرتُ اختبائي عن العالم بما فيه رؤيته.. انفجرتُ في بكاء مرير من جديد ولكن تلك المرة وأنا أتشبث به!



فهذا المستفز الذي أحببته طالما كان مراعيًا في كل ما يخرج منه، لكني لم أتصور أن يكون مراعيًا متفهمًا أيضًا لهذا الجانب وهذا الانهيار بل واحتوائي وهدهدتي أيضًا!

ظل يحتجزني بقربه رافض تحرري وابتعادي حتى خَفُت نشيج بكائي، وساعدتني ثرثرته الدافئة واجتراره للذكريات المضحكة بيننا على التغلب على أغلب هواجسي ودحضها بفضل دفئ وجوده المربك واحتوائه الموتر والغير معتاد؛ فأخذتْ تنطفئ جُزوات حرائقي واحدة تلو الأخرى، وأخذتْ الهواجس تتساقط كثمار فاسدة تسقط من على شجرة مزدهرة!

إلا هاجس وحيد بقى عالقًا ليحرق عيني وروحي برؤيته.. أنني خذلتُ أبي وأمي، وأنهم غير راضيين عن هذه الزيجة!

حتى نمتُ بألم وإنهاك مستسلم بين أحضانه للمرة الأولى!



ثم استيقظتُ على صوت جرس الباب ولم أجده بالجوار، ثم سمعتُ صوته ممتزج مع صوت رحمتي الإلهية وهما يتناكفان كالمعتاد؛ فابتسمتُ وقمتُ مرغمة رغم حاجتي لاستمرار النوم، ورتبتُ فوضى الغرفة بسرعة متوترة ثم خرجتُ لأشاهد مناكفتهم لبعضهم والتي تساعدني بصدق على التحرر قليلاً من شعوري بالاختناق، وبمجرد ما لمحتني "رحمة" توقفتْ عن استفزازه وأطلقتْ زغرودة طويلة أشعلتْ توتري ورغبتي في أن تنشق الأرض الآن وتبتلعني.. ثم أخذتني بين أحضانها تتمتم بالأدعية والرقية فارتجفتُ لدفء فعلتها وهاجمتني رغبة مريرة للبكاء من جديد تحكمتُ في عدم تحريرها بصعوبة ولاحظتها؛ هي فربتتْ على وجهي وهي تنظر لي بعينين قلقتين ثم أخذتني تجاه الغرفة التي كنتُ فيها قبل دقائق وأغلقتْ الباب علينا على الفور، التفتْ لي تتساءل بقلق استشعرتُ مدى صدقه من عينيها الصارخة



بالخوف وصوتها المحمل بالقلق وزاد هذا من رغبة البكاء الملحة داخلي:

-مال عنيكي محمرة كدة ليه؟!.. أنت كنت بتعيطي؟!.. الواد ده عمل لك حاجة؟!

هززتُ رأسي بنفيٍ وجبين مسبل وإحساسي بقرب انهيار جديد بات وشيكًا جدًا:

-مالك يا تيا، في إيه يا بنتي؟

ولفظة ابنتي منها بهذه النبرة القلقة الصادقة لم أستطع تحملها فانفجرتُ باكية وأنا أرتمي مختبئة في أحضانها غير قادرة على النطق فأجلستني على الفراش وهي تحتضنني وظلتْ تربت على ظهري مطمئنة ولسانها لم يتوقف عن قراءة القرآن والابتهال لله تعالى بالصلاح والهدى، وكل هذا كان يزيد ويضاعف من بكائي واضطراب دواخلي أكثر، حتى هدأتُ أخيرًا بعد بعض الوقت



واستكنتُ في أحضانها، فأبعدتني بعد دقيقة وهي تسألني بحزم وتراقب خلجاتي بعيونٍ متربصة وجبينٍ منعقد:

-الواد ده عمل لك حاجة؟..

قولي لي وماتخافيش ولو عمل لك حاجة أنا هخرب بيته.

وحديثها المتحفز المنفعل على قدر ما أشعرني بالدفء والامتنان على قدر ما أشعرني بالتوجس من أن تنفعل أو تحتد عليه فنفيتُ بسرعة وصدق:

-لا والله ما عملش حاجة.

زفرتُ بارتياح ثم سألت بنبرة هادئة متلاعبة لم ألتقطها وقتها:

-ماعملش حاجة خالص؟

-لا والله ماعملش حاجة.. أنا اللي عمالة اعيط كدة لوحدي من امبارح.



اختفى المرح وتغضن جبينها بجدية وحزن وهي تحتضن وجنتي بحنان:

-ليه بس يا حبيبتي كدة؟!

صمتُ طويلاً وأنا أفرك كفي بعنف وتوتر، لا أعلم كيف أصيغ ما أشعر به حتى استطعتُ البدء بأكثر ما يأكل روحي ويؤلمها:

-أنا حاسة إني خذلت بابا وماما يا طنط. حاسة إني فعلاً خطافة رجالة. حاسة إني سرقت حاجة مش بتاعتي ومش من حقي. حاسة إني مش هعرف ابص في وش الناس تاني وهي بتبص لي بالاحتقار ده.

تنهدتْ وهي ترفع وجهي الذي أرخيته بضعف وثبتتْ أنظارها على عيني وهي تحدثني بتصميم حازم ولهجة جادة:



-يا حبيبتي أنت ماغلطتيش ولا عملتي حاجة حرام ولا عيب. واللي مش عاجبه اللي عملتيه يجي يعيش حياتك بدالك ويورينا هيعمل إيه.. الناس مابتبطلش كلام يا تيا، وأي حاجة أي حد هيعملها الناس هتتكلم فيها.

ارتختْ ملامحها بعد ذلك وتحولتْ نظرتها لحنان رؤوف:

-وبابا وماما الله يرحمهم أهم حاجة عندهم سعادتك وأمانك، كل اللي في بالك ده مش حقيقي.

أغمضتُ عيني أشدد عليهما في محاولة لتصديق كلماتها الرحيمة، ثم أكملتُ بصوتٍ مرتعش:

-أنا حاسة إني بحلم.. حاسة إن كل حاجة حصلت في حلم وصحيت لقيتها حقيقة مرة واحدة!... حاسة إني متلخبطة، كأني مخبوطة على دماغي.. خايفة أطلع لسة نايمة ولما اصحى ألقاه بقى حقيقي وخايفة بردو ألقاه حلم.



-طب وليه مانستمتعش ونفرح بالحلم اللي بقا حقيقة ده؟

-عشان هو حلم منقوص يا طنط.

وعند تلك الحقيقة سالتْ دمعاتي من جديد وأنا اعترف لها بما يعصر قلبي ويمنعه من التحليق وراء فرحة مجنونة:

-أنا أكتر حاجة وجعاني إني حاسة إن أنا مش من حقي أفرح إن أنا معاه، أخيرًا أنا معاه!

أخذتني بين أحضانها من جديد وهي تمسح دموعي وتستمر في مؤازرتي:

-لا يا حبيبتي افرحي.. حقك تفرحي. افرحي وانسي كل حاجة غير تيا وفرحة تيا وبس.



صمتُ ولم أرد وأنا أحاول حفظ كلماتها داخل روحي علّها تطرد الشياطين التي تطاردها، وقبل أن أنساق وراء شرودي من جديد أتى صوتها ينتشلني بشقاوت الخبيثة:

-ماتخدنيش في الكلام بقا وقولي لي.. ماعملش حاجة خالص!

لم يصل مقصدها لي وتشوش رأسي منعني من التقاط مقصدها من أول مرة، فرفعتُ لها عيون متسائلة وبمجرد النظر لعينيها التي يرقص فيهما الخبث والشقاوة ضربني مقصدها في لحظة فخبأتُ وجهي بين كفي وأنا أصيح باعتراضٍ وخجل بعدما نالتْ ابتسامة حقيقية من ثغري أخيرًا:

-يا ربي عليك يا طنط.

-اقعدي كدة واعترفي عشان أنا مش هسيبك.



قالتها بتصميم ضاحك وهي تبعدني عن أحضانها وظلتْ تحاصر وأنا أراوغ.. ولم ننتبه لمرور الوقت سوى على صوته الحانق الآتي من الخارج والذي ردتْ عليه على الفور وهي تأمره بالصمت رغم غمغمتها لي:

-هيجي يخنقني وبصراحة معاه حق.. أنا ماشية بقى.

تشبثتُ بيديها وأنا أطلب منها برجاء:

-خليكي معايا شوية.

-أكتر من كدة ماينفعش.

قالتها وهي تخرج ثم صمتنا عندما وجدناه لايزال في الصالة ينظر لنا بصمتٍ وحاجب مرتفع بتهديد أثناء جلسته المسترخية على الأريكة أمام التلفاز الذي ثبته على فيلم رعب، وظل يضرب



الرموت في يده بآلية على قدمه المستمرة في اهتزازاتها السريعة، والحنق يتقافز من عينيه.

زممتُ فمي في محاولة لمنعه من الضحك بصعوبة، بينما سألته "رحمة" بابتسامة متسعة وعينين ضاحكتين:

-عاوز حاجة يا ضياء يا حبيبي؟

نظر لها بغيظ مضاعف وبابتسامة صفراء أجاب:

-سلامتك.

أضافتْ تحدثني وهي تنظر له:

-هجي لك بكرا يا تيا.

أغمض عينيه ورجع برأسه للوراء وهو يدعو بصوت عالي:

-عجِّل يا رب بأجازة الصيف.



عندها التفتْ لي "رحمة" مستمرة في إغاظته وأضافت ببسمة شقية مغيظة:

-تصدقي يا تيا أنا ماقولتلكيش صحيح.. أنا بفكر أقعد هنا في بيتي على طول واسيب الولاد على راحتهم هم يبقوا يزوروني.

اتسعتْ عيناه بصدمة وقفز يقف أمامنا وهو يحدثها معترضًا:

-لا ازاي.. وأحفادك يا ست الكل يجيلك قلب تسيبهم بردو؟!

ثم اقترب أكثر وهو يستطرد بملامح جدية:

-طب أنت عارفة إن مرحلة الطفولة دي أهم مرحلة في عمر الطفل، ولازم يشبع فيها من حنان أهله ويبني معاهم ذكريات خاصة.. خاصةً بقا جدته.

هزت رأسها وانفلتت منها ضحكة متقطعة وهي تسأله:

-والله العظيم؟!



-صدقيني.

صفقتْ بيديها بحماس، وبنظرة شريرة أجابته:

-طب خلاص أنا هبقى أجيبهم هنا في الصيف ونقعد أنا والولاد نونسك أنت وتيا.. إيه رأيك؟

وجم وجهه بشدة وضاقتْ عيناه وهو ينظر لها بخطورة وطال صمته قليلاً قبل أن يغمغم بفم مستقيم وعيناه لم تخفت نظرة التهديد منهما بعد:

-تنوروا.

-كذاب أوي.

قالتها بفم ملوي وذهبتْ تخرج وغمرتني في أحضانها من جديد وهي توصيني بتشبثي بالفرح دون هواجس أو تساؤلات.



وبمجرد أن أغلقتُ الباب وراءها واستشعرتُ وقوفه ورائي عاد التوتر لي من جديد وذكريات الأمس لا تترك لي مفر وهي تحاصرني بين فرار واعتذار!

التفتُ له فقابلني بعيونٍ حانقة وحاجب مرتفع وهو يضع يديه في جيبي بنطاله البيتي، فلفتتْ هيئته البيتية المريحة انتباهي والتي أراه عليها للمرة الأولى فضاعفتْ من توتري.

أغمضتُ عيني أبعده وهيئته عن أفكاري لأركز على محاولة انتقاء كلمات اعتذار، واعترفتُ لنفسي أنه لم يكن يستحق ما ناله مني بالأمس: فحمحمتُ وأنا أستهل بصوتٍ أردته عادي النبرة ولكنه خرج خفيض مبحوح:

-ضياء أنا آسفة، أنا..

قاطع كلماتي وهو يقترب ويقرب وجهه مني معترضًا برفعة حاجب مهددة تنجح دائمًا في استفزازي وإحياء التحدي الساذج داخلي:



-ضياء تاني!

-ضيا..

ومن جديد لم أستطع إكمال تحديّ أو إتمام الاسم؛ فقد ضاعت نهايته بين شفتيه!

**



حديث الشموس..

يحيط المجرات نورًا ونارًا.

وعند المغارب يخبو وحيدًا..

ويأوي سناه إلى شمعتين!

-ربا أبو طوق.

-بين بين.



براء

هناك أيام تكن مثل نسيم الحياة في قبر خانق، وهناك أخرى هي الجحيم بعينيها.

نيران تأكل كل ما تطاله منك بلا شفقة أو رحمة فتشعر وكأنك قد رُميتَ بصدق في مركز الجحيم!

بدأً من اشتعال رأسٍ تأكله الأفكار والتخيلات.. مرورًا بقلبٍ تحرقه الذكريات والآلام والمخاوف.. حتى منتصف جوف يُصلى بقبضة نيران تُعتصر أحشاءه بشراسة القهر والعجز..

وأخيرًا اشتعال أطراف جسد منتفض لا يقدر على الصمود واقفًا أو الانكسار منحيًا، بل أقصى قدرة إظهار استمرار الحياة عنده هي الانهزام مرتميًا بلا قدرة حراك.

هذا هو يوم الجحيم.



فإن ظننتُ أنني كنتُ أتجهز لمجابهة الألم والخوف بشجاعة طوال الأيام السابقة وهو يتجهز للزواج من أخرى فقد كنتُ حمقاء.. نعم كنتُ أتجهز للألم ولكن ليس للاحتراق!

كنتُ أتجهز للارتماء في غابات الوحدة والخوف ولكن ليس في الجحيم!

جحيم التهم كياني كاملاً؛ فسلب مني أحقيتي في انهيار أو بكاء أو محاولة فرار مؤقت لأي شيء، أو حتى قدرة حراك متوتر!

فبقيتُ جالسة من أول النهار حتى دلوف الليل بذات الجلسة المستسلمة بلا أي قدرة على أي حركة ولو صغيرة كخرقة بالية على الأريكة في الصالة أمام باب البيت؛ أراقبه من حين لآخر علّه يدلف منه في أي لحظة وينتهي هذا الجحيم!

ولكنه لم ينتهِ!



ولم يأتِ!

ولازالتْ النيران تلتهمني بلا نية للانطفاء أو حتى الخمود ولو قليلاً!

لا، لم تكن نارًا واحدة بل عدة نيران تتناوب وتتنافس في إنهائي!

نيران هلع من قرب تخليه عني وابتعاده الأبدي مكتفيًّا بأخرى!

ونيران جلد ذات تعلن بزمجرة غاضبة أن ما توصلتُ له الآن هو من نسيج يدي، وأن لا حق لي في طلب رأفة أو حتى إظهار ألم ما دمتُ قد ارتضيتُ ولم أتشبث باعتراض!

ونيرانٍ مؤلمة ومخزية لليلة زفافنا وقد هاجمتني ذكريات أولى أيامنا وامتناعي المرتعب الممتزج بشعور خانق بالذنب والخيانة والذي حاولتُ تخبئتهم قدر الإمكان عنه، وتفهمه المقيت كالعادة حتى تغلبتُ بصعوبة على تقبل قربه!



لتأتي نيران خيال لا يرأف بحالي وتأكل فتاتي الأخير وهي تصوره لي بين أحضانها غاية السعادة والرضا، وقد حظى بليلة زفاف عوضته بؤس ليلة زفافنا.

فسلمتني تلك الفكرة للنيران الأولى بأن اكتفاؤه من وجودي واستغناؤه عني ما هو إلى مسألة وقت قصير ليس إلا..

وبقتْ تعود دائرة الجحيم في البدء والدوران من جديد.

وعند لحظة تمام الفناء انتفض داخلي برفض وبلا حركة حقيقية سوى غمضة جفون شديدة، متسلحة بالقشة الأخيرة قبل الموت.

لأرأف بنفسي قليلاً وأُحدث روحي ببعض الكلمات المُطَمّئنة أن هذا كله مجرد خوف مريض وهواجس قاسية لا أساس لهم من الصحة أبدًا، وأن "ضياء" لن يقدر على الابتعاد عني مهما حدث..

ألم يقل لي ذات أمس أنني في حياته الشمس!



فهل يستطيع أحد الحياة بلا شمسه؟!

لا.. بالطبع لا، لم يقدر ولن يقدر ولن يفعل!

ولكن إن كان بالفعل لا يقدر فكيف أطاعه قلبه أن يترك الشمس للغروب إذًا!

ولمن يترك الشمس ونورها الذي تحدث عنه إن لم يستأثر هو به!

هل كره الشمس واستسلم للظلام؟!

هل سيتحمل صمت وظلام الليل وهو المفعم بالصخب والحياة!

هل سيحاول جاهدًا بالفعل التحرر مني وفك لعنة عشقه لي كما وصفه قبلاً، ومن ثم يرميني بين صفحات ماضي يتذكره في المستقبل متحسرًا على الوقت الذي أضاعه معي دون التمتع به مع أخرى ستحتل بعشقها ذاك المستقبل بعد طردي منه!



وهل حقًا "تيا" ستقبل بنصف عشق وترضى بنصف عاشق، أم أن هذه فقط البداية التي تصّبر بها نفسها وتعدها بالاكتمال مستقبلاً!

هل ألومه إن قرر التحرر والعيش بلا لعنة؟!

هل ألومها إن قررتْ الثأر باقتناص عشقها كاملاً بعد أن أصبح لها حقًا متاحًا؟!

وهل ألومني على أنني نشدتْ السلام على أرض تطمح في الطوفان؟!

أشتد ألم رأسي واحتدم سعير احتراقي أكثر فشعرتُ وكأن جسدي يتفتت من الألم، فاستسلمتُ أخيرًا وارتميتُ نائمة على الأريكة منزوية ومحتضنة ذاتي بخوف وألم بلغت حدتهم الذروة، ملقية نظرة دامعة أخيرة على المحيط الخاوي من وجوده، والباب



الساكن يبعث لي رسالة أشعلت نيرانٍ جديدة من الافتقاد والوحشة داخلي..

أنه لم يأتِ..

ولن يأتي!



(11)

متى ستعرف كم أهواك يا رجلاً؟!

**

ضيا

"متى ستعرف كم أهواك يا رجلاً..

أبيع من أجله الدنيا وما فيها.

يا من تحديت في حبي له مدنًا بحالها..

وسأمضي في تحديها.

لو تطلب البحر في عينيك أسكبه.

أو تطلب الشمس في كفيك أرميها."



استيقظتُ من قيلولتي القصيرة التي استسلمتُ لها بعد الرجوع من طريق سفر طويل على تلك الكلمات الناعمة وهي تنساب من مكان ما؛ فقمتُ أبحث عن مصدرها وعن تلك التي أشعلتْ الدفء بها في المكان، واعترفتُ أن في أقصى خيالاتي جموحًا لم يرد فيها أن أستيقظ قط على أشعار تسبح في أجواء شبه مظلمة إلا من خيوط النهار الأخيرة، ناهينا أن تكون أيضًا لنزار قباني كما أخمن؛ فأنا لستُ من هواة الشعر، ولكني الآن أسير في المملكة الخاصة لـ"تيا" ولذا فهذا ليس بغريبٍ أبدًا..

فإن كنت أنا لا أستهوي الشعر فهي تُدمنه.. ويليق بها.

فهي حقًا تشبه لوحة لمقطوعة شعرية هادئة تهيم في سماء الغروب.. لوحة كالتي أمامي تمامًا الآن.. جالسة هادئة شاردة العينين في خيوط الشمس الراحلة التي تلقي انعكاسها على وجهها



الساكن فيهدي لونها البرتقالي السابح على بشرتها البيضاء هالة من دفء وحالميّة مربكة..

تتكئ على الأريكة بسلام ويحتضن كفاها مشروبها الساخن وتحرك أصابعهما عليه بآلية بطيئة، وبجواره معجناتها الأثيرة، تستمع لمقطوعتها بانسجام تام وهي تدمدم ببعض كلماتها بهمس مع مُلقيها!

توقفتُ أستند بكتفي على الباب وأنا أراقبها مستمعًا لما تسمعه وتنقطع به عن العالم للحد الذي لا تشعر بي حولها!

"أنا أحبك..

فوق الغيم أكتبها..

وللعصافير والأشجار أحكيها.

أنا أحبك..



فوق الماء أنقشها..

وللعناقيد والأقداح أسقيها.

أنا أحبك..

يا سيفًا أسال دمي..

يا قصة لست أدري ما أسميها.

أنا أحبك..

حاول أن تساعدنى..

فإن من بدأ المأساة ينهيها.

وإن من فتح الأبواب يغلقها.

وإن من أشعل النيران يطفيها. "

استفزتني الكلمات الأخيرة واستفزني أكثر اندماجها وتوحدها معهم بهذا الشكل.. فقاطعتها وأنا أجلس بجوارها؛ أحاوطها



بذراعي لأنتشلها قسرًا من غرقها في عالمها الخاص لأغرقها في عالمي أنا، فاستندتْ بظهرها على صصدر ولم تستسلم وهي تميل بجانب وجهها؛ تنظر نحوي وشعرها الطويل المتطاير يحول بيني وبين شطر وجهها الآخر، وأكملتْ بصوت خفيض مسموع تلك المرة وهي تحدثني بالنظرة والنبرة وكأنها وجدت لأنهار كلماتها اللائمة المصب في عيني!

وبدل من أن أنتشلها أنا من دنياها إلى عالمي، ابتلعتني هي في رحب كونها..

"يامن يدخن فى صمت ويتركنى فى البحر أرفع مرساتى وألقيها..

ألا تراني ببحر الحب غارقةً!

والموج يمضغ أمالي ويرميها.

أنزل قليلاً عن الأهداب يا رجلاً..



مازال يقتل أحلامي ويحيها.

كفاك تلعب دور العاشقين معى..

وتنتقى كلمات لست تعنيها."

غمغمَتْ بالبيت الأخير بخفوت متدرج حتى صمتتْ وعيناها تهرب من مواجهتي، لكني استطعتُ ملاحقة طيف ألمٍ هارب وغارق بعمق في الكلمات الأخيرة حتى الاختناق؛ فشعرتُ بوخزة سخيفة من اللامكان تقرصني وتجاهلتُها كما تجاهلتّها هي وهي تعود بوجهها لمراقبة الغروب دون أن تبتعد عن أحضاني، وتكمل إنصاتها للكلمات المنسابة من هاتفها بنعومة وشجن..

"كم اخترعت مكاتيب سترسلها..

وأسعدتني ورودًا سوف تهديها.

وكم ذهبتُ لوعد لا وجود له..



وكم حلمتُ بأثواب سأشريها.

وكم تمنيتُ لو للرقص تطلبنى..

وحيرتنى زراعى أين ألقيها!

أرجع إليَّ فإن الأرض واقفة..

كأنما الأرض فرت من ثوانيها.

أرجع.

فبعدك لا عقد أعلقه..

ولا لمستُ عطورى فى أوانيها.

لمن جمالي!

لمن شال الحرير!

لمن ضفائرى منذ أعوام أربيها!



أرجع..

كما أنت.. صحوًا كنت أو مطرًا.."

لم تنظر لي ولم تحرك عينيها عن متابعة فرار الشمس للمغيب، ولكنها همست تكمل أو تختم وقد امتزج صوتها مع صوت ملقي القصيدة ففاقته بهاءً وسحرًا:

-فما حياتى أنا إن لم تكن فيها؟!

صمتْ الصوت واختفى وصمتت هي معه، وبقت هالة السكون التي تملكها وتنثرها أينما حلت ومتى أرادت وعلى من قررت أن تجود عليه ببعضٍ من سحر روحها.. فبنظرة منها تودي بكل وحوش الروح والفكر إلى سبات عميق، وبلمسة رقيقة لمواطن الآلام تأمرهم بالنعاس فيطيعوا ساكنين، وبكلمة واحدة من صوتها الهادئ ببحته الأثيرة الناعمة تصب في النفس الراحة والارتخاء حد الغياب!



وقبل أن أنغمس في الغياب تمامًا أفقتُ نفسي مرغمًا وأجليتُ تلك الحالة التي تصيبني بالارتباك الدائم الغير مفهوم بجوارها وسألتُ ممازحًا:

-دي عاطفية دي يا جابر!

انفجرتْ ضاحكة وشاركتها الضحكات، ثم أطاحتْ بظهر كفها على كتفي بخفة وأمرتني ضاحكة:

-بس.

ابتسمتُ وامتثلتُ لأمرها بالصمت راضيًا وأنا أدفن وجهي في تموجات شعرها؛ استشعر دفئها الذي يتسرب للنفس بلا جهد بعد اختراقه للمسام بلين وإحكام محاكيًا هذا الشعاع الأخير للشمس الراحلة بوداع، يخترق الجسد والروح فيدفئهما؛ بلا سماح لأي رفضٍ أو مقاومة حمقاء لا طائل منها..



-بحب الغروب، اتعودت كل يوم أراقبه لوحدي.

صرحتْ بها فانتشلتني قليلاً من الغرق في بحرها، وتجاوبتُ مع إنقاذها مستفسرًا بنصف غير راضٍ ونصف يتلاعب به الفضول:

-اشمعنا الغروب؟

-ماعرفش!

قالتها ببساطة وهي تهز كتفيها ثم استطردتْ بعدما استدارتْ بوجهها نحوي فأجبرتْ رأسي على الابتعاد عنها والرجوع قليلاً للوراء لأستطيع رؤيتها:

-بصراحة أنا بحب أراقب الشروق والغروب عادي، بس الغروب بالذات بستناه وبحبه أكتر كتير؛ بحسه أحن.

ظلت عيناي تتأمل خضرة عينيها طويلاً بلا هدى وبلا ملل، ويبدو أن سحر سكونها قد امتلكني وطَوَّعَني وأنا أستشعر رغبتي المتزايدة



للجنوح للصمت والاكتفاء بتأملها، والشعور المضطرب داخلي يزداد ويزداد بلا قدرة على فهمه أو مقاومته!

شعور لا يشبه هذا الذي يموج داخلي مع أخرى أشعر معها بجنون النيران الراقصة والابتهاج الجامح يدبوا في روحي فأرغب في مشاركتها كل شيء حتى روحي وأنفاسها!

بل هذا كخربشات قطط تقاتل للخروج لأخذها وحبسها بصحبتهم.. فاستسلمتُ له وأنا ألصقها أكثر وأكثر بصدري علّها تنسل وتتغلغل داخلي بالفعل وينتهي كل شيء وقد تشبَّعَت بها ذراتي.

حط الليل كاملاً ولم تنقطع حالة صمتنا الناعم.. تراقب هي السماء وأستند أنا بجبيني على رأسها مغمض العينين، أستنشق عبيرها الخاطف وأسلم أني على استعداد للاستمرار على هذه الحالة حتى النهاية طالما ستحمل توقيع سلامها هذا!

*



تيا

اختفى الغروب وطال الصمت وأعلم أنه ربما صار مملاً خانقًا لحد لا يستسيغه؛ فآفتي دومًا ما كانت الصمت وأعرف أنه يعشق صخب الأحاديث، ولكني غصبًا غبتُ معه بعيدًا عنه وأنا أستعيد تفاصيل الأسبوعين الماضيين بعد إصراره على السفر بمزاح أنه يجب خلق طريقة للهرب من حصار "رحمة" والتسلل فجرًا كمراهقين ثم السفر بعيدًا.. بعيدًا جدًا وصولاً لسحر "نويبع" والغرق في روعة تفاصيلها الهادئة بنعومة آسرة، لأقضي فيهما أسبوعين كالحلم بصحبته انتهوا بالأمس وعدنا صباح اليوم، لأودع معها حلمي الذي على وشك التبخر والاختفاء التام!



وعند الوصول لتلك النقطة انقشعتْ غيمة السلام فقررتُ قطع تلك الجلسة التي تدعوا للغرق بين جنبات سحرها والتي تحفز القلب على المزيد من العصيان، فناديته بخفوت مستهل:

-ضيا.

-نعم يا آخرة صبره.

اتسعتْ عيناي بسخط مشتعل عند سماع تلك الكلمات التي صارت ملازمة له مؤخرًا، فنظرتُ له بغيظ وبادلني النظر مدعيًا البراءة والجهل وكأنه لم يفعل شيءً فتأجج غيظي أكتر ولكزته بمرفقي في معدته بعنفٍ أعترف أنه زائد عن الحد، فتأوه بصوت عالي ضاحكًا وأرجعتُ رأسي للأمام من جديد وشعور بانتصار طفولي يجتاحني غذّاه سؤاله:

-ينفع كدة؟



-آه ينفع.

ولم أكد أُتمم جملتي حتى وجدتُ مخالبه ترشق في كتفي فصرختُ بعلو ومفاجأة وأنا أنتفض معتدلة أواجهه لأوجه له ضربات حانقة أوقفها وهو يتمسك برسغيّ معلقًا بضحكة شامتة صبيانية:

-كدة خلصين.

-أووف.

تأففتُ بحنقٍ وأنا أبعد يديه المحاصرة عني في نية لتركه والقيام مبتعدة، منعها وهو يعيدني لأرتطم به من جديد:

-طب من غير أفأفة ومد بوز.. عاوزة إيه؟

هززتُ رأسي بعند وحنق:

-خلاص مش عاوزة حاجة.



انفلتتْ منه ضحكته الخافتة المقطوعة آخرها التي تذيب أعصابي منذ المرة الأولى التي سمعتها بها فابتسمتُ بعشق لا ينضب لتلك الضحكة، ثم مال على كتفي التي تلقى عضته من قليل وطبع موضعها قبلة دافئة طويلة تلاها بغمغماتٍ خافتة رفرف لهم قلبي الغارق في تفاصيله:

-طب حقك عليَّ.. قولي كنت هتقولي إيه.

تذكرتُ ما أصريتُ على تذكره حتى أخرج من فقاعة عشقه.. وحدث وخرجت؛ فخفتتْ ابتسامتي حتى اختفتْ وصرحتُ بصوتٍ خافت خائف برغبة صادقة لا أعرف أأتمنى أن يساعدني على تحقيقها، أم أتمنى ألا يوافق وينساق معي ورائها:

-مش عايزة اروح الشغل بكرا.

وبتذكُري أن اليوم هو آخر أيام العيش في الحلم، وغدًا وقت العودة لكابوس مضاعف من مواجهة البشر والإجبار على تسليمه



لزوجة أخرى بمثابة غريمة معشوقة حتى النخاع؛ انقبضتْ أحشائي بغيرة عنيفة واندلعتْ داخلي كنيران لم أستطع تهدئتها أو تخبئة دخانها الذي ارتسم جليًّا على عيني المهمومة وأنفاسي المتسارعة التي أصابها الاضطراب، وكلمات مقرة زيلتُ آخرها بتساؤل خرج مؤنبًا متألمًا رغمًا عني:

-أنت هتروح لها بكرا، صح.

وعند سماعه سؤالي المؤنب انتحتْ عيناه بعيدًا عني للحظة وتغضن جبينه بارتباك تجاوزه سريعًا وهو يتجاهل الشطر الثاني من الحديث، وسأل باهتمام هادئ وعيناه مثبتة على عيني:

-مش عاوزة تروحي الشغل بكرا ليه؟

والأسباب كثرت وملخصها أنني خائفة.

خائفة من مواجهة البشر وما سيتلوها من ألم..



خائفة من مصمصات الشفاه ونظرات الازدراء التي ستتراشق في ظهري أينما ذهبتُ ويجب عليَّ التظاهرة بالثبات ومداراة النزف..

خائفة من وشم السارقة التي سيتهامس به الجميع وسيطعن قلبي ويحرقه كسهامٍ من نار.

واختصرتُ كل هذا الخوف في جملة خافتة من كلمتين وعياني تبتعد عنه لأختبئ من مواجهته هو الآخر:

-مش عاوزة.

-ماينفعش.

قاطعة، هادئة، وتلاها صمت لثوانٍ أكمل بعدهما وهو يحتضن وجنتي بكفه ويرفع رأسي إليه يجبرني بلين للنظر له ففعلتُ، وبعد كثير من الصمت تحدثتْ فيه عيناه، ترجم حديثُها لكلمات انسابتْ بصوتٍ هامس، حنون، مطمئن، ومؤكد:



-احنا ماعملناش حاجة غلط عشان نستخبى، فاهمة؟

وجمع نفسه معي في حديثه سكَّن كل شيء داخلي وكأن وجوده معي في مجرد كلمات كفيل بتأجيل الألم!

أعتدل من جلسته المستريحة وهو يحاوط وجنتي الأخرى بكفه الآخر وصرح بإصرار وعيون مصممة:

-أنا مش هسمح لأي حد يضايقك أو يوجعك بحرف.. ولا حتى أنا. أقسم لك بالله مش هسمح بكدة.

أقسم بها بصوته الذي يتغلل داخلي بخفوته هذا، وقرأتُ القسم جليًا في عينيه قبل الحديث، واستصرخني قلبي لتصديقه والاختباء آمنًا داخل هذا القسم الرائع ولكني لم أقوَ على ذلك فانسل الشك وعدم التصديق من عيني بلا قصد.. واهتزتْ مقلتاه وهما تبعثان لي مرسال آخر بقرآتهما عدم تصديقي لهما بوضوح، ومع هذا لم تلوما ولم تحزنا.. بل استمرتا في القسم لي بلا كلل!

**



ضياء

إن أردت يومًا التعريف التفصيلي لليوم الموتر والمثير للأعصاب حد الهلاك سيكون وصف تفاصيل هذا اليوم هو الجواب الأمثل والأصدق بكل تأكيد.. بدأً من استيقاظ "تيا" المتوتر وعصبيتها المفرطة والتي أعلم يقينًا أنها حالة نادرة الحدوث لها.. مرورًا بأول يوم نذهب فيه للعمل سويًا كزوجين وما تلاه من همسات مسموعة قصدًا، وكلمات سامة من البعض والتي تراشقتْ في صدري بغضب حاولت مداواته بوجه وعيون محذرة استقبلهم البعض بالحرج والصمت، والبعض الآخر بالاستهزاء واللامبالاة. ثم منتصف اليوم ومعرفتي مصادفة بذهابها منفردة دون إخباري أو حتى رؤيتي، وما أثاره داخلي من حنق منها ولها والذي حاولتُ تناسيه وأنا أكمل بقية اليوم ببالٍ غائب معها ومع "براء" التي لا



أعلم أو أتخيل كيف سيكون لقائي بها.. والآن وأنا في طريقي إليها بعد غيابٍ طال واشتياقٍ أحمق أحاول تخبئته كجرم وغض الطرف عنه وأنا أتساءل عن رد فعلها، ولم أقدر على تحديد واحد وهذا وحده كان كفيل بمضاعفة توتري. وبقيتُ على هذا الحال المتسائل بقلق وتوتر حتى وصلتُ للبيت لأجد الصمت يعلن استقبالي بدويًّا كان صاخبًا أكثر من دوي ألف ترنيمة من طبول الحرب، وظلام دامس غريب يغرق فيه البيت!

دخلت وأنا أشعل كل الأضواء وداخلي اشتعل برفضٍ تلقائيٍ لتقبل رسالة الصمت والظلام التي تركتها، ولا أعرف أتقصدها بالفعل أم أن عقلي المنهك هو من حاكها متماديًا في إيذائي!

أخذتُ أبحث عنها بهدوء ظاهري، وكانت بدايتي هذه المرة عند تلك الغرفة التي كنتُ أمكث فيها قديمًا فقابلني ذات الصمت وذات الظلام!



تركتُ الباب والأنوار مفتوحين وأكملتُ رحلة بحثي في البيت بأكمله لأقابل نفس النتيجة في كل ركن منه.. صمت وظلام!

صمتٌ كئيب وظلامٌ خانق ظلوا مهيمنين على كل زاوية فيه رغم كل الأنوار والأبواب المفتوحة والجلبة التي أحدثتها قصدًا!

رجعتُ لأقف في منتصف البيت المضيء المظلم، وإدراك عدم وجودها الذي رفضتُ الالتفات له والاعتراف به يقف الآن أمامي ضخمًا ليمنع عني طرق الفرار، وأخرج لي لسانه مغيظًا باستمتاع وحقد بشعين؛ فأجبرني على الاعتراف أخيرًا منهزمًا.. هي ليست بالبيت.. ووقتها تبخر التوتر وحل مكانه الغضب.

غضب عنيف ظل يتراقص كشياطين مهللة ترفع نخبه في حفل تذكار لانتصارهم على أبناء آدم السُذج!

رفعتُ الهاتف في نية لاتصال هو الأول منذ أسبوعين، ورغم رجفة القلب التي تجاهلتها، والغضب الذي حاولتُ كبته وعدم



إظهاره قدر الإمكان، معيدًا على مسامعي أن من حقها إظهار سخطها..

فتلقيتُ في لحظة الضربة الثانية التي أججتْ نيراني برسالة مسجلة كون الهاتف الذي طلبته مغلقًا وربما يكون يعاقبك!

وضعتُ الهاتف في جيبي من جديد وأنا أخرج ساحبًا الباب ورائي بعنفٍ لأنفس عن بعضًا مما يجيش داخلي من اختناق، وذهبتُ إلى بيتِ والدتها التي أعلنتْ الغضب والخصام منذ مدة، واستقبلتني ببرودٍ ووجه مغلق مع عيون تطلقان الشرر وهي تتساءل باستهزاء:

-خير يا عريس، سايب عروسة الهنا ومشرفنا هنا ليه؟

أغمضتُ عيني وتنفستُ بعمقٍ آمر نفسي بالصمت والتحمل مذكرًا أنني لم أكن أتوقع أفضل من هذا على كل حال:



-ممكن تنادي لي براء.

-براء مش هنا.

أخذتُ نفسًا آخر أعمق وحبسته داخلي وأنا أعيد طلبي بتصلب يزداد، وأنا أصرّ على أسناني بعنف شاعرًا بقيد أعصابي على وشك الانفلات:

-طنط من فضلك نادي لي براء.

-قولت لك براء مش هنا.

ومع تصميمها الهادئ انفلتْ القيد ونجم عنه صيحة مكذبة ومكتفية من هذه الألاعيب المستفزة:

-يعني إيه مش هنا؟!

-يعني ماجتش هنا، في بيتكم.



قالتها بعنف وصراخ متبادل، فمسدتُ جبيني بتوتر بدأ ينتابني خوفًا من تصديقها؛ فرفضتُ الانسياق لهذا الاحتمال وعِدت طلبي تلك المرة بصيغة هادئة آمرة، وعيون متسعة بتحذير:

-لو سمحتِ خشي نادي لي مراتي.

-يابني بقول لك مش هنا، مش هنا.. خش شوف بنفسك لو مش مصدقني.

قالتها بغضب وحنق، ودخلتُ باندفاع وبلا لحظة انتظار أو تردد وأنا أبحث عنها بالفعل في كل ركن في البيت.. وشبح الخوف الذي نبتْ صغيرًا توحش وابتلعني عندما لم أجدها بالفعل هنا أيضًا!

وقفتُ في المنتصف بعد فشلي في إيجادها من جديد شاعرًا بشللٍ يزحف بطيئًا من رأسي حتى أطرافي ثم انفجر في منتصف صدري بعنف محدثًا خراب عميق كنت أحاول تفاديه عبثًا. بينما ظلتْ حماتي واقفة أمامي للحظات تتأملني بغموض، ثم تحركتْ أخيرًا



من أمام الباب التي ظلتْ واقفة جواره وهي تراقب بحثي ووقفتْ أمامي وهي تأمرني بازدراء ومعالم وجه خائبة:

-روح على بيتك يا ضياء هتلاقيها قعدة مستنياك زي ما سبتها.

وقفتُ ومسدتُ عيني بأطراف إصبعي بقوة وأنا أخبرها بصوتٍ هارب وعدم قدرة على تحمل تلك الهواجس بمفردي:

-مش في البيت.

زوتْ ما بين حاجبيها وتساءلت بعينين حذرتين:

-يعني إيه مش في البيت؟!

-يعني مش موجودة في البيت.

عدتها بتأكيد وأنا أذهب هاربًا للبحث عنها وعقلي عاجز عن إيجاد أي احتمالات، فأوقفتني وهي تمسك ذراعي بوجه شَحُب وشى لي بصدق جهلها لمكان ابنتها المختبئة مني:



-استنى.. هتصل بيها أنا أشوفها فين، أكيد مش هترد عليك بعد اللي هببته.

-تليفونها مغلق.

أخبرتها وأنا أهز رأسي بآلية يائسة ثم ذهبتُ في نية رحيل أوقفتها من جديد وهي تسألني بهلع:

-يعني إيه مغلق؟!

-ماعرفش.

-يعني إيه ماتعرفش!.. بنتي فين؟!

صرختْ بها بخوف ضاعف من خوفي، فأمسكتُ يدها أطمئنها بوعد أشك الآن إن كنتُ سأقدر على الوفاء به حقًا أم لا:

-هلاقيها واطمنك.



وخرجتُ على الفور غير قادرًا على الصمود أمامها أكثر وعدتُ للبيت من جديد على أمل عودتها، لكنه تبخر عند رؤيتي للبيت على ذات الهيئة التي تركته عليها، وصار كابوسًا عندما أعدتُ البحث وقابلتني نفس نتيجة الفراغ!

جلستُ على الأريكة بقلبٍ يرتجف وعقلاً يحاول حصر الأماكن أو الأشخاص الذي من المحتمل أن تكن عندهم ولم أهتدي لشيء! فـ"براء" دومًا ما كانت بارعة في التعرف على الجميع وعدم التقرب أو تفضيل أحد!

أحطتُ رأسي بكفي وأخذتُ أضغط عليها بعنفٍ محاولاً تذكر أي شيء أو أي أحد ولم أجد!

قمتُ وأنا أتحرك في الغرفة كليث حبيس مكبل يتأجج في صدره شعور الخوف والغضب والمهانة وممنوع عليه حق الصراح، وبقيتُ أدور هكذا حتى أنار في عقلي احتمالٌ تمنيتُ حدوثه..



أخذتُ الهاتف واتصلتُ بالروضة التي كانت تعمل بها -متغافلاً عن إظهار كرامة مهدرة لزوج لا يعلم أين زوجته- وأنا أسألهم إذا كانت قد ذهبتْ اليوم، وداخلي يبتهل أن تكون قد عادت للعمل بالفعل وتأخرتْ في الرحيل اليوم وقد فرغ شحن هاتفها وينتهي كل هذا الخوف وليبقى الغضب فهو الأهون.. ولكن أمنيتي ذرتها رياح كلماتهم وهم يخبروني بأنها لم تأتِ منذ حادث الصغير!

وعندها بدأ هلع أن ربما يكون قد أصابها مكروهًا وذهبتْ بمفردها طلبًا للنجدة يحكم حول رقبتي طوقه وبدأ في خنق أنفاسي؛ فحاولتُ الفرار منه وأنا أتصل بأبي أتأكد من مهاتفته اليومية لها واطمئنانه أنها كانت بخير صباحًا كما أخبرني؛ فأكد لي أنها كانت بخير حال!

أغلقتُ معه الهاتف وألف شعور ينهشوني، أهونهم الغضب وأقساهم الخوف، لم أستطع الجلوس أكثر فخرجتُ أبحث عنها



في الشوارع لساعات كمتسول ويداي لم تتوقف عن الاتصال بها للحظة رغم تلقي ذات الإجابة، ولم تنقطع اتصالات أمها وسؤالها القلق إن كنتُ قد وجدتها أم لا وزاد هذا من توتري وخوفي؛ حتى توقفتُ عن الرد عليها يائسًا. وعندما استسلمتُ للعودة وقد قاربتْ الساعة على الوصول للعاشرة مساءً؛ عاد الأمل في إيجادها بالمنزل يزدهر داخلي من جديد، وبعدم تحمل الانتظار حتى الصعود والتأكد بنفسي سألتُ حارس العقار إن كان قد رآها اليوم ليجيب بعدم رؤيته لها منذ أن غادرتْ مبكرًا في الصباح.

ووقتها قفز هاجسان فجأة لروحي وأحالوها لفتاتٍ وأنا أصعد بجسدٍ منهك للبيت الفارغ، ثم جلستُ مستسلمًا على مقعد بجوار الباب المغلق.. مُنحني الجزع للأمام، مشبك الكفيين، لا أقدر على التجرؤ بإصدار رفة جفن وقد استسلمتُ كليّا لهذين الهاجسين!



فإما قد أصابها مكروهًا بالخارج ويجب عليَّ إبلاغ الشرطة قبل أن أفقدها وأفقد نفسي معها للأبد، أو أنها ذهبتْ له ويجب عليَّ إعلان الهزيمة المخزية صراحة هذه المرة، والاعتراف أني قد فقدتُ نفسي بالفعل للأبد.

ظل الوقت يمر بطيئًا حتى وصل للعاشرة والنصف، وظلتْ تلك الأفكار تحوم وتدور حتى شعرت وكأن بداخلي إعصار مميت.. لم يكن إعصار غضب، بل إعصار قهرٍ وعجز..

عجزٍ مرير وقهرٍ قاسٍ ظلوا ينخروا في روحي نخرًا حتى شعرتُ بفجوة ضخمة فيها لن يقدر على رَتْقِها أحدٍ سواها!

إعصار دواره جرف كل سلام عشته في يوم، ظل دواره يمزقني إربًا وصفيره الحاد يفجرني لأشلاء!

إعصار تبخر واختفى في لحظة عند سماع صوت فتح الباب الذي تلاه دلوفها!



حركتُ رأسي ببطء تجاه الباب لأواجهها أخيرًا بعد دقيقة أو يزيد ظللنا فيها ثابتين على حالنا دون حركة واحدة من أيٍّ منا..

وبنظرة متأنية بطيئة من أخمص قدميها صعودًا لوجهها هادئ التعابير وعينيها مغلقة الانفعال تأكدتُ فيها أنها بخير، وأن جحيم الساعات الماضية كان مخططًا له ولم يكن وليد الصدفة.. فتراقصتْ الشياطين في صدري وانتابتني رغبة عارمة للمرة الأولى في حياتي في صفعها مرارًا، وظللتُ أحاول قمع تلك الرغبة بعنفٍ وأنا أقبض على كفَي بجانبي لأمنعهما من الانفلات بمعجزة لا أعلم صدقًا من أين أتيتُ بها تلك اللحظة!

واستمر الصمت لا يقطعه سوى صوت دقات عقارب الثواني التي طالت وكل منا يتطلع في الآخر حاجبًا عنه اشتعاله الخاص، وتشاركتْ عيوننا وعد اندلاع حريق مضطرم قريبًا لن يسلم منه أحدٌ منا!



بدأته أنا وأنا أقوم وأقترب منها بخطواتٍ بطيئة، ورغبة ضربها تزداد أكثر مع كل خطوة أقترِبها منها حتى وقفتُ أمامها.. وعاد الصمت من جديد لا يقطعه إلا صوت عقارب الساعة وهي تذكرني بالساعات الماضية التي كنتُ فيها على وشك الموت رعبًا وعجزًا وكانت هي تستمتع بذلك بل وتتمادى في استمتاعها بتأخيرها أكثر وزيادة خوفي أكثر وأكثر!

اكتفيتُ من الصمت؛ وبهدوء شديد كقشرة مغطى بها فوهة بركان، وبصوتٍ هامس خرج متحشرجًا لا أدري لماذا.. سألتها:

-كنت فين؟

لم ترد.. مر كثير من الوقت وهي تنظر لي بصمتٍ ونظرة غريبة على عينيها تحتلهما، ولم أهتم أو أنشغل في تلك اللحظة بمحاولة تحليل تلك النظرة أو فهم ما ورائها؛ فقد كان اشتعالي الخاص أكثر من كافي لتجاهل كل شيء وإعادة السؤال بصيغة محذرة



بصدقٍ لم تؤثر فيها؛ فأوفيتُ بوعدي وأنا أنفجر وأفجر أخيرًا الحريق الذي يُصليني منذ الصبح.

*



براء

كان الأمر خارج عن سيطرتي واحتمالي.. فلم أستطع الجلوس وانتظار عودته المزيلة بكلماته اللطيفة العاشقة وأتجرع أنا الألم بمفردي!

لم أستطع انتظار بضع كلمات تؤكد على استمرار وجوده بجواري، وبأنه لن يستطيع فك لعنتي لأُسكِت بها هواجسي التي تتغذى على روحي يوميًا كوحوشٍ لا تكتفي!

لم أستطع سوى الغياب وتركه لساعاتٍ معدودة في جحيمٍ أشعله وتركني أصرخ من كويّه لأيامٍ طالت.

لم أستطع سوى مشاركته احتراقي بغيابه الذي أحالني رمادًا؛ ليعلم كم هو مدمر جحيم الغياب.

وعن الغيرة!



فتلك لم أفعل فيها شيء بل تركتها لجحيم هواجسه، وأعلم أن تلك الهواجس لم تتوانَ في مساعدتي لحظة.

تلك الغيرة التي بتُ أعلم كم أن نيراها قاتلة لا تحتمل في كل لحظة هاجمتني خيالات تنعمه مع أخرى.. وتساءلتُ هل تلك النيران التي تأكلني بلا شفقة وهذا الألم الذي لا يحتمل هو ما يشعر به عندما يتذكر أو يتخيل وجود "مصطفى" حولي؟!

هل إن كان "مصطفى" غاضبًا منا بالفعل فهذه هي النيران التي تهيج في صدره وهو يراني أشارك روحي مع صديق عمره؟!

وهل هذا هو الجحيم التي تقبلته "تيا" وعاشتْ فيه سنوات وسنوات تتحمل أذاه راضية؟!

إن كانت هي بحق فصدقًا كيف تحملوها، وصدقًا كيف صمدوا أمامها كل هذا؟!



أما عن الخوف من ردة فعله فهذا ما لم أشغل بالي به للحظة.. فأنا والخوف بتنا أصدقاء لا ننفصل، وبتُ بارعة في الاستسلام للحظات النهش الدامي وتحمل أنيابه المُمَزِقة قلبي لأشلاء، ثم أتقبل يده الممدودة لي كي أستقيم وأكمل معه المسير من جديد حتى تحن لحظة نهش آخر!

بقيتُ أسترجع ساعات ألمي طوال الأسبوعيين الماضيين وأنا أتأمل صفحة النيل الهادئ من جلستي التي ظلتْ ثابته على ذات الوضع منذ الصباح حتى حل الليل.

وعندما تأخر الوقت ولم يبقى خيار غير الاكتفاء والرجوع..

وعندما رجعت أخيرًا ودخلتُ بهدوء مناقض لبراكين داخلي ورأيته جالس بانهزام وإنهاك على مقعد قريب..



وعندما نظر لي ببطء بعينيه المتشعبة في حمرة مرعبة وكأن كؤوس من دماء صُبتْ فيهما حتى أغرقتها فحكَتْ لي عن أي جحيم قد عاناه الساعات الماضية..

تألمتُ.

تألمت لمرآة على هذا الوضع الذي هو من صنع يدي، وتألمتُ من اشتياقي له الذي أخذ يعلو ويعلو كموج بحر غير مستقر، وتألمتُ من خوفي من معايشة ما عشته سابقًا من جديد!

وتألمتُ لنظرة عينيه!

نظرة مخيفة، خطرة، تتقافز منها حمم براكين منفجرة.. نظرة لم ترتسم أبدًا على مقلتيه من قبل، ورغم أنها كانت مخيفة إلا أنني لم أخشاه!



داخلي حارب هذه النظرة مطمئنًا بيقينٍ غريب أنه لن يتحمل أن يؤذيني قصدًا وإن فعلها بالفعل بغير عمد.

وعندما قام وتحرك تجاهي ببطءٍ حتى توقف أخيرًا لم أستطع منع عيني من تحرير نظرة اشتياق قاتل ولوم مؤلم!

لكنه يبدو أنه لم يلتقطهما على كل حال وهو ويسأل بهدوء مستنزَف ونبرة متحشرجة مريرة:

-كنت فين؟!

لم أرد.. وبقيتُ متمسكة بالصمت بعدما تبخر كل ما كنتُ أنوي قوله له وقد سكن داخلي كل شيء بهدوءٍ مريب كهدوء الصحاري الخانق رغم ما يموج في بواطنها من حكايات!



رفع قبضة يده وهو يضغط عليها بعنفٍ فبرزتْ عروقه النافرة بوضوح وهو يحركها ببطء أمامه، وقد أغمض عينيه وشهدتُ ضغطة على فكه بعنفٍ وهو يحذر ويعيد ويتوعد:

-براء.. وحياتك عندي أنا ماسك نفسي إني اتحول لحيوان وارزعك علقة أعجنك فيها دلوقتي بمعجزة.. كنت فين؟

كان يعاني وكنتُ أعلم وأشعر وداخلي يستصرخ سماحي لتناسي كل شيء واحتواء وجهه بكفي والاعتذار ومن ثم احتضانه وإنهاء الوضع ها هنا.. ورغم حاجتي الماسة لذلك ولكن الألم والخوف والغضب كانوا أضخم من محاولة تجاهلهم..

فرُميتُ في دوامة حائرة بين تناسي وانفجار أخرجني منها صرخته المدوية وكفه الذي أطاح بمزهرية قريبة:

-كنت فين؟!



وصرخته بهذا السؤال اشعلتْ النيران التي ظلت تنهشني طوال أسبوعين بلا رحمة تباعًا حتى اندلعتْ حرائقهما داخلي من جديد، وهذا تحديدًا ما كنتُ أنشده الآن.. انفجار ألمي أنا الأخرى بدلاً من الاستسلام لراحة قربه المنقوص.

اقتربتُ منه أكثر أسأله ببرود ظاهري وأنا ممسكة على دمعاتٍ وخزت عيني فجأة بقبضة من جليد:

-إيه!.. مالك؟!.. كل ده من يوم!

ضحكة مريرة خافتة خرجتْ مني وتقطعتْ، ثم رجعتُ الخطوة التي تقدمتها وأنا أصحح بدموعٍ سالتْ رغمًا عني:

-لا يوم إيه.. كل ده من كام ساعة!.. كام ساعة بس يا ضياء وعملوا فيك كل ده!



أخذتْ أنفاسي في العلو وأنا أسأله بلومٍ صادق بدأ هادئًا وعلتْ وتيرته حتى الصراخ:

-يوم واحد دُقت فيه جزء من النار اللي قعدتني فيها أسبوعين.. أسبوعين كاملين وأنت مش عايش غير معاها، ناسيني ولا كأني موجودة وماكلفتش خاطرك حتى بمكالمة تليفون واحدة تقول لما أشوف الحيوانة اللي أنا متجوزها دي عاملة إيه من غيري!

قطع صرخات ألمي ومسك معصمي يعتصره بغضبٍ مؤلم وظل يهزني صارخًا:

-يوم!.. يوم!.. لا وحياتك ده سنين.. سنين يا براء وأنا عايش في اللي بتحكي عليه ده بس أنت اللي عامية ومابتحسيش.

وتمسك بمعصمي الآخر وعيونه تضاعف جنونها وخطورتها:



-أنت بقا اللي إيه؟!.. معقول اتوجعتي من أسبوعين بس!.. عملتي كل ده من أسبوعين بس!.. ماستحملتيش وجع كرامتك أسبوعين بس وأنا اللي مستحمله سنين عشانك!

كلماته كانتْ صك تأكيد لهواجسي فنفضتُ قبضتيه من على ذراعي وأنا أصرخ وقد انفلتْ لجام جنوني وخوفي وظلا يجمحا في صدري:

-آه، وأنت بقا قررت تنتقم مني، مش كدة؟!.. انتقم منها واعذبها الأول بعدين ارميها في نص الطريق لوحدها واروح أكمل حياتي مع اللي عرفت تخرجني من لعنتها، مش كدة؟!.. هو ده اللي أنت عاوزه؟!.. تعذبني.. صح!

عدتُ له وأنا أضرب صدره بحدة عنيفة أرتد لها للخلف:



-رد عليَّ.. بتنتقم مني كدة؟!.. عاوز تعيشني رعب وأنا بسأل نفسي كل لحظة هتسيبني امتى عشان تعذبني أكتر مش كدة؟!.. صح يا ضياء، مش ده اللي أنت عاوزه؟

-لا مش صح.. مش كدة عشان أنا مش زيك. مش كدة يا براء.. مش كدة.

-كداب، أنت كداب.. أنت عاوز تعذبني وتنتقم مني.. مش كدا؟!.. صح، صح؟!

ظللتُ أكررها وأكررها، وظل ينفيها وينفيها، وقُطع هذياننا في لحظة تلاقي تبعها إعصار امتزاجٍ كان يحمل عنوان الغضب والخوف والألم.. كنت خائفة حد اللوثة وكان مُتألمًا حد الجنون، وتشاطرنا في الغضب سويًا.

تشبثتُ به بخوفٍ من هروبه، وكان يذوب داخلي بإنهاك متعَب.



حاول قمع وسواسه المعذب بالتغلغل داخلي وتشربي له، وحاولتُ محو أي أثرٍ لها من على ذراته علّها تختفي بهذا الشكل ويعود كل شيء كما كان من جديد. حتى انتهى الجنون وتبعه الغضب، وحل الصمت وهو يسكنني صدره بتملك ويحبسني بين ذراعيه جبرًا، وعندما حاولتُ الابتعاد عنه أعادني وأحكم حولي طوق يديه أكثر، فسلمتُ مرحبة بعودتي لمسكني الغائب.

-روحتي له؟

قالها بعد برهة صمت واستشعرتُ برودة وتصلب يده الساكنة على كتفي، ثم نكس رأسه ونظر لي بفراغ:

-اتأسفتي له على خيانتك ليه معايا ولا اشتكيتي له إن الندل اللي أنت ضحيتي عشانه بذكرياتك اتجوز عليك؟

تألمتُ واستسلمتُ مكتفية وأردتُ النفي.. بكل كياني أردتُ النفي ونفض تلك النظرة الميتة والنبرة المنهزمة عنه وحاولتُ..



حاولتُ إخباره أني لم أستطع فعلها، بل ولم أفكر بها من الأساس سوى متأخرًا للغاية ولم أستطع فعلها أو حتى أحاول!

حاولتُ الكلام ولكن لساني عُقد وكأن أصابه الخرس ففرتْ منه المفردات!

اعتدلتُ واستندتُ على كتفه بمرفقي وأنا أنظر إليه وأنكرتُ بكليتي صادقة علّه يلتقط فيهما الكلمات ما عُقد لساني لسببٍ مجهول عن لفظها، لكنه لم ينتبه لهم ولم يقرأهم!

وكأن كل منا بات يتحدث بلغة لم تلتقِ يومًا بالأخرى، وأعاد السؤال بخفوتٍ حذر وألم أكبر وعيون مترقبة:

-روحتي له يا براء؟

جثمتْ على صدري غصة حاولتُ طردها والصراخ بالنفي وابتهلتُ تصديقه بعدها.. حاولتُ وحاولتُ من جديد.. وفشلتُ.



وكان عاقبة فشلي إزاحة مكتفية غير متحملة وجودي على صدره وكأن لدغته عقارب سامة ففر مبتعدًا..

وما التقطته في عينيه في تلك اللحظة أرعبني أن أكون قد أصبتُ في قرآتي لمفرداتها التي رجعتْ تتحدث بلغة أفهمها كي تطعنني بقهر معانيها!

تضخمتْ الغصة وابتلعتني واختنقتُ الأنفاس في صدري،د وتمنيتُ صدقًا وقتها بأن أكون قد فشلتُ في قرآة ألم روحه في عينيه أو أكون قد توهمتُ فهمها.. وإلا هنيئًا لروحي الخلود في هذا الجحيم!

*



ضياء

غضبها كان عظيم وغضبي كان أعظم.. ولكن إنهاكي وقوتي المستنزفة كان لها الغلبة واليد العليّا عن الجميع.. فلم أستطع حتى الانتقام بالتصديق على هذيانها.. لم أستطع أو لم أتحمل!

كما لم أتحمل ألمي الذي يفور داخلي لحدٍ غير مسبوقٍ من قبل!

ألم حاولتُ تسكينه بقربها ولكنه اشتعل أكثر!

وحاولتُ تهدئته بتشبثي بها ولكنه طعنني أكثر!

وحاولتُ إنهائي أنا وأنا أعيد السؤال الذي يحرقني في تلك اللحظة علّي أنتهي به أو ينتهي هذا الألم!

كنتُ أتوسل منها رحمة الراحة بالنفي وإن كان كذبًا، أو رحمة الموت بالتصديق وإن كان انتقامًا.. ولكنها لم ترحم ولم تجب!



بل ظلتْ صامتة وعيونها تحكي كلماتٍ لم أستطع ترجمتها!

فأبعدتها عني غير محتملاً لوجودها أكثر وكأن جسدها أصبح ككرات لهب تحرق مسامي؛ وقمتُ غير قادرًا على تحمل قربها أكثر للحظة واحدة!

ولحظتها فقط كرهتُ هذا العشق الذي يُذيقني كل يوم ويلٌ جديد!

لحظتها فقط تمنيتُ أن أشق صدري بمشرط ثلم بلا تخدير، وأخرج قلبي الرجيم وأرمي به في أعماق الصحاري ليذيق أبشع ميتة جراء جرم تتيمه بها!

وقتها فقط تمنيتُ تمزيق أوردتي وتصفية هذا الدم الفاسد بعشقها!

وقتها فقط وبكل الصدق..



وضعتُ الحروف الأخيرة لكل كلمات كرهي لنفسي وحقدي عليها وعلى عشقها الأعمى.



(12)

سهم عشق غافل شطر القلوب نصفين!

**

وقالت سوف تنساني.. وتنسى أنني يوما وهبتك نبض وجداني.

وتعشق موجة أخرى.. وتهجر دفء شطآني.

وتجلس مثلما كنا لتسمع بعض ألحاني.. ولا تعنيك أحزاني.

ويسقط كالمنى اسمي.. وسوف يتوه عنواني.

ترى ستقول يا عمري بأنك كنت..

تهواني؟!

-فاروق جويدة.

-في عينيك عنواني.



براء

مرَّت أيام مللتُ عدها والصمت سيد الموقف وبعاده هو الغالب وإن كان لا يبتعد بالفعل إلا عندما يذهب ليتحصن بها؛ يذهب مسرعًا وكأنه محبوسًا فك أسره!

أو هذا ما استشعره!

يذهب منطفئ كالموتى ويعود ساطع كطفل في سنوات عمره الأولى، وكأنها تعيد إحيائه من جديد بترنيمة العشق التي تملكها وتملكته بها محققة بالفعل أفظع كوابيسي!

أما عن روحه فهي دائمًا بعيدة، وكلما شعرتُ بابتعادها وهروبها مني شعرتُ بروحي تنسحب هي الأخرى وكأنها النهاية!



وعواء رأسي يضربني بتساؤل مؤنب غاضب مشتعل بما الذي دهاني عندما ابتهلتْ عيناه إجابة وحذَرت بأننا نقف على مفترف الفراق؟!

ما الذي عقد لساني عن إعلان قبول ابتهلاته وأخرس صوتي عن الصراخ بالنفي، وإن كذَّبه فيما بعد؟!

ما الذي كبلني عن التشبث به وإن حاول الهرب بالفعل بعد؟!

وقفتُ أمام الموقد بعقلٍ شاردٍ وقلبٍ مثقل وأنا أقلب طعام غذائي الذي بتُ أتناوله وحيدة معاقبة بالحرمان من صخب مزاحه ودفء وجوده، وتلك الأسئلة لا تلبث أن تسكتْ ثواني حتى تعود من جديد أشرس مما سبق.

سكبتُ الحساء بآلية ووضعته على منضدة الطعام ثم جلستُ أتناول لقيمات منه بلا رغبة أو شهية وأنا أحاول تذكر منذ متى تشاركنا وجبة سويًا؟!



فمنذ تلك الليلة حتى الطعام يرفض تناوله معي متحججًا دائمًا إما بعدم وجود شهية لديه أو أنه قد تناوله مع والديه قبل قدومه بالفعل، ثم ينصرف مبتعدًا ويتركني وحيدة مع وجوده الباهت؛ فأمتثل مرغمة بقهرٍ لعزوفه عني وأحاول التفكير والبحث عن مخرجٍ من هذا الجحيم ولا أجد سوى حائط سد!

ليبدأ قلبي بعزف أنين خوفه ولا ينتبه له، فيبكى ولا يلتفتْ له، ويصرخ ولا يعبأ به، فيعود يئن يائسًا وينزوي وحيدًا وهو ينتفض خوفًا وألمًا واشتياقًا.. ولم يرأف أو يهتم!

ووقتها أيقنتُ أني فقدته كليًّا!

ورغم اليأس والهلع أصرّيتُ على التشبث بقشة وجوده وحاولتُ التحدث مرارًا معتذرة؛ وفشلتُ، ولم يبدِ هو أي اهتمام أو تقبل أو حتى رغبة في الاستماع من الأساس.



وعند النوم وبعدما كان كتفه وسادتي الآمنة وأحضانه غطائي الدافئ، أصبح يرفض حتى النظر لي وينام موليًا ظهره لي بعقابٍ هو أقسى من ابتعاده وتركه الغرفة كما فعل سابقًا، أو حتى تركه البيت بأكمله والنوم في أحضان أخرى كما بات يفعل دائمًا! فنيران النوم وحيدة وهو بعيد إن كان عقابًا أو انتقامًا أرحم آلاف المرات من جليد النوم بجواره وهو يضن عليّ بدفء ذراعيه!

وربما لولا تلك الاستجابة الطفيفة بتمسك ومبادلة احتصان التي يجود بها لا وعيه الذي يتحرر وهو نائم عندما أديره ناحيتي وأختبئ في أحضانه لاجئة عندما أتأكد من نومه، لكنتُ انهرتُ وانهارتْ قوتي كاملة بالفعل وكانت نهايتي الكاملة.

وقتها جربتُ شعورًا جديدًا يدعى الاحتضار بلا وفاة، الموت ببطء أثناء الحياة، سكرات النهاية المستمرة التي لا ترحم بنهاية حقيقية باترة!



احتضار صرت لا أتحمل العيش معه وفيه أكثر من هذا.

قمتُ من مقعدي بلا تحمل وتركتُ الحساء البارد الذي لم يُمس وقررتُ فعل ما فكرتُ في فعله منذ فترة وربما تأخرتُ عنه كثيرًا بالفعل.. سأذهب لها.

سأذهب وأحاول منعها عن محاولة دفعه لإقصائي كما مُنعتُ من محاولة رفض دخولها.

سأذهب لها وأقاتل في جبهة بعيدة ما دامتْ أسلحتي ترفض الانصياع لي وتعلن العصيان أمام جبهته الأقرب والأأمن، وكأنها أضحتْ تقاتل ضدي لا معي!

سأذهب لها في مساومة عادلة.

سأذهب لها في طلب صريح بارتضائها لوجودي كطرف مؤذٍ في حكاية عشقها كما ارتضيتُ أنا بها كطرف مرعب في حكاية نجاتي.



سأذهب محاولة نيل إمضائها على معاهدة سلام كاذب مادُمتُ صرتُ الطرف الأضعف والأكثر هزلاً كما توقعتُ وارتعبتُ!

سأذهب لها، وفليذهب كبريائي الكسير أمامها للجحيم.

**



قريبٌ كروحٍ تزمل روحي..

بعيدٌ كنجم بعيد المنال!

علقت بنصفٍ!

فما بين قلبي وعقلي صراعٌ كشد الحبال!

تعب، تعبت..

تعبت كثيرًا ولست أنال من الحب إلا..

طعون السؤال!

-ربا أبو طوق.

-لماذ تغار.



تيا

"الأيام تمر وتهب الاعتياد، ولكن بشرط التغافل عن بعض المنغصات".. كنتُ أعرف هذا ولكني أدركته مؤخرًا بأقسى الطرق.

لم أعتَد ولم أتقبل ولكني أحاول التأقلم، وربما بالفعل تعلمتُ بعضه!

ولكن التأقلم أبدًا لا يأتي منفردًا بل يجر ورائه غصة لا سبيل لتجاوزها أو تجاهلها.. بل يجبرنا إجبارًا على الاعتياد على وخزاتها المستمرة!

ذلك الوخز الذي بتُ أتعايش معه مرغمة عندما يتركني ويذهب لزوجته الثانية.. أو زوجته الأولى إذا شئتُ الدقة والألم!

فعندما تنقشع غيمة السعادة المؤقتة ويزول من محيطي أثره؛ فيعم الصمت الخانق والوحدة من جديد، أحاول مهادنة الألم



الغاضب داخلي بتذكيري أن ما أنا عليه الآن ليس بجديد، وأنه لم يكن سوى نمط حياتي الدائم فيما مضى ولكن رأفة القدر منحتني نصف فرجة من نافذة الأمنيات للتنفس قليلاً!

نصف فرجة تغلقها من جديد لتعيدني لما كنت عليه قبلاً وهي تنذرني بألا أطمع في أكثر من هذا، وأنسى وهم نيل الأمنية الكاملة بالتحليق أو استمرار دخول الهواء المنعش إلى زنزانة عالمي الصغير!

فأرنو للقبول مرغمة وأعود منتظرة مرور الأيام لتنفتح فرجة التنفس مرة أخرى.. وكأني بتُ اثنتين؛ واحدة نالتْ حلم الحياة الهانئة التي تمنتها منذ زمن، وأخرى لازالتْ حبيسة زنزانة وحدتها الأبدية كنصف زوجة!

ربما تأقلمتُ غصبًا على هذا نعم، ولكني لم أستطع التأقلم بعد على نظرة من حولي لي كزوجة ثانية اختطفتْ زوج أخرى!



لم أستطع بعد اعتياد تلك النظرة الهازئة في عيون البعض، والمحتقرة في عيون آخرين؛ وكأنني مجرمة بحق!

حاولتُ وحاولتُ ولم أنجح بعد، حتى كاد أن يتأثر أدائي في العمل، أو تأثر بالفعل ولكن لم ينتبه أحد لهذا سواي إلى الآن، فعادتْ فكرة تركي للعمل في تلك الشركة تطرق أفكاري بقوةٍ أكبر من ذي سبق!

لذا قررتُ أخذ هدنة من هذا الضغط العصبي للتفكير بروية. أخذتُ هذا الأسبوع كاملاً أجازة كي أخفف من توتري وقررتُ التفرغ اليوم لإعداد كافة أنواع المخبوزات التي أعشقها خاصة "المناقيش" التي طلبها هو خصيصًا؛ فصنعتُ منها الكثير والكثير. وضعتُ الصاج الأول بالفرن وأشعلته ثم سرحتُ داخله مفكرة، ولم يلبث عقلي في التفكير للحظة إلا وأيد قراري بالرحيل ولم يجد هو الآخر سواه مخرجًا.



فإن كنتُ قبلاً سأهرب منها بسبب عشق لا سبيل لنيله: رحمة بقلبي المذبوح برؤيته بلا حق في نيل قربه.. فالآن سأهرب منها بعدما نلت نصف ذاك العشق: رأفة بكرامتي المطعونة بالكلمات والهمسات المسمومة والنظرات السافرة، والتي تصورني كحية مغوية عادتْ من سفرها هاربة من شبح العنوسة وصادتْ الزوج المسكين بعدما فشلتْ في غواية غيره!

شعرتُ بسكين ثلم ينحرني ببطء واستشعرتُ دفء دماء كبريائي المراق على أروقة روحي كأضحية رخيصة فداءً لقلبي السقيم بالعشق!

أبعدتُ تلك الأفكار عن رأسي وعدتُ لخبز مجموعة جديدة محاولة أن أمنع خبث حزنها من التسلل لمخبوزاتي الحبيبة فتفسدها؛ فقد أخبرتني أمي قديمًا بأن العجين يستشعر اليد



التي تصنعه وتنتقل له روحها قبل النضج لذا لا يجب أن يصنع إلا بالحب.

ابتسمتُ بحنينٍ واشتياقٍ قاسي لها، وقاطع عملي وأفكاري صوت جرس الباب يدق طويلاً بإصرارٍ عجيب!

ذهبتُ أفتحه وقد تسلل الارتياب لي؛ فمن سيدق على باب بيتي المحروم من الزوار إلا "رحمة" وقد سافرتْ أمس لولديها، أو حارس العقار وصار لي زمن لم أطلب منه شيء أو أتعامل معه مباشرة موكلة تلك المهنة لـ"ضيا" الذي تولاها مشكورًا.

وحتى "ضيا" لا يدق الجرس قبل الدخول، ولم يخبرني أنه نسى المفاتيح حتى، كما بقا بعض الوقت على موعد رجوعه!

فتحتُ الباب بلا ارتياح وتسمرتُ أمامي بصدمة عندما وقعتْ عيناي على الزائر وقد علمتُ سبب عدم ارتياحي!



فالآن يقف على عتبة داري أكثر الأشخاص غير المرحب بهم في أكثر التوقيتات خطأً وضغطًا!

وكأنني عندما حاولتُ الفرار من عار لم أرتكبه كان يجري ورائي في عيون الناس واختبأتُ منه ومنهم داخل واحتي الآمنة.. أصرّ على حصاري ووقف أمام باب بيتي مصممًا على الطعن!

بقينا واقفتين أمام بعضنا طويلاً يكتنفنا الصمت، ثم قطعتْ صمتنا بصوتها الهادئ بلا أي تعبير يشي لي عن سبب حضورها:

-مش هتقولي لي اتفضلي يا تيا؟

بقيتُ واقفة مكاني للحظاتٍ بلا حركة أو أي استجابة، وقد شعرتُ أن جسدي تخشب ولا قدرة لي على التحكم به، ثم بعد ثوانٍ أجبرته على الحركة وابتعدتُ صامتة عن الباب، ثم توقفتُ عند منتصف الصالة وربّعتُ يدي أمام صدري منتظرة دخولها بلا رضا.



دخلتْ هي بخطى ثابتة هادئة بعد ثوانٍ قليلة ووقفتْ أمامي على بعد خطوات كثيرة وعاد الصمت من جديد.. ومن جديد قطعته هي بذات الهدوء المريب المستفز:

-أنا عارفة إنك مش مرحبة بوجودي بس..

لم أعطها فرصة لتكملة مقدمتها الباهتة وأنا أقاطعها مصححة:

-لا، أنا مش بس مش مرحبة بوجودك.. أنا الحقيقة مش عاوزة اشوفك أصلاً يا براء. أبدًا.. مش عاوزة اشوفك أبدًا.

نبرتي هادئة وداخلي يشتعل، كلماتي ترفض وجودها وعيناي تطوف على وجهها بتأملٍ نهم كغريم يقيس مدى صلابة وتطور غريمه..

وجهها لم يتأثر بغدر السنون، ولكن عيناها شاختْ، بهتتْ، وربما ماتتْ!



كلماتها ثابتة محفوظة لكن روحها المطلوبة لم تطئها أبدًا فبانتْ كذباتها بوضوح قبل حتى أن تنطق بهم!

كانت ثابتة تداري احتضارٍ وقف يصلي ويرفع دعائه بالرحمة جليًّا في مقلتيها!

احتضار لم أفهم أسبابه ولا أعرف هل ظل مستمرًا معها منذ آخر مرة رأيته فيها في عذاء "مصطفى" عندما كانت كالطفلة التائهة الخائفة حتى من إصدار أنين البكاء، أم أنه حديث العهد بعد فقدان الحصرية لرجلٍ أصبح مشترك!

هل أثّر زواجه مني عليها بهذا الحد وأنتج هذه النظرة المحتضرة في عينيها، أم أن زواجنا كان هو النتيجة لهذا الاحتضار؟!

-ماكنتش متخيلة تقبليني حلو بس بردو مش كدة.. ده بدل ما تشكريني يا تيا!



باهتة مستخفة بنفسها قبلي قالتها، ولكن مع هذا ضربتني الكلمة في مقتل فرددتها ورائها باستنكار غاضب متألم:

-أشكرك!

-طبعًا تشكريني.

-أشكرك على إيه بقى؟!

كانت كلمات كلٌ منا مصحوبة بشبه بسمة هازئة، كانت في الحقيقة تهزء من صاحبتها قبل أن تهزء من الأخرى، وبعد فترة صمت طالت صرحتُ بهمسٍ مدعية القوة:

-إني قبلت تقسميني في جوزي.

تمثل وتمثيلها رديء وكان داخلها مكشوف تخبطه وعدم اقتناعه وغيمة الألم المُخبأ أمطرت سيولاً في عمق عينيها، ولكني لم أرأف ولم أهتم، بل تجاوبتُ معها مبارزة باستخفاف الكلمات وضحكة



مستهينة لم تخلُ من مرارة حبستها قدر استطاعتي وأنا أصمم على أن تنال صفعة إفاقتها من يد كلماتي طالما هي من أصرَّت برعونة على نثر رذاذ ملح وجودها على جرح لن يكتب له الاندمال:

-وليه بقى ياترى قبلت إني أقاسمك في جوزك يا براء؟!

صمتتْ وطال صمتها وتخبطتْ نظراتها الزائغة المسافرة على كل شيء إلا أنا، حتى أجابتْ بصوتٍ خفيض مرتبك وعينين هاربتين رغم ثبات نظرتهما على عيني في النهاية:

-عشان مالقتش حل غيره ينفع لينا احنا الثلاثة.

وقبل أن تكمل هزل حديث فارغ لا يُحتمل قاطعتها بتصميم رافض وألم رفض استمرار حبسه أكثر ففر متشبثًا بصوتي وكلماتي:



-لا. وماتضحكيش على نفسك، مش عشان حل وينفعنا والكلام ده.. أنت قبلتي أقسمك في جوزك زي ما بتقولي عشان أنت حاسة إنك أساسًا سرقاه مني.. عشان حاسة إن هو أصلاً مش بتاعك؛ فمقدرتيش أصلاً ترفضي ولا جالك عين؛ مش منّة منك يا براء.

كنتُ أكذب أو أخفف من ألم الحقيقة؛ فهي وإن سرقتْ قلبه بالفعل فلم تسرق وعيه أو تسلب عقله، بل هو من تطوع راضيًا بالتشبث بها ومحاصرتها حد الاستسلام وقد كنتُ شاهدة.

ولأن الحب لا ينتشل والوفاء لا يسرق؛ فلم يكن لي من الأساس كي أتندر بسرقته مني!

ولكن الاعتراف بهذا الآن أمامها ورفع راية الهزيمة المخضبة بالألم والذل كان أكبر من احتمالي.

-تيا..



همستْ بها راجية التوقف، وشاطرتها الهمس رافضة إياه، وتساقطتْ دمعة وحيدة مني لم أشعر بها إلا وهي تستقر على حدود شفتي لتزيد بمرارتها مرارة الألم في حلقي:

-وعشان أنت مابتحبيهوش أساسًا يا براء.

ورغم دمعاتها التي تكونتْ واضحة تنذر بالهطول، ورغم شعوري بوخزات مريرة في عيني وشت لي أني على وشك مشاطرتها الكثير من الدمعات وليست واحدة سقطتْ وانتهتْ، لم أتوقف.. بل تقدمتُ منها خطوة محررة يدي ومتخلية عن تخشبي منذ لقائها، وأضفتُ بصوتٍ تضاعفتْ بحته وازدادتْ حشرجته بسبب تلك الدمعات الخائنة الحبيسة:

-يعني لو كان مصطفى الله يرحمه مثلاً مكان ضيا وهو اللي عملها.. كنت سكتي؟!



صمتُ لثانية أخرى لم أنتظر فيها ردها وأنا أعلم أن ذكرى الراحل تهدم كل ما بنته في رأسها من كلماتٍ خائبة، ثم أكملتُ هامسة أجاوب على سؤالي بما أعلمه يقينًا دون مواراة علّها تشعر ببعض مما أشعر أنا به الآن من اختناق:

-كنت دبحتيه قبل حتى ما يفكر.. أنت عملتي كدة عشان عارفة إن ماحدش يستاهل ضيا غيري.. عملتي كدة عشان تكفري عن ذنبك.

هزتْ رأسها بعنف ويبدو أن كلامي قد ألمها بالفعل؛ رمشتْ بعينيها كثيرًا تحاول منع دمعاتها من الانحدار، ثم رفضتْ بشبه صراخ:

-لا، مش عشان ذنب ولا عشانك يا تيا. عشان ضياء.. عشان ضياء وبس.



غامتْ نظرتي وأنا أتلقى منها صرختها المريرة باسم الحبيب، وقد ضُربتْ رأسي بعنف الحقيقة المُرة التي ارتسمتْ عظيمة في عينيها وصرختها، وكنتُ من قبل أنفيها متأملة ومتسلحة بضدها.

أنها أحبته.

"براء" أحبتْ "ضيا"!

الزوجة المطعونة تعشق زوجها الغادر!

ولكنها ما دامتْ أحبته ونال هو أمنية صباه، فما الذي جعله يطرق أبواب قلبي طالبًا اللجوء؟!

ما الذي جعله يحاصرني حتى استسلمتُ؟!

هل كان يعاقبها لتشعر بما تشعر به الآن ويستغلني لنيل قلبها؟!

هل كنتُ اليد التي يضربها بها كي تستفيق من غفلتها ولا ضير من بعض المتعة مع تلك المغفلة، وتجربة اللهو والاستمتاع بهذه



العاشقة الساذجة قبل رميها في أي زاوية مهملة بلا لحظة تفكيرٍ بعد أن تؤدي المطلوب منها؟!

أنقبض صدري بعنف.. اختنقتُ.. سمعتُ صوت انفجار قلبي وتحوله لشظايا.. شهدتُ روحي تتلاشى أمامي وتتلاشى معها أنفاسي.. شعرتُ وكأن الموت يحاصرني والألم ينهش كل موضع داخلي تاركًا لي روحي كشبحٍ باهت فقط لأستشعر الألم كاملاً بلا ذرة نقصان أو لحظة غياب!

ونفتْ بعنف بقايا قلبي العالقة في الحياة مرددة بتصميمٍ واثق أن "ضيا" لا يفعلها.. هو لا يفعلها.

ظللتُ أكررها وأكررها داخلي آلاف المرات علّ هذا الألم يهدأ قليلاً، لكنه لم يهدأ بل ازداد أضعافًا!

ازداد وازداد معه الألم لحد لم يسبق أن تألمته من قبل طوال حياتي!



ألم واختناق لا يُحتملوا!

صدقًا لم أتحملهم بالفعل فتوجهتُ لها بعدما طال صمتي وأنا أشاركها قليلاً منهم؛ أطعنها قصدًا بنظرات مصممة:

-طالما عشان ضيا يبقى اعترفي يا براء.

زوت حاجبيها متسائلة فأكملتُ أرد لها الألم بألم والخوف بالخوف:

-اعترفي إن ضيا خسارة فيكي وطبيعي مصيره في يوم يفوق ويعرف كدة كويس فيبعد.

شحب وجهها بشدة هذه المرة وبان أن الطعنة كانت في موضعها المثالي؛ فذرفتْ مستسلمة دمعاتٍ ثقيلة كانت تكتمها منذ مدة وكأنها قد.. هُزمتْ!



وصحوتُ أنا من سكرة المرارة التي أغرقتني فيها بحديثها على منظر وجهها الملتاع والذي فرتْ منه الدماء ودمعاتها السائلة؛ فنهرني قلبي بحدة، وعنفني عقلي صائحًا بعدما عاد من غفلته بأن "ضيا" بالفعل لا يفعل ذاك الذي شق قلبي وروحي نصفين وأوداني الجحيم في لحظة واحدة.

وبأنها حتى وإن كانت قد أتت بقدميها لتستعرض تفوقها وفضلها فهي ومع ذلك لا تستحق هذه القسوة وأنا أعرف هذا جيدًا!

دافعتُ عن نفسي بداخلي في تلك المحاكمة الفورية التي نصبها لي قلبي وعقلي وكانت فوق احتمالي في هذه اللحظة صدقًا بأنني لا أحب بأن آلم أحد، ولكن كلماتها نزلتْ على روحي كالسياط فتحرك لساني بما يؤلمها بالمثل!

أغمضتُ عيني بندمٍ مؤلم ثم زفرتُ زفرة طويلة كتمتها داخلي منذ رأيتها وحاولتُ الاعتذار بصوتٍ باكٍ منهك لكنها قاطعتني:



-براء أنا أسف..

-بعترف يا تيا.. ضياء فعلاً خسارة فيَّ، وحبه كبير عليَّ أوي وماستهلوش. بس آسفة.. أنا مش هضحي أكتر من كدة. ولو راحته وراحتك في إنه يبعد عني ويمحيني من حياته كأني ماكنتش، فآسفة ليك وليه.. مش هبعد. أنا ما أقدرش استغنى عنه ولا اسيبه حتى لو حبك ليه هو خلاصه. ولو خلاصه في بعده عني فآسفة.. أنا أنانية وجاحدة ومش عوزاه يخلص وقابلة بوجعه.. عشان وجعه ده هو هيبقى التمن الوحيد لحياتي كلها.

كانت تصرخ وصرخاتها امتزجتْ بأنينِ مقبض!

كانت تبكي وعيونها فاض منها الدمع وفاضتْ نظرتها بشراسة تشبث غريق بحقه بالحياة!

مسحتْ دمعاتها بعنف بظاهر يديها واقتربتْ خطوة صغيرة وهي تضيف بتصميمٍ أكبر وألمٍ أضخم:



-آسفة يا تيا بس أنا مش جي أرد لك حقك فيه. يمكن آه أنا سرقت منك حبك، يمكن آه أنا عشت بدل منك حلمك.. بس ده ماكتش بمزاجي، عشان أنا كمان اتسرق مني عمري كله وضياء هو الوحيد اللي باقي لي فيه. ضياء هو الوحيد اللي قايمة عليه حياتي كلها وماعنديش أي استعداد إن حياتي تتهد لما يسبني عشان تعب وتعبتي.. أنا كمان تعبت وتعبت أوي، بس مش هقدر انسحب وارضا وابعد؛ عشان وقتها مش هيبقى مجرد تعب دي هتبقى نهايتي وأنا مش عاوزة انتهي.

صمتتْ وتعثرتْ أنفاسها بوضوح، وصمتْ كياني وكأنها قذفتْ بروحي في الخواء!

كأنها سلبتها مني في لحظة غفلة ثم اعتصرتها وسحقتها أسفل أقدام كلماتها المتخمة بالعشق والمحارِبة بضراوة!

-يااااه.. للدرجة دي!..



ومدام بتحبيه أوي كدة خليتيه يبعد عنك ويتجوزني ليه أصلاً؟..

لتكوني ماكتشفتيش حبك العظيم ده غير لما اتجوزني!

قولتُ كلماتي بتساؤل وفضول حقيقيين، ودموعي صارتْ خارج تحكمي فانهالتْ كفيضان وأكملتُ بصوتٍ متحشرج هارب:

-لو كدة قولي له.. قولي له وهو هيختارك من غير لحظة تفكير متخافيش.

قولتها بصدقٍ متألم وأنا أهز رأسي بثقة طاغية أهديها بها أملٍ صادق علّها ترحل وترحمني، وأهديني به الموت المجرد علّه يرحم ويأتي بدلاً منها.

غامتْ نظرتها وأماءتْ بخفة نافية وهي تجيب بصوتٍ يشبه صوتي في حشرجته الهاربة بانهزامٍ واكتفاء:



-مش حب.. حاجة أهم عندي دلوقتي ألف مرة من أي حب. حاجة زي النفس، أو زي الأرض اللي واقفين عليها. وهو مش فاهمها ومش قابلها.. ولا هيفهما ولا هيقبلها.

جملتها الأولى ارتعشتْ بهمٍ وألم، وآخر كلمتان كانتا منهزمتين يائستين، نطقتهما بشفاة مموطة مقلوبة بمرارة وانهزام!

أغمضتْ عينيها وأخذتْ نفسًا عميقًا وكأنها قد اكتفتْ، ثم قطعتْ المسافة بيننا حتى صار الفاصل خطوة واحدة، ونظرتْ لي طويلاً قبل أن تطلق رصاصات الختام:

-أنا جاية هنا النهاردة عشان أطلب منك حاجة واحدة بس.

واقتربتْ الخطوة الفاصلة وفي عينيها رعب مقبض يصرح عن ذاته بهذا الوضوح للمرة الأولى:



-زي ما أنا قبلت إن الباب ده يتفتح وخليتك تدخلي منه وأنا عارفة إنها مغامرة محدش هيطلع منها غيري خسران.. يوم ما ميزانك أنت يميل ماتحوليش تطلعيني من الباب اللي أنا فتحته لك بأيدي.

توقف حديثها وشاهدتها وهي تبتلع غصة مختنقة ثم أكملتْ بهمسٍ راجٍ وعيونها مستمرة في ذرف الدمعات:

-أرجوك.

كانت آخر كلمة قالتها ثم خرجتْ.

أتت إلى عقر داري لتألمني ونجحتْ.. بل نجحتْ بتفوق.

لا لم تؤلمني فحسب بل قتلتني وسلبتْ ثباتي المهلهل الذي حاربتُ لنيله، ورحلتْ.



رحلتْ وتركتْ بصمة نصرها وانهزامي في كل ركن في المكان الوحيد الذي يمثل لي الأمان في العالم!

تركتْ صراخها، ورجائها، ورعبها وتحذيرها.

تركتهم جميعًا عالقين في الجدران والنوافذ والأرضيات وحتى الأسقف لم تسلم منها فطالها أثرها!

فكيف لي أن أعود لأستند واقفة على الأرض الوحيدة التي كنتُ ألتمس منها القوة بعدما نلتُ كل تلك الطعنات المتتابعة عليها وشهدتْ على أفظع انهزاماتي!

حتى مأمني الوحيد سلبته!

حولته حطامًا بكلماتها!

وكأنها تنتقم بأنني زعزعتُ أمانها فقررتْ هي الأخرى أن تهدم أماني فوق رأسي بذكرى حفرتها ولن يقدر على ردمها الزمان!



ذهبتُ بكتفين منحنتين وخطوات بطيئة وارتميتُ على إحدى الأرائك بانهزامْ وأنا أعترف بأني نلتُ صفعة مدوية هذه المرة؛ فهي تحبه وهو يعشقها وأنا الطرف الزائد وإن كنتُ متيمة به!

سقطتْ كل ركائزي فوق رأسي في لحظة، فقد كنتُ أحارب متسلحة بعتاد اليقين من أنها لا تحبه كما يحبها هو، وأعرف وأعترف أنه لا يحبني كما أحبه أنا، وأن جميعنا نقع في ذات النقطة على خط سباق.. ولكني كنتُ واهمة!

هي حقًا تحبه وربما أيضًا.. تعشقه!

نعم ليس كمقدار عشقي، ولكنها تعشقه!

حتى وإن راوغتْ ورفضتْ الوصف فهي غارقة لأنفها في المضمون!

تعشقه كطفلة متشبثة بجلباب أبيها الذي يبثها الأمان من قبح العالم؛ فتستطيع أن تنشر شقاوة روحها القديمة باطمئنان!



تذبل إن ابتعد كما الآن وأوقن أنها تتفتح بقربه!

تستغنى عن كافة امتيازات الحب مقابل بقائه فقط وهذا يكفيها!

وما تتوق لتقنعه به على ما يبدو، وهذا تحديدًا ما لا يرضيه!

وهو.. هو يعشقها بانبهارٍ كالنجم البعيد، أو ربما كالشمس كما انزلق لسانه أمامي ووصفها ذات مرة قديمًا!

لا يقبل بغير أن يستأثر بضوئها له وحده حتى وإن احترق به!

يعشقها بكل ما أوتي الرجل من عشق ورغبة وحمائية وأنانية وغيرة!

ولا مجال لحل وسط في عشقه؛ فإما هو ومن بعده الطوفان، وإما فليبتلعهما هذا الطوفان!

وهذا ما يحترق ليغمرها فيه معه فتبادله إياه، وهذا بالضبط ما يبدو أنها عاجزة عنه كليًا!



فكلٌّ يعشق ويحب بطريقته!

لا يقدم سوى ما يملك.. ولا يعترف سوى بما يحتاج!

"براء" تعشقه بطعم الأمان المشرق، والحب الهادئ.. ولا تعترف باحتياجٍ سوى فقط وجوده!

و"ضيا" يهيم بها بنكهة صخب العشق وجنونه، ورغبة كاسحة في قنص إحادية النبضة.. ولا يعترف سوى بانصهارها التام فيه والتماهي في ملكوته وحده ولا غيره!

أما أنا!

أنا أعشقه بالكيان والكلية.

أنا أعشقه بالتفصيل والمجمل.

أنا أعشقه بتفرد اللحظة، وحكاية العمر.



أنا أعشقه حد الذوبان في نور عينيه العنبرية، والاشتعال المتراقص لبسمة شفتيه.

أنا أعشقه من صقيع الجليد حتى حُرقة النار.

وأعشقه من السماء للأرض.

أنا أعشقه بالجنون والعقل، بالهدوء والصخب، بالأمان والخطر.

أعشقه كالهبة والابتلاء.

أعشقه بكافة أنواع العشق، وبكل أنواع الاحتياج.

أتقبل مبتهجة كل ما يعطي ببذخ، وأتنازل دامعةً عن كل ما يحرمني بشُح، صامة أذن عشقي عن صراخ قلبي بما يحتاج. ولا يكويني سوى أن تكون أخرى بقلبه متغلغلة بهذا العمق الذي لا يتفوق عليه سوى عمق عشقه في قلبي أنا!

فإن كان حبها له نهرًا، وغرامه لها بحرًا، فهيامي به محيطًا.



وهو!

وبأفضل وأنبل الأوصاف.. يرضي غروره المطعون معي!

يتأمل كيف يكون معشوقًا كما يحب!

يتذوق طعم أن يُغمر بالعشق!

ينتشي كونه الإدمان والمُدمَن!

يأنس بي.. ربما!

أي شيء من هذا القبيل!

أي شيء سوى الحب!

فأنا على ما يبدو له لستُ سوى استراحة محارب!

أرض يلقي عليها أسلحته، يتنفس بعض السلام، ويتلقى شربة من عشق يظن أنه لا يطوله مع أخرى، ثم ينهض من جديد



ليكمل حربه البائسة لحفر بئر من ماء عشق يرضيه على أراضي تلك الأخرى؛ رغم أن بئري هنا لا ينضب!

وكم هذا مؤلم حد الموت.. فأنا لمالك القلب والروح والكيان لستُ سوى الإثبات أنه يستحق الحب!

وهو حقًا يستحق.. لكنه مغفل!

مغفل يجود عليها بما لا تحتاجه، ويعطيني أنا ما لا يرويني!

أتمنى لو تسنح لي فرصة صفع قلبه الأحمق علّه يستفيق من "حَوَله" المريض فيصب كل نبضة منه في مسارها الصحيح!

هذا المسار التي توهمت "براء" تصحيحه أو قربه وعلى هذا أتت لتألمني!

وفي لحظة استرجاع ألمها وطعناتنا المتبادلة ضرب في رأسي سؤال:



ماذا إن توهمتُ معها بأن نظرتها أضحتْ صحيحة، وأن عشقي الغير مزروع في قلبه من الأساس صار له اليد العليا، وإن تناسيتُ عشقه وعشقها وافترضتُ أن القرار فقط يعود لي!

هل أفعلها وأضرب بكل رجائها عرض الحائط ناصرة أنانية العشق!

أم أحكم على قلبي البائس بمؤبد الألم ناصرة عشق الغريمة التي تحتل قلب من احتل كياني!

ألا يكفي قلبي هذا القدر من الألم وسيصبح حقه أن ينال الراحة!

ولكن ترى وقتها هل سيرتاح بالفعل!

فحتى وإن تألم القلب، فلازال جزء منه يعترف ويرأف.. والطامة الكبرى أنه يرفض رغم الأنين!



فما تزوقتُهُ أنا من لوعة االفرا لن أستطيع أن أذيقه لحبيبي بيدي حتى وإن نلتُ التفرد في الحياة، فالقلب لُعن بأخرى وقضي الأمر.. كما أن ما نالته هي من علقم الفقد لن أستطيع أن أغرقها فيه بيدي من جديد بكل ضمير منعدم!

أتمناه نعم، ولكن بقرارٍ خالص منه أو منها وليس بدفعة من يدي، ومن الواضح أن هذا هو المستحيل بعينيه!

فهنيئًا لك "تيا" بأنين ألم الاحتراق منفردة.

سمعتُ صوت المفتاح في المزلاج ينتشلني من طوفان أفكاري التي ابتلعتني ثم فتح الباب ودخل هو. نظر لي بارتياب ولجلستي الساكنة المهزومة وهز رأسه متسائلاً بقلق، فرحبتُ بلا قدرة على رسم بسمة استقباله المشتاقة كما العادة:

-حمد الله على السلامة.



-الله يسلمك.

قالها بذات الارتياب وانتقل له تحفزي بالمثل وهو يجلس بجواري ويمسك يدي صامتًا، مراقبًا، متسائلاً.. وظل على هذا الوضع لفترة حتى أخذ شهيقًا مرتابًا طويلاً وعلق باحثًا بعينه:

-في ريحة غريبة!

لم أفهم مقصده فترجمه عقلي بالمعني الذي يحب أن يؤلمني به: فهل التقط أنفه رائحتها وحضورها التي نثرتهم في كافة أرجاء البيت من مجرد دقائق قليلة ولازالتْ عالقة به إلى الآن، وتجثم على صدري بعنف؟!

ترجم لساني ما يدور داخلي بغضبٍ وليد، وقد بدأتُ أستفيق قليلاً من دوار الألم الذي أسقطتني فيه "براء" في الدقائق السابقة:



-يمكن ريحة براء!

زوى بين حاجبيه بشدة وتجهمتْ عيناه وهو يلتف ينظر لأرجاء الشقة وسأل بنبرة غامضة بها شيء من ضيق:

-براء!.. براء هنا؟!

-كانت هنا.

-بتعمل إيه؟!.. أو عاوزة إيه؟!

كانت تعلن لي رفضها الصريح لفراقك، وتطلب أو تأمر بضراوة بعدم محاولة استمالتك لي أو إبعادك عنها!

وقتها عاد غضبي كاملاً من جديد وجاء معه سؤالٍ مستنكر ضرب روحي المرهقة بشدة: هل حقًا واتتها الجرأة وجاءتْ بالفعل وقالتْ كل ما قالته لي!



ولأول مرة أكون شاكره للغضب بهذا الشكل بعدما خفف بعضًا من حريق الألم السابق داخلي!

-ابقى اسألها هي.

قولتها بعيونٍ اشتعلتْ ورغبة بكاء تنامتْ داخلي من جديد ممتزجة برغبة ملحة لضربه بشدة انتقامًا منه على كل شيء، بينما هو ظل يتأمل وجهي ويدرس كل تفصيلة به حتى شعرتُ أنه اخترق كل مسامه وكشفها واحتلها كما احتل القلب، احتوى وجنتي بحنان يذيب قلبي وسأل هامسًا:

-مالك يا تيا؟.. براء قالت لك حاجة ضايقتك؟

كانت صيغته رغم استفهامها إلا أنها كانت مقررة بتأكيدٍ يبغى مجرد تصديق باهت.

-لا.



قولتها هادئة ساكنة وكنتُ أعلم أنه يعلم أنني كاذبة، ولم أهتم بتصديقه من عدمه من الأساس، كل ما وددته وقتها إما البكاء، أو الصراخ وضربه، حتى أكتفي في كلتا الحالتين.

-تيا أنت كويسة؟!

لم أعلق سوى بهزة رأس قصيرة، ثم نظرتُ له مأملة للحظة، ووقتها قلبي خفق بعنف وهو يؤيد عقلي للمرة الأولى فيما يخصه بأنه ورغم كل وأي شيء لا يفعلها.. أبدًا لا يفعلها.

ظل ينظر لي هو الآخر ولم يهرب بعينيه مني إلى أن أبعدهما بعدها للحظات وهو يستنشق الهواء حولنا عدة مرات ثم عاد بوجهه لي هذه المرة بحاجب مرتفع وبسمة تسلية صغيرة شقتْ ثغره وهو يعلق بتحذيرٍ شقيٍ خبيث:

-تيا في ريحة حاجة بتتحرق.



انتشلتي تلك الجملة من كل ألمي وغضبي وهواجسي واحتشدتْ رائحة حريق شيءً ما داخل أنفي بالفعل، وكأن حاسة الشم عندي كانت تنتظر تلك الكلمات حتى تعود للعمل من جديد!

رمشتُ مرتين وأنا أحاول إدراك الرائحة وسببها، واتسعتْ عيناي بعدها بهلع مرتعب وأنا أتذكر "المناقيش" التي وضعتها في الفرن قبل مجيء "براء" ونسيتُ ضبط وقت تلقائي لإغلاقه!

هرعتُ لها أحاول استكشاف مدى سوء الوضع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وعلقتُ بحسرة:

-المناقيش.

أغلقتُ الفرن على للفور وأنا أفتح بابه لأتفقد حجم الضرر وقابلتني المفاجأة.. أنها لم تحترق فحسب؛ بل تفحمتْ!

تفحمتْ وضاع مجهودي كاملاً بسببه وبسبب زوجته المصون!



شعرتُ بغليانٍ مريع في رأسي فلم أستطع سوى التنفيس عنه قليلاً بالصراخ بعلو صوتي وأنا أدبدب بقدمي على الأرض وأتحسس القطع السوداء بحسرة:

-منك لله يا ضيـــاء.

سمعت صوت ضحكته المجلجلة قريبة للغاية فالتفتُ بوجه وصل حنقه للذروة ووجدته يقف على باب المطبخ وهو يراقبني باستمتاعٍ مغيظ فأمرته بغضبٍ محذرة:

-ماتضحكش.

مط شفتيه محاولاً كتم ضحكة لم تلبث أن صدحتْ مجلجلة كسابقتها بصخبٍ مستفز؛ فأخذتُ أقرب طبق فارغ بجواري ورميته به محاولة مداراة بسمة انشقتْ على ثغري غصبًا بعدما رقصتْ كل ذرة من ذرات قلبي الساذج على نغمات تلك الضحكة وهذه البسمة!

**



يا امرأة تحمل حتفي بين عينيها..

وترميني من المجهول..

للمجهول!

توقفي عن المرور في دمي كطلقة!

فإني أعرف منذ البدأ أنني..

مقتول!

-نزار قباني.



ضياء

سمعتُ معها في يومٍ قديمٍ شطر شعر يقول.. أنا لم أعشقك حتى الآن لكن ربما!

فربما!

ربما يمل العشق وينهل!

ربما قحل ليثمر!

ربما قسى فقط ليرأف!

ربما يُهزم حمق القلب فننتصر!

وربما نظل واقفين بتيه في المنتصف على ذات الجسر المعلق!

ربما وربما.. فأنا لا أعلم ما يخبأه العشق وما سيقرره لنا القدر.



ولكن ما أعلمه جيدًا وصرتُ أكيدًا منه.. أن سواء أتى العشق أم ضن القدر علينا بالمنح، أنني لن أستطيع التفريط في هذا السلام الذي استوطن داخلي بمجرد أن تلمستْ قدماها أرضيّ وفررتُ أنا إليها مستغيثًا.. ولا أريد أن أتوقف عن النهل من نهر الارتياح والسكينة التي تزخر بهم أرضها، ولن أشغل حيز من وقتي في التفكير فيما سيؤول له الغد؛ فيكفيني غرقي في نعيم اليوم بصحبتها.. فبعدما احترقتْ "المناقيش" وتفحمتْ، ونالني سخطها وغضبها وقد أراحني هذا قليلاً بدلاً من سكونها ونظرتها الضائعة المريبة!

وبعد الكثير من التحسر على مجهود الساعات الضائع، وبعد الكثير والكثر من المحاولات اليائسة لكتم ضحكاتي والذي فشلتْ في أغلبها فزادها هذا حنقًا واشتعالاً.. لم أتنازل عن مصالحتها



وأخذ دوري كاملاً في الاشتعال بصحبتها، فاحترقتُ أنا بها ولها ومعها هذه المرة.. وما أجمل الاحتراق في لهيب عشقها!

فالاحتراق في لهيب امرأة تعشق يختلف!

حتى استكَنتُ بقربها وسكنتْ أحضاني مستسلمة، وكدتُ أغرق في النوم مرحبًا متخمًا بالكثير من الراحة والسِلم، لكنها بدأتْ في الحركة المتوترة فدمدمتُ بنعاسٍ وأذيال النوم تهدد بالرحيل:

-بطلي فرك.

سكنتْ لثانيتين ثم بدأتْ في حركتها من جديد مقررة الذهاب فشددتها إليَّ وأحكمتُ عليها غلق أحضاني حتى منعتها من الحراك وأغمضتُ عيني أستعد للنوم من جديدٍ برضا.

دقيقة مرتْ وربما أكثر وعادتْ لحركتها من جديد وهي تغمغم:

-ضيا..



-يا بنتي حرام عليك، هو عشان أنت واخدة أجازة وهتبلطجي بكرا لوحدك ماتخلنيش أنام أنا كمان!.. ده اسمه افترا ده.

-أوف.. أهو اتكتمت!

-ونامي.

قولتها آمرًا أداري بسمة ملحة، وتأففتْ هي وأغمضتْ عينيها متبرمة منزعجة، فحررتُ ابتسامتي وأنا أعود للنوم الذي قطعته من جديد وهي تهمس بتصميمٍ كطفل مدلل عنيد:

-ضيا..

خرجتْ ضحكة خافتة مستسلمة وأنا أسألها يائسًا:

-نعم يا آخرة صبره، عايزة إيه؟

مرتْ ثوان قليلة حتى أتى صوتها الهامس بتصميم علقتْ في نبرته ارتجافة غريبة:



-عاوزة اسألك سؤال.

فتحتُ عيني وقد استشعرتُ خطورة وجدية ما تود الخوض فيه، وعندما نظرتُ لوجهها الغامض وبوادر الغضب والألم التي تتشكل من جديد في عينيها استحال شعوري ليقينٍ قلق!

شددتُ ذراعي حولها أكثر وحاولتُ رسم ابتسامة لا يعلق فيها القلق داخلي:

-اتفضلي يا ست الحسن اسألي.

عضتْ على شفتيها وأسبلتْ جفتيها وتنفسها بدأتْ وتيرته في العلو فعلى معها وتيرة قلقي أكثر، ثم رفعتْ لي عينين متشككتين كان الألم يحاول الفرار من زواياها لكنها حبسته وخبأته بقسوة، ومع ذلك وصلتْ لي أنات استغاثته واضحة!

ثم بصوتٍ هامس متهم سألتْ:



-هو أنت متبفكرش في براء خالص وأنت معايا؟

تغضّن جبيني ودق ناقوس خطر في القلب والعقل صحبة!

هذا السؤال الملغم لن يخرج سببه عن نتيجة مجيء "براء" المريب!

مجيئها الذي لا أعرف دافعه أو هدفه!

وربما كان هذا تحديدًا هو هدفه!

تضاعف غضبي عند تلك الفكرة الذي بالكاد أحاول تناسيه أو الهرب منه للدقة.. أغمضتُ عيني وشددتُ على إغلاقهما بشدة وأنا أخرج زفيرًا حادًا كاد يخنقني وضغطتُ على نواجذي بعنفٍ أحاول تفريغ بعضٍ من الغضب الذي عاد واشتعل، ثم سألتها باستنكارٍ وهدوء مزيف:

-ليه السؤال ده؟!

-جه في بالي.



-وإيه اللي جابه في بالك؟!

-ماعرفش.

تبادلنا الردود الفورية وكذلك النظرات الغامضة.. ورغم غموض التفاصيل لكن المجمل كان واضحًا كالشمس!

-لا.

قولتها قاطعة واثقة ولم تصدقني، ولكنها أجبرتْ شفتيها على الابتسام وأماءتْ برأسها وهي تهرب بالعينين لكيلا أقرأ فيهما التكذيب الصريح، ولكن قلبها الذي اختارني وحدي لأستأثر بمفاتيحه كاملة وشى لي بذلك بوضوح وأسمعني نبضه المكذب.

خرجتْ زفرة مثقلة مجددًا وأنا أسألها بمباشرة:

-براء جت هنا ليه؟

-ابقى أسألها.



ذات الرد وذات الهرب، ولكن هذه المرة اختلف رد فعلي أنا بالغضب والتصميم:

-أنا بسألك أنت.. قالت لك إيه؟

-اووف، احنا هنفضل طول اليوم بنتكلم عن براء ولا إيه؟!.. أنت مش قولت مش هتدخلها بينا!

تأففتْ بصوت مسموع وشاركتني الغضب الذي لا أعلم من أين انبثق، وصاحتْ لائمة بالصوت والكلمات التي لم تأثرا بي قدر ما لطمني لوم عينيها الذي تجاهلته وأنا أبادلها الصراخ مدافعًا:

-مش أنا اللي اتكلمت عنها وحشرتها دلوقتي يا تيا، ده أنت.

-لا مش أنا، مش أنا اللي دخلتها بيننا يا ضيا من الأول.

رسالة غاضبة، مؤنبة، متخمة بوجعٍ لن يزول على ما يبدوا!

وقرأتها بوضوح، واعتذار، و.. بعض الندم!



ندم أنبني صائحًا بأن ربما كل هذا الألم لم يكن ليحدث لو فقط تحملتُ بعضه وابتعدتُ كما حذر الجميع قبل أن أخطو الخطوة الأولى برضا أهوج تجاه الغرق فيه!

ندم لائم يقر بأن كل هذه الخيبة لم تكن لتسقط على رأسي لو فقط سمعتُ تحذيرات كلماتها القلقة قبل هروبها بالرحيل!

ندم قارص أني صدقتُ المناجاة المراوغة للمعشوقة المحتالة وتمسكتُ بحبال أمالي البالية وعدتُ أدراجي خانعًا بعد أن توهمتُ قدرتي على الرحيل!

أغمضتُ عيني وهززتُ رأسي ببطء لأطرد جميع تلك الهواجس من رأسي؛ فالتفكير بها في كل الأحوال لن يعيد الماضي، ولن يحل الحاضر، ولن يرحم من سياط غموض المستقبل.



عدتُ لها وأنا أبدل الموضوع مكتفيًا من السير في هذا الدرب الملغم، واعترفتُ بصدق بأول ما جال بخاطري وأنا أتلمس شعرها المنثور بطوله وغجريته الفاتنة على أغلب الفراش:

-أنت عارفة إن أنا بحب شعرك أوي، وعنيك.

-من امتى؟

ارتفع حاجباها بمفاجأة وانزوى فمها ببسمة مكذبة لمّا تساءلتْ بتهكم تجاهلته وأنا أكمل اعترافي شاردًا في خضرة عينيها:

-من زمان.

شردتْ ولم تعلق بعدما صوَبتْ نظرتها لأسفل يسارًا ثم غامتْ عيناها بنظرة لم أفهمها، وأكلني الفضول لمعرفة فيما شردتْ ومعنى تلك النظرة فسألتها بخفوت:

-سرحتي في إيه؟



لم ترفع عينيها لي وهي تجيب بهمس:

-في زمان.

-وإيه اللي خدك لزمان؟.. سرحت في أول مرة اتقابلنا؟

-تؤ، أنا سرحت في وجع زمان.. في أول مرة شفت فيها براء.

قالت كلماتها بخفوت ثم رفعتْ عينيها تواجه عيني بعدما غرستْ قنبلتها في منتصف الصدر ثم استطردتْ بعد ثانيتين بسؤالٍ خافتْ تضغط به على زر الانفجار فحولته لأشلاء:

-فاكرها؟!

ابتلعتُ ريقي بعسر وتلك الذكرى التي لم تبهتْ في ذاكرتي أبدًا تعاد داخل رأسي بذات تفاصيلها من جديد!

وفي لحظة إفاقة ضبطتُ نفسي متلبسًا بالتفكير فيها وأنا سكني ومسكني بين ذراعي فنفضتها عن كياني مجبرًا..



فمجرد التفكير بالألم الذي تجرعته بعشقها ودفعني لنيل امرأة بطعم الطمأنينة كالتي بين يدي الآن هو عين الكفر والإجحاف والجحود.

وأنا أبدًا لم أكن كافرًا بفضلها، ولستُ مجحفًا لحضورها، ولن أصبح جاحدًا لعشقها أكثر من هذا.

هززتُ رأسي رافضًا الانسياق وراء ما تود شدي له بإصرارٍ مرهق:

-أنا عمري ما كان قصدي أوجعك.

-بس أنت بتوجعني من زمان أوي يا ضيا، أوي.

كلماتها الهادئة الهامسة أخذتْ تعصر قلبي وتخنق روحي حتى كادتْ تزهقها!

كان همسها صادق، ووجها صادق، وعيناها..



آهٍ من لوم عينيها وألمها؛ كان لومهما قاسيٍ ولا ألومها.. ولكني تألمتُ!

ضرب ألمها صدري كإعصارٍ مفاجئ وأخذ يفتت كياني ويشكله بحجم طول سنين الألم الذي قصدتها؛ فتألمتُ!

بحق كل ذرة ألم قصدتها وعايشتها بمفردها؛ تألمتُ!

وفي ذات اللحظة ضربني إدراك مُرعب لمدى استرسالها داخلي، واعترافٍ فرض نفسه فرضًا بإجبار على تصحيح المسمى بأنها ليستْ المُسَكِن الذي كنت أنشد.. بل المَسكَن والسكينة.

-لو عرفتي وجعي أنا دلوقتي قصاد كل وجع اتوجعتيه بسببي أو بسبب غيري كنت عمرك ما سمحت لحاجة توجعك أبدًا.

سقطتْ دمعة ثقيلة ببطء على وجنتها وهي مستمرة في إلقاء اللوم بعينيها بلا رحمة أو شفقة طالبتُ بها:



-كله كنت أنت السبب فيه. أنت عيشتني في حجات أنا عمر ما جه في كوابيسي إني اعيشها يا ضيا.

ووقتها توقف الحديث واختنقتْ الكلمات في حلقي!

أنا أعي وأشعر جيدًا بتلك الكوابيس التي تحكي عنها، فقد سُجنتُ فيها كاملة وأعلم تفاصيل وصف الألم الذي عايشته وكرهته!

أن تعشق وهم!

أن تُخذَل مِن مَن تعشق!

أن يُفضِّل عليك آخر ويتمسك به متجاهلاً عشقك الصارخ!

أن تحاول الفرار بما تبقى منك من شباك عشقٍ آسن فتفشل ويُنصب حولك شباكًا أكثر إحكامًا!

أن تستسلم لشبح روح باهتة مِن مَن احتل كامل روحك، مخادعًا نفسك بأن هذا أفضل من العدم!



كلها أشياء عانيتُ من مرارتها وصبّبتُ قطراتها كاملة في جوف عشقها مقتسمًا معها المرار غافلاً!

كلها كوابيس زجيتُ بها فيها معي قسرًا، رغم أني أعلم ما تتركه زنازينها العفنة التي عشتُ فيها لأعوام -ولازلت- في النفس من جراح مقرحة لا تلتئم!

ولكن استرجاع ألم كل تلك الكوابيس لم يكن مؤلمًا قدر ألم كابوس تخيل هروبها وضياع سكينتها مني من جديد!

كابوس ألمه فاق كل ألمٍ مضى!

حاصرتها بين ذراعيّ وأنا أشدد من احتضانها، أحكم عليها إغلاق طرق الهرب، وهربتُ إليها مختبئًا برأسي في حنايا عنقها وأنا أعترف بصوتٍ مختنق متحررًا من ثقل هذا التخيل المقيتْ:

-أنا بقت كل كوابيسي إن أنت ماتبقيش موجودة في حياتي يا تيا.



أبعدتْ رأسي لتنظر لعيني بتشككٍ متساءل:

-بجد!

لم أجب.. بل لم أستطع الإجابة وقد شعرتُ بطرق تكوين الكلمات تتبخر من عقلي وفمي؛ فأعدتها لأحضاني وعدتُ برأسي للاختباء فيها من جديد، وأمأتُ ببطء متعب مصدقًا مجيبًا بلا كلمات. ورفضتُ تحريرها ومحاولاتها المتكررة للابتعاد حتى استسلمتْ ونامتْ وشعرتُ بأنفاسها الدافئة تنتظم أخيرًا، ولم أحظى أنا بدقيقة نوم واحدة، وظل عقلي يعصف بألم محاولاً تخيل الحديث الذي دار بينها وبين "براء" وأيقظ داخلها هذا الكم من المرار والغضب!

وظلتْ محتلة رأسي ولم يحتلها سواها عندما تركتها وذهبتُ للعمل محاولاً التفكير في طريقة أعيد بها بعض الأمان المفقود بعد الذي حدث بتفاصيله المجهولة وزعزع ثقتها بي المهتزة من الأساس!



بينما هي صارتْ متخبطة وغير مستقرّة في التعامل معي؛ فتارة تتجنب، وتارة تغضب، وغيرها تلوم بالصمت مرة وبالكلمات مرة، وأخرى تنسى أو تتناسى كل شيء سوانا وتستكين!

وهذا التخبط القاسي ضاعف الألم والغضب الذان ظلا يرتعا في صدري!

انتهى اليوم الثاني فالثالث وصار الابتعاد حتميًا.. ابتعاد صار ثقيلاً على روحي!

ليس فقط لفكرة تركها وحيدة وقد باتتْ مصدر الراحة الوحيد لي، ولكن لشعور اختناق أصبح يجثم على صدري كالأشباح عندما يدور في رأسي أني سأترك السكينة هنا لأذهب لتجرع جرعة ألم مستحقّة أصبحتُ صدقًا لا أتحملها، ومِن يد مَن هفوتُ منها شربة هناء!



شعرتُ باختناق كمن يساق للذبح، ورغبة توسوس لي مغرية بالاستسلام لقيود الندم التي باتتْ تخنقني، وفكها بإنهاء كل هذا العبث بفراقٍ تأخر كثيرًا!

بتُ أفكر كثيرًا في الفراق كحل لهذا الألم المزمن الذي يفور بشراييني، ولكن في كل مرة أقترب من لمس القرار أتوقف وأشعر بشعورٍ غريب ومرير يداهمني.. كالمبتور!

وكأن ساطور حاد هوى على قدمي وألقى بهما في الجحيم!

فأعدُل عن التفكير معترفًا بأن تخيل الحياة بلا وجودها كتخيل الحياة بعد بتر الأطراف.. لا يحتمل!

حتى وإن كان وجودهما مريضًا باهتًل لا حياة فيه كما الحياة بيننا الآن: باهتة، متوقفة، وربما ميتة!

لا تواصل بيننا.. وحتى إن وجد.. أرفضه.



أرفض مشاركة الطعام معها وأرفض مشاركة مجرد الجلوس الصامت حتى!

لا نلتقي سوى عند النوم، وحتى وقتها لا أود النظر لها فأنام موليًا ظهري لها في المساء لأستيقظ في الصباح وأجدها محشورة حشرًا بين ذراعي وأنا أحكم عليها غلق أحضاني!

ولليوم لا أعرف متى أبادر بإعلان هذا الاشتياق المخزي، وكم أخشى أن يكون قلبي الخائن المتشبث بالقرب مستغلاً غيابي في النوم ويتخلص من صرامتي في تكبيل جموحه المقيتْ لها أثناء يقظتها فتعي إلى أي حدٍ يصل بي تعلقي بها!

وصلتُ البيت وتلك الأفكار هي المتحكمة بي طوال طريقي إليه، وبآلية وتلقائية تبهرني شخصيًا تجهم وجهي وجمدتْ تعابيره وأنا أفتح الباب وأدخل بهدوء لأجدها كالعادة في استقبالي جالسة على ذات المقعد اللعين الذي كنتُ أنتظرها عليه عند انتقامها



المعاقب قبلاً بلا أي كلمة. وبلا أي كلمة أيضًا توجهتُ لتبديل ملابسي بغرفتنا فقامتْ من مكانها ليبدأ العرض اليومي بسؤالها الخافتْ المرتبك:

-أحضر الغدا؟

-لا.

-مش هتاكل؟

-ماليش نفس.

كلماتها مرتبكة بذات لمحة العتاب الذي لا تقوى على تحريره، وكلماتي جامدة مختصرة باختناقٍ وهروبٍ لا أقوى على مجابهته!

ذات السيناريو المكرر الممل بلا أي تغير.

-أنت هتفضل مش بتاكل معايا لحد امتى؟



حسنًا هذه الجملة خارج المنهج الذي سرنا عليه طوال الفترة السابقة!

تجاهلتها وتجاهلتُ صوتها المنذر ببكائها القريب وأنا أكمل طريقي للغرفة بلا أي نية للرد.

-ضياء..

نداء خارج النص من جديد وهي تتبعني مستغنية عن عادتها في الاكتفاء بإجابتي واستمرار وقوفها مبتعدة، لكني من جديد قابلتُ فعلها بذات التجاهل.

-على فكرة أنا ماروحتش لمصطفى يومها، والله العظيم ماروحتش.

باغتتني!

توقفتُ للحظة وكل خيبة تعاد من جديد!



الحديث، والذكرى، والاعتراف.. والاسم!

و"يومها".. تحديدًا منذ واحد وعشرون يومًا!

منذ ذاك اليوم الذي كدتُ فيه أتذلل لها لنيل أي إجابة!

واليوم وبعد واحد وعشرون يومًا تجيب، بل وتجيب بالنفي!

وددتُ الضحك بصخبٍ ولم أقدر!

غبية. صدقًا غبائها مبهر تستحق عليه مكافئة ضخمة بصفعاتٍ لا تنتهي. أكملتُ طريقي من جديد بتعليقٍ بارد هو كل ما استطعتُ إجادة في صندوق ردود أفعالي الفارغ معها مؤخرًا:

-طيب.

لم تتبعنِ تلك المرة وهي تسأل بهمسٍ مكسور:

-مش عاوز تعرف أنا كنت فين؟

-لا.



قولتها قاطعة غاضبة بذات الآلية وأنا أذهب مكتفيًا، ثم توقفتُ ثوانٍ واستدرتُ لها متأملاً للحظات ثم اتجهتُ نحيتها ببطء:

-صحيح بمناسبة كنت فين.. أنت كنت فين من ٣ أيام؟

ارتبكتْ نظرتها وصوَبتها للأسفل بمراوغة لا تتقنها:

-يعني إيه؟!

قالتها تهرب بنظراتٍ مرتبكة وتنفسها أخذ في العلو، فآثرتُ الوضوح بنبرة لم أبذل أي جهد في تخفيف حدة قسوتها:

-روحتي ليه لتيا يا براء؟

ولم أكن أنتظر إجابة لم أحصل عليها بعد فترة صمت طالت:

فاقتربتُ خطوة وبنظرة حازمة مهددة لم استخدمها معها قط ولم أتخيل للحظة في يوم أن ألجأ لها معها:

-حركة زي دي ماتتكررش تاني.. مفهوم طبعًا؟!



طأطأتْ رأسها ولم تجِب فعِدت بحزمٍ أكبر:

-مفهوم طبعًا؟!

أغمضتْ عينيها وهي تومئ برأسها ببطء مغمغمة بخفوت:

-حاضر.

ثم ذهبتْ واختفتْ في المطبخ، فابتعدتُ أنا الآخر متجاهلاً تلك القرصة الساذجة في قلبي وبدلتُ ملابسي وذهبتُ لغرفة جانبية قضيتُ فيها بقية اليوم متظاهرًا بالعمل وفي حقيقة الأمر كنتُ غارقًا في معضلتي معدومة الحلول، حتى حل المساء فقمتُ مجبرًا؛ للنوم مستسلمًا للنداء الملح بالرحة من جسدي المتخشب بألم من طول الجلسة على هيئة واحدة.

وجدتها نائمة مولية ظهرها لجانبي من الفراش فنمتُ بجوارها بصمت، ورغم حاجتي الملحة للنوم وإنهاء اليوم لم أستطِع



الحصول عليه وكأنه اتفق معها على سلب الراحة مني للأبد،

ظلتْ عيوني تحدق بالسقف بتيه مفكر.. ماذا لو بالفعل افترقنا!

ماذا لو حدث بالفعل واختفتْ!

ماذا لو أرحتُ روحي من هذا الجحيم وفصمتها عن قلبي غصبًا

حتى لو استمر نزفه للأبد!

لكن.. ماذا لو استسلمتْ فيما بعد البُعد وتزوجتْ آخر!

عند هذا الخاطر اشتعل قلبي بحريقٍ هائل لم أستطِع إكمال تخيله، فاستدرتُ موجهًا ظهري لظهرها باختناق جثم على صدري وسد مجرى التنفس كوحش قديم بُعث من قبره وتوحش أكثر مما مضى، واستوطن صدري!

بقيتُ على هذا الحال البائس طويلاً قبل أن أسمع حفيف جسدها يتحرك مقتربًا وصوتها يهمس بحذر مناديًا باسمي!



أغمضتُ عيني سريعًا متظاهرًا بالنوم وقد تذكرتُ غموض وجودها كل صباح بين ذراعي رغم جبال الجليد بيننا، وابتهلتُ ألا تفعلها!

اعتدلَتْ من نومتها وشعرتُ باقتراب أنفاسها المراقبة من وجهي ثم سمعتُ تكرار ندائها من جديد، وعندما لم تتلقَ مني جواب أدارتني تجاهها ببطءٍ وخفة، ثم حشرت نفسها داخلي وهي تحاوطني بذراعيها وتتشبث بأظافرها بظهر ملابسي وتمرّغ رأسها في منتصف صدري!

وقتها تجمدتُ وكأني تلقيتُ صفعة أدارت رأسي!

تخشب جسدي وعُلقتْ يدي وتوقف نفَسي للحظة وأنا أنظر لها بذهولٍ غير مستوعب!

نعم كنتُ أخشى أن تكون فعلة منفلتة من قلبي أثناء نومي تشي لها بعمق ارتباطي المخزي بها، لكن لم أتخيل أبدًا في أقصى



خيالتي جموحًا أن تكون هي الفاعلة أثناء نومها حتى، ولم يأتِ ببالي للحظة أن تكون هي المبادرة قصدًا وهي في كامل وعيها ويقظتها!

لم أفهمها ولم أستوعب مقصدها من هذه الفعلة!

ويبدو أن ارتباكي وتفاجئي وصلا لها فرفعتْ رأسها لي وطالعتني بوجه شَحُب وعيون ذُعورتْ!

ابتعدتْ ببطء دون أن تنظر لي وكأنها سارقة حاولتْ اختلاس رغيف خبز ليس لها وضُبطتْ متلبسة فأعادته مطأطأة الرأس بخزي كطفلة مخطئة!

منعتها وأنا أعيدها لمكانها من جديد وخبأتُ رأسها داخلي كما كانت لأحميها وأياني من العتاب والخذي التي سنتبادلهم في أعين بعضنا!



ورغم محاولتي مبادلة عناقها لأبث فيها بعض الأمان لم أستطِع، فاكتفيت بوضع كفي على رأسها مهدئًا انتفاضة توترها!

بكتْ وشعرتُ باهتزازات شفتيها ودموعها على صدري، وشعرتُ وقتها بأن نبضات قلبي المتسارعة أضحتْ مؤلمة ولا تحتمل!

وشعوران متناقضان يصارعان بعضهما داخلي بوحشية ضاعفتْ من تسارع نبضي المؤلم.. إحداهما ألم قاتل عليها وآخر غضب ساحق منها، فتهجم وجهي وأنا أحاول فض النزاع المؤلم في صدري والتقاط بعض الأنفاس المنتظمة!

مر برهة من الوقت وبدأ بكائها الخافت في الهدوء والاختفاء ولم تختفِ أفكاري المتسائلة المحتدمة ولم يهدأ ألم نبضي!

رفعتْ رأسها ونظرتْ لي بحذر، وغمغمتْ متسائلة بخفوت متحشرج:

-هو أنت صاحي ليه لحد دلوقت؟

لم أرد ولم أنظر لها ولم تبعد هي أنظارها عني، حتى حَنيتُ رأسي لها وأنا أنظر لها بارتياب:

-أنت رحتي لتيا ليه يا براء؟

كان توقيت فاشل بمثالية لتحرير هذا السؤال وأعترف، ولكني لم أقدر على قمعه أكثر وشعور أني لو لم أعرف ما حدث تفصيلاً الأن فستحدث كارثة أكبر مما يحدث معهما بالفعل!

تجمعتْ دموعها من جديد وهي تبتعد بغصب، وأجابت صائحة بمرارة:

-خلاص يا ضياء خلاص، قولت حاضر مش هروح لها تاني ولا هزعج الهانم بوجودي، حاضر.



لم أنجرف لأنَّات دقات قلبي المتسارعة والمتحالفة معها ضدي، بل أخرستها وتجاهلتُ ألمها الذي قرب على إنهائي وأنا أبادلها الصياح بآخر أقسى، وإصرارًا أكبر على المعرفة من إصرارها على الهروب:

-دا أمر مفروغ منه ومابسألش عليه، أنا بسأل روحتي لها ليه من الأساس، قولتي لها إيه وقالت لك إيه؟

أغمضتْ عينيها تعتصرهما وحاولتْ القيام والابتعاد، ورفضتُ هروبها محاصرًا إياها ثم رفعتُ رأسها لي بتصميمٍ محذر:

-براء.

كانت أضعف من مجابهة إصراري الآن، وكان خوفي وغضبي أكبر من أي إشفاق حاول التسلل لي؛ فأعدتُ سؤالي بخفوتٍ غير قابل للمفاوضة:



-روحتي لها ليه؟

ظلتْ تشد على إغماض عينيها وزاد ارتجاف جسدها وشفتيها وهي تحرر بخضوع كلماتها المختنقة:

-كنت بقول لها ماتطلبش إنك تسيبني.

هذيان!

ما تتفوه به هو عين الهذيان بكل تأكيد!

هذيان لم أصدقه فانزوى حاجباي وتجهم وجهي برفضٍ وقد ضاقتْ عياني بتساؤل مستنكر:

-إيه؟!.. قولتي إيه مش فاهم؟

لم تجِب وبدأ جسدها في الارتجاف ولمحتُ دموعها الصامتة تجري ببطء منتظم؛ فانتفضتُ غاضبًا وأشعلتُ الأضواء الجانبية ثم أعدلتها لتجلس أمامي وكدتُ أصرخ بجنون لا أدري بماذا، لكنها



قاطعتْ ثورتي قبل أن تبدأ بصوتٍ واهن خفيض وشفاه مرتجفة وهي تهز رأسها ببطء، مغمضة العينين:

-براء..

-أنا مش هقدر، مش هقدر والله، والله العظيم مش هقدر.

تجهم وجهي بارتيابٍ وعقد حاجبي بجهل لمقصد كلماتها الذي وضّحتها مستفيضة بذات الصوت الخفيض والعيون المغلقة:

-مش هقدر استنى وأفضل واقفة لحد ما اشوفك وأنت بتكتفي بيها وبتطردني أنا من حياتك وارجع برا لوحدي من غيرك، مش هقدر أنا مش هقدر.

انقشع التجهم وحل الوجوم، وتضاعفتْ دقات قلبي عندما بدأتْ في صفعه بكلماتها الخفيضة التي سقطتْ عليه كأعاصير اقتلعته من موضعه:



-مش هقدر ألقاك بقيت كلك ليها بعد ما كنت كلك لي لوحدي، مش هقدر.

فسحبتْ دمائي وجفت مع كلماتها وبدأتْ الروح تنازع مع الأنفاس وهي تكمل:

-مش هقدر أكمل حياتي من غيرك. مش هعرف اعيش فيها وأنت مش فيها، مش هعرف.

انسحبتْ الأنفاس وانسحقتْ، وبدأ يعلو عويل احتضار الروح وهي تُحشَر غصبًا في جوفي لتجذَّها غصة مسننة عندما حررتْ جفونها من عناقهما وألقتْ عليَّ سيل أسهُمها العاتبة:

-مش هقدر استحمل لما تقولي كفاية أنا مابقتش عايزك، ومش هقدر اهز راسي وابتسم وأقول لك شكرًا على الوقت الجميل اللي كان بينا وامشي، مش هقدر مش هقدر والله العظيم مش هقدر.



تعلق البصر بدمعاتها واتسعتْ العيون بانشداهٍ منزوع الروح عند استطرادتها المتألمة المصحوبة بهزات رأسٍ يائسة، وقد بدأ صوتها في العلو التدريجي الممزوج مع نحيب عيونها:

-أنا عارفة إن أنت بقيت تكرهني ومش طايقني، ومش طايق تبص في وشي ولا طايق تقعد معايا وبتعد الساعات عشان تروح لها، بس أنا مابقتش قادرة استحمل ده، مش قادرة والله العظيم مش قادرة.

وهنا انتفض قلبي معترضًا على خرسي رافضًا كلماتها!

انتفض وود الصراخ تألمًا لألمه وألمها!

انتفض وانتقم له ولها بدقاتٍ قذفها كالقنابل في الصدر فأطبقه على ذاته وأحاله لأنقاض!



انتفض وصمتْ للحظة مهددًا بأبدية صمت إن لم تصمتْ ولم تصمت:

-مش هقدر أقبل اليوم اللي هتمشي فيه وتسيبني فيه يا ضياء، مش هقدر.

كانت تلك آخر كلماتها قبل أن تسقط آخر مطارقها على سندان قلبي، وتقترب متشبثة بصدري برجاءٍ منتحب وعيون هوت في حمرة ألم:

-عشان خاطري ماتسبنيش، عشان خاطري.

انهتْ كلمتها الأخيرة بشهقة بكاء مدوية واختبأتْ برأسها في منتصف أحضاني وراحت تُعدل الصيغة وتنفي غلاوتها:

-لالا مش عشان خاطري.. عشان خاطر ربنا ماتسبنيش، أنا مش هقدر اعيش من غيرك يا ضياء والله العظيم مش هقدر، مش هقدر ومش هعرف ومش هستحمل ومش عاوزة.

توحش قلبي لحد مؤلم وشن جيوش من النبضات المؤلمة ضدي، وسمعتُ تهديده الجديد باستعداده للانفجار خصيصًا لينهيني متشفيًا، وعندما استشعر رأسها ودموعها عليه استوحش في نهشه وزمجرته أكثر وأمر صارخًا بالصراخ بعشقها وهدهدة ورعها.. ولما قابل من روحي التيه المتألم، توجه بالأمر لهذا العقل الأحمق الذي لم ينتبه لثورته وهو يتساءل بغيابٍ لما أصبح التنفس صعب ومؤلم لهذا الحد وكأن الأنفاس تحولتْ لسكاكينٍ حادة تمزق صدري!

-طب بص، بص.. ماتبعدش عنها، أنا والله العظيم مش هقول لك في يوم تبعد عنها، بس ماتسبنيش أنا.



كانت جملتها الأخيرة صارخة مُعذَبة، ولولا تلك الصرخة لبقيتُ متخبطًا في غياهب هذا التيه للأبد!

استفقتُ فأحطتها بذراعي آمرها بالهدوء بأنفاسٍ لم يهدأ اضطرابها بعد:

-اهدي، اهدي.

لم تستمع لكلماتي وربما لم تسمعها، وابتعدتْ برأسها عن صدري لتنشب أظافرها هناك بدلاً منه، ونظرتْ لي بعيونٍ مغرقة بقهر دامع، تدافع بأنّاتٍ ممتزجة بشهقات بكاء لا تتوقف:

-وبعدين أنا معملتش حاجة، والله العظيم معملتش حاجة لكل ده؛ أنا مرحتلوش ومافكرتش حتى اروح له.

أغمضتْ عينيها وعادتْ تشدد على قسمها:



-والله العظيم مفكرت حتى. أنا عملت كدة عشان أضايقك، عشان أوجعك زي ما كنت بتوجع؛ عشان أنا بحس إني قلبي بيتحرق لما بتبقى معاها، وأنت كنت معاها وسايبني، ده مش كفاية ليك عشان تنتقم وتاخد حقك مني يا ضياء؟!.. مش كفاية ليك وكمان عاوز تسيبني؟!

شفرات حادة انهالتْ تمزق حلقي الجاف عندما أخبرتها بصوتٍ أبح أسمعه مني للمرة الأولى وأنا أنصاع لسياط قلبي الآمرة بحمل هذا الألم المضني وسحبه لي بدلاً عنها:

-أنا مش هسيبك يا براء.

أغمضتْ عينيها وهزتْ رأسها بتصميم وشهدتُ ابتلاعها ريقها بعسرٍ قبل أن تكذبني بمرارة هامسة:

-هتسيبني. أول ما تجيب ليك طفل هتكرهني وتنساني وتسيبني.



وإلى هنا انهار السد، واكتفتْ الروح، وصرختْ كل الجوارح بوجع طغى وتجبر:

-كفاية، كفاية حرام عليك، كفاية.

أخذتُ وجنتيها بين كفي وأنا أجبرها على مبادلتي النظر، وبألم معجون بالغبطة والاستنكار والغضب:

-كفاية.. كفاية يا براء.. كفاية أنا تعبت.

انتهتْ صرختي الأخيرة وعادتْ أنفاسي للتعثر داخل صدري.. أرحتُ جبهتي على جبهتها وأغمضتُ عيني مثلها وأنا أسألها بإنهاكٍ بعد صمت:

-أنت عايزة إيه يا براء؟!.. عايزة إيه؟!

-أنا مش عاوزة غيرك.



كانت هامسة مشبعة بالدموع والصدق والألم بعد الكثير من لحظات الصمت الذي كُسر بصرخات قلبي الظافر وبصرخات روحي الغاضبة.. ووقفتُ أنا بينهم مشطور!

أود إسقاء بعض الرحمة لقلبٍ أضناه الهجران والخذلان!

وأود مطاوعة روحي في الصراخ لوعةً بأن أنا أيضًا لم أكن أبغى سواكِ!

لم أكن أحلم بسواكِ!

بل لم أتمنى قبلاً سواكِ!

ولم أُطعن بيد سواكِ!

ولم يداوي طعناتك سوى غيركِ!

غيرك هي لي كل ما أنا لكِ!

وأنا لها كل ما أنتِ لي!



ولم أعِ تلك الحقيقة القاتلة أيضًا بفضل أحدًا سواكِ!

لم أستطِع تلبية نداء الرحمة التي ينشدها قلبٌ عليل وامتثلتُ لتأنيب جريح من روحٍ هلكتْ:

-بجد!.. دلوقتي؟!

ضاقتْ عيناها المتورمة من البكاء ونظرتْ لي بتساؤل جاهل لمقصدي أشعل داخلي تساؤل غاضب رغم هدوء إلقائه:

-ليه؟!.. دلوقتي ليه؟!.. تعذبيني ديمًا بتوقيت كلامك ليه؟!

كنتُ حقيقة أبحث عن إجابة شافية في عينيها التي انزوتْ بتقريرٍ مذنب ولم أجد فيهما سوى العجز!

لم أستطع وقتها منع تحرر زعقة غاضبة مريرة، أعلم تلك المرة أني لن أحصل من ورائها على أي إجابة:

-ليه يا براء ليه؟!



عادتْ شهقات بكائها وسقط وجهها يختبئ بين كفيها وانفلتْ منها لجام أنينٍ دامي؛ لم أستطِع تحمله تلك المرة فأخذتُ أخبئ ارتجافة جسدها بين ذراعي في احتضان مهدهد طال حتى هدأ بكائها وسقطتْ في النوم متخشبة بذات الهيئة المنطوية في أحضاني، لم أستطع تحريكها أو أرغب ولم أستطِع النوم ولم أستطِع الشعور سوى بوجعٍ سحيق يرتع في صدري أجبرني على الاعتراف لنفسي علنًا:

-أنت اللي تستاهل. أنت تستاهل تعيش عمرك تتعذب باللي حاسه دلوقتي. تستاهل عشان أنت اللي ولعت النار في نفسك من الأول وجي دلوقت تشتكي من الحريق اللي جواك!

وصمتُ بعدها بلا مقدرة على إخراج حرفٍ زائد أو تحريك عضلة واحدة في جسدي.. فقد انهارتْ قواي وتحطمتْ قلاعي رغم افتراض الفوز!

*



براء

استيقظتُ في الصباح بصداعٍ شق رأسي نصفين؛ ففتحتُ عيوني بصعوبة بالغة لأجدني مستندة على صدره وحبيسة أحضانه!

ليس ككل مرة أتلصص فيها عليها عند نومه، فقد كنتُ مكبلة هذه المرة بين ذراعيه بإحكامٍ وكأنه دثرني بهما، محشورة بين قدميه ومنزوية بين ذراعيه ومحاطة بأحضانه؛ بهيئة أقرب لجنين متقوقع في رحم أمه، وتحكم هي عليه إغلاق رحمها الحنون!

أغمضتُ عيني وأنا أعاود وضع رأسي على صدره بحرمانٍ وارتياح، ولم تلبث أن تمر دقيقة واحدة حتى هاجمتني لحظات الأمس كلها مجتمعة فاختفى هذا الارتياح وحل محله طوفانٌ هادر من الألم والحرج!



كل رجاءاتي ودموعي تراءوا أمامي وأخبروني كم كنتُ مثيرة للشفقة.. بل للغثيان!

ولكني اكتفيتُ. صدقًا اكتفيتُ وقد نضح إناء تحملي ولم يعد يقدر على المزيد!

المزيد من بعاده وجفاءه معي!

وكلمات من شاطرتني فيه وتبغى منه الكمال والتي انهالتْ على خوفي وألمي كسياطٍ من نار لا ترحم، وكلماته هو الآمرة المحذرة من الوجود مرة أخرى بمحيطها خوفًا على خاطرها من التجريح بوجودي، ولأذهب أنا وخاطري المهشم للجحيم!

وقتها فقط لم أستطِع إخفاء هلعي وكتم صرخاته عنه أكثر!

أغمضتُ عيني أحاول الخروج من هذه البؤرة السوداء، ثم طبعتُ ببطء قبلة طويلة عند موضع قلبه أعتذر بها له عن كل



ما أصابه من أسفل رأس عشقه لي، واعتدلتُ أنوي إعدال جسده لأريحه من تخشب هذه النومة المؤلمة، فصعقتُ من جديد بعينيه المفتوحتين وهما تنظران لي بسكونٍ غامض، وملامح وجهه المغلقة لم تساعدني في فك شفراتهما!

شعرتُ بالدماء تفر مني وجلستُ بتوتر ضربني فجأة كالبرق وأنا اسأله هاربة من مواجهته أو التفكير في فعلتي السابقة:

-هو أنت ما نمتش؟!

أجاب بطرقعة نافية وهو يرجع رأسه لظهر الفراش، نظر للسقف بصمت لم يبدِ أي إشارة لنية قطعه فازداد توتري وأنا اسأل من جديد:

-هي الساعة كام؟

-داخلة على ٩.



أخبرني بهدوء وخفوت دون أن يحرك نظره، وتفاجأتُ أنا من الوقت فأنذرته بنبرة قلقة وبنظرة حذِرة:

-أنت كدة اتأخرت على الشغل!

-اتصلت بلغتهم إني تعبان ومش رايح.

كلماته المصمتة لم تعطِ فرصة للمزيد، ففركت يدي وأنا أنظر لها بتوتر وشعور مقيت بالثقل يجثم على صدري!

-أنا آسفة.

أخرجتها هامسة دون أن أنظر له ولكني لمحتُ تحريكه رأسه تجاهي، ونظر لي طويلاً قبل أن يبادلني الهمس بآخر:

-على إيه؟

بادلته النظرة الصامتة قبل أن أخبره بندمٍ صادق:

-على امبارح.



عاد من جديد للصمت الطويل قبل أن يقطعه:

-بقيتي أحسن؟

هززتُ رأسي مجيبة ببطء فسمعتُ غمغمته:

-يعني ممكن أنام؟

لم أستشف ما وراء كلماته أكان ضجر أم قلق، ولكني قمتُ مسرعة من بين أحضانه وجلستُ على الطرف الآخر من الفراش أراقب الانفكاك البطيء لجسده المتخشب، ثم نومه على ظهره بإرهاقٍ طافح بان على جسده ووجهه الساكن دون أن يفتح عينيه، وظل عدة دقائق قبل أن يفرد ذراعه لي بدعوة صامتة دون أن يفتح عينيه وكأنه قرأ هواجسي التي عادتْ تهاجمني الآن، أو تذكر صراخي بها بالأمس!



لبيتُ دعوته على الفور بلا لحظة تفكيرٍ واحدة رغم بعض الخزي الذي أخذ يعضني ونمتُ على ذراعه المفرودة، والتي ظلتْ مفرودة هكذا بلا احتضانٍ أو احتواء قديم، لكني كنتُ راضية ولم أطمع بأكثر، ولكن لم أمنع شعور الوحشة من التسلل لي كذلك.. شعور مرير بالعودة لنقطة الصفر!

تلك النقطة التي لم أتزحزح منها لحظة إلا بشدة مصرة منه ليدي وإزاحات طويلة لم تتوقف!

حتى اكتفى وتوقف، وعدنا من جديد للصفر المؤلم، وصارتْ كوابيسي كلها أن أسقط وحدي لأسفل من هذا الصفر!

رفعتُ رأسي أنظر لوجهه الساكن اتأمله بشوقٍ جارف وخوفٍ لم يهدأ، ولم أستطِع كتم رجاء قلبي فطاوعته هامسة:

-ممكن طلب؟



هز رأسه موافقًا ببطء دون أن يفتح عينيه، فصرحتُ بخفوتٍ حرج وأنا أنظر لتقاسيم وجهه:

-ممكن أنت اللي تنام في حضني؟

فتح عينيه على الفور ونظر لي بارتيابٍ طويل، ثم بعد وقت استشعرته دهرًا قطع تلك النظرة المرتابة والذي استشعرتُ فيها شيءً من تكذيب، وأغمض عينيه وهو يسحب نفسًا عميقًا ثم قام واعتدل، فقمتُ وابتسامة جذل واسعة تشق ثغري بلا تصديقٍ وأنا أستقبل رأسه على صدري بنهمٍ كنهم صحراء تستقبل للمرة الأولى قطرات الغيث.. طوقتُ رأسه بذراعٍ وتشبثتُ بظهره بالآخر، وشعرتُ باشتياق وفراغ الأيام السابقة يحثني لأكثر وهدوءه يدفعني للمزيد:

-ممكن أطلب طلب كمان؟

-هممم؟



ضغطتُ على شفتي وأنا أستشعر ثقل الكلمات على لساني حتى أخرجتها بهمسٍ راجٍ:

-ممكن اصحيك على الغذا وتاكل معايا!

استشعرتُ هزة خفيفة مستسلمة من رأسه قبل أن يسقط في فوهة نوم عميق أقرب لغياب وعي.



(13)

أبعد الاحتراق نجاة؟!

**

وصغت هواك للدنيا نشيداً.. تراقص حالماً مثل الشعاع.

وكم ضمتك عيناي اشتياقاً؟!

وكم حملتك في شوق ذراعي؟!

وكم هامت عليك ظلال قلبي؟!

وفي عينيك كم سبحت شراعي؟!!

-في رحاب الحب.

-فاروق جويدة.



تيا

مرت شهور!

كثرت أم قلت لست أدرك صدقًا، لكنها مرت!

مرت كفراشات الربيع وهي تلهو في بساتين العشق أحيانًا، وتحترق بحريق لهيبه أحيانًا أخرى!

مرت، ولم يخور هذا الرابط الغريب بيننا بل ازداد صلابة وتعقيد!

فعند وجوده أشعر بالفعل وكأني الوحيدة بعالمه، ثم تصفعني الحقيقة عند رحيله لمن يعشق بأن الوهم خلق لي!

أما عن وجود من يعشق في المدى حولنا؛ فتجاهلته مرغمةً لأحيا!



أحيا به وله، وأتوق توقًا لطرف ثالث هو قطعة منه يُزرع داخل أحشائي وينمو حتى يسكن أحضاني، ثم أغلق عليهما دائرة روحي للأبد!

أخذتُ نفسًا عميقًا مزيل بابتسامةٍ حالمةٍ وأغلقتُ على تلك الصورة جميع أبواب روحي، وبقيتُ على هذه الوقفة بعض الوقت وأنا أستلذ من عذب خيالاتي التي لم أكتفِ منها ولن أكتفي.. ولكني فتحتهما مجبرة من جديد وأنا أعود لتأمل صورتي أمام المرآة متحركة لليمين واليسار بثوبِ خريفي أسود منقط بالكثير من الورود الذهبية، قصير لمنتصف الفخذ أو أعلى قليلاً، ومعقود بحزامٍ قماشيٍ خفيف عند البطن وفتحة صدر مثلثة، وشعري المسترسل على الظهر دارى أغلب فتحته المستطيلة.. ثوب لا يتناسب مع بداية الشتاء، ولكنه يناسب احتفالي الأول بصحبته.



عدتُ أكمل تزيين كعكتي بدقة غير سامحة بأي خطأ ولو طفيف.. فاليوم تحديدًا يختلف عن كل ما سبقه ويجب الاحتفال به رغم كرهي لهذه العادة قديمًا.. اليوم هو عيد مولدي الأول كزوجة له!

أعلم أنه لن يتذكره ولكنني أريد الاحتفال به بصحبته وسأفعل.

انتشلتني من أفكاري يداه وهي تحتضن جذعي، وشفتيه تحط ببطء على كتفي تهديه قبلة استشعرت نعومتها عبر أقمشة الثوب!

-جيت بدري!

علقتُ بها بابتسامة متفاجئة ولم يعلق على تعليقي، إنما تجاهله وهو يشير برأسه للكعكة ويسأل:

-يتعملي إيه؟

-بعمل كيك.



-امم، بس ده شكله مش كيك عادي!

مال برأسه ينظر لي بعينين تراقصتْ فيهما الشقاوة، وبصوتٍ خفيض همس:

-احنا عندنا حاجة نحتفل بيها النهاردة ولا إيه؟

أجبتُ بدلال ويداي مستمرة في التزيين:

-يعني، تقدر تقول حاجة زي كدة..

-إيه هي بقى؟

وبذات الصوت المدلل أجبتُ دون أن أنظر له:

-لما أخلص هقول لك.

استقام وابتعد بلا حديث بعدما طبع ذات القبلة الناعمة على كتفي، ورجعتُ بكامل تركيزي لتزيين الكعكة.. حتى داهمني بسلسال قصير يضعه على صدري وأحكم إغلاقه ورفع شعري



ببطء فوقه، ثم سمعتُ صوت صفير قصير منه تزامن مع مرور طرف إصبعه ببطء على طول ظهري، وهو يعلق بوقاحة:

-إيه ده، إيه ده.. ده في حجات مستخبية كمان!

تجاهلتُ معاكسته الوقحة وأنا أحاول رؤية شكل السلسال القصير، واستدرتُ له مستفسرة بعيون تضوي:

-إيه دي!

-إيه ده!

تجاهل سؤالي، وتضاعفتْ الوقاحة في ابتسامته وهو يسأل بخبث ويده تشدني إلى صدره والأخرى تجول على ظهري العاري بخفة، فتجاهلتُ تجاهله وأنا أردف بجذل:

-عاوزة اشوفها؛ مش عارفة اشوفها!



تركته وانطلقتُ أهرول تجاه غرفة النوم، وتوقفتُ أمام المرآة أتأملها فأصابتني الصدمة من روعة تفاصيلها!

كان سلسال قصير حدوده ساكنة عند حدود الترقوة، مشكل بحروف اسمي ولكن يختبأ حرف "تاء" صغير داخل حدود حرف "ضاد" أكبر قليلاً وكأنه يحتضنه، فبات السلسال يحمل أسمينا معًا!

شاهدتُ انعكاس ابتسامته المتسعة على المرآة وهو يحتضني ويثبتْ ظهري لصدره، ثم استند بذقنه على رأسي وهو يسأل:

-عجبتك؟

استدرتُ له وطوقتُ عنقه بيدي وأنا أقفز وأجيب ببهجةٍ طاغية:

-أوي أوي أوي أوي..



ظل ينظر لي مليًّا فأسرتني نظرة عينيه اللامعة والتي لم أعرف في هذه اللحظة على أي نحو أفسرها!

قاطع شرودي به همسته الخفيضة:

-كل سنة وأنت معايا.

تذَكره!

تذكره وأتى بهدية ويعايد بملكية، وهو الذي بينه وبين حفظ التواريخ وتذكرها خصام أبدي وهوة سحيقة!

تذكر يوم مولدي الأول وأنا زوجته!

عجزتُ عن الحديث بما يتراقص بداخلي الآن، ولم أستطع الرد سوى باحتضان متشبث لأستشعر قلبه الحبيب بجوار قلبي وأبعث له بقفزات دقاته العاشقة التي تحلق في سمائه في هذه



اللحظة، وبادلني هو الاحتضان بأشد والتشبث بآخر طويلاً حتى غمغم:

-تيا..

ابتعدتُ أنظر له وأنا أميل برأسي لليمين قليلاً، أجيب بذات نبرة الدلال المرح:

-نعم.

فكك ذراعيه من حولي واستند بنصف جلسة على طاولة الزينة من ورائه، وسأل بنبرة زاجرة وحاجب مرتفع بتهديد وحنق متواري:

-فين هدية بـهـي؟!

شدد على الاسم وقطّع حروفه، فارتفع حاجباي بورطة متفاجئة وكأنه حشرني في زاوية باردة لن أفلح في التملص منها، ومع ذلك



داهمتني رغبة غريبة للضحك حاولتُ منعها وأنا أمط شفتي وأبتعد بأنظاري مدعية الجهل:

-احم.. هدية إيه!

لم يرد وإنما ارتفع حاجبه أكثر وزاد التهديد في عيونه أكثر وأكثر؛

فزفرتُ باستسلام وأردفتُ بحذر:

-عاوزها ليه؟!

-عايز اشوفها.

هكذا فقط.. مغلقة التعابير، ملولة، ومختصرة!

نظرتُ له بشك ونطقتُ بحذر وتحذير:

-ضيا!

لم يتأثر وجهه المصمم صامت التعابير وهو يزيح بخفة كتفي بكفه آمرًا بتبرم:



-روحي هاتيها.

زفرتُ بعلو أظهر له حنقي وتبرمي أنا الأخرى، ثم استدرتُ تجاه خزانة الملابس لأخرج علبتها منه، ووقتها فقط حررتُ ابتسامة متسعة ودَّت شق ثغري، ثم أغمضتُ عيني وأنا أضغط على شفتي بشدة لأمنع تطورها لضحكة مجلجلة مستمتعة!

أخرجتها بعد فترة بحث قصيرة، وعدتُ له بها راسمة على ملامحي الضجر بصعوبة. اختطف مني العلبة المخملية السوداء ثم فتحها وأخرج السوار منها على الفور، ورفع يده به لمستوى وجهه وهو ينظر له بتقزز مبالغ به، ثم علق بفمٍ مقلوب وهو ينظر لي بغيظٍ مشمئز:

-شكله زي الزفت. عَجَبِك على إيه ده!

لم أستطع التحكم في ملامح الدهشة الصادقة التي تملكتني؛ فعِدت ورائه باستنكار:



-ده شكله زي الزفت!

صوب رأسه لليمين قليلاً واتسعتْ عيناه بتحذير معلقًا:

-نعم!

عدلتُ صيغتي مضطرة وأنا أنظر بأسى للسوار ودلياته الصغيرة على أشكال فراشات:

-أقصد يعني شكلها عادي، بس مش زي الزفت!

-لا زي الزفت.

-طب عاوزها في إيه؟!

نظر لي وصمتْ طويلاً قبل أن يصرح بوجه ونبرة متحدية:

-هرجعها له.

-نعم!



صدمني بحق وظننته لوهلة يهذي أو يستفزني فقط، ولكن ملامح وجهه الثابتة بتصميم وصمته الغير مهتم بالتنازل بجواب جعلني اتأكد أنه لا يمزح فاستطردتُ رافضة وأنا أحاول اختطافها منه:

-ضيا من فضلك مالكش دعوة بيها وهاتها دي حاجتي.

فرفع يده بها لأقصى علو فأصبح الوصول لها درب من المستحيل مع فارق الطول المخجل بيننا؛ فنظرتُ لها بحسرة مدركة لمدى جديته وهو يجيب بتصميمٍ مُراضي رغم حنقه المتمسك بملامحه وأذيال كلماته:

-هجيب لك غيرها.

رفضتُ معلقة وأنا أحاول الوصول لها من جديد بلا فائدة:

-يا ضيا ماتهزرش.



تجاهلني من جديد وبقتْ ذراعه على ارتفاعها ويده قابضة عليها؛ فوقفتُ أنظر له بغير رضا وتخصرتُ مردفة باعتراضٍ صادق:

-ضياماينفعش ترجعها؛ عيب!

-خليكي في حالك.

قالها وهو يبتعد، فاعترضتُ طريقه بمجادلة مستحقة وأنا أمنع ذهابه بكفي على صدره:

-طب ما هو ده حالي على فكرة فعلاً، دي بتاعتي.

-قولت لك هجيب لك غيرها وأحسن كمان.

لم أكترث لحدة كلماته وإصرارها وأنا أضرب بقدمي على الأرض بعناد:

-لا بقى أنا عوزاها هي.

-تيا!



هذه المرة ارتفع صوت زعيقه قليلاً ببوادر غضب صادق واتسعتْ عيونه بتحذير جاد!

صمتُ مرغمة وأنا أشاهده يذهب بالسوار ويليقيه بإهمال في علبته ثم ألقى بالعلبة كلها داخل جيب معطفه!

عاد يقف أمامي مبتسمًا بتحدٍ وهو ينظر لعيوني التي تنظر له شذرًا، فضرب بخفة بسبابته على شفتي المضمومتين بتبرم:

-فكي البوز ده.

كاد أن ينفك بالفعل بضحكة منفلتة لكني تحكمتُ فيها بجلَد وثبَّتُ "البوز" بعزمٍ ووجهتُ رأسي يسارًا لكيلا أنظر له وزدتُ على ذلك عقدة جبين إضافية!



أقترب أكثر واحتضن جزعي بيد والأخرى ظلتْ تتلمس خصلات شعري المتحررة والمفرودة خصيصًا اليوم، وعلق وقد تبدلتْ ابتسامته المتحدية لأخرى ناعمة، لامعة، ومهلكة:

-شعرك وهو مفرود حلو أوي.

نسيتُ السوار وبهي والماضي والحاضر والمستقبل والعالم كله ورفرفتْ روحي في سماء هذه الكلمات وهذه النظرة؛ فعدتُ أنظر له وقد شقتْ البسمة ثغري واتسعتْ، وطوقتُ جذعه أنا الأخرى وأنا استفسر بفضولٍ وابتهاج:

-كدة أحلى ولا وهو عادي؟

-الاتنين أحلى من بعض.

راقتْ لي كلماته لكني زويتُ ما بين عيني وأنا أُنهيه بمناكفة ودلال:

-بلاش دبلوماسية يا باشمهندس.



-مش دبلوماسية يا باشمهندسة والله، بس نعمل إيه وأنت كل حاجة فيكي حلوة!

أغمضتُ عيني وشددتُ عليهما وأنا أخفي نفسي بأحضانه، ثم غمغمتُ بخفوتٍ عاشق:

-بحبك.

أخفى وجهه في تجويف عنقي وهو يبادلني الخفوت بآخر:

-وأنا ماتخيلش حياتي من غيرك..

نثر قبلات ناعمة لذيذة ممتزجة بكلماتٍ أذابت قلبي:

-ماتنفعش أصلاً حياتي من غيرك.. ماتنفعش.

كدتُ أسقط في أمواج عشقه وأنشد معه الغرق للأبد، ولكني تمسكتُ بزورق واهن في محيطات تتيُمي وأنا أتذكر موضوع هام وددتُ الحديث معه فيه؛ فانتشلته معي مؤقتًا بنداءٍ مشاغب:



-ضياء..

ابتعد برأسه ينظر لي بعيونٍ حانقة وعلق بصوتٍ مهدد:

-هطفحك الهمزة دي.. هطفحها لك!

لم أستطع التحكم وكتم ضحكاتي وأنا اسأله برغبة حارقة في المعرفة:

-هو أنت ليه مش بتحب أقول لك يا ضياء؟!

-عشان مابتقوليهاش غير لما بتبقى طالبة معاك نكد يا تيا!

قالها بوجه مستنفر فاختفتْ الضحكات على الفور، واستعرتُ منه ملامح الوجه المهددة والنبرة الحانقة المحذرة:

-أنا نكدية يا ضياء!

اتسعتْ عيناه ورفع كفيه بجواره ببراءة مدّعاة:

-قطع لساني.. أنا قصدي ضيا مع تيا بتبقى أحلى.. أرق.. ألّيق.



ارتجف قلبي بشدة من نظرته مجهولة التأويل بسهامها الدافئة التي تراشقتْ بقلبي وزرعتْ داخله أطنان من بساتين عشق وحنان، وشعرتُ بكلماته التي بدأتْ مشاغبة وانتهتْ بخفوتٍ تائه تعانق روحي؛ فابتسمتُ وأردفتُ هامسة وأنا أتشبث بيديه، محاولة بيأس استعادة جديتي الحائرة:

-طب ضيا.. في كذا شركة كنت بعت لهم الـC.V وكلموني وحددوا مواعيد للانترفيو.. وأنا محتارة.

زوى حاجبيه وتساءل:

-مع بعض؟

-لا.. بس كلهم كويسين فمحتارة.

أماء رأسه وقد اعتلتْ الجدية ملامحه وكلماته بعدما صوب أنظاره لليمين مفكرًا:



-خلاص اديني أسمائهم وهجمع ديتا عن كل واحدة فيهم، ونقعد نختار مع بعض.

هززتُ رأسي ببطء ممتن وحاوطته بذراعي وفعل بالمثل، وأسكنت رأسي عند صدره؛ أنعم بهذه اللحظات التي لن أكتفي منها أبدًا.. وبقينا على تلك الوقفة بعض الوقت حتى قاطع صمتنا سؤاله:

-مش عايزة نخرج نحتفل برا؟

فككتُ ذراعي وتذكرتُ احتفالي الذي نسيته في غمرة دلاله ومشاغبته فابتعدتُ أجيبه وأنا أذهب لأكمل تزين كعكتي الذي لم يكتمل:

-تؤ.. أنا جهزت فيلم هنسهر عليه، وبخلص التورتة بتاعتي اهو خلاص.

-متأكدة!



هززتُ رأسي بتأكيد، فتحرك ورائي واستطرد بنبرة مغرية:

-راجعي نفسك بدل ما تندمي؛ عندي أفكار هتعجبك.

وقفتُ أمام كعكتي من جديد أكملها، واستند بمرفقه بجواري:

-أجِلهم لبعدين.. أنا مش عاوزة اخرج النهاردة.. عاوزة أقضي اليوم معاك هنا.

قرب يده من الكعكة بعرض أثار جنوني:

-طب أساعدك؟!

أمسكتُ يده قبل أن تصل إليها وتفسدها، وحذرته بخفوتٍ وتهديد شرس وعيون خطرة:

-أيدك ماتتمدش على التورتة بتاعتي.

-ليه إن شاء الله!

-هتبوظها.



-أبوظها.. فدايا.

-لا مش فداك.

قولتها بشراسة مصممة، فمثل الصدمة على ملامحه وهو يعيد ورائي ويستنكر:

-لا مش فداك!.. هو إيه اللي لا مش فداك!

ثم تخصر ونظر لي بسؤال مهدد؛ فقلدتُ وقفته بإجابة فورية:

-أنا ولا التورتة يا تيا؟!

-التورتة يا ضياء.

ضيق عينيه وتبادلنا النظرات المتحدية وكلٌ منا يمنع ملامحه من الانفلات والضحك، حتى تحرك ثم صاح بعلو وهو يبتعد:

-أنت الخسرانة.

-ماشي.



بادلته الصياح بآخر وأطلقتُ ضحكاتي الخافتة، ثم أكملتُ تزين الكعكة حتى انتهيتُ أخيرًا، فبدأتُ في تحضير الغداء.. وعندما حل المساء بدأتْ مراسم الاحتفال وهو يشعل الشموع التي وضعها بيديه في كعكتي مغيظًا، ثم تمنيتُ أمنيتي وأطفأنا الشمع سويًا.. وبالطبع كانت أمنيتي هو وطفل.

جعلته يُجهز الفيلم وبدأتُ أنا بترتيب الأغطية على الأريكة أمام شاشة التلفاز، ووضعتُ كافة التسالي على المنضدة أمامنا، ثم انزويتُ في أحضانه أراقب الفيلم الذي اخترته بنفسي بعيون زجاجية وانتباه مسافر مع أمنيتي التي أخذت تموج داخلي كأمواج بحر هائج لا يعرف لشطوط الصمت سبيل، وتخيل طفل شقي يُحشر في المنتصف بيننا الآن أخذ يتدفق في عقلي وخيالي بعنف ويحاوط قلبي بدفء قارص!

-ضيا..



قولتها هامسة أشد به انتباهه لي، فرد بذات الهمس:

-يا عيون ضيا..

قالها بحنان وهو يمسد ذراعي بهدوء، فأصابني الوصف برغبة ساذجة في ذرف دمعاتٍ لستُ أدري سببها، وأزاد حول قلبي الدفء القارص لحد مربك؛ فرفعتُ رأسي أطالعه برجاء خافت:

-أنا عاوزة اروح للدكتورة.

أعتدل يجلس فور سماعه كلماتي وهو يتساءل بوجه تجهم وجبين قَطُب، وعيونه انبثق قلق صادق فيها:

-دكتورة ليه؟!.. أنت كويسة؟!

تراقص قلبي لاستشعاري خوفه عليّ رغم تلك الوخزات المؤلمة التي أصابتني لقلقه، فوضعتُ كفي على صدره أطمئنه ثم أسبلتُ جفنيّ مردفة:



-متخافش أنا كويسة.. أنا بس عاوزة أروح لدكتورة النسا.

انقشع الترقب وتبخر، وشاهدتُ التلهف يطغى على ملامحه مع سؤاله المترقب:

-ليه؟

ترقبه شطر قلبي لنصفين وضاعف لهفتي أكثر، فأغمضتُ عيني لألا أراه وأنا أهديه الخيبة بجوابي:

-عاوزة اعرف الحمل اتأخر ليه كل ده..

أصابه الإحباط جليًا رغم محاولته المفضوحة في تخبئته لكنه فشل، أو ربما كنتُ أنبش أنا عما وراء عينيه أكثر من اللازم!

عاود للاستلقاء المرتاح من جديد ورد بكلمة باترة وهو يعيدني لأحضانه:

-لا.



سألتُ بحزن رافضة الخضوع وغلق الموضوع كما أراد أن يفعل:

-ليه لا؟!

-عشان احنا روحنا قبل كدة واطمنا إن مافيش مشكلة الحمد الله، يبقى خلاص.

أوضح كلماته بهدوء صبور وكأنه يراضي طفلة فكابرتُ بعناد طفلة بالفعل:

-نطمن تاني.

-لا.

-ليه لا؟!

رده الرافض المختصر ضايقني فسألته بسخط وحزن، ورجع يجيب بهدوء ومراضاة حنونة:

-عشان أنا مش هدخلك الدوامة دي يا تيا.



عاندته بتلهف راضيٍ بأي ألم وترحيب بتلك الدوامة التي يخشاها:

-أنا عاوزة ادخلها.

أجاب غاضبًا بحدة قاطعة هذه المرة:

-وأنا قولت لا.

أغمضتُ عيني بيأس وزفرتُ بتعبٍ ثم هادنتُ غضبه الوليد وأنا أشي له بلهفتي المريرة:

-يا ضيا افهم أرجوك.. أنا هموت على بيبي منك.

استشعرتُ برودة كفه على وجنتي وهو يرفع رأسي له ففتحتُ عيني أنظر له وقد ترقرقتْ الدمعات في عيني بالفعل هذه المرة، وفاضتْ مع صوته المتلهف باعترافٍ هامس:

-وأنا كمان هموت على بيبي منك.



كلماته أصابتْ كل الضوضاء داخلي بالخرس ونشلتْ من رأسي الكلمات، وبقيتُ أنظر له بانشداه طويلاً حتى استطعتُ بصعوبة تجميع أحرف وترتيبها في تساؤل محترق رغم خفوته؛ أخرج به بعضًا من خوف وألم الإحساس المتشكك الخبيث الذي تسلل لتصديقي لجمال كلماته؛ فعاد يأكل داخلي كسوسٍ ينخر في زرع نَضِر:

-هتموت على بيبي مني ولا هتموت على بيبي بس؟!

تغضن جبينه وسأل بحذر مراقب:

-هتفرق؟

-جدًا.

-الاتنين.



قالها فورية بهزة رأسٍ صغيرة وعيون تتحدث بكثير لم أفهمه، ثم أردف بلهفة حارة:

-هموت على بيبي، وهموت واشيل بنتي منك بين أيديا يا تيا.

ابنته!

لم أظنه يومًا يتمنى الحصول على فتاة!

ولم أتخيل يومًا أن تخرج منه تلك الكلمات وتكون موجهة لي!

ولم يطف في بالي أن أمتلك هذا الدفء الذي بين ذراعيه وأخوض هذا الحديث معه رغم حلمي طويلاً بذلك!

الجلوس والغرق في حلم مشترك واختيار أسماء أطفالنا!

أمنية ظننتها ذات أمس مستحيلة المنال!

نظرتُ له وقد بدأ الأمان والهدوء يفترشا صدري ويسكناه من جديد، وابتساماتي ترتسم مرة أخرى وأنا أعترض بنعومة وتمني:



-أنا مش عاوزة بنت، أنا عاوزة ولد واسميه أحمد على اسم بابا الله يرحمه.

قطب جبينه باعتراضٍ وصوب عينيه لأعلى قليلاً وهو يغمغم بصوتٍ خفيض مسموع؛ يتذوق الاسم:

-أحمد ضياء أحمد الوكيل!.. تؤ، لا مش عاجني.

-عاجبني.

-مش عاجبني!

-عاجبني!

هز رأسه وهو يكسر دائرة العناد الطفولي بطريقة ملتوية يتقنها:

-بصي أنا مش عاوزه ولد أصلاً.

ثم نظر لي بشقاوة حانية واتسعتْ ابتسامته مردفًا وهو يعيد خصلاتْ شعري للوراء:



-أنا عاوزها بنت.. نسخة منك.. في كل حاجة.

كلماته الأخيرة الخافتة امتزجتْ مع المرور البطيء لشفتيه على حدود فكي؛ فأذاقني حلاوة لذة نيل سُكرَه المباح، وأكمل بخفوتٍ أكبر أطاح ببواقي مخاوفي وثباتي في فضاءٍ سحيق:

-تيا واحدة متكفيش.

أغمضتُ عيني مستسلمة لاسترسال عشقه لعمق دواخلي أكثر وأكثر وأنا أتساءل بكياني إن كان هناك أروع من هذا الدفء!

هل هناك أروع من تلك الكلمات!

هل هناك ألذّ من هذا الشعور الذي يتملكني الآن ويمتلكني به!

هل توجد أمنية في الكون أجمل منه، وهل يوجد أدفء أو أحن من احتواء ذراعيه!



-بقول لك إيه.. أنت عاجبك الفيلم اللي مابنتفرجش عليه وفات نصه ده؟!

استيقظتُ مترنحة من تيهي فيه ومعه على كلماته المغتاظة؛ فالتفتُ آخذ جهاز التحكم محاولة الهرب من ثمل هواه الذي يحيطني به ويغريني بالنهل منه أكثر والغياب فيه أكثر وأكثر:

-خلاص نجيبه من الأول..

-لا نجيبه من الأول بكرا بقى إن شاء الله.. النهاردة خلينا نركز في إننا نجيب البيبي المتأخر.

كدتُ أعترض مصممة إكمال الحديث؛ محاولة التشبث بأي بر ينجي من بحر خمر عشقه، ولكنه أصر وتشبث بالغوص، وسحبني معه لما أسفل العمق..

فرضيتُ، وهويتُ، ونجوتُ معه بالغرق..



مستعذبة الاحتماء بتفاصيل لقياه!

**



لماذا أراك على كل شيءً؟!

كأنك في الأرضِ كل البشر!

كأنك دربٌ بغير انتهاء!

وأني خلقت لهذا السفر.

-لماذا أراك على كل شيء؟!

-فاروق جويدة



براء

مرت الشهور بكثرة وها هو الشتاء يدق الأبواب من جديد!

شتاء يبدو أنه سيكون قارصًا شرسًا هذا العام!؛ فمن شهره الأول أنذرنا بشراسة أمطاره ورمادية غيومه الحاجبة لدفء الشمس ووهجها!

ولكن رغم قسوته وكآبته وبرودته تلك، سيكون الطقس حولي دافئًا ومطمئنًا ومختلفًا، أعرف هذا..

فإن كان الشتاء -وكعادته معي- سيشهر في وجهي أنيابه استعدادًا لنهش روحي بقتامة ذكرياته ورعدة مخاوفي، فسأختبئ منه محتمية بين أحضان الحبيب الذي أعلم أني سألقى أماني المُفقود فيه وسيمنحني هو إياه ببذخ.. ولن أعاود الاستسلام لبرودته



مرة أخرى ولن أسمح لها بالتسلل لأنفاسي وزهق روحي كي يقتاتْ عليَّ كفريسة ساكنة نُهشت منها الحياة!

بل سأتمسك بدفء أنفاسه بجوار أنفاسي وانسلالها داخل صدري لتُذيب أشواك ثلوجه القديمة فتحيلها لأنهار عشق عذب، وتحيل برودة وحدته إثر افتراقه الدوري لمخمل ناعم دافئ كمهد تُهدهَد فيه الحياة. خرجتُ من باب كُليَّتي الجديدة التي التحقتُ بها حديثًا بعدما أصرّ هو على بدئي دراسة التاريخ في هذا العام، وانغماسي مع شيء يفيدني وأحبه.. وبعد تفكير ليس بطويل وجدتها فكرة لا بأس بها بالفعل فطاوعته كالمعتاد وفعلتُ.

وقفتُ أبحث بعيوني عن سيارته بين الزحام ولم أجدها فأصابني بعض التوتر؛ فهذه المرة الأولى التي يتأخر فيها وأخرج ولا أجده في انتظاري!



هدَّأتُ توتري محدثة ذاتي بأنه أكد عليّ أنه سيأتي ليصطحبني ونذهب للبيت سويًا كما يفعل دائمًا. زفرتُ زفرة خافتة أخرج بها نفسي المضطرب ووقفتُ أستند على جدار السور في انتظاره أكيدة من قدومه، وحمدتُ الله سرًا أن الجو اليوم هادئ ومستقر عن الأسبوع الماضي؛ فهكذا ستكون الأجواء مناسبة لاحتفالي الخاص وخالية من منغصات الرعدة والبرودة الذي يتركهم في أوصالي زمهرير الشتاء.. وعند هذه النقطة تضاعف حماسي ونشب في روحي الشوق.

وقفتُ وقلبي يدق بعنف منتظر رؤيته بشوق متلهف بعد فراق الثلاث أيام اللعينة التي يختفي فيهم معها.. ظلتْ عيناي تطوف بين الجموع بحثًا عنه، وانشغل رأسي برسم تفاصيل اليوم في مخيلتي الذي أطمح أن يسير كما أتمنى استعدادًا لاحتفال غد بعيد زواجنا السادس، والعيد الأول لاعترافي بالعشق!



ليس اعترافي له، ولكن اعترافي وتسليمي لقلبي أنا!

فمنذ ذاك اليوم البعيد الذي انهارتْ فيه قلاعي الهزلة وبُعث من أسفل ركامها دقة ممتنة لعودة حياة هو سرها.. ضرب قلبي طوفان صارم ملّ هذياني فتساءل باستسلامٍ منهك مستشهدًا بتشبثي برأسه الساكنة فوق صدري باستكانة كدتُ أموت شوقًا لها.. ماذا لو سلمتُ بكلمة عشق!

ماذا لو صببتُ كل ما يعتمل في قلبي آن ذاك من أفراح وشوق واستكانة ودفء وأمان مفتقد، في كأس نخب العشق!

ماذا لو جمعتُ كل قفزات قلبي المهللة في تلك اللحظة وسجنتهم داخل اعترافٍ واضح الصوت صريح الكلمات، بعدما تجاهلتُ مرارًا صوت أنّاته وأحرفه المنسلة بإصرار من قلبٍ مكمم بهاجس ذنب!



ماذا لو كان بالفعل هذا هو العشق وقد نسيتُ ملامحه وجهلتُ ضوئه الشمسي، بعدما اعتادتْ الأعين على الظلام من طول سُبات خَضعتُ له بإجبار قاسي!

ماذا لو اعترفتُ بكل تعقيدات الشعور، وبكل بساطة الأحرف.. أني أعشقه!

أعشقه إن كان عشقه التوبة، وأعشقه وإن كان عشقه المعصية!

أعشقه، وأعشق أنفاسه، وأعشق وجوده، وأموت كمدًا لغيابه!

فلا يحق للعشق أن يهدى لسواه..

ولا يحق للقلب أن يتألم لسواه..

ولا يحق للروح أن تتعلق بسواه..

ولا يحق للعمر أن يفنى إلا معه.



فاستسلمتُ أخيرًا؛ وسلمتُ لغزو عشقه معترفة بأحقيته وملكيته، وحذوتُ خطاه بتلهف وأبصرتُ بهاءه مذهولة وكأني أتعرف عليه من جديد!

أو ربما أتعرف على لذة تذوق عشقه صراحة للمرة الأولى!

عشقه الذي أصبح مندهش متشكك الخُطى هو الآخر وكأنه يقاسمني الخطوات الأولى في دروب العشق..

أخطو تجاهه مرتبكة فيخطو متوترًا..

أقترب أكثر متخبطة فيدنو مني مرشدًا..

أهرول له جامحة فيعدو نحوي ويتشبث ساندًا..

فأتممتُ سقوطي في فخاخه راضية، رافضة منه كل فرص ساذجة للفكاك!



أغمضتُ عيني أستلذ بتلك الدغدغات التي ترتع داخلي كفراشات تلهو، وهدر قلبي متسائلاً بتوق: لماذا تأخر لهذا الحد هذه المرة؟!

وقبل أن أخرج هاتفي للاتصال به لمحته آتيًا من بعيد فذهبتُ له على الفور، وما أن توقف على جانب الطريق حتى ركبتُ بجواره بلا انتظار.

-وحشتني.

صرحتُ بها مباشرة مصحوبة بقبلة خاطفة على وجنته، واستقبلها مشاغبًا ككل مرة بتعليقٍ وقح وبسمة جانبية واسعة:

-كدة هنتقفش آداب في الشارع، لمي نفسك.

رفعتُ حاجبي بتحدٍ شقي وملتُ على ثغره أنقش عليه قبلة أخرى استقبلها هو ككل مرة بهدوء متأمل، ثم دنى منه بعدها نحنحة مرتبكة وهو ينظر لي معتذرًا بتقرير:



-اتأخرت عليك معلش.

هززتُ رأسي أؤيده ثم سألته بفضول:

-كنت بتعمل إيه؟

-كنت بحضر لك مفاجأة.

قالها بهدوء وثبات ولم يحرك بصره من على الطريق أمامه، وأشعل داخلي الفضول والتساؤل المتشكك، ورفضتُ الانسياق لتشككي مؤكدة داخلي أنه بالتأكيد لا يتذكر ذكرى زواجنا، فـ"ضياء" إن كان بارعًا في الفشل في شيء فهو حفظ الأرقام والتواريخ!

ولكن لما مفاجأة اليوم تحديدًا إن كان لا يذكر!

اشتعل داخلي الفضول أكثر ولم أستطع إلا أن أعتدِل في جلستي لأواجهه متسائلة:



-مفاجأة إيه وليه؟

-أصبري وهتعرفي.

صمتُ مرغمة وزفرتُ بضجر فابتسم لي مغيظًا، وبعد فترة لاحظتُ انتهاجه طريقًا مختلف عن هذا الذي نعتاد على السير فيه دومًا، وبدأ الزحام في الهدوء على طريقٍ سريع، ثم لاحظت بعد قليل لافتة معلقة تشي لي بأننا أصبحنا على الطريق الصحراوي؛ فعُدتُ من جديد أسأله وقد انعقد حاجباي وضاقتْ عيناي تراقب الطريق بفضولٍ تضاعف:

-احنا رايحين فين؟!.. ده مش طريق البيت!

لم يرد سوى بنظرة هادئة تبعها بتصريح أكثر هدوءً، متجاهلاً أسئلتي:

-لو عاوزة تنامي شوية نامي عشان الطريق طويل.



-لا مش عايزة أنام، قول لي رايحين فين الأول.

-تؤ، نامي أحسن.

أغمضتُ عيني وأنا أتقلب في جلستي لأواجهه وحاولتُ مهادنة فضولي وتناسيه بمراقبته وهو يقود، ووضعتْ كفي الباردة داخل دفء كفه المرتاحة على ساقه واحتضنها هو على الفور، ظل إبهامه يمسد ظاهرها ببطء وينشر عليها الأمان والدفء والكثير من العشق الذي انفجر في قلبي في هذه اللحظة بلا أي قدرة أو رغبة في مهادنته. ظلتْ عيناي تتأمل وجهه الساكن طويلاً حتى تعانقتْ أجفاني وغبتُ في غفوة إجبارية خضعتْ لأمره السابق على ما يبدو!

وعندما استيقظتُ من جديد وجدتُ الظلام يغلفنا وقد حل الليل علينا في الطريق وزاد الجو برودة.



اعتدلتُ وأنا أفرك وجهي لأطرد منه بقايا النعاس بيدٍ والأخرى لازالتْ أسيرة دفء كفه فلم أحاول تحريرها، وسألته بصوتٍ متحشرج لم يتحرر من أثر النوم بعد:

-فاضل كتير؟

-كام ساعة.

قالها بهدوءٍ مُرهَق، فاعتدلتُ وأنا أعيد ورائه باستنكار وسألته باستغراب:

-كام ساعة! .. ضياء قول لي احنا رايحين فين.

-خلاص اطمني قربنا نوصل.

صمتُ للحظات وأنا أتطلع للطريق حولي ثم عدتُ أنظر له وطلبتُ بدلال لازلت أتعثر في نهج دروبه معه:

-طب عشان خاطري قول رايحين فين.



نظر لي للحظة ثم عاد ببصره للطريق من جديد:

-خلاص أقل من ساعتين وتعرفي.

قالها بابتسامة هادئة مُطَمْئنة، ثم استطرد ينظر لي بمكرٍ وحاجبٍ مرفوع:

-أنت نمتي أكتر من خمس ساعات على فكرة.

اعتلتْ الصدمة وجهي، ببنما أكمل وهو يرقق صوته مقلدًا كلماتي هازئًا:

-لا مش عايزة أنام..

عاد ينظر لي ضاحكًا، يستفزني بالكلمات وتعبيرات وجهه:

-أومال لو كنت عايزة كنت نمتي قد إيه؟!

ضحكتُ واعترفتُ بحرج وأنا أضرب كتفه بظاهر كفي:

-مانمتش امبارح كويس.



-مانمتيش ليه؟

كنتُ أشتاقك وأشتاق أحضانك لحدٍ مؤلم فلم يستطع سلطان النوم بكل عنفوانه أن يتغلب على ممالك اشتياقي.

وددتُش أن أقولها صراحة له ولكني أردتُ أن أستأثر بعيونه لي وقتها؛ فصمتُش في نية تأجيل لا إلغاء.

-مازهقتش من الصمت ده؟

سألته هاربة من الإجابة وأجاب مشيرًا برأسه ببساطة:

-افتحي الراديو.

فعلتُ وفتحته على قناتي المفضلة وتعثرتُ في أغنية انجليزية أعشقها فات نصفها تقريبًا، فتركتُ بقيتها أستمع لها باستمتاع وتركتُ روحي تشاركها الكلمات.



Can you hear me screaming, "Please don't leave me!"

Hold on, I still want you

Come back, I still need you

Let me take your hand, I'll make it right

I swear to love you all my life

Hold on, I still need you

I don't wanna let go

I know I'm not that strong

I just wanna hear you

Saying, "Baby, let's go home."

Let's go home""



Yeah, I just wanna take you home

انتهتْ الكلمات وبقي أثرها، وبقيتُ أعيدها داخلي وأنا سارحة في تأمل الطريق المتآكل أمامي بسرعة بعدما استندتُ برأسي على زجاج السيارة المغلق.. ولم أنتبه لبدء غيرها إلا عندما هاجمتني الكلمات بسيف ذكرياتٍ بتار هاجمني في عقر أماني!

"الدنيا ريشة في هوا.."

"طايرة من غير جناحين.."

"واحنا النهاردة سوا.."

"وبكرا هنكون فين.."

"في الدنيا، في الدنيا.."

"ياما ناس بتتقابل من غير معاد يجمع بينهم"

"وناس بتتحايل على الفراق يبعد عنهم"



"مين ضمهم بإديه، واتفرقوا حواليه"

"سبب لقاهم إيه، وكان فراقهم ليه"

قبضة مريرة أخذتْ تعصر صدري وشعرتُ بانتفاضته ألمًا، واحتضارًا قديم بدأ يتسلل لي بخبثٍ لم أتحمله، كما لم أتحمل عاصفة أفكارٍ سوداء أخذتْ تدور فوق رأسي حتى كادتْ تسقطني فاقدة القوة الهشة الحديثة التي امتلكتها بعد حرب طاحنة خسرت فيها كل شيء لكي أنالها؛ لأحتفِظ بمن أهدى روحي الحياة من جديد!

اعترضتْ روحي على الغياب مجددًا في هوة هذا الظلام، فانتفضتُ أغلق مشغل الصوت باستعجالٍ طاله بعض الحدة قبل أن تكمل كلماتها وتكمل اختراق روحي بمرارة أسهمها، وعلق هو معترضًا باستغراب:

-قفلتيها ليه أنا بحبها!



لو علم تاريخها معي وبمن تذكرني لما أحبها.

لو علم المرار الذي بثقته داخلي الآن لما أحبها.. أبدًا.

-بس أنا مابحبهاش.

اعترفتُ بخفة أحاول مدراة الألم والارتباك، وسأل هو مستنكرًا بابتسامة واسعة وقد ارتفع حاجباه واتسعتْ عيناه:

-يعني عشان أنت مابتحبيهاش ما اسمعهاش؟!

-آه.

قولتها صارمة وقد كشرتُ وجهي بجدية.. وعلق هو معترضًا وهو ينظر لي وشبح بسمة متلاعبة تعلق بثغره:

-دي ديكتاتورية دي.

-آه.



قولتها أكثر صرامة بعيونٍ محذرة، فغمغم بصوتٍ خفيض لكن مسموع:

-ربنا ع الظالم.

نظرتُ له بطرف عيني وسجنتُ ابتسامة ملحة ودتْ الانفلات، وسألته بنبرة محذرة ونظرة متحدية:

-بتقول إيه؟

-بقول خلاص غني أنت.

نظرتُ له مشدوهة بهذا الطلب فنظر لي وأردف هامسًا بصوتٍ دافئ وعيون مشتاقة:

-بقالي كتير أوي ماسمعتكيش وأنت بتغني.

كثيرًا.. كثيرًا جدًا. من قبل أن يتزوج بأخرى، وربما من قبلها أيضًا وأنا لم أغني، ربما من قبل آخر طفل نفقده.. أي أكثر من عام!



أجليتُ كل هذا من رأسي ورفضتُ متحججة:

-لا أنا صوتي وحش.

-وحش! .. امممم.. خلاص أغني أنا عشان تعرفي إن الله حق.

اتسعتْ عيناي بفزعٍ مشاغب واعترضتُ أهز رأسي بنهيٍ ضاحك، وقد نجح في انتشالي من أمواج الماضي التي كادتْ تبتلعني:

-يا ربي، لا أوعى؛ أنت صوتك بشع.

-أنا صوتي موهبة اللي زيك بيحقدوا عليها.

-صح صح، بنحقد عليها عشان خايفين لو طلعت في النور تقعد أكبر مطربين البلد في بيوتهم.

صدحتْ ضحكات صاخبة مجلجلة في العربة، وعندما هدأتْش ضحكاته بدأ يدندن بخفوت بأغنية ما ثم على صوته تدريجيًا



وعلى النشاز فيه، فأصابتني عدوى الضحك الصاخب وأنا آمره بالتوقف:

-بس يا ضـــيـــاء.

-أنقذي نفسك وغني أنت.

-أغني إيه؟!

-اللي أنت تحبيه.

اتسعتْ ابتسامتي بحرج وخضوع، وأخذتُ أفكر قليلاً حتى دندنتُ بخفوت بكلماتٍ لفيروز أهديه إياها وأنا أنظر له..

"أنا لحبيبي وحبيبي إلي..

يا عصفورة بيضا، لا بقا تسألي

لا يعتب حدا ولا يزعل حدا

أنا لحبيبي وحبيبي إلي"



أعاد يمسك بيدي ونظر لي بعينين تضوي بعشق اشتقته، وأسرني بريق عينيه في هذه اللحظة فبقيتُ أنظر له أبعث له بمرسال الكلمات حتى انتهيتْ واكتنفنا الصمت طويلاً بعدها قبل أن يشق صوته الصمت وهو يصرح مبتسمًا:

-وصلنا أخيرًا.

أبعدتُ عيني عنه ونظرتُ أمامي لأجدنا نعبر بوابة الترحيب، فبصدمة جذلة سألته بلا تصديق:

-الأقصر!!

لم يرد وإنما أدار رأسه لي غامزًا ثم عاد بانتباهه للطريق من جديد وابتسامة واسعة تزين شفتيه، وكدتُ أنا أن أصرخ من فرط السعادة التي أستشعرها في تلك اللحظة. مر وقتٌ قصير حتى صف سيارته بجانب بيتٍ نوبيٍ صغير وترجل منه فتبعته مبهورة غير مصدقة، وشاهدته وهو يتحدث مع رجلٍ ما ثم أخذ منه



مفاتيح البيت وسلم عليه وعاد وهو يخرج حقيبة سفر متوسطة الحجم من مؤخرة السيارة، ونظر لي وهو يومئ برأسه تجاه البيت ويفتح كفه لي بدعوة تشابك:

-يلا.

تقدمتُ بسرعة وسلمتُ له كفي بعناق، ثم مشيتُ خلفه حتى وصلنا إلى البيت ففتحه ودلفنا، وبمجرد دخولنا قال مستعجلاً وهو يفتح حقيبة السفر ويخرج منها ملابسه:

-أنا هاخد دش بسرعة بعدها هروح مشوار سريع ١٠ دقايق وارجع، وأنت الحقي غيري هدومك بسرعة عشان هنتأخر كدة.

نظرتُ لساعة الهاتف وصدمتُ من الوقت كما توقعتُ، فعدتُ له وأنا أسأله بجهلٍ مشوب ببعض الحنق:

-تروح فين الساعة ٣ ونص بعد نص الليل يا ضياء!



أخذ ملابسه وعلقها في الحمام الصغير الملحق بالغرفة وهو يجيب:

-هأكد على حاجة بسرعة واجيب قهوة واجي آخدك.

-أيوة بس أنت سُقت كل ده على الطريق ومانمتش!

اعترضتُ بها بقلق هاجمني، فاقترب يشرح بإرهاق واضح وهو يخلع ساعته ويرمي بها على السرير بعشوائية تبعها بمحفظته ومفاتيحه وهاتفه بإهمال مستفز؛ لو كان في وقتٍ وموقف آخر لكنتُ صببتُ جام غضبي فوق رأسه بسببهم:

-مالقتش تذاكر طيران أعمل إيه طيب!

تبعته وأنا أسأله بفضول مترقب:

-أنت عملت كدة ليه من الأول أصلاً؟



توقف قبل دلوفه للحمام وعاد لي يحاوطني بذراعيه فتشبثتُ بصدره على الفور.. ظل ينظر لعيني بتَوْقٍ بادلته إياه بصدق، ثم مال بوجهه وطبع قبلة طويلة على جانب فكي تبعها بسؤالٍ هامس:

-مش عاوزة تحتفلي بعيد جوازنا؟

اتسعتْ ابتسامتي ودنا منها ضحكة خفيضة وتعالتْ دقات قلبي بعنف، فسألته ببهجة متفاجئة، واستشعرتُ تكون دمعات غبطة بعيوني:

-أنت فاكره بجد؟!

ظل ينظر لعيني بذات النظرة ثم ابتعد خطوة صوب الحمام وهو يحذر بالعين والنبرة:

-يلا عشان كدة هنتأخر.



أوقفتُ إبعاده وأنا أقترب الخطوة التي ابتعدها، أسأله بمشاكسة باسمة رافضة استقبال تحذيره:

-هنتأخر على إيه؟!

-انجزي وأنت تعرفي.

قالها بعيون محذرة بشقاوة وأغلق باب الحمام في وجهي.

لم أستطع كتم ضحكاتي، ثم أخذتُ أتأمل البيت الصغير المكون من غرفتين إحداهما للجلوس والأخرى للنوم ملحقة بحمام صغير.. أنهيتُ جولتي القصيرة في البيت الصغير وارتميتُ على الفراش ورائي بابتسامة تتسع لتشمل الكون بأكمله!

شعور حلو رائع يبتلعني وكأني عدتُ مراهقة تُطارِد وتُطارَد من فراشات العشق الملونة!



سمعتُ باب الحمام يفتح وخرج منه ووقف أمام المرآة يمشط شعره المبلل، ومن خلال سطحها العاكس شاهدتُ نظرته الماكرة وابتسامته المشرقة باستمتاعٍ، فاستندتُ على مرفقي وأنا أنظر له بعيون فرحة كسماء مبتهجة تضوي فيها الألعاب النارية، وردتُ له بسمته بأوسع منها ونظرته بأشقى.. وبذاتْ النظرة الماكرة اقترب وفتح حقيبة السفر من جديد ثم أخرج منها فستانًا أسود وألقاه لي منذرًا بمناكفة:

-١٠ دقايق وهرجع، ألقاك جاهزة.

أخذته أتأمله بانبهار وأنفاسٍ مضطربة من كم السعادة التي استشعرها في صدري الآن!

كان هادئًا، ناعمًا، ورائعًا!

فستان مخملي أسود مغلق الأكمام والصدر بياقه مفتوحة قليلاً عند بداية الرقبة، ومزين بثلاث أزرار ذهبية عند المنتصف



يفصل بينهم مسافات متساوية، وكذلك ذرين عند كل جيب عند بدايته ونهايته.. ضيق قليلاً من عند الجزع ويتسع بتموجات هادئة حتى منتصف القدم.

دفنتُ رأسي فيه بابتهاج طفلة بثوب العيد، وقمتُ أستحم بسرعة أنا الأخرى وارتديته على الفور، ثم جمعتُ شعري المبتل في ضفيرة قصيرة، واكتفيتُ بتزين ثغري بحمرة شفاه كرزية وفقط.

سمعتُ صوت فتح الباب وإغلاقه تلاه دخوله وتقدمه وهو يمد لي يده متسائلاً وعيناه تتأمل الثوب عليّ:

-جاهزة؟

-مش هتقول لي بقا رايحين فين!



لم يرد، بل أخذ يدي وشدني ورائه وخرجنا من البيت وركبنا عربة أخرى غير عربتنا الخاصة كانت واقفة أمام الباب، وهذا أشعل فضولي الذي كان على أوجه بالفعل، لكني هادنته وأرجعتُ السبب لإرهاقه وعدم قدرته على القيادة أكثر. وبعد القليل من الوقت وقبل تمام الوصول لوجهتنا المجهولة التفتْ لي آمرًا بهدوء:

-غمضي عينك.

عادتْ الابتسامة تفرض حضورها من جديدٍ فوق ثغري ونظرتُ له بارتياب متسائل، ولم يرد هو كالمعتاد راسمًا الضجر على معالمه: فزفرتُ بحنق وأغمضتُ عيوني مبتسمة واستشعرتُ بعدها عصبة خفيفة تُربَط على عيني بخفة فوضعتُ كفي عليها وأنا أغمغم معترضة:

-لا كدا كتير على فكرة.

-بس رغي بقى.



قالها ثم سمعتُ صوت فتح الباب وشعرتُ ببرودة احتلتْ دفء مكانه بجانبي؛ فدب داخلي رعب مفاجئ انقشع على الفور فور سماعي صوت فتح الباب المجاور لي ثم احتضان يده ليدي وهو يسحبني من السيارة بخفة. ضرب هواء الفجر الناعم وجهي، واستشعرتُ يده الأخرى وهي تطوق خصري باحتواءٍ دافئ.

ظل يرشد خطواتي الملتصقة به بخفة حركته ويده الموجهة لاتجاهات جسدي حتى نشب في صدري الحماس واضطربتْ أنفاسي فسألته بصوتٍ تحشرج وانقطع في المنتصف:

-ضياء في إيه؟.. احنا فين؟

-خلاص وصلنا اهو تعالي بس كدة..

قالها وهو يسحبني لليسار وسمعتُ أصوات عالية مربكة لم أستطِع التعرف عليها أو تخمينها؛ فهمستُ باسمه بقلق وتشبثتُ بيديه، وطمأنني هو يقربني منه أكثر ويكمل توجيهاته:



-متخافيش ارفعي رجلك واطلعي كدة بس.

اتبعتُ أمره ومشينا خطوتين ثم توقفنا وسمعتُ الصوت يزداد ويتوحش أكثر وداخلي يتخبط بجهله وقلقه المجهول الممتزج بحماسه أكثر!

ثم بعد دقائق معدودة ظل فيهم محتضني وبقيتُ متشبثة به.. شعرتُ باهتزازة مرعبة وكأني أرتفع عن الأرض فصرختُ بهلع وتشبثتُ به بقوة مرتعبة وأنا أكرر اسمه مرارًا وبلا توقف: أبغى منه اطمئنان لم يبخل به وهو يهمس لي بالهدوء ثم طوق جسدي بكلتا ذراعيه آسرًا أسفلهما ذراعي، وظلتْ كفاه تمسح عليهما ببطء دافئ مخفف من الضربات الناعمة للهواء البارد من حولي!

هدأتْ الحركة تدريجيًا وأخذتْ تَبطُء فهدأ خوفي قليلاً ثم شعرتُ بيديه تنفك من حولي فعادتْ دقات قلبي تتقافز برعب مؤلم وعدتُ للصراخ المعترض وأنا أتساءل بهلع:



-لالالالا، أنت رايح فين؟!

-هشيل البتاع دي من على عينك متخافيش.

قالها ضاحكًا وكأنه يحدث طفلاً أو مجنونًا ولم أهتم وأنا أرفض وألتصق بصدره وأتشبث بكتفيه أكثر:

-لا شيلها من غير ماتسيبني.

علتْ ضحكته وبان الاستمتاع فيها وهو يتساءل:

-ازاي طيب؟!

-ماعرفش.

-حاضر.

قالها مستسلمًا وحرر كفه يخطفه مني بسرعة ليرفع تلك العصبة المستفزة من على عيني، ثم استند بذقنه على كتفي.. ففتحتُ عيني ببطء حذر وبعدها.. تجمدتُ!



تجمدتُ، وصدمتُ، وتوقفتْ أنفاسي للحظات!

فقد كنتُ معلقة في الهواء أمتطي بالونًا معلقًا في سماء الأقصر قرب الشروق!

أمنية قديمة جدًا لا أتذكر أبدًا أني تحدثتُ بها أمامه أو حتى انزلق بها لساني في أي حديث!

فقد كانت هذه الأمنية ملتصقة بآخر ودُفنتْ معه ونسيتها تحت ركام العشق مع الكثير من الأمنيات المغتالة!

دُفنتْ وعاد هو إحيائها من جديد الآن كالكثير!

التفتُ بوجهي له ببطء ولازالتْ الصدمة تشل أطرافي وتمنعني من التنفس، ووجدتُ عينيه في انتظاري بحديث طويل وابتسامته الدافئة تستقبلني بترحاب!



استقبلتُ نظرته وبسمته بنهم فلم أقدر على تحريك أنظاري عنهما للحظة ولا حتى للرمش مرة، وأغلقتُ على صورتهم قلبي وعقلي وودتُ لو احتفظتُ بهذه الصورة وهذا القرب للأبد!

بعد وقت طال اعتدلتُ أواجهه وأنا أتشبث بذراعيه عبر معطفه الأسود وظللتُ أنظر له بانشداهٍ غير مستوعب، ورغبة ملحة في البكاء داهمتني فأنسجتْ دمعات شوشتْ رؤيته في هذه اللحظة، وكم كرهتهم لذلك!

لم أقدر على إخراج أي رد سوى احتضانه والاختباء داخله، وبقيتُ أشدد من احتضانه بلهفة وخوف أن يكون كل هذا مجرد حلم ويختفي، لأستيقظ فأجدني لازلتُ معاقبة بالهجران والحرمان من هذه الجنة!

سالتْ دموعي ممتزجة بضحكة خفيضة متقطعة وأنا أسأله:

-طب أنت عرفت الموضوع ده ازاي، أنا عمري ما قولته قدامك!



استشعرتُ ضغطه على فكيه قبل أن يأخذ شهيق خافت طويل ثم أجاب بهمسٍ مصحح:

-لا قولتيه، قولتيه مرة زمان.

أبعدتُ وجهي مضطرة عن أحضانه وأنا أنظر له بتساؤل فبادلني النظر بصمت وعيناه تفجر ذكرى قديمة شهدتُ شظايا ألمه العالقة بها رغم محاولة مواراته في ابتسامة لم تصل لمقلتيه!

كانت مرة واحدة التي صرحتُ بها مشاغبة "مصطفى" في الجامعة بعدما أصر هو و"رؤوف" أن مصاريف حفل الزفاف لا فائدة منها ومن الأفضل استثمارها في مصاريف قضاء شهر العسل.. فاعترضتُ أنا وصممتُ بأحقية العروس بإقامة الحفل وقضاء شهر عسل أسطوري أيضًا، وصرحتُ وقتها أني سأجبره على عمل الإثنين ثم شرحتُ حلمي الأثير في ركوب منطاد هوائي نجوب به السماء وقت الشروق لأنه حلم عزيز وحقي كعاشقة، وأيدتني



وقتها "سمر" المفتقدة لصديقتها الغائبة لمرضها وقتها.. فصرح بأنه سيفعل أي وكل شيء إلا هذا لأنه يخشى المرتفعات وكنتُ أعرف ولكني صممتُ بدلالٍ طفولي ومسكنة كنت أجيدها، فرضخ مستسلمًا أمام الجميع!

وكان هو كالعادة منشغل بحاسوبه يدفن أنظاره وكنتُ أظن انتباهه أيضًا فيه، والوحيد الذي لم يشاركنا صخب الحديث رغم محاولة الجميع لإشراكه به، وأرجعتُ أنا عزوفه ذاك لغياب ومرض الحبيبة الغائبة!

ضُرب قلبي وكأنه ارتطم بأرضٍ باردة خشنة مزقته، وشعرتُ بالدماء تتجمد في قلبي والأنفاس تنسحق في صدري وكأن الحياة تُسحب مني ببطء!

كان كل شيء داخلي مشدوه وساكن كالقبور!

فقط.. قلبي يدق بألم، ألم ساحق!



وكادت عيناي أن تخرج من محجرهما وهما تنظران له بذهولٍ متألم لحد منهك، والدموع تقرصهما بحرقة مؤلمة!

واعترفتُ.. أنا أعشق هذا الرجل!

أعشقه ولا أجد كلمة آخرى تصف الألم داخلي في تلك اللحظة سوى عشقه!

-براء!

همس بها بارتيابٍ مشوب بالقلق ولم أستطِع الرد.. ولولا عيونه الحذرة والمحذرة بنظرات جانبية وحديثه الخافت وتصرفاته المكبلة، لكنتُ أشبعت وجهه الحبيب تقبيلاً وصرختُ بعشقه صراخًا لتشهد عليه السماء والأرض واعتذرتُ منه الباقي من العمر!



أغمضتُ عيني وحاولتُ ابتلاع تلك الغصة المسننة في حلقي وأنا أختبئ من نفسي في أحضانه.. وبقيتُ هكذا طويلاً حتى سمعتُ همسه المنبه بجوار أذني:

-براء الشروق!

كدتُ أخبره أني لا أريد رؤية شيء ولا أريد التحرك إنشًا من أحضانه، لكني ارتجعتُ وأنا أعتدل ببط مولية نصف وجهي للسماء والنصف الآخر أبقيته في مأمن أحضانه.. راقبتُ الضياء الوليد للكون من حولي بنصف عين والنصف الآخر ظل يراقب ضياء عينيه الذي لا يخبو!

سطوع الشمس حياة.. ولكن الألم المنفجر في هذه اللحظة في قلبي يعميني عن الانبهار بأي حياة أخرى غيره!

الرغبة الموجعة في الانسحاق على صدره والتلاشي هناك، لم تترك لي أي ذرة انتباه للتأمل في روعة ميلاد النور ليومٍ جديد!



بقيتُ ساكنة على هذا الوضع طويلاً، أراقبه واستمع لضحكاته وحديثه مع قائد المنطاد، ومناقشته التي لا تنتهي!

حتى انتهتْ الجولة وقد أشرق الصباح كاملاً، ونزلنا في الصحاري بعيدًا عن مكان صعودنا، فأبعدني عنه قسرًا وعانق كفي لنهبط أخيرًا، ثم نظر لي وأنذرني ضاحكًا بإرهاق:

-آخرك معايا ساعة كمان نروح نفطر فيها في أي مكان وخلاص على كدة عشان أنا هموت وأنام.

توقفتُ وأجبرته على التوقف، فالتف بجسده يواجهني وعلا على وجهه التساؤل الذي قطعته باحتضانٍ مباغت وأنا أتعلق بعنقه لأقر وأعترف له بهمسٍ دامع:

-أنا بحبك. بحبك أوي أوي. بعشقك يا ضياء، بعشقك.



شعرتُ بتيبس جسده بين ذراعاي ثم ابتعد وهو ينظر لي بنظرة مترصدة مشككة، فأعدتها أدحض تشككه وأنا أحاوط وجنتيه بكفي، أهمس بها من جديد مرارًا بحرارة وابتهلتْ من الله أن يستشعر صدقي هذه المرة!

وأخيرًا دنتْ منه شبه بسمة.. بسمة ظلتْ تخبو وترجع لتبين من جديد وهو يهز رأسه بجهل، وظل ينظر لي طويلاً فبقيتُ بخفوت أكررها وأكررها وكأن لساني علق بها وخرج عن تحكمي، حتى اقترب بأنفاسٍ متقطعة وهمس بأمرٍ حازم بالتوقف وكفه تضغط على كفي بشدة، ثم ذهبنا بلا حديث وأوقف سيارة أجرة وأملاه عنوان البيت الذي نقطن فيه. عم الصمت الذي لم يُقطع إلى أن وصلنا فأعطاني المفاتيح بلا صوتٍ وتركني ليحاسب هو السائق فذهبتُ وفتحتُ البيت، ولم ألبث أن أخطو داخله خطوتي الأولى



حتى وجدته يحاصرني بذراعيه ويتساءل بأنفاسٍ مضطربة وعيون مشتعلة لن تقبل مفاوضة:

-أنت قولتي إيه بقى؟!.. قولتي إيه؟!

رفعتُ كفي أحاوط وجنتيه وغرقتُ في ضوء عينيه وأنا أهمس مجيبة:

-بحبك.

هز رأسه رافضًا بهمسٍ وهو يشدني أكثر لأحضانه ووجهه يختبئ محفورًا في عنقي:

-لا.. لا ماكنتش كدة!

أبعد وجهه ينظر لي واستند بجبينه على جبيني وهو يبثني اعتراضه بطواف شفتيه وحرارة أنفاسه:

-ماقولتيهاش كدة!



قاطعته أعيد صياغة الكلمات بأخرى أصدق وأدق:

-بحبك أوي.. بعشقك يا ضياء.. بعشقك..

وتاهتْ باقي الكلمات والأحرف في قبلة عاصفة تائقة تهتُ فيها معهم.. تهتُ وذوبتُ وتشكلتُ من جديد على يديه وهمسات عشقه مع أوامره اللاهثة باستمراري بثه كلمة واحدة طوال رحلة تيهنا الفريدة!

رحلة تيه للمرة الأولى عشقتُ فيها الضياع ولم أبغَ أبدًا لحظة وصول!

رحلة انتهتْ ولم ينتهِ وهج دفئها، ولن يذوب أثرها بروحي وقلبي ما حييتُ!

توسدتُ أحضانه وبقيتُ أنظر له وقلبي يتراقص، وظل يبادلني النظر بعيون شع من نظرتها رضا متخم امتزج مع نهم تائق، حتى



قاطعتُ تشابك عيوننا ودفنتُ وجهي داخل صدره لأستمع لدقاته السريعة، واستكنتُ هناك أستمع باهتمام لكل ما أرسله من مشاعر وبعثتُ له بمثلها.. حتى شاهدتُ جفنيه يكادا أن يتعانقان في غياب فسألته بإحباط؛ أبعد أذيال النوم عنه ليبقى مستيقظًا بالجوار أطول فترة ممكنة:

-احنا كدة هنرجع القاهرة بكرا!

أجاب بهزة رأس وغمغمة خفيضة:

-بإذن الله.

أكملتُ بذات الإحباط وأنا أمط شفتي بقلق وغير رضا:

-وهتسوق بليل بردو!

ابتسم بخفة، ومشط شعري بحنوٍ؛ مطمئنًا:

-ماتخافيش.



اعتدلتُ واستندتُ على صدره بمرفقي واقتربتُ من وجهه باسمة أناجيه بهمسٍ متمني:

-طب ما تخلينا نقعد يومين كمان ونمشي الصبح. عشان خاطري.

عندها فتح عينيه ببطء وحدجني بنظرة معتذرة وهو يرد بهمسٍ آسف:

-مش هينفع.

-يومين بس والله، احنا مش هنلحق كدة نزور أي حاجة هنا.

كررتُ محايلتي راجية بخيبة، ورد هو مصممًا بوعدٍ وأسفٍ أكبر:

-هنيجي تاني أوعدك.

-وهنيجي بردو يومين بس!

كان سؤالاً متبرمًا، رد عليه هاربًا بمحايلة ناعمة سكنتْ قلبي:



-خلصي امتحاناتك الأول بعدين أوعدك هنيجي تاني بطيران ونستغل وقت السفر الضايع.

استغلال وقت السفر الضائع وليس إمداد أيام الإقامة.. وبالطبع كل هذا لأجل خاطر جلالتها!

وعلى ذكرها تذكرتُ عندما كنتُ أستشيط قهرًا منذ أسبوعين عندما علمتُ أنه كان يوم مولدها وقد كان معها بالفعل.. وتفنن خيالي في تعذيبي أكثر وهو يصور لي احتفالها الخاص بيوم مولدها بصحبته وبين ذراعيه!

شبتْ النار في صدري أكثر، وشعرتُ بالخيالات تجثم على صدري وأنفاسي فسألته هاربة بأنظاري منه:

-هو صحيح عيد ميلاد تيا كان من أسبوعين!



تغضن جبينه وانفراج جفنيه على الفور وظل صامتًا لثوانٍ قبل أن يسأل وهو يضيق عيونه:

-عرفتي منين؟!

هززتُ كتفي بلا مبالاة وأجبتُ بهدوءٍ زائف:

-فيس بوك.

أغمض عينيه وزفر بخفة وامتعاض ثم أجاب مختصرًا:

-آه.

-أول عيد ميلاد ليها وهي مراتك صح؟

-براء!

كانت هامسة محذرة بلينٍ وهو يرفع وجهي بطرفي إصبعيه؛ يجبرني على مبادلته النظر، ولم أهتم بتنبيهه بل أكملتُ بفضول أكثر ألمًا:

-جبت لها هدية إيه؟.. ولا سافرتم بردو؟!



شبح ابتسامة ارتسم على شفتيه رغم صرامته الهادئة:

-مالكيش دعوة.

زويتُ حاجبي وأنا أعيد الهرب بعيني منه وعلقتُ بنصف صدق:

-عندي فضول.

وتلك المرة كلمته كانت أكثر صرامة وأكثر دفئًا وهدوءً:

-انسيها.

أغمضتُ عيني أعتصرهما كما أشعر بقلبي الآن واعترفتُ بحسرة:

-مش قادرة!

اعتدل في نومته وزاد من احتضاني بيده والأخرى ظلتْ تمسد جانب وجهي ببطء حنون انتقل لصوته:

-خليكي معايا أنا.

-أنا مش مع غيرك.



أغمضتُ عيني وغمغمتُ بها بصدق، ثم قررتُ طرد هذا الألم وصاحبته من أفكاري وأنا أستعيد كل تفاصيل اليوم بروعته..

-هو أنت حاسس باللي أنا حاسة بيه دلوقتي؟

اتسعتْ بسمته واستفسر بفضول طال عينيه، ولم تتوقف يده عن معانقة وجنتي ولا تمسيدها الحنون:

-حاسة بإيه؟

تاهتْ نظرتي متحيرة في اكتشاف وصف دقيق حتى وجدته يتبختر أمامي ويزرع نفسه في صدري مدغدغًا بلذة طاغية؛ فضحكتُ مردفة وأنا أعاود النظر والغرق في عينيه:

-حاسة إني بتولد من جديد!



خبتْ ابتسامته واختفتْ، وطال صمته وامتد لدقائق واختبأتْ عيونه وراء غيوم نظرة شاردة قبل أن يبتسم من جديد قليلاً مردفًا:

-لا. الإحساس ده أنا حسيته من زمان أوي.. من أول ما شفتك.

ثم صوب أنظاره إليَّ من جديد:

-أنت عارفة أنا حاسس بإيه دلوقتي؟

هززتُ رأسي مستفسرة بصمتٍ، واعترف هو بعد لحظات تردد ارتسمتْ على وجهه وعينيه بكلمة حُبِستُ داخل أسوارها طويلاً ولازلتُ:

-خايف.

انزوى حاجباي بجهل للسبب وبقلق من المقصد؛ فاعتدلتُ وأنا أبتلع ريقي بعسر بعدما دب في قلبي خوفه المجهول هذا:



-من إيه؟!

صمت من جديد وصمته طال أكثر هذه المرة، حتى أجاب بصراحة شقتْ قلبي لنصفين:

-خايف ابني أمل جديد بعد النهاردة ويرجع يتهد على دماغي تاني.

وجمتُ للحظات قبل أن أهز رأسي برفضٍ تام ووعدٍ مستتر:

-مش هيحصل.

أخذتُ أكررها بلا ملل، وأخذ هو ينهل من حروفها طويلاً كما كلمة العشق.. وللمرة الأولى ربما لم يهدهد هو خوفي، بل تبادلنا الأدوار وحاولتُ أنا سحق خوفه هو هذه المرة!

مُقْسِمة في داخلي بألا أخذله من جديد وألا ألقي به بيدي لبراثن هذا الخوف اللعين ليمزق روحه وينتشي بهزيمتها كما فعل معي مرارًا!



(14)

عشقٌ خائفــ ! عشقٌ مُعذَب! عشقٌ تائه!

**

غدا إذا جاء أعطيه رسائله..

ونطعم النار أحلى ما كتبناه..

حبيبتي!.. هل أنا حقا حبيبته؟!

وهل أصدق بعد الهجر دعواه؟!

أما انتهت من سنين قصتي معه؟!

ألم تمت كخيوط الشمس ذكراه؟!

أما كسرنا كؤوس الحب من زمن؟!

فكيف نبكي على كأس كسرناه؟!

-ماذا أقول لو جاء يسألني؟!

-نزار قباني.



تيا

لذة نيل الأمنية بعد طول انتظار وتمني؛ لذة لا تضاهي روعتها أي روعة!

لحظة رفرفة القلب وقتما يتحول الحلم لحقيقة هي لحظة الوصول لذروة تحليق النبضات في الصدور!

الإمساك بقطعة هي البرهان على قبول دعواتٍ ومناجاتٍ لم تنقطع للحظة؛ هو أحن تربيتة مراضاة على لهفةِ قلبٍ محروم!

قطعة صغيرة وربما صغيرة جدًا، مزينة بخطين ورديين أضاءوا بورديتهم مجتمعين ظلامي الدفين، وأحالوا ليلي السرمدي نهارًا أبديًا!

فقط تلك القطعة بخطيها كانت كفيلة بقلب عالمي المبعثر رأسًا على عقب وترتيبه كما أحببتُ وتمنيتُ وابتهلتُ!



هذه القطعة الصغيرة التي خلقتْ داخلي هذه البهجة الموجعة التي شعرتُ بها للمرة الأولى منذ يومين -ولم تخبو أو تخفتْ إلى الآن- وقتما شاهدتُ الخطين يتمددان ببطء، وأصابني الجمود عند استقرار اتحادهما!

جمود طال وتشعب في روحي المترنحة بسُكْر الغبطة وسَكْرَة الخوف!

ووقف الوقت بي للحظات محترمًا ترنحي وغيابي.. تكونتْ دمعاتي وهطلتْ، ولم يتحرك نظري إنشًا عنهما ولم يتغير تعبير وجهي المصدوم!

قفزتْ دقات قلبي أكثر بخوفٍ وابتهاجٍ لحدين لم أصل لهما قط!

تحشرجَتْ أنفاسي بتعثُرٍ في صدري إثر عراقيل ألف شعور نبتوا في جميع أنحائه!



وبعد كثير من الوقت المُجَمَّد، عاد ينبهني وهو يعلن عن عودته للحياة والفناء بالمرور..

فاستفقتُ.. وهرعتُ إلى "رحمة" بالاختبار المنزلي؛ خوفًا من أن أكون قد أخطأتُ تأويلهم بسذاجة التمني، واحتياجًا لمشاركة فرحتي معها ومع الكون أجمع إن أصبتُ في قراءة هبة الله لي!

استقبلتني بقلقٍ متسائل من هيئتي المبعثرة الدامعة الضاحكة والمتسائلة بلا حديثٍ وأنا أهز رأسي باستفهامٍ صامت وأمد يدي لها به.. نظرتْ له لثوانٍ واتسعتْ ابتسامتها، ثم أكدتْ باحتضانٍ وتمتمات مباركة ودعوات لم تنقطع.

فبكيتُ.. وصرختُ مبتهجة.. وقفزتُ مهللة.. فنهرتني بصرامة حانية. ثم سكنتُ بغتة وكأن الطيور حطت على رأسي!

خفتُ.. بل ارتعبتُ وارتعدتُ، وقلبي أخذ يتساءل بوجل طاغي: ترى أيكذب هذا الاختبار!



ترى أغشتني البائعة بالصيدلية وابتاعتْ لي اختبارًا خرب!

هل سَتُسرَق مني فرحتي بعد أن تذوقتُ نذرًا يسيرًا من روعة حلاوتها!

ازداد رعبي لحدٍ كاد أن يزهق أنفاسي وأخبرتُ "رحمة" عن هذا الهاجس المقيت الذي جثم على صدري فجأة، فظلتْ تطمأنني ولم اطمئن، بل ازداد هلعي مع كل ثانية تمر فرجوتها أن تأتي معي وأنا أذهب لعمل تحاليل للتأكيد وإلا جننتُ، وأطاعتني. ذهبنا وقمتُ بالتحليل ثم رفضتُ الذهاب بعنادٍ خائف وجلستُ في انتظاره بلهفةٍ ورعب. مر الوقت ببطءٍ مُعذِب حتى حصلتُ على التقرير أخيرًا مُزيَّل بابتسامة ومباركة من سيدة الاستقبال التي سلمتني إياه.. وقتها خارتْ قواي كاملة وسقطتْ دموعي ولم تتوقف!

وشعرتُ بحاجة ملحة له ولدفء أحضانه وأمان كلماته!



وددتُ الاتصال وإبلاغه.. وددتُ رؤيته في نفس اللحظة وزف الخبر له والنهل من بريق عينيه، ثم التشبث بأحضانه حتى يحل محله طفلي!

وددتُ الصراخ بجذل ولا تصديق أن طفله هو داخل رحمي أنا!

وددتُ الاعتراف أن هذه هي الهبة الأعظم من القدر لي، وكدتُ أفعل بالفعل ولكني توقفت بصفعة إدراك!

صفعة تذكرني وتصوِّب نظري غصبًا حيث ندبتي الأبدية!

أنه الآن معها هي وإن فعلتُ بالتأكيد ستعلم. شيءٌ من خوف مشفق من ردة فعلها تسلل لي عندما تذكرتها وتذكرتُ كلماته الذي قالها باختصارٍ واقتضابٍ عن الفقد المتكرر لأجنّتها عندما ألحيتُ لمعرفة سبب عدم حصوله على طفل منها للآن!



فلن يعي مرارة الحرمان ولوعة الفقد والفراق مثلي وقد عاشوا يقتاتوا عليّ منذ الصغر. مزقتُ تلك الشرنقة على الفور قبل أن تضيق عليَّ أكثر، وتجاهلتُ تفاصيلها وشاب تجاهلي الحنق.. والألم!.. لكني لم أسمح للإحباط أبدًا بالتسلل لي!

لم أسمح لتلك الثعابين بالتسلل لفرحتي وبث سموم مرارتها فيها!

فانتظرتُ مجبرة؛ ملقية على مسامعي أنه سيعود قريبًا، وسأعلمه قريبًا، وسأشاهده وهو يتلقى الخبر وأحفر تلك اللحظات داخل قلبي وروحي وذاكرتي للأبد.. وفلأتناسى كل شيء سوى هذا ولا أفكر في تلك النقطة مرة أخرى وأعتبر غيابه إجباريًا وكأنه في سفرة قصيرة وسيعود بين أحضاني من جديد ووقتها سأسقيه فرحتي قطرة قطرة حتى تمام الارتواء والامتلاء.

مرّ اليومان ببطء مستفز، قضيتُ كل دقائقهم بالتفكير في طريقة مبتكرة لإخباره، وتخيل كيف سيكون رد فعله!



حتى أتى اليوم أخيرًا.. أتى وأتى معه كل الحماس والتلهف والتطلعات المشتاقة.

استيقظتُ باكرًا وقضيتُ ساعات الصباح في تجهيز كل شيء على نحو مثالي كما أحلم بلا لحظة كلل أو تعب، وظلتْ غيمة تخيلي لوجهه الحبيب وهو يتلقى الخبر تظللني طوال هذه الساعات وتمطر عليَّ حماسًا وابتهاجًا.

وفي منتصف انهماكي في تحضيراتي استقبلتُ الطعنة!

رسالة نصية قصيرة.. مختصرة.. باردة.. يعتذر فيها عن القدوم!

وبدون إبداء أي سبب!

للمرة الأولى يفعلها واختار اليوم تحديدًا ليفعلها، وبهذه الطريقة!

اتصلتُ به بغضبٍ وقلبي يدق بحسرةٍ وإنكارٍ فواتتني الطعنة الثانية.. أغلق الهاتف!



لم يكلف نفسه حتى عناء الاتصال وإعطاء أي مبرر!

بل أغلق الهاتف بأكمله وكأن قيمة تلك التي تجلس في انتظاره بتوقٍ وتلهفٍ لا تساوي سوى قيمة ضغطة زر وإعلان مهمل في رسالة من بضعة كلمات!

رسالة من بضعة كلمات مختصرة، باردة، ومجحفة..

شوه بها أمنيتي، وهشم خيالاتي!

طعن بحروفها لهفتي، وذبح فرحتي!

وأسال دماء ذكرى غالية كنتُ أود بث الحياة معه فيها أسفل قدمي غيابه رغم أحقيتي في وجوده، ورغم انتظاري بوداعه قارصة لنيل هذا الحق وتأجيل التمتع بتلك الفرحة التي كدتُ أموت شوقًا لنيلها!

كسرها هو ببرودٍ لا مبالٍ!



واغتال بقاياها بجحود قاسي، مؤلم، وظالم!

كسر لن يفلح معه أي جبر!

واغتيال زهق به كل أنفاس النجاة!

**



ماذا أقول له لو جاء يسألني..

إن كنت أكرهه أو كنت أهواه؟

ماذا أقول، إذا راحت أصابعه..

تلملم الليل عن شعري وترعاه!

وكيف أسمح أن يدنو بمقعده؟

وأن تنام على خصري ذراعاه؟

-ماذا أقول له؟

-نزار قباني.



براء

سُحب الأحلام البيضاء الناعمة دائمًا ما تختلف عن تلك الغيوم الرمادية الموحشة للكوابيس.

لكن وللعجب.. الوضع معي يختلف لحدٍ مميت!

فأحلامي امتزجتْ مع كوابيسي وتماهوا؛ فبتُ لا أعرف أي منهم الحلم وأي منهم الكابوس!

فبعد كل تلك الأيام التي عشتُ معه فيها أوقات أقرب للتنعم في الجنة.. بعدما سلمتُ بالعشق واستسلمتُ له ولبحره الشاسع؛ أنهل من الغرق فيه بنهمٍ وجوع، وأروي عطشي بغيث وجوده بعد قحل غيابه الدوري القارص.. أتعرف بروية وتوق على خبايا المعشوق فيه كما العاشق، وأحفظ تفاصيله بعين العشق والتلهف، لا بعين الموجود والمتاح.



وباتْ همي الأوحد هو هدم أسوار خوفه ونسف تشككه الذين شيدتهم بنفسي قديمًا برعونة وحمق عندما كنتُ أعصب عيني عنهما لأمنعني من الانسياق وراء سحر أرضه العامرة بالعشق، ومن ثم احتلالها باستسلامٍ راضٍ لمبادلة العشق بالعشق كما أغراني ببأس وأرغمني بصبر!

بقينا هكذا قرابة الشهر ونصف، حتى جاءتْ اللطمة وأيقظتني على بؤرة ظلام جديد.. عندما أتى لي سؤالٍ في امتحان عن عدد أبناء ملك محدد، وكان رقمًا ضخمًا لم أستطِع حفظه وقتها فتذكرتُ مناغشته الوقحة على تلك النقطة والتي بفضلها ثبتْ الرقم بذاكرتي!

ابتسمتُ للحظة وفي الأخرى خبتْ البسمة واختفتْ عندما صدمني اكتشافٌ متأخر أنار في رأسي كشعلة نار!

عادتي لم تأتِ منذ ما يقرب الشهرين!



لم تأتِ ولم أنتبه عندما كنتُ غائبة عنها معه!

يومها لم أستطع التركيز في باقي الامتحان وأكملته بعقلٍ غائب حتى سلمته عند منتصف الوقت بلا اهتمام وهرعتُ لأقرب معمل تحاليل بلا لحظة تفكير.. أجريتُ التحاليل بصمتٍ وفكرٍ متصلب، ثم جلستُ أنتظر التقرير بجمودٍ ووجوم، وجهلتُ بماذا أدعو!

مر الوقت بطيئًا، مميتًا، وكأن عقارب الساعة تدعس قلبي أسفل مرورها البطيء.. وعندما سمعتُ نداء اسمي تجمدتُ!

خفتُ الحركة وشعرتُ وكأن سلسال ظهري ضُرب ببرق من جليد!

سحبتُ قدمي واستقمتُ بصعوبة ثم خطوتُ تجاهها ببطء، ومع كل خطوة أتقدمها كنتُ أشعر بقلبي يفقد فيها نبضة حياة؛ ففي الجوابين موت!



توقفتُ أمامها واستقبلتُ بسمتها بإنكار!

مددتُ يدي أستلم من يدها التقارير وقرأتها بخوفٍ وشبه غيابٍ تزامنًا مع سماعي صوت تمتماتها بالمباركة!

لم أستطع التسليم أو الاكتفاء فذهبتُ من فوري لطبيبة نسائية قريبة وجلستُ في انتظار دوري بذات التيه والخوف وعقلي غارق في ظلامٍ باردٍ مخيف، حتى دخلتُ وجلستُ بذات الهيئة، وبدأتُ الرد بآلية على أسئلتها التقليدية.. نظراتها كانت مرتابة من حالتي ولم أهتم، حتى سمعتُ أمرها الهادئ للقيام والاستعداد للكشف عن صحة وعمر الجنين.. وتلك الكلمتين سمرتا قدمي في الأرض بخوف أقرب للرعب!

وعندما فعلتُ بصعوبة وشعرتُ بها تشرح حالته الصحية الجيدة وتريني إياه على الشاشة بجانبي؛ كادت أنفاسي تتوقف!



ونبضات قلبه التي أسمعتني إياها زلزلتني وأحيتْ قلبي الذي كاد أن يتجمد خلال الساعات السابقة!

استفقتُ على تصريحها التالي أنه الآن في الأسبوع التاسع!

ذروة فترة إجهاضي المعتاد!

استمعتُ بنصف عقلٍ لتعليماتها التي أحفظها عن ظهر قلب، وذهبتُ للبيت بقلبٍ مثقل امتزجتْ فيه دقات الفرح والصخب بالرعب والتيه!

دخلتُ غرفة نومي على الفور وانزويتُ في الفراش ثم تدثرتُ بشدة وقد شعرتُ بجسدي ينتفض والبرد -الذي لم أكن أشعر به قبل تلك اللحظة- يفتك جسدي بشراسة.. وسؤال واحد أخذ يضرب رأسي بشراسة أكبر!

متى سيتركني طفلي ويفر هاربًا؟!



اليوم، أم الغد، أم الأسبوع المقبل؟!

متى سيلفظ رحمي جنيني الصغير، أو يفر هو منه مستغنيًا!

وكيف سيستقبل "ضياء" الخبر؟!

كيف سيستقبل الفراق الجديد؟!

ترى هل سيقبله راضيًا ويدعم كما فعل دائمًا، أم سييأس أكثر ويكتفي ويزيد من إصراره وسعيه ليحصل على طفله من أخرى؟!

لا. أنا لن أحتمل رؤية يأسه مني في عينيه، ممتزج بتصميمٍ يختص غريمتي به!

لن أحتمل رؤية صموده الكاذب أمامي، ثم هروبه وأخذ حقه في الانهيار بين ذراعي أخرى ليس لها الحق في مشاركتنا الألم!

لن أحتمل فقدان طفلي هذه المرة أمامه وهي قابعة في كل خلاياه وإن حاولتُ تجاهل هذا بقسوة!



لن أخبره.. حتى أمي لن أخبرها؛ فيكفيها هي الأخرى ما عانته معي طوال السنوات السابقة.. لن أخبر أحد، وسأُبقي مذاق علقم هذا الكابوس في جوفي فقط.

ولم أخبرهما بالفعل وقمتُ بمفردي بكل ما يجب القيام به ليبقى طفلي داخلي رغم مرارة اليأس!

واحتفظتُ بأنين آلامي لنفسي بيأس يشوبه أمل خجول ببقائه هذه المرة!

وكلما بدأ الأمل في البزوغ داخلي قليلاً؛ صفعني عقلي آمرًا بألا أتمسك بالوهم لإن الكسر هذه المرة سيكون مميتًا.. فصرتُ أطاوع عقلي مرة وأستسلم لليأس، وأحنو على قلبي مرة وأستسلم للأمل؛ حتى أُنهكتُ، وتباعدتُ عنه.. بل تباعدتُ كثيرًا وانزويتُ بتصميمٍ صامت رغم إصراره الحزين على القرب ومعرفة سبب تغيري الجذري مؤخرًا!



لكني أصبحتُ لا أريد رؤياه.. أخشى رؤياه!

أو أخشى أن يراني هو على تلك الحالة القديمة ونحن نفقد طفلنا من جديد!

وصرتُ أشعر ببعض الارتياح أثناء غيابه وذهابه لها رغم النيران التي تأكلني لغيابه هذا، وبقيتُ أبتهل في كل لحظة إن كتب الله عليَّ الفقد من جديد ألا يكتبه في وجوده ويجعله شاهدًا عليه!

وقت وجوده الذي أنأى فيه عنه طيلة النهار هاربة من دفء عشقه الذي سيجعلني أخرّ على صدره باكية وأنا أشكو له من هذا الضياع المؤلم الذي يحاصرني.. وأفر من تلك النظرة المتسائلة واللوامة في عينيه!

وعند النوم أنسل من أحضانه بعدما يتملكني الذعر من أن أغفو فأستيقظ على تربيتة يده الخائفة وقد أُغرق أسفلنا بنهرٍ من دماء نطفته المستغنية عن رحمي مثل ما حدث في حملي الأول!



فبتُ أخشى النوم في وجوده، ولا أستطيعه في غيابه!

وأصبحتْ أيامي سلسلة جحيم لا يحتمل من انتظار الخسارة في كل لحظة تمر!

وهكذا مر أسبوعٍ، والثاني، ليأتي اليوم ويتمم الأسبوع الثاني عشر!

يتمم الشهر الثالث ومن المفترض ثبوت الحمل للمرة الأولى!

مرحلة لم أصل لها أبدًا من قبل.. فقط إن مر اليوم بسلام وبلا خسارة!

اليوم الذي أيضًا ولسخرية القدر هو الذكرى السنوية لوفاة الغائب!.. الذكرى السنوية لوفاة "مصطفى"!

تلك الذكرى التي صممتُ على التشبث بها حتى قلبتْ عالمي رأسًا على عقب العام الماضي!



وها أنا الآن بفضلها في حيرة مريرة أأتشبث أم أتخلى للأبد!

أغمضتُ عيني بشدة، وزفرتُ زفرةً طويلةً ثم أخذتُ أفكر للمرة الأخيرة حتى اتخذتُ قراري.. سأذهب للطبيبة وأطمئن على طفلي وإلا متُ منهارة من الرعب والانتظار في أي لحظة!

ثم سأذهب له للمرة الأولى بعد انقطاع ست سنوات.. والأخيرة. سأعتذر له وأطلب مسامحته، ثم سأطوي تلك الصفحة للأبد وأخبئها في أعمق نقطة في قلبي لأواريها عن أنظار المحتل المتلصص. قمتُ بحذرٍ وأنا أراقب الفراش أسفلي بحذرً أكبر أقرب للذعر: أتأكد للمرة المئة من خلوه من أثار كابوسي، وعندها زفرتُ بشبه ارتياحٍ مؤقت!

اتجهتُ للخزانة وأخرجتُ منها ملابسي ثم رميتُ بهم على الفراش، وذهبتُ لأستحم وأنا أحمد الله لأول مرة أنه لن يأتي اليوم وسيكون في هذه الأيام المريرة معها هي!



دقائق قليلة وخرجتُ وأنا أجفف شعري ثم توقفتُ بغتةً بصدمةٍ وبعض الذعر عندما وجدته أمامي!

يقف موليّا لي ظهره، وشطر وجهه الواضح بصعوبة كان تعبيره غامض وهو يتطلع في ثيابي الملقاة على الفراش!

-ضياء!

همستُ بها ببعض الصدمة التي لم أتخلص من أثارها بعد، وحاولتُ تداركها وأنا أتحرك ببطء ناحيته مستفسرة بفضولٍ قلق:

-أنت بتعمل إيه هنا؟!

حرك رأسه لي ببط ولم يتغير تعبير وجهه وهو ينظر لي بصمتٍ فأعدلتُ بتوتر:



-قصدي إيه اللي جابك دلوقتي.. مش مفروض في الشغل دلوقتي؟!

اكتفيتُ بهذا الشق متغافلة عن ذكر أنه من المفترض ألا يكون هنا الآن مطلقًا!

التف بكليته يواجهني ووضع كفيه في جيبي بنطاله ولم يرد على أسئلتي، بل ظل ينظر في عيني بصمتٍ مُرهِق!

قطع صمته أخيرًا وهو يشير برأسه لملابسي ويسأل بهدوء:

-كنت نازلة؟

-لا.

نفيتُ على الفور وقلبي يدق بعنف مرتعب، وضرب رأسي إنذار مخيف أنه بالتأكيد تذكر أحداث اليوم!

-المكواه جابتهم ونسيت اشيلهم.



رفع حاجبيه وانزوى ثغره بشبه بسمة جانبية مستخفة يعلمني بهم بصراحة أن كذبتي الساذجة لم تنطلِ عليه، وبقى على حالة صمته المراقب والمقتحم فترة حتى سأل بذات الهدوء المقلق:

-مالك؟

سؤاله الهادئ أصابني بتوتر مربك، وبدأتْ بطني تقرصني بتقلصاتٍ آلامها مرعبة في تخيل نتائجها!

أغمضتُ عيني للحظة أحاول التحكم في توتري وعدم إظهار اضطرابي على وجهي قدر الإمكان، وأجبته بخفوت:

-مستغربة إنك هنا دلوقتي!

صمتْ ولم يرد فازداد التوتر أكثر؛ وازدادتْ التقلصات أكثر، فتضاعف رعبي لكل هذا أكثر وأكثر!

-مش عوزاني ابقى هنا دلوقتي؟



قالها بثبات دون أي تغير أو حركة في وجهه الجامد، ودون أن يحيد ببصره عن عيني لحظة أو تتغير نظرته الساكنة!

فركتُ يدي بتوتر وخوف بدأ يداهمني بقسوة، وانتفض داخلي رعبًا عندما تخيلتُ ما الذي يمكن أن يكون يفكر به في هذه اللحظة إن كان قد تذكر التاريخ وما حدث به العام الماضي بالفعل، وما الذي من الممكن أن يقوله أو يفعله وهو بهذه الهيئة المخيفة!

صرخ قلبي ألمًا وخوفًا واعترض مقررًا أنه أيّ كان الذي يفكر به فلن نسمح له بالغرق فيه والفرار مبتعدًا من جديد!

نعم لن أسمح له بذلك.. لن أسمح بأن تفرقه أفكاره المسمومة هذه المرة عني أو عن طفلي!



طفلي الذي أدعو أن يمر اليوم فقط بسلام وهو يتشبث بي كما فعل طوال الأيام السابقة؛ لأُخبر أباه الحبيب بوجوده الذي ربما يكون كاملاً هذه المرة!

رفعتُ عيني بحذر أواجهه ببعض الثبات الذي بثته داخلي أفكاري المؤازرة وأمنياتي المسكينة، وسألته بخفوت:

-مالك يا ضياء؟

انبثقتْ ضحكة قصيرة خافتة منه ثم أخرج يديه من جيبيه، وضاقتْ عيناه قليلاً وهو يسأل بصوتٍ خفيض قَرُب من الهمس:

-أنت عارفة إن أنا اللي مفروض اسأل السؤال ده!

اقترب الخطوة الفاصلة بيننا وألصقني به بغتة فانكفأتُ على صدره، وكفه تشد على ظهري بحدة منافية للينها الدائم، بينما



عيناه انقشع ثباتها الكاذب واضطرمتْ فيهما النيران بلا سابق تحذير، واقترب بوجهه هامسًا:

-مالك يا براء؟

ابتلعتُ ريقي بعسرٍ ولم أكد أجيبه حتى ارتج جسدي الملتصق عنوة به لزعقته الحادة:

-مالك؟

انتفضتُ ورفعتُ وجهي له أطالع عينيه التي تحولتا في هذه اللحظة لجمرتي لهبٍ مشتعل، وحاولتُ التحكم في ارتجافي الوليد وأنفاسي المتسارعة وأنا أسأله مدعية الثبات والقوة:

-أنت جي ليه يا ضياء؟

رفع عينية بتعبير متفاجئ للحظة ثم عادتْ عيناه للخمود من جديد!



خمود مرعب أكثر من اشتعالهم!

اقترب بوجهه أكثر ومال بالقرب من ثغري؛ يجيب همسًا بصوتٍ جامد يفتقر لحنانه المعتاد:

-وحشتيني.

قبلته التالية وما تلاها كانت شيءً مُريبًا لم أتعرف عليهم معه أبدًا من قبل!

لم تكن قاسية بل.. جامدة!

جامدة ككل شيء فيه الآن وهو الذي لا يعرف الجمود له أبدًا طريق!

يده العابثة التي بدأتْ في فك رباط مئزر استحمامي وإبعاده بإصرارٍ موازي لإصرار تشبثي به كانت مربكةً ومخيفة؛ ليستْ



كتلك الحنونة الدافئة أبدًا، وكأنها تحولتْ لقبضة فولاذ قاسيةً وباردة!

-ضياء..

همستُ بها برجاء محاولة إبعاده بإصرارٍ هادئ ضاعف من قساوة إصراره وهو يعاود النظر لي متسائلاً بعيونٍ مهددة عادتْ لقذف الشرر:

-معقول ما وحشتكيش!

هززتُ رأسي أنفي هواجسي التي اجتمعتْ واتحدتْ مع هيئته المرعبة الآن لتنهشني بلا رحمة!

فإن كانتْ تبغى إنهائي بمفردي لكنتُ استسلمتُ يائسة كما اعتدتُ فقد فعلتُ كثيرًا من قبل، لكني لن أسمح لهم بإزهاق



روح طفلي بعدما تمسك بي وأوصلني أخيرًا لحافة بوابة العبور لنيل الحلم!

أبعدته بحدة هذه المرة وعيوني تتسع بتصميمٍ مرتعب على حلمٍ على وشك الضياع:

-ضياء من فضلك ابعد.

ازداد بريق عيناه الغاضب، وفي لحظةٍ خاطفةٍ دفعني للوراء فتعثرتُ بصدمةٍ صارخة وسقطتُ بظهري على الفراش بعنفٍ فجر داخلي رعبًا مريرًا من تخليه جزاء تلك السقطة!

حاوطته بيدي وروحي ترتجف وأنا أطلب منه غفران هذه الزلة ورعونة أبيه الغائب في الجحيم، وألا يتخلى عنا ويظل متمسكًا بي!



نزع روحي من ابتهالاتها وأوقف حديثي الصامت مع طفله وهو يقترب سائلاً بلهجة منذرة بالويلات:

-ليه؟!

بدأ الخوف الغاضب يسيطر عليّ فضربتُ صدره وأنا أبعده صارخة وأستقيم محاولة الفرار:

-كدة، أبعد.

لم تأثر فيه ضربتي ولم يهتز حتى، بل ازداد حصاره المتملك وهو يعترض بالقول والفعل:

-لا مش هبعد يا براء.

-أبعد يا ضياء، أبعد.

بقيتُ أكررها بلا استسلام وبقى يرفضها بلا يأس!



وبين احتياجٍ مغفل لإثبات ملكية مثبتة بالفعل، واحتياجٍ مميت للحفاظ على الإثبات الأعظم والأهم الذي يجهل وجوده.. انشققنا!

همس بجوار أذني متسائلاً بصوتٍ ليس له:

-إيه.. خايفة روحه تشوفك وأنت بتخونيه معايا؟!

عندها تجمدتُ لوهلة وقد ظننتُ أنني أهلوس من شدة رعبي وقلة نومي، ولكنه أكد لي وصوله لذروة هذيانه عندما رفع وجهه ينظر لي وهو يهز رأسه متسائلاً، وقد انتقل السؤال إلى عينيه التي صرختْ به كذبيحة تُنحر وتقسم على ذبحي معهاه، وشاهدتها تنزف المرارة صراحةً وإن لم يخبُ فيهما الغضب للحظة بل ظل يتوهج أكثر!.. اختفى منها الدفء، وتطاير وهجها كحمم شمسٍ أقسمتْ على إحراقي، وتضاعفتْ فيها صفرة عنبريتها لحدٍ حارق!



لأول مرة تكونا مخيفةً بصدق.. مخيفة ومقبضة وشفافة لما يدور في رأسه وقلبه!

إنه متألم.. إنه غاضب.. وإنه يتذكر بالفعل!

فالتاريخ على ما يبدو لم يحفر في عقله بل حفر في قلبه!

وما يحفر في قلب "ضياء" لا يندثر أو يبهتْ أو يموت!

-ولا خايفة اشوه لك ذكرياتك معاه بوجودي دلوقتي؟!

همسته ازدادتْ حدة وعيونه ازدادتْ شراسة وتكونتْ بفضلهما دموعٍ في عيوني أنا شوشتْ رؤيتي له!

لقد اختل!

صدقًا لقد اختل وفقد اتزانه، ولن أسمح لخلله هذا أن يتسبب في أذى طفلي الذي لايزال مستمر في محاولات إيذائه!



لن أسمح له أن يضيع حلمنا بيديه هو ثم يلقيني معه في جحيمِ ندمٍ لن يفيد... ضربتُ صدره صارخة بحدة تشبه حدته ولم أسمح لدمعاتي بالهطول:

-أبعد يا ضياء.

لكنه اقترب أكثر معاندًا ولم يبتعد، فعدتُ من جديد بحدةٍ وصراخٍ أكبر:

-أبعد يا ضياء، أبعد.

رفع وجهه يواجهني وهو ينظر لي؛ يعلمني رده بملامحه المتحدية ونظرته المصممة!

-هكرهك يا ضياء، هكرهك.

ولحظتها شعرتُ بتجمده وهو ينظر لي بانشداهٍ وصدمة، ولم استسلم أو أكتفي بل عدتها بعيونٍ اتسعتْ بتحذير متألم رغم



الدموعِ التي تساقطتْ، وبتصميمٍ على غرس الكلمات المهددة في وعيه علّه يستفيق فننجوا!

**



عفويةً كوني وإلاّ فاسكتي..

فلقد مللتُ حديثَكِ المتميّعا

حَجَريّةَ الإحساس.. لن تتغيّري!

إني أخاطبُ ميّتا لن يَسمعا!

ما أسخفَ الأعذارَ تبتدعينها..

لو كان يمكنني بها أن أقنعا!

-بريدا الذي لا يأتي!

-نزار قباني



ضياء

سوف تكهرني!

أكانتْ تعشق بالفعل حتى تهدد بالكره؟!

أصدقًا أحبتْ حتى تبغض؟!

وإن حدث وعشقتْ فأين اختفى هذا العشق طوال الأسابيع الثلاث الماضية؟!

أين جموحها العاشق حديث الميلاد؟!

أين كلمات الوله التي باتت تمطرني بها والتي للمرة الأولى أستشعر حرارة صدقها؟!

إن كانت تعشق بالفعل فلماذا عادت لتحرمني من عشقها وقد قاربتُ على إدمانه حد اللوثة؟!



لماذا ابتعدتْ من جديد وصممتْ على إبعادي بعدما أذاقتني شهد الاقتراب من أعماقها!

لماذا عادتْ تضن بكلمة العشق التي ما أن أسمعتني إياها للمرة الأولى قبل أشهرٍ معدودة كادتْ أن تنقطع أنفاسي بلا تصديق، وكأني أخيرًا نلتُ العفو والفوز في سباق حياة دام لسنوات!

ولماذا الآن تحديدًا!

لماذا الآن وقد قررتُ التغابي وتناسي تاريخًا حفرته داخلي بطعنة غادرة لازال أثرها منقوشًا على قلبي للآن!

إن كانت بالفعل عشقتْ فلماذا تصر على تكرار الطعنة!

علمتُ الجواب عندما شاهدتُ ملابسها الجاهزة في نية واضحة لرحيل بلا مناسبة واضحة، ودون إخباري!



عندها صرخ قلبي يجيب مذبوحًا بسكين الحقيقة السافرة وهو يتجرع مرار عشقه الأهوج: لأنها ببساطة تعشقه هو!

تعشقه، وطعنك عندها أهون من ألم تجاوزه!

تعشقه، وعشقها أكبر من محاولة نسيان!

تعشقه، وعشقها أكبر منك ومن إصرارك ومن الزمن!

تعشقه، وعشقها له هو العذاب!

وعشقه هو لها.. جحيمك.

جحيم اشتعل واشتد عندما صُفع قلبي بتخيلٍ مباغتْ حوَّل دماءه التي يضخها لحميمٍ مصهور يجري في شرايني في هذه اللحظة!

أكانتْ تعيد اجترار ذكرياتها معه قبل مجيئي؟!



أكانتْ تتحضر للذهاب له وطلب السماح على خيانتها له كما كانت تفعل طوال تلك السنوات، حتى وإن صرحتْ بالعشق لآخر هو زوجٌ ساذج وصديقٌ خائن؟!

أكانتْ تستعيد وتتحسر على تفاصيل عشقه، فقررتْ الذهاب له وتذكرها معه!

هو لم يكن قديسًا.. بل كان عاشقًا!

عاشقًا غارقًا في تفاصيل أنثاي عندما كانتْ حوله!

عاشقًا متلهفًا يهفو لوصالها وإن لم يصرح بالقول أبدًا حفاظًا على قدسية عشقه، فقد كانتْ عيونه تشي وتحكي وتفيض كما كانتْ عيونها!

وأتي تغيرها وعزوفها طوال الأيام الماضية وحول الشك ليقين.. ثم صدمتها لوجودي، ارتباكها، ولهفتها المفضوحة لغيابي اليوم



تحديدًا كما سنوات مضت؛ وضعتْ ختم تأكيد رغبتها الحثيثة في غيابها معه!

ليبقى وشمي الشائن بالزوج المغفل التي تصمم زوجته على تذكر عاشقها ومعشوقها وهو يختلس ما ليس بحقٍ له وكتب منذ الأزل لي أنا ولو كان محفوفًا بالألم.. يتوهج ويتراقص أمام عيني وفي رأسي، ويستمر في نعت قلبي بالسذاجة والحمق وهو يخرج لسانه لي وله مغيظًا!

غضب معترضًا.. تألم وثار.. ولأول مرة يقسو ويصر على إخضاعها وإثبات أحقيته في ملكية النبضة والجسد على حدٍ سواء. ليأتي رفضها وأمرها بالابتعاد!

ثم تمنعها الشرس ودفاعها المستميت عن طهارة ذكريات خالية من عكر خيانة وجودي وانتظراها مني بعنجهيةٍ فجة طاعتها!



وكأنها أصرتْ بمعاندتها المحاربة أن تخبرني بسفور: أنه لم يكن هو المختلس.. بل أنت السارق!

أنت من سرقتْ ما ليس لك وتستحق أن تُصلى في جحيمك للأبد!

وقتها توهمتُ سماع ضحكة مجلجلة شامتة من مشعل جحيمي وشعرتُ به وكأنه بالفعل بالمدار ويراقبنا مستمتعًا بإذلالي، فخورًا بقلب حبيبته الوفي وهو يهين قلب الصديق الخائن!

يطوف حولي ويواجهني بوجهٍ مشتعل غضبًا وامتهانًا!

يصر على ملاقاة عيني بعينه، وإن شددتُ على إغماضهم رافضًا يقتحمهم غصبًا بأظافر حادة من صورٍ قديمة لعشقه لها وصراخٍ مرتج بكلماتٍ قديمة لخططه وأحلامه معها!

يطالبني صارخًا بحقد بتبرير لغدرٍ وانتزاع ما ليس لي!



وأصرخ مدافعًا ببغضٍ مرير أنه حقٌ أصيل لي وإن توهم هو العكس، فيراهنني مختالاً بغلٍ على إتمام اقتراب ترفضه لوجوده؛ يؤكد فيه رجاحة كفته وكذب ادعاءاتي بأحقيتي فيها!

فأثور مصممًا على نزعِ رد اعتبارٍ لقلبٍ طُعن ولازال، وكرامة دهستُ مرارًا، وحقًا يهضمه ادعاء خيانة!

وقتها أتتْ صرختها المهددة!

أجادتْ اختيار سلاح كلماتها، وأجادتْ قنص الهدف الأضعف، وأجادتْ التصويب بدقة، ثم أجادتْ اختيار التوقيت بمهارة طالما أتقنتها!

رشقتْ سهم تهديد كراهيتها أمام طيف وجوده؛ لتعلنه ملكًا وإن كان ترابًا، وتحيلني رمادًا وإن كنت زوجًا متيمًا!



رفعتُ نظري لها أواجهها بصدمة منكرة لمدى استهانتها بي، وشعور قاتل بالغضب يسحقني!

ودوار تكرار كلماتها المحذرة ونظرة عينيها الشرسة ظل يسحبني بعيدًا عنها ببطء، حتى أسدلتْ دمعاتها التالية ستار النهاية على تصفيقٍ حارقٍ للطيف الشامت المنتصر، وسبابٍ مستخفٍ للبطل الساذج المهزوم!

استقمتُ وتركتها ببطء، وعندها شاهدتُ إغماضة عينيها وشهقة تنفسها الحاد وكأنها قد نالتْ النجاة من الغرق في كابوسٍ مزعج..

اكتفيتُ. ابتعدتُ وأنا أعدل بعثرة ملابسي وفررتُ من أرض معركة لم تشهد سوى على هزيمة عاشقٍ وإذلال زوج!

ذهبتُ وقدتُ السيارة لساعاتٍ محاولاً التحكم في الجحيم المستعر داخلي ولم يخبُ!



ومطارق الألم التي تضرب في رأسي توحشتْ أكثر واستعر الحريق في عيني، وازدادتْ ضربات الكهرباء بجفني، ثم اكتنفني دوارٌ بشع أجبرني على الاصطفاف بالسيارة لأقرب مكانٍ مناسب، ثم ارتكنتُ برأسي للخلف وأغمضتُ عيني مستسلمًا للغياب في الظلمة لبعض الوقت!

بقيتُ هكذا لساعاتٍ استشعرتها طويلة وتأكدتُ عندما فتحتُ عيني واستقبلني الظلام يعلن حلول المساء، ولم يهدأ عصف الدوار برأسي بل ازداد!

وقتها قررتُ الاستسلام لبعض الرحمة والراحة والذهاب للاحتماء عند موطن نجاتي. حاولتُ إدارة السيارة والقيادة لكن دوران العالم حولي قيدني من جديد، فاستسلمتُ لقيده لدقائقٍ وعدتُ المحاولة بعدها فقابلتني ذاتْ النتيجة!



زفرتُ باختناقٍ وخرجتُ من السيارة، أحكمتُ إغلاقها بصعوبةٍ ثم استندتُ عليها منتظرًا ظهور أي سيارة أجرى فارغة حتى أتتْ واحدة بعد بعض الوقت ركبتها باستسلامٍ وأمليتُ السائق العنوان بجهدٍ متعب، ثم استسلمتُ للظلام من جديد الذي عاد بالسؤال الذي يعصف بروحي منذ الصباح!

كيف سأواجهها، وكيف سأتحمل لوم عينيها، وكيف يمكن جبر خاطرها المكسور؟

لن أتحمل حزن عيناها وعزوف روحها عني ولفظي من سلام جنة أحضانها خاصة الآن.. سيكون وقتها هذا هو الجحيم الحقيقي، فلن أتحمل الرجوع معها لترنحها في خوفها وتشككها فتنأى بروحها عني وأنا كسير الروح الآن!

ستكون هذه السقطة المهشمة التي لن يفلح بعدها أي لملمة لأي بقايا.



تضاعف الألم والدوار لهذه الفكرة فرفعتُ كفي أضغط على رأسي بشدةٍ محاولاً إخراس العواء الذي انطلق بداخلها بلا فائدة!

زفرتُ بتعبٍ ومِلت بجزعي للأمام وأنا أحاوط رأسي، وهادنتُ هذا الألم القاتل بأملٍ متلهف.. فقط أراها أمامي الآن وكل شيء آخر سيكون بخير.

لن أفكر، لن أتحدث، ولن أبرر.. فقط سأحتمي بها حتى أستعيد بين أحضانها توازني، ثم سأطلب منها السماح وأعترف لها بخطيئتي في حقها وأسبابها المشينة وإن لم تكن مبررة، ثم سأخبرها معترفًا بأني حاولتُ التغابي والتغافل وألا أفعل لكني لم أقدر، وصدقًا لو لم أفعل ذلك لكان أصابني الجنون.. وبالتأكيد سترأف، وتحنو، وتسامح.

بقيتُ أكررهم مرارًا واعدً ومتأملاً حتى بدأتْ ضربات الألم في الهدوء قليلاً.. سترأف، وتحنو، وتسامح.



أخذتُ أعزف الأمل في النجاة بتلك الكلمات طويلاً حتى وصلتُ أخيرًا!

أقرضتُ السائق أمواله شاكرًا ورفضتُ عرضه القلق بإيصالي لباب المنزل وإن شعرتُ برغبةٍ ملحة في القبول، ثم صعدتُ بصعوبة لبيتِ أبيها الراحل وفتحتُ الباب ببطء ثم دخلت وأغلقته ورائي بهدوءٍ وذهبتُ على الفور لغرفتنا داعيًا الله ألا تكن قد غابتْ في نومٍ يبعدني عن أحضانها واستشعار أنفاسها!

وقفتُ أمام باب الغرفة المموارب وفتحته ببطء والتقطتها عيناي على الفور.. جالسة بهدوء على حافة الفراش تنظر لي بثباتٍ وعيونٍ أغلقتْ أبواب انفعالاتها في وجهي، وهذا وحده ضاعف الألم!

اقتربتُ منها ببطءٍ وتوقفتُ أمامها، وببقايا طاقة مستنزفة همستُ برجاء:



-ممكن نأجل أي كلام وأي لوم لبكرا، وتخليني أنام النهاردة بين أديكي وبس.

لم ترد ولم تتغير تعبيرات وجهها أو نظرتها، فجلستُ أمامها وأمسكتُ يديها معترفًا باحتياجٍ قاتل وأنا أنظر لصمت عينيها المؤلم:

-تيا أنا محتاجك.

أغمضتُ عيني وأردفتُ صادقًا بخفوت:

-محتاج أنام في حضنك.

عندها استشعرتُ استجابة طفيفة من كفيها وهما تشدان على كفي؛ ففتحتُ عيني متأملاً في أن يشوب وجهها أي انفعالٍ حتى وإن كان الغضب، ولكني قابلتُ ذات الفراغ!

زفرتُ بإحباط متألم ثم أطلقتُ آخر كلماتي همسًا:



-أرجوكِ.

بقتْ على حالة جمودها الصامت ثوانٍ ثم تحركتْ تشدني إليها بصمتٍ؛ فاستكنتُ. وعندما وضعتْ كفها الصغير على رأسي تمسده بخفة: صمتْ كل الضجيج واختفى كل الألم وكأنه لم يكن!

وقتها أغلقتُ جفني على الفور بلا مقاومة أو تفكير وقد خبتْ كل النيران، وغاب الوعي، وسكنت الروح الضائعة بعدما تيقنتْ أنها الآن مستكينة آمنة في عقر ضمة المفر.. والمستقر.

**



أأدَّعي أنني أصبحتُ أكرهه؟

وكيف أكرهه؟!

ومن في الجفن سُكناه؟!

وكيف أهرب منه؟!

إنه قدري.

هل يملك النهر تغييرًا لمجراه؟!

أحبه؟!!

لست أدري ما أحب به!

حتى خطاياه ما عادت خطاياه!

-ماذا أقول له؟

-نزار قباني.



تيا

كنتُ جالسة على حافة الفراش أتلاعب بالاختبار الصغير بيدي وأنا أتأمله ببسمةِ حسرةٍ وألم، غير قادرة على محادثة طفلي والاعتذار له بالكلمات ولكن روحي المنهارة فعلتْ بصمت!

أردتُ ذرف المزيد من الدموع والتخلص من ثقلها كما أفعل منذ الصباح ولكن عيني المتألمة أبتْ وبقتْ على شحوبها وجفافها المؤلم ونظرتها الغائرة لتلك القطعة الحبيبة في يدي!

بقيتُ هكذا طويلاً بلا ملل حتى سمعتُ صوت باب البيت يُفتح ببطءٍ واستشعرتُ حفيف خطواته المقتربة بهدوء!

خبأتُ الاختبار بسرعة أسفل الفراش؛ رافضة أن ينكشف أمامه بريق كنزي الثمين.. ثم تطلعتُ في الساعة أمامي لأجدها تقترب من التاسعة والنصف مساءً!



نظرتُ للباب بترقبٍ واثق، واستغراب قدومه الآن شابه استنكار ورفض.. وعندما وجدته أمامي بالفعل لم أشعر سوى بالخواء والصمت!

اقترب ببطءٍ وملامحه المرهقة لم تأثر فيّ ذرة وهو يطلب تأجيل الكلام واللوم!

أي كلام، وأي لوم!

ألا يعرف أن الكلام الآن عبث واللوم وقاحة؟!.. وتصوره أني سأفعل أي منهما زاد مقتي أضعافًا. تمسكه بيدي الذي أتى مع اعتراف احتياجه زاد داخلي الحسرة والألم.. يحتاجني!

وماذا عن احتياجي أنا!

أنا أيضًا كنت بحاجة ماسة له في الصباح!

ويرجوني!



لماذا إذًا لم يعطني فرصة ترجيه بالمثل!

وددتُ بشدة سؤاله هذا السؤال ولكني امتنعتُ.. فهو لا يستحق اللوم والسؤال، ولا يستحق هذه الشفقة التي تسللتْ لقلبي على إنهاك عينيه الواضح والتي أجبرتني أن أستجيب لرجائه بنصف خنوعٍ وصمتٍ تام وأنا أحاوطه بذراعي كما أراد. ارتكن برأسه على كتفي وأحاطني بذراعيه بالمثل متشبثًا بشدة استغربتها، ولم تمر دقيقة وغاب في نومٍ عميقٍ!

ظل نائمًا طويلاً كطفلٍ منهك، وبقيتُ مستيقظة بدون رفة جفنٍ، وتمتماته الهامسة باسمي طوال نومه أربكتني وأعادتْ الدموع لعيني من جديد!

ألمني قلبي بشدة وكلما حاول مهادنة الغضب والقهر داخلي معلنًا رغبته في السماح ومشاركته أنينه؛ أنتفض معترضة مصممة أني لن أسامحه!



فهو لم يفعل ما فعله سوى لأجلها!

لم يكسر روحي بيديه سوى لشيءٍ يخصها!

أستشعر بصمتها في أنفاسه وملمسها في خلاياه ورائحتها يعبق بها جسده المختبئ في أحضاني!

فكيف لهذا القلب الساذج أن يطلب غفران بعد كل هذه البراهين، وبعدما شاهد فرحتي المنتظرة وهي تزهق أنفاسها الأخيرة داخله بعدما ذُبحت بلا ذرة رحمة أو شفقة بيد من يطالب مسامحته والشفقة عليه!

حاولتُ إبعاده والقيام بعدما طفح داخلي الألم لكنه زاد من تشبثه وحفر رأسه بكتفي أكثر مغمغمًا بكلماتٍ لم أفهم أغلبها؛ فعدتُ للاستسلام لتشبثه وطمأنته مؤقتًا. ظل نائمًا طويلاً حتى ألمني ظهري من طول الرقدة على وضعٍ واحد كل تلك الساعات وهو رافض تحريري حتى حل الصباح ولم يكتفِ ويستيقظ!



تجاهلتُ مرور موعد عمله عندما حاولتُ إيقاظه وقته ورفض الاستيقاظ، وعند التاسعة صباحًا استشعرتُ انفراجًا بطيءً كسولاً لجفنه على كتفي، ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو يدفن وجهه عند عنقي ويزيد من ضمه لي ثم عاد لاستكانته وإغماض عينيه، وقتها تساءلتُ بصوتٍ خفيضٍ قبل أن يختطفه النوم من جديد:

-ضيا.. أنت صحيت؟

لم يجب سوى بهزة رأسٍ خفيفة، فاستطردتُ وأنا أبعده بخفة مكتفية من قربه المرهق حد الإنهاك:

-طب من فضلك قوم عشان ضهري وجعني.

منع قيامي محاصرًا وهو يعترض بصوتٍ نائم متحشرج:

-خليكي شوية، عشان خاطري.



استفزني تمسكه، واستفزني طلبه، واستفزني خاطره الذي يناشدني به، فأبعدته ببعض العصبية وأنا أرفض بتصميمٍ حاد:

-ضيا من فضلك ضهري وجعني، أوعى.

قمتُ وارتديتُ مئزري الشتوي ثم ذهبتُ اختلي بحزني في الشرفة رغم البرودة القارصة للجو. بقيتُ دقائق شاردة في الأفق أمامي أفكر في كل شيء ولا شيء، وقاطع شرودي وهو يقف أمامي لثوانٍ بهيئة منعشة وقد بدل ملابسة بعدما أخذ حمامًا صباحيًا، ثم انحنى بجزعه لمستوى جلوسي وأحاط أعلى كتفي بكفيه يشدني ببطء لأقف أمامه ففعلتُ، وبقينا هكذا لدقائق نتبادل الصمت والنظرات.. صمته المتكلم يقابله صمتي الساكن، ونظرته المعتذرة تقابلها نظرتي الخاوية!

قطع تواصل أعيننا وهو يغمض عينيه ثم اقترب من رأسي يطبع قبلةً بطيئةً عند جبيني أطالها كثيرًا، وكادتْ أن ترديني باكية على



صدره لولا تمسكي بأذيال الحسرة التي تموج داخلي وتصفع في وجهي أي باب ساذج محتمل لمحاولة سماح. أنهى قبلته المربكة ثم همس دون أن يبتعد وإصبعيه لازالت مستمرة في تمسيد كتفي ببطء:

-أنا آسف.

ابتعد وهو يحني رأسه ينظر لي، ورفع رأسي لأبادله النظر ثم أكمل بذات الهمس:

-حقك عليَّ.

لا أعرف لماذت وددتُ الضحك!

أهذا هو ثمن كسرة روحي وخذلان طفلي!

اعتذار وقبلة جبين!

-تيا.. بلاش نظرتك دي.



قاطع بهمسته الراجية شرودي المُر وأزاد بها المرارة!

لم تتغير نظرتي وبذات الخواء نطقتُ هامسة أسأله للمرة الأولى منذ رؤيتي له بعد أكثر من أربع أيام فراق:

-مالها نظرتي!

-بتوجعني.

قالها على الفور وشهدتُ لمعتها الصادقة في عينيه التي أطفأتْ بريقها لحظة نطقها واحتلتها هي!

وصدقًا لم يزيدني هذا إلا ألمًا ونقمة أعربتُ عنهم باستنكارٍ خفيض الصوت، ثابتْ التعابير، خاوِ النظرات:

-وأنت مستخسر نظرتي بس توجعك وأنت كل حاجة فيك بتوجعني!



ضاقتْ عيناه للحظة وشاهدتُ حلقه وهو يتحرك ببطء فوشى لي بصعوبة ابتلاعه لكلماتي قبل أن يكرر:

-أنا آسف.

بترتُ هزل اعتذاره واضعة نقطة النهاية لعقم هذا الحديث:

-مش قابلة أسفك يا ضيا ولا عمري هقبله.

خرجتُ من الشرفة وتبعني يصرخ بانفعالٍ لم أعرف في أي وصف أضعه:

-تيا.. كان غصب عني، صدقيني.

وتلك الكلمة المستفزة عن تحججه بالإجبار والتي كنتُ أنتظرها فجرتْ الغضب الكامن داخلي فالتفتُ له صائحة بعنفٍ وغضبٍ وقهر:

-ليه؟!.. كانت بتموت وأنت اللي هتحيها؟!



توقفتُ ألتقط أنفاسي الهاربة ورفعتُ سبابتي بوجهه أخبره صادقة:

-عارف الحالة الوحيدة اللي ممكن أفكر أسامحك فيها إن يكون كان هيجرلها حاجة ورحت تلحقها.. لكن غير كدة فلا يا ضيا.

توقفتُ وبعيونٍ متحدية لم أستطع إقصاء الألم والعتاب عنهما أكثر، وصوتٍ مُكذِب قبل حتى أن يكذب أكملتُ:

-هاه يا ضيا.. كانت بتموت ورحت تلحقها؟!

ظل واقف أمامي طويلاً ينظر لي بانهزامٍ ووجه جامد قبل أن يصحح باقتضابٍ وصوتٍ فارغ مشدود:

-لا.. كنت رايح امنعها تخوني.

تجمدتُ لوهلة بلا استيعاب وصدمة ورفض تفسير أو تصديق معنى كلماته!



لقد جُنّ!

بالتأكيد جُنّ ولا يعي ماذا يقول وعلى من!

هي لا تخون!

أنا أكرهها وأكره عشقه لها، لكن تصديق وشمها بهذا خبال!

هي ليستْ بخائنة وأيضًا تعشقه، وهو جُنّ بكل تأكيد!

أطلقتُ صراح أفكاري أمامه وأنا أسأله بذهولٍ وعيونٍ متسعة وعقلٍ مشلول:

-أنت اتجننت يا ضيا؟!

هززتُ رأسي بذهولٍ واستطردتُ بذاتْ الذهول الناكر أجيب سؤالي بإقرارٍ ويقين:

-لالا.. أنت ماتجننتش أنت اتهبلت.

-تيا.



زعقته المقاطعة والمحذرة مع عيونه المتسعة بسعيرها المحتدم داخلها لم يؤثرا بي فبادلته الصياح بآخر:

-تيا إيه؟!.. تيا إيه بجد أنت خلاص اتجننت!.. والله العظيم اتجننت!

-لا ماتجننتش. ماتجننتش.. كانت رايحة له.. كانت رايحة له زي ما كانت بتروح له وبتستغفلني طول السنين اللي فاتت. كانت رايحة له تترحم عليه وعلى أيامه وتتأسف له على إنها بتخونه هو معايا أنا. كانت رايحة له تعيد ذكرياتها معاه وحبها ليه وحبه ليها. كانت رايحة له.

انفجرتْ الكلمات منه بغتة بصراخٍ مرعب وهو يطوح يديه أمامي باعتراض وانتفخ عرق جبينه المحمر حتى شعرتُه لوهلة سينفجر أو تتوقف أنفاسه، وعيونه التي كانتْ تعتذر برقة قبل قليل



تحولتْ في لحظة واحدة لجحيمْ مقبض، لا تقترب إنشًا من تلك العينين التي عشقتهما وذبتُ في صفائهما وحنانهما الذي لا ينضب!

هيئته كلها مخيفة.. مخيفة وتصيب النفس والقلب بالحسرة!

شعرتُ وكأن الدماء فرتْ من جسدي وتركته باردًا.. وأنا أكره البرد وأخشاه!

وضعتُ كفي ببطءٍ على بطني التمس من روحي بداخلها بعض الدفء وأبثه القليل من الأمان بعدما اكتنفه الذعر بالتأكيد من صراخ أبيه الغارق في هواجس عشقه لغير أمه!

بقيتُ أطالعه بوجهٍ مصدوم، وعيونٍ مشدوهة، وفمٍ فاغر.. وشعرتُ بأنفاسي حُبِستْ داخل صدري بقهرٍ وغير تصديق!

حتى قطعتُ صمتي بلا انتباه أو قصد بسؤالٍ خافت، ذاهل، ومرتعب:



-رايحة لمين؟!

والإجابة لا تحتاج لصبها في حديثٍ زائد ولم أنتظرها، ومع ذلك ظهرتْ جلية في مقلتيه الغاضبتين التي ازدادتا اشتعالا!

أغمضتُ عيني أمنع دمعاتٍ استشعرتُ دنوها، ولا أدري من أين أتتْ تلك الضحكة المريرة وأنا أصرح له باكتشافٍ صادقٍ مقهور:

-لا يا ضيا أنت ماتجننتش؛ أنت اتهوست!

خبأتُ وجهي الملتاع بكفي وضحكاتي تتقطع وتزداد رغم هدوئها وأنا أعيد وأكرر على مسامعي أنا:

-براء هوستك يا ضيا.. هوستك!

سمعتُ همسته باسمي واستشعرتُ اقترابه، فأبعدتُ يدي عن وجهي وابتعدتُ امنع اقترابه وقد اختفتْ الضحكات بغتةً كما ظهرتْ بغتةً!



رجعتُ أهز رأسي بذهولٍ وتركت لوجهي حرية الصراخ بأي تعبيرٍ يرضيه ويخفف من ألم النصال التي تتراشق داخل قلبي وتمزقه بوحشية لا تحتمل، وغمغمتُ بدموعٍ حاولتُ حبسها عبثًا:

-أنت بتتكلم كدة على واحد ميت!.. بتغير من واحد ميت!

هز رأسه ببطء هو الآخر وبصوتٍ مهزوم هامس نحر روحي:

-مش ميت جواها يا تيا.. مش ميت.

أغمض عينيه وضغط على فكه بعنفٍ بيّن وهو يستطرد بهمسٍ غاضب، متألم، ويائس:

-مانستهوش.. مابتنساهوش!

وجهه الآن كان أكبر من قدرة احتمالي على رؤيته؛ فأغلقتُ عيني وانبثقتْ مني ضحكة خفيضة مبتورة تحولتْ لابتسامةٍ مغلقة ضغطتُ على أطرافها بأطراف أسناني كي لا تتحول لآهةِ وجعٍ



مدوية، ثم بعد بعض الوقت الذي لا أعي مدته خففتُ من ضغطهما وأنا أسأله هامسة دون أن أفتح عيني:

-هو أنت بجد عايزها تنساه بالسهولة دي؟!

فتحتُ عيني على وجهه المتجهم بغير رضا، وطالعته بعشقٍ مسترجع لتفاصيل هذا المحيا الذي احتل ذكريات سنوات عمري ولا يزال، واستسلمتُ للشرود ثوانٍ وأنا أسترجع مرض عشقه المزمن وفشلي المتكرر في الشفاء منه!

تساقطتْ دموعي ولم أحرمها حق الرحيل، وتكونتْ ابتسامة تحولتْ لضحكةٍ صامتةٍ ظلتْ منقوشة على ثغري وأنا أهز رأسي حسرة وأخبره بلوم وألم وعشق، هامسة:

-دا أنا ماعرفتش أنساك!

-تيا!



اقترب يخطو مني بتعجل بعدما شحب وجهه وذُهلتْ عيناه، وكأنه استفاق من سكرة عشقه المحموم لأخرى وانتبه أخيرًا أنه يحدثني أنا بتلك الكلمات وهذه اللوعة العاشقة عنها!

اقترب يحيط ذراعي بكفيه؛ يقربني من أحضانه فوضعتْ يدي على صدره أوقف عناقه الوشيك وأنا أخبره وأسأله بذاتْ الهمس وذاتْ الوجه:

-أنا ماعرفتش انساك يا ضيا.. هي هتنساه ازاي!

-تيا..

وهذه المرة كانت همسته ونظرته راجية ومحذرة!

ابتعدتُ وتشبث، فأصريتُ على الابتعاد وأنا أفكر والتف حول نفسي وقد ضربني سكين اكتشافٌ جديد، غمغمتُ بصحته محدثة نفسي:



-صح. صح.. صح.. كدة صح.

رجعتُ أرمقه بنظرة ضائعة اهتدتْ لسبيلٍ مُعبَّد بالألم والقهر القاتل:

-عشان كدة.. عشان كدة اتجوزتني صح؟!

أوقفتُ التفافي ووقفتُ أمامه أواجهه بعيونٍ مكتشفة، لائمة، مطعونة في صميم عشقها، وغير مصدقة لكلماتي التي خرجتْ تشرح وتصفع قلبي القتيل في هذه اللحظة، غير مدركة أن تلك الصفعات ما عادت تؤثر فيه:

-أنت بتتوجع عشان هي لسة متعلقة بعمرها كله اللي كان مع غيرك.. فقولت أوجعها باقي عمرها كله وأنا بقاسمها باقي عمري مع غيرها، صح؟



صرخ نافيًا بجنونٍ مفزعٍ وعيونٍ عادتْ لاشتعالها المخيف وهو يشدني إلى أحضانه غصبًا:

-لا. لا مش صح. مش كدة.. أنا اتجوزتك عشان أنتماينفعش تبعدي عني.

استسلمتُ لحصاره للحظاتٍ مستمعة بانتباه غائب لكلماته النافية بإصرارٍ غاضب، وغاب عقلي في سؤالٍ قاسٍ يبعدني به عن تصديق كذب كلماته وعن التفكير بالذبيح النابض بصدري!

رفعتُ رأسي ببطءٍ وأنا أنظر له بعيونٍ اكتشفتُ عدم نضوب دموعها عندما وجدتُ رؤيته مشوشة أمامي، ولم أهتم بهم.

لم يفك أسري من داخل ذراعيه وهو يحتضن وجنتي بيده وينظر لي بالمثل وأنا أهمس له بسؤالي القلق المعاتب:



-طب أنت نسيته يا ضيا؟!.. هاه.. نسيت مصطفى الله يرحمه يا ضيا؟!

تجهم وجهه وجمد كفه واختفى منه الدفء الذي كان ينشره في أوصالي الباردة، ويبدو أن الاسم أصبح مفتاح تحوله على النقيض في أقل من لحظة؛ فقد اتسعتْ عيناه وخرج منه همسٍ ناقم لم أستوعبه وهو يأمر محذرًا:

-ماتجيبيش اسمه على لسانك.

-ليه؟!.. طب هي وكانت بتحبه لكن أنا ماجبش اسمه على لساني ليه؟!

سألته باستنكارٍ وابتعدتُ عنه بتصميمٍ رغم معارضته، وأكملتُ دامعة ولم يعد صوتي قادرًا سوى على الهمس:



-ماجبش اسم الإنسان اللي ماشفتش منه غير كل طيبة وجدعنة وكان زيه زيك..

انتفضتُ على هدير صوته وهو يقاطعني محتدًا:

-ماتقوليش زيه زيك.

لم أستوعب كلماته لوهلة ثم صرختُ بنشيجٍ عالٍ مستنكر ومتحسر أنه يتحدث بهذا الجنون والغضب على من كان صديقًا مشتركًا بيننا وكان الأقرب له لسنوات:

-أنت أناني أوي!

أغمضتُ عيني عندما انبثقتْ فجأة شهقة بكاء ألمتْ صدري وأنا أعيد:

-أنت أناني أوي يا ضيا أوي!

فتحتُ عيني وأنا أنظر له بنقمة لم تخلُ من المِودموع:



-عايز كل حاجة!.. ومعاك كل حاجة وبردو مش راضي!

خبى الألم وتحول لحقدٍ متهِم:

-معاك اللي بتحبها ومعاك اللي بتحبك!.. معاك منصب وشغل محترم، ومستوى اجتماعي أي حد يتمنى يعيش فيه!

صمتُ لحظات وعادتْ دموعي في السيلان رغم إغلاق عيوني لحبسهم، وعاد صوتي للقهر المحروم من الهبة الأحن الذي لم يحرمه الله منها:

-معاك بابك ومامتك!

سكنتُ كثيرًا هنا وأنا أستعيد مزاق مرارة هذا الحرمان الذي لا ينتهي، ثم أكملتُ بفتحة بسيطة من عيوني المحترقة هامسة بما نجح هو في تحقيقه وفشلتُ أنا:

-معاك صحابك!



عدتُ أسأله وأنا أشير بيدي للفرغ:

-هو معاه إيه هاه؟!.. هو تراب وكمان مش عاجبك!

أكملتُ بدموعٍ سالت بلا توقف وصوتٍ تهدج من القهر الذي استشعره في هذه اللحظة يفترسني، وقد شعرتُ بي أشبهه كثيرًا في هذه اللحظة:

-مستخسر فيه حد يجيب سيرته ويترحم عليه!

نظرتُ له ببغضٍ وأنا أردف:

-أنت جاحد أوي!

مسحتُ دموعي بكفي وأكملتُ بذات البغض الناقم وقد تجاهلتُ وخزة الألم التي قرصتني بعنفٍ لبصره الذي زاغ للحظة وأنفاسه المتسارعة ووجه المشدوه منذ بدأ انفجاري:



-بس لا.. هو مش مهم.. مش مهم أصلاً أي حد تاني غيرك.. كله يولع عشان أنت تاخد كل حاجة..

اقتربتُ منه ببطءٍ وضربتُ على صدره بإصبعي باتهامٍ صريح لعمق أنانيته:

-مش بتبص غير لوجعك أنت وبس وفي داهية قهرة الباقي!.. مش بتبص غير لوجعك إنها يا حرام مش قادرة تنسى البني آدم اللي عاشت نص عمرها كله أو أكتر معاه.. وإنها خاينة المفروض ماتعيش غير بيك وليك أنت وبس!..

مش بتبص لوجع واحدة اتسرق منها مرة واحدة في غمضة عين ٢٠ سنة من عمرها وشايف إنها مفروض تدوس على كل ده بجزمتها عشان حضرتك تبقى مرتاح ومبسوط!.. ولو ماعملتش ده اروح ادوس عليها واتجوز عليها!



عاودتُ الابتعاد عنه وأنا أنظر له بلومٍ عاد يفرض نفسه، وصمتٍ متأمل مقهور، ودمعاتٍ انحدرتْ مع إقرار مؤنب وأنا أهز رأسي ببطء آسف:

-مش بتبص لي!..

مش بتبص لوجعي أنا وأنت كسرني بدل المرة عشرة وجي في الآخر تعتذر إنك سبتني وأنا مأكدة عليك تيجي، وماستنكش في حياتي كلها قد ما استنيتك اليوم ده!..

مش بتبص لوجعي أنا وأنت بتشتكي من وجع حبك وغيرتك على واحدة غيري!..

مش بتبص لوجعي أنا وأنا شيفاك عمري كله بتجري ورا واحدة تانية!..



مش بتبص لوجعي أنا وأنت عايزني جمبك تحت أي مسمى عشان ترضي غرورك رغم إن اللي فضلت تجري وراها سنين بقت معاك وملكك!..

مش بتبص لوجعي أنا وأنت بتستغلني وبتستغل ضعفي وبتجبرني أشاركك معاها وأقسمها فيك!..

مش بتبص لوجعي أنا وأنا عارفة إن انتوا الاتنين معاكوا كل حاجة ومعاكوا بعض وأنا مش معايا أي حد!

رفعتُ كفي لصدري وتاهتْ نظرتي في الفراغ حوله وأنا أعيد بانهزامٍ وتيه:

-مش بتبص لوجعي أنا..

رفعتُ أنظاري له وأنا أصرخ بمرارة وألم وقد فاض القهر وطفح:

-أنا اللي بتوجع أكتر منكوا انتوا الاتنين.



والكلمة الأخيرة لم تكن بصرخة عادية بل كانت مدوية أودعتُ فيها كل عذابي، ثم سقطتُ مرتمية جالسة على الأريكة بإنهاكٍ وقد تمكن الوهن والضعف من كل شبر في جسدي وقلبي، وشعرتُ بروحي تنتفض وأنا أستعيد وجهه المتحسر منذ قليل وكلماتها العاشقة منذ شهور وشعرتُ بذات الغربة والضياع الذي هربتُ منهم منذ سنوات في بلادٍ غريبة يحتلوا داخلي بذاتْ البرد والثلج الذي كرهتهم هناك!

-أنت بتحبها وهي بتحبك!.. طب وأنا؟!

زاغتْ نظرتي وانبثقتْ ضحكة مقطوعة وأنا أسأل نفسي بأنينٍ باكي:

-أنا فين من الحسبة الهبلة دي؟!

رفعتُ نظري له أسأله بلوعة:



-أنا فين يا ضيا أنا فين؟!

فارقتُ عينيه وغامتْ نظرتي، وهمستْ بها من جديد علّ أي شيءٍ يرشدني الجواب:

-أنا فين؟!

بقيتُ أكررها وأكررها بتوهة احتلتني حتى شعرتُ به يسحبني ويوقفني أمامه ثم طوقني بذراعيه وظل يضغط على رأسي في صدره بشدةٍ مؤلمة مشابهة لألم أنفاسي المتقطعة التي ألتقطها بصعوبة بالغة!

**



ضيا

صرختها الأخيرة بالوجع كانت كالضغطة الأخيرة على جسرٍ متشقق؛ كسر فتهاويتُ معه ومعها!

ضياعها وسؤالها التائه أراق البقية الباقية من تحملي، ووددتُ الصراخ بها أنها في كل مكان.. أنها ضاربة بجزورها في عمق الروح، وأن وجودها بالجوار هو كافة أعمدة الكيان الذي يستقيم به.. أن كل تفاصيل العمر الماضي مشبعة بها، وكل تفاصيل العمر المقبل لن تكتمل إلا بها.. أن الحياة كلها لا تتوازن إن لم تبقى محتلة مركزها، وأن الروح بلا حضورها تظل تتخبط في غياهب حلكة ليل بلا قمر.. أن وجود كل ما أشارتْ له بلا وجودها هي: ما هو إلا هباءٌ منثور.



كلماتها الحاقدة واللوامة عن كل ما أملك والتي كانتْ كنصالٍ حادة تغرسها في قلبي ورأسي، لم تقتل روحي قدر لوم كلماتها المتألمة وتيه سؤالها الأخير!

صرخاتها بصوتها الذي بح واختفى كانتْ مفزعة أكثر من دوي ألف قنبلة منفجرة!

حتى تهاوتْ فتهاوتْ روحي معها وركضتُ أقيمها رافضًا سقوطها بعيدةً عني، أخذتها بين أحضاني أحتمي من غيابها بوجودها داخلي.. كانت تنتفض بشدة، ليستْ كورقةً تتقاذفها الريح، ولكن كورقةً ينشهشا الطوفان!

جسدها المنهار المستسلم بين ذراعي وأنات صوتها المقطوع: سلخوا قلبي من موضعه وقذفوا به في نيرانِ غضبٍ من كل شيء، وعلى رأسهم أنا!



بقيتُ أشدد من ضغط رأسها على صدري وسحق جسدها داخلي باليد الأخرى؛ لا أعلم لأخفف بعضًا من ألمها أم أخفف القليل من ألمي الذي ارتد داخلي كصدى لألمها!

شعرتُ بالأرض تهتز أسفلي بشدة؛ فجلستُ على الأريكة التي سقطتْ عليها منذ قليل وأنا أتشبث بها داخلي، وخبأتُ رأسي من دوران العالم حولي عند مقدمة رأسها.

أخشى انهيارها.. بل ارتعب منه. أعلم أن ضعفها لا يطفو على أفعالها إلا إذا تمكن من داخلها الخوف والتعب!

وتعبها يؤلمني، وخوفها يرعبني!

-أنت بتعمل فيَّ ليه كدا يا ضيا؟!

قطع صوتها الخافتْ غيابي وأزادتْ به السياط التي تنهل على روحي باستطرادتها النادمة:



-أنت ماحدش حبك قدي!

رفعتْ رأسها تنظر لي بعيونٍ دموعها لا تتوقف عن السقوط والتكون من جديد:

-ماحدش اتمناك قدي!

حاوطتُ وجنتيها بكفي وبقيتُ أعتذر عن كل شيء وأنا ألاحق دمعاتها الفارة بشفتي علّها تعتقها وتنتقل بمرارتها داخلي بدلاً عنها.

-ليه بتعمل فيَّ كدة ليه؟!.. ليه؟!

همستُ أحاول إيقافها وانتشالها من هذا الجحيم الذي أودعتها إياه بيدي:

-تيا.

-لـــيـــة؟!



أزاحتْ صدري بكفيها ثم زاغتْ نظرتها قليلاً وشردتْ قبل أن تعدل صياغتها بصراخٍ جديد وهي تختطف نفسها من بين ذراعي قسرًا وتبتعد:

-ليه بتعمل فينا كدة؟!

أخذتْ نفسًا طويلاً وهي تنظر لي ببقايا دموعها ثم أشارتْ بإصبعها للباب وقد تحولتْ نظرة الهزل في عينيها لتصميمٍ ناقم:

-أطلع برا.

وقفتُ أمامها أحاول احتواء كتفيها ومهادنة غضبها بأي كلماتٍ، وظلتْ تبتعد صارخة مصممة على إشارتها وأمرها برحيلي:

-برا، أنا مش عاوزة اشوفك..

-ممكن تهدي عشان نتكلم..

-اطلع برا.. روح لها.



-تيا.

خرج اسمها بزعقة مكتفية وغير متحملة وقد أمسكتُ ذراعيها قسرًا وأنا أهزها لتتوقف وتسمع كلماتي التي لا أعرف من الأساس كيف ستكون، لكن عادتْ صرخاتها المبحوحة تدوي من جديدٍ وهي تتملص من يدي بعنف:

-امشي، سيبني.

بادلتها الصراخ بآخر وقد تلبسني الخوف من فكرة تركها وحيدة على هذه الحالة:

-مش هسيبك وأنت كدة.

-أنت سيبتني وأنا أسوء من كدة!.. أمشي مش عايزة اشوفك.

قاطع صراخها صوت جرس الباب يدق بإصرارٍ فتركتها وذهبتُ أفتحه ووجدت وجه "رحمة" القلق وهي تسألني عن سبب



صراخنا، ثم دخلتْ وهي تنتقل بالسؤال لكلينا وتنظر لنا بقلقٍ وأنفاسٍ متسارعة:

-في إيه يا ولاد صوتكم عالي من بدري ورجعتوا تزعقوا ليه؟!.. في إيه مالـ....

-قولي له يمشي.

قاطعتها بشراسةٍ باكية وهي تنظر لها وتشير بيدها لي وللباب بجانبي، ثم أعادتْ ببكاءٍ وعيونٍ مسلطة عليها رافضة النظر لي:

-قولي له يمشي ومايورنيش وشه تاني أبدًا.

كلماتها وبكاؤها ونأيها عني بهذا الشكل وأمرها لأخرى بإبعادي وعدم رغبتها في رؤيتي مجددًا.. كانتْ كأسهمٍ مسمومة غرستهم في منتصف القلب، لم أستطع تحمله وأنا أنظر لها بألمٍ معاتب لم ترَه!



نظرتْ لي "رحمة" وهزتْ رأسها بتساؤل ونظرة مرتعبة وبادلتها بنظرة منهزمة منهكة وغاضبة، وقاطعتْ نظراتنا بصرختها القاطعة:

-قولي له يمشي.

رجعتُ بأنظاري لها وقد تضاعف الألم، بينما انتفضتْ "رحمة" على دوي صرختها بقلقٍ ونظرتْ لي راجية وهي تبعدني وتربتْ على كتفي بهدوء وطمأنة:

-امشي، امشي يا ضياء دلوقتي.. امشي وأنا معاها وهبقى اطمنك عليها.

بقتْ نظراتي معلقة على وجهها الشاحب وعيونها المنتفخة طويلاً قبل أن أمتثل صاغرًا بهزة مشجعة من كف "رحمة" للرحيل!



ابتعدتُ وذهبتُ أبدل ملابسي وأخذتُ مفاتيحي وهاتفي وخرجتُ لأجدها جالسة بتخشب على الأريكة التي كنا جالسين عندها منذ قليل، وعيونها شاخصة في اللا شيء.. وضاعفتْ تلك الهيئة الأخيرة التي أراها لها من عشوائية ما أشعر به الآن!

نزلتُ وبقيتُ أسير هائمًا بلا قدرة على أي تفكيرٍ لساعاتٍ قبل أن أقرر الذهاب لبيتِ أبي مستسلمًا. استقبلتني أمي على الباب بابتسامةٍ خبتْ عندما قابلها وجهي المتجهم ودخولي الفوري للبيت بلا حديثٍ أو مشاغبة معتادة:

-مالك يا حبيبي؟.. إيه اللي جابك الساعة دي؟!

أجبتها مختصرًا وأنا أرتمي على أقرب مقعد بإنهاكٍ وصل بي للذروة:

-مطرود.



-من عند مين فيهم؟!

خرجتْ ضاحكة بسخرية من أبي، فتجاهلتُ سخريته وأجبتُ بذات الاختصار المنهك:

-الاتنين.

قطبتْ أميجبينها وهي تجلس بجواري سائله بحنقٍ وغير رضا:

-ليه؟!.. عملوا لك إيه؟!

-أكيد ابنك اللي عمل لهم مصيبة.

قالها أبي وقد ترك الجريدة التي كان يطالعها بيده وجاء يجلس بجوارنا، وأغمضتُ عيوني ورجعتُ برأسي أستند لظهر المقعد ثم غمغمتُ بغير احتمالٍ لسماع أي كلماتٍ مؤنبة أو حتى مؤازرة من أيهما:

-أنا تعبان.



-من إيه؟!

-من كل حاجة.

أجبته صادقًا واكتنفنا الصمت ثوانٍ قبل أن يقطعه:

-تعبان ولا ندمان؟!

رفعتُ رأسي أنظر له بارتياب وبادلني النظر بثباتٍ وأنا أسأله:

-على إيه؟

-على جوازك.

أجاب بها على الفور وملامح وجهه ارتسم عليها عدم الرضا وهو يزفر ببطءٍ ويهز رأسه معلقًا بأسى:

-أنت ماكنش ليك الجوازتين دول من أصله.

أغمضتُ عيني معترضًا قبل أن يبدأ كلماته اللائمة التي أحفظها والتي لن أستطيع سماع حرفٍ منها الآن تحديدًا:



-بابا من فضلك.. أنا على آخري.

-مش من حقك.. طالما عملت اللي عملته بقى مش من حقك تتعب ولا تجيب آخرك.

نظرتْ له بصمتٍ قبل أن أسأله بهدوءٍ وأنا أشعر وكأن الفراغ يبتلعني ويبعدني عن الجميع وكأني أراهم من خلف شاشة باردة:

-وهو إيه اللي أنا عملته؟

-ظلمت نفسك.. وظلمت الاتنين اللي على ذمتك.

أقرها بهدوءٍ مشابه لهدوئي في هيئته ومضمونه، فارتفع حاجباي وانزوى ثغري بشبه بسمةٍ هازئة، ثم سألته مستفسرًا:

-بجد؟!.. وكان مفروض اعمل إيه بقى؟!



صمتْ والتف بوجهه بعيدًا عني، فاعتدلتُ بجلستي وسألته من جديد بهدوءٍ وأنا أقمع شعور الغضب الذي انفجر داخلي في هذه اللحظة:

-ما تقول لي كان مفروض اعمل إيه؟!

نظر لي بعيونٍ متسعةٍ غاضبة، وأردف بنبرة حادة:

-تسترجل.. طالما خدت قرار إنك تتجوز براء ماكنش ينفع تيجي في النص وتقول لا تعبت، وتدوس عليها بجوازة تانية.

انبثقتْ مني بسمة مستخفة، ثم جاريته وأنا أسأله عن تلك التي دائمًا ما تسقط من حسابات الجميع:

-وتيا؟!



-ماتظلمهاش وتداخلها في حدوتة ماتخصهاش وأنت مابتحبهاش وبتحب مراتك الأولى اللي فضلتها عليها من الأول.. افتكر أني قولت لك كدا من الأول وأنت ماسمعتش.

لا أحبها ولم أستمع!

ضربتني تلك الجملة بغتة بشيءٍ من استهزاءٍ وتحدٍ، واختطفتني استطرادته ووجه الذي احتله المقتْ والغضب كاملاً وهو لا ينظر لي:

-مراتك اللي عشان حدوتة قديمة مالهاش يد فيها، البيه ديمًا محسسها إنه ماسك عليها ذلة.

التف لي ونظر متحديًا:

-أنا لو واحدة فيهم كانت بنتي أقسم بالله ما كنت هخليها على ذمتك دقيقة واحدة.



أوقفته أمي منبهة أو مؤنبة لا أدري، ولم تؤثر بي جملته كما خشيتْ؛ وإنما بقيتُ أنظر له مفكرًا، ثم وبعد طول صمتٍ متأمل سألته بكلماتٍ أعلم أني ربما سأندم عليها فيما بعد:

-هو أنت ليه على طول بتدافع عن براء كدة؟!.. عشان شايف فيها نفسك، هاه؟!

تجهم وجهه وقطب جبينه:

-أنت بتقول إيه؟!

كنتُ أقف على عتبات الانفجار الذي لن يخرج منه خاسرًا ومحترقًا سواي، ومع ذلك خطوتُ الخطوة الأخيرة من على حافة التعقل راضيًا وارتميتُ في هوة الحريق المندلع منذ سنين؛ سامحًا له بحرية ابتلاعي:



-غصب عن براء.. براء ماضربتش على أيدك عشان تحبها يا ضياء.. براء ماضربتش على أيدك عشان تتجوزها يا ضياء.. براء خليتك تتجوز عليها عشان بتحبك يا ضياء!

خرجتْ جملتي الأخيرة باستخفافٍ غير مصدق لهزل تفسيرها الساذج الذي أنشق له صدري ألمًا!

-براء ديمًا المسكينة وأنا الجاحد اللي مش مقدر.. فلازم نقدر الوجع اللي براء بتحس بيه، لكن النار اللي فيَّ أنا بقى؟!..

مش مهمة، وإيه يعني..

وقفتُ وأنا أخرج كل عذابات الأمس بصراخٍ محترق مستشعرًا للمرة الأولى المتعة المحرقة للانفجار:

-إيه يعني اعيش في جحيم من أول يوم شفتها وحبتها فيه وأنا عارف إنها عمرها ما هتكون ليَّ!..



إيه يعني اعيش في جحيم سنين وأنا عايش حاسس إني واحد خاين عشان بحب حبيبة أعز صحابي ومش عارف اشيلها من قلبي!..

إيه يعني اعيش في نار كل ثانية كنت بشوفها معاه وقلبي بيولع إنها هتبقى في حضنه هو!..

إيه يعني إني اشوف نفسي استغلالي قذر ما صدقت صحبي مات وجريت ألِف على خطيبته!..

إيه يعني أنام كل يوم جمب مراتي دايس على رجولتي بالجزمة وأنا عارف إن في قلبها راجل غيري!..

إيه يعني أحس إني واحد حقير لما أحس إني مابقتش طايق اسمع اسم صاحبي اللي مات ودفنته بنفسي مع ابوه وعمامه عشان عارف إنه هو اللي واقف بيني وبين قلب مراتي!..



إيه يعني لما ابعد وادوس على أقرب إنسانة لِيَّ بسبب حبي الغبي لغيرها!

توقفت هنية ألتقط بعض أنفاسٍ انحبستْ.

-إيه يعني؟!.. ما يولع ضياء.. ما تولع تيا.. أهم حاجة مندسش على براء الغلبانة اللي مش قادرة تنسى حب عمرها، زي ما أنت مش قادر بعد كل السنين دي تنسى حب عمرك.. مش كدة!..

مش مهم ضياء يتعب، ضياء يجيب أخره، ضياء يتحرق حتى.. لا مش من حقه. مفروض يتداس على قلبه وكرامته ويعيش في حياة باردة زي اللي انتوا عايشنها وهو ساكت وبالع الجزمة.. مش كدة؟!

والرد كان صفعة!

صفعة غليظة دارلها رأسي بمفاجأةٍ ذاهلة وعيونٍ مغمضة!

صفعة أولى أنالها منه بعد ستة وثلاثين عام!



صفعة امتزجتْ مع شهقة أمي الذاهلة وركضها ووقوفها بيننا باكية تضع كفها على صدري والآخر تكمم به فمها وهي تنظر لأبي بلوم!

ران الصمت طويلاً قبل أن أنسحب خارجًا متجاهلاً نداءاتْ أمي الصارخة، ونداءات أخرى ملحة بحرقة داخلي للذهاب لها والصراخ في وجهها قهرًا وغضبًا، ورد الصفعة التي نلتها بسببها أضعاف..

وغرس يدي داخل قلبها المجحف وطرد هذا الذي احتله قبلي..

ثم الارتماء داخله باكيًا!



(15)

خلاصة الألم؛ العشق!

**

ألست ازدحامًا لكل التناقض في الكائنات!

ألست احتضارًا يشل دروبي!

ألست النجاة!

-سأنساك يومًا!

-ربا أبو طوق.



براء

دماء!

الكثير من الدماء، والكثير من البكاء والأنين، والكثير من البرد، والكثير من الأنفاس المتقطعة، والكثير والكثير من الاختناق حد الموت!

أحاول الفرار ولا مفر!

أحاول الاختباء في فراغٍ ضيق!

ألتف هاربة فيلحقني محاصرًا قبل حتى أن أتمم التفافي!

عنبرية عيونه تتراقص حولي كلهيب اشتعل ليحرق لا لينير!

قبضته قاسية تخترق أحشائي بعنفٍ وتسلخ طفلي عنها وترميه في جحيمٍ مرعب!



ثم صراخ.. صراخ مرير مصدوم منه ممتزج بصراخِ هلع محتضر مني!

أطياف سوداء اللون والهيئة ظلتْ تدور داخل رأسي وتعاد مرارًا بلا ذرة أمل في نجاة!

هذيان أقرب لحمى بلا حمى!

أو ربما لعنة!

لعنة كابوس حكم عليَّ إلقائي به والعيش داخله بلا راحة للحظة واحدة!

وذاتْ المشاهد تعاد وتعاد كسلسلة موت سريالية لا تلبث أن تنتهي حتى تبدأ وتعاد من جديد!

نومٍ أقرب لعقابٍ لا لحظات استراحة مسروقة!



نومٍ منهك نزع إرادتي مِرارًا في الخلاص وإنهائه بالاستيقاظ قبل أن يعيد التهامي من جديدٍ بعد كل مرة ينتهي فيها!

ولكن هذه المرة أخيرًا نلتُ النجاة!

بسقني الكابوس أخيرًا فاعتدلتُ بحدةٍ وشهقةٍ عنيفة خرجتْ مني وأنا أتنفس بعسرٍ مؤلم والعرق البارد يتصبب مني بغزارة ضاعفتْ من اختناقي!

التففتُ بهلعٍ وأنا أبحث من حولي عنه ولم أجده!

عدتُ التفافي بهلعٍ أكبر بحثًا عن دمائي المراقة المنذرة برحيل طفلي ولم أجدها أيضًا، فوددتُ الصراخ!

هل هذا كابوس جديد؟!

هل تغير الكابوس ليصبح أكثر قسوة بعد أن يعلقني بأمل نجاة قبل أن يسقطني في منتصف ذات الجحيم من جديد؟!



أسندتُ ظهري للفراش بإنهاكٍ وعدتُ للتمسك بالغطاء حولي بقوة هزلة وعيونٍ مغلقة، وبقيتُ هكذا طويلاً أحاول الهدوء والتفكير وإقناع روحي الممزقة أن وللعجب إلى الآن كل شيء بخير!

فتحتُ عيوني وزحفتُ على الفراش ببطءٍ لآخذ هاتفي وتطلعتُ إلى الساعة في محاولة خروج من هذا التيه المظلم فوجدتها الواحدة ظهرًا!

سقطتْ يدي به بجواري واكتنفني ذهول صامت مُرهَق، وعقلي يخبرني بكسل أننا غائبين أكثر من أربع وعشرون ساعة في هذا الجحيم تحت مسمى نوم وربما فقدان وعي قصير!

أبعدتُ الغطاء بحذرٍ متجاهلة عُريَّ وما يسترجعه من ذكريات الأمس التي تعتصر فؤادي، ثم زفرتُ ببطءٍ ومحاولة نيل بعض الهدوء وأكملتُ زحفي لطرف الفراش حتى قمتُ وشعرتُ للوهلة



الأولى أني سأسقط منتهية من حدة الدوار الذي اكتنفني بلا رحمة!

بقيتُ واقفة قليلاً حتى هدأ دوران العالم من حولي، ثم تقدمتُ آخذ المئزر الملقى أرضًا وارتديته بسرعة متوترة محكمة إغلاقه حولي ثم ذهبتُ للحمام وبقيت طويلاً أسفل الماء الدافئ المنهمر فوق رأسي أحاول به إذابته وإزالة كل الكوابيس منها واسترجاع بعض الطاقة والتركيز لكي أستطع التفريق بين الحقيقة المرة والكابوس البشع!

هو غائب منذ أكثر من أربع وعشرون ساعة، وطفلي لازال متمسكًا بي!

كررتها كثيرًا حتى اقتنعتُ بصعوبة، ثم أغلقتُ المياه وذهبتُ لأرتدي ملابسي ومشهد وجوده المفاجئ بالأمس عاد في رأسي من جديد!



ارتديتُ كنزةً شتويةً ثقيلة كريمية اللون وبنطالاً رياضيًا قطنيًا واسعًا بذات اللون وتركتُ شعري المبلل كما هو دون تمشيط، ثم أخرجتُ جميع التقارير والصور والتحاليل الذي أخفيهم عنه وذهبتُ بهم لصالة البيت ووضعتهم على منضدة أمامي وجلستُ أطالعهم بارتيابٍ طويل، وبقتْ عيوني معلقة على التواريخ بتكذيب!

ظللتُ أحدق في الأوراق أمامي ببصرٍ زائغ وعقلٍ يرفض تصديق تحليلاته؛ فأغمضتُ عيوني أهدئ من نبضات خافقي وأخذتُ أدحض هواجسي تباعًا..

وجود صغيري داخلي حقيقة وليس وهمًا صوره لي عقلي المنهك، بخير حال وصحة ولم يؤثر به كل ما حدث بالأمس وبقي متمسكًا بي، ومن المفترض الآن أنه تخطى أسبوعه الثاني عشر!



أخرجتُ صورته الصغيرة التي حصلتُ عليها في إحدى زياراتي للطبيبة، وطالعتها بذات الخوف والحذر الذي طالعته بهم للمرة الأولى وزاد عليهم شيءً من امتنانٍ لعدم فراره مني للآن!

قربتها مني وأنا أنظر له بتساؤلٍ واشتياقٍ ممتن.. لماذا بقي؟!

لماذا هو تحديدًا من بقي وتمسك للآن رغم كل شيء؟!

لماذا لم يفر كما فر الجميع؟!

وهل كل هذا مجرد خطأ حسابات وسيفعلها قريبًا ويرحل ليتركني مهشمة الروح للأبد برحيله؟!

أم أنه فقط مكافئة حب أصبح متبادل!

برهان حياة تنمو برضا بعدما تحول جفاء تربتي القديم لأخرى خصبة بالعشق؛ فاستحقتْ أن تحتوي نطفته المتيمة!

بذرة عشق استكانتْ في تربة عشق، تنمو مطمئنة وانتهى الأمر!



حاوطتُ وجهي بيدين مرتجفتين وحاولتُ إخراس العاصفة التي تدور في رأسي بلا فائدة.. وفي ذاتْ اللحظة سمعتُ صوت الباب يفتح فشعرتُ بالدماء تفر مني!

استشعرتُ وجوده وبقيتُ على هلعي قليلاً قبل أن أرفع رأسي له وأقابل وجهه الـ...

الخامد ربما!

وجهه ساكنًا بعد احتراقٍ وعينيه شبه دامعتين!

دموعٌ جامدة أراها في مقلتيه للمرة الأولى طوال تلك السنوات!

أو الثانية للدقة!

منذ أكثر من عشر سنوات عندما لمحتها في عينيه يوم عزاء الراحل وهو يمنع تحريرها بذات البأس وتساءلتُ وقتها بإنكارٍ لماذا يبكي صديق الحبيب!



دموعٌ ساكنة شفافة تترقرق من زجاج عينيه الجارح بنظرته الناقمة وشفاه زاويتها شبه دامية ومتجلطة!

عندما رأيتُ هذه الهيئة الغريبة التي يبدو عليها انتفضتُ من جلستي وأنا أقترب منه بهلعٍ انتقل عليه بدلاً منه، وحاوطتُ جانب وجنته أتفحصه برعبٍ أنساني حذري:

-في إيه؟.. في إيه اللي حصل؟.. مالك؟!

لم يجب. ظل صامتًا طويلاً وهو ينظر لي بذات الجمود المتأمل، وتصلب وجهه أسفل كفي لم يلِن للحظة!

بقى على نظرته وتأمله قبل أن تتبدل للحيرة الشاردة وهو يسأل بهدوءٍ وصوتٍ خفيض:

-هو أنت عايزة إيه يا براء؟.. عايزة إيه؟!



زويتُ حجبي بجهلٍ وعيونٍ متسائلة لم يخفت منهما الهلع، فاستطرد بذاتْ الصوت الهادئ الخفيض:

-أنا عملتْ كل حاجة عشان تنسيه.. كل حاجة غلط وصح.. وبردو مافيش فايدة!

ارتفعتْ يده وسحب كفي يبعدها من على وجنته بهدوءٍ بارد وتركها معلقة بالهواء في المنتصف!

-أنا أذيت الإنسانة الوحيدة.. الوحيدة اللي عمرها ما أذتني مرة واحدة بسببك!

احتل الغضب صوته وعينيه في جملته السابقة، واتسعتْ عيناي معها برعبٍ قديم عاد يزأر داخلي فجأة كوحش ناعس يعود من سُباته، وقد ظننتُه مات ودُفن وانتهى!

بقتْ نظراته على جمودها وهو يكمل بنقمةٍ وغضبٍ مضاعفين:



-أذيت نفسي عشان تنسيه وبردو مافيش فايدة!

بقتْ يدي معلقة كما تركها، وعُلق قلبي وعيناي بحركة شفتيه؛ أنتظر استطرادته التالية التي لم تتأخر وعيونه تضيق قليلاً:

-أنت عايزة إيه؟!

ألم يسأل هذا السؤال من قبل؟!

ألم أجبه أني لا أريد سواه.. والآن لا أريد سواه وطفله.

كدتُ أعيد له ذاتْ الإجابة لكنه قاطع ميلادها على شفتي وهو يهز رأسه بإصرارٍ هادئ وعيونٍ جامدة انقشعتْ منهما الدمعات وعادتْ لجمودها الصافي من أي شوائب ألم:

-أنا مش هعرف اعيش كدة.. مش هعرف أكمل كدة.

لقد عاد لهذيانه من جديد!

وربما لم يخرج منه من الأساس حتى يعود!



رفعتُ كفي العالقة لوجنتي أنا بدلاً منه، وتبعتها بالأخرى وأنا أمسح على وجهي لأستوعب وجهة كلماته وأحاول فهم مقصدها، وبقيتُ مخبئة وجهي ورائهم لحظاتٍ، ثم أنزلتهم وأخذتُ أفركهم أمام طفلي بتوتر علّه يُطمئنني قليلاً ونظرتُ لأبيه بتأملٍ مفكر ورأسي مائلة قليلاً لليسار!

بقتْ نظراتنا على تأملها حتى حررتُ ما في رأسي وعلقتُ على سؤاله باستفسارٍ حائر:

-هو أنت بتكره مصطفى أوي ليه كدة يا ضياء؟! ض

هز رأسه ببطء نافٍ وصرّح بخفوت:

-أنا مابكرهوش يا براء.. أنا بكرهني أنا.. بسببك.

بكره نفسي بسببك. وهو المراية اللي كل شوية بتوريني كرهي لنفسي، ومابقتش قادر ابص لنفسي فيها أكتر من كدة، خلاص.



ضاقتْ عيوني بتفاجؤ وعدم استيعاب لكلماته!

لما كل هذا؟!

لما كل هذا التعقيد والألم؟!

لما فقط لا يتعايش مع طيفه الخافتْ داخلي كما تعايشتْ مع بريقها المضوي داخله!

لما لا يتنازل قليلاً كما تنازلتُ كثيرًا!

لما لا يتقبل وجوده كذكرى حضورها نادر، كما أتقبل صاغرة حضورها المحفور كقدر أبدي في شرايينه!

هززتُ رأسي بانشداهٍ وأنا أسأله بالفعل:

-ليه؟!.. ليه كل ده؟!.. ليه؟!

-عشان أنت مابتنسيهوش.

-ومش هنساه..



أتى الجواب بصرخةٍ ولهيبٍ تراقص في عينيه بغتة، فبادلته الصراخ بآخر والدمعات المنهكة تتقافز في عيوني، فخبتْ النار من عينيه وتشكلتْ محلها الصدمة الدامية والتي تجاهلتها وتجاهلتُ معها أنين قلبي واعترفتُ بالحقيقة مجردة علّه يشعر أو يفهم فيرح ويستريح:

-مش هنساه يا ضياء.. ماعرفتش أنساه مع إني حاولت!.. أقسم بالله عشانك حاولت.. مش عارفة أنسى عمري كله اللي هو حافر نفسه في كل تفصيلة فيه.

قاطعني همسًا بأمرٍ قاطع وعيونه تحدق بي بألمٍ وتهديدٍ صارخ:

-أسكتِ.

رفضتُ نافية بهزاتِ رأسٍ متتابعة وصوتٍ بدأ احتلال زبزباته البكاء والاكتفاء:



-لا مش هسكت.. مش هسكت عشان أنا كمان خلاص مابقتش قادرة على الجحيم ده!.. أنا مش همحي مصطفى من ذاكرتي يا ضياء، مش همحيه. مش همحيه كإنه ماكنش عشان هو ماكنش مجرد يومين في عمري وانتهوا، ده كان كل لحظة فيه معاه.

صوته الهادر قاطعني من جديد وهو يمسك ذراعي بقسوةٍ ومخالب يديه نهشتْ لحمهما وربما اخترقتْ عظامي معهم، وعيونه تلبستها رغبة الفتك بي واضحة وتراقصتْ من مقلتيه المشتعلة وهي تقسم بإردائي قتيلة في لحظة جنون:

-أسكتِ.

ورغم انتفاضتي ورعبي من التهديد الصريح الصارخ بعينيه لم أتراجع وأكملتُ بدموعٍ سالتْ غصبًا وخشيتُ من تأويل الجحيم المشتعل برأسه لهم الآن:



-مش هنساه يا ضياء، بس أنا كمان مش بفتكره.. والله العظيم ما بفكر فيه عشان افتكره أصلاً.

شعرتُ بالدوار يعيد احتلال رأسي من جديد وبدأتْ قدماي تهتز والخدر يسري فيهما، وضغط يداه يزداد على كتفي بقسوةٍ مضاعفة تضاعف معها ألمي!

استندتُ برأسي على صدره وأنا أحاول نيل بعض الارتياح الهارب من اشتعال عينيه المقبضة ومن الألم والرعب التي تبعثهم داخلي، وبقيتُ هناك بالقرب من قلبه علّه يشعر فيرأف ويصدق! وشعورٌ منهك يدفعني للاحتماء به حتى وإن كان غاضبًا لأني لم أعد أحتمل أكثر من هذا، وأشعر بأني أقف على حافةِ انهيارٍ مرير لن ينقذني منه سواه!

**



وَعَدْتُ بذبحِكِ خمسينَ مَرَّهْ؟

وحين رأيتُ الدماءَ تُغطّي ثيابي..

تأكَّدتُ أنّي الذي قد ذُبِحْتْ!

فلا تأخذيني على مَحْمَلِ الجَدِّ..

مهما غضبتُ، ومهما انْفَعَلْتْ!

ومهما اشْتَعَلتُ ومهما انْطَفَأْتْ!

لقد كنتُ أكذبُ من شدّة الصِدْقِ!

والحمدُ لله أنّي كَذَبتْ!

-محاولات لقتل امرأة لا تقتل!

-نزار قباني.



ضياء

لن تنساه!

وتصرخ وتعيدها!

وتتغنى بسنون عمرها الناقش أثره الذي لن يزول فيهم!

وماذا بعد؟!

ماذا هناك أكثر من هذا؟!

ما الذي بقى لتريق به دماء شبح عشق وبقايا كرامة؟!

اعتراف أخير بتتيمها الأبدي به وأمر صارم بوجوب خضوعي لجزوره الضاربة في أعماق امرأتي، وتقبلي بفتاتها شاكرًا راضيًا! وقتها لن أتنازل عن نيل لذة زهق أنفاسها الحبيبة المتيمة به بيدي!



أخترق أفكاري وقاطعتها أنّات صوتها المحتبس في صدري المشتعل:

-أنا مش همحيه من ذاكرتي عشان أنا مش آلة بزرار يا ضياء، بس أنا مش واحدة خاينة عشان أفكر فيه وأنت معايا.

لكنك زوجة خائنة بالفعل وعاشقة كاذبة مدعيّة؛ لازال نبض خافقها مستمر على عزف ترانيم الوفاء الملحمي لمن لا يحق له الوفاء، وأنا الذي بقيتُ عمرًا أحاول سماع ولو نغمة واحدة من تلك الأوتار الصدئة!

رفعتْ رأسها تنظر لي بعيونٍ تداخلتْ زرقتها مع حمرة بكائها، وصوتها الخفيض يعدد بلوم:

-قلبي نسيه وبقى بتاعك لوحدك. حياتي كلها مابقتش واقفة غير عليك. أحلامي كلها بقت معاك أنت وبس. عمري كله بقى ملك ليك أنت وماقدرش اتخيل إني ممكن اعيش لحظة واحدة منه بعيد عنك. باقي إيه تاني؟



عم الصمت وكُمِمَتْ صرخات غضبي وكلماتها الهامسة تتسلل لي بخبثٍ أضاعني معها للحظاتٍ تراخى فيها ضغط كفاي على ذراعيها بلا وعي، وانزلقتْ يداي بجواري وأنا أطالع بتشكك عينيها التي أغلقتهما بيأسٍ وهي تسأل هامسة:

-عاوز تعمل إيه أكتر من اللي عملته؟.. عاوز تاخد إيه أكتر من اللي خدته؟

ازدادتْ تقطيبتي المكذِّبة وضيقتُ عيوني متمعنًا في خلجاتِ وجهها المنتفخ الباكي، وعيونها التي عادتْ تنفرج وهي تتابع بتوسلٍ وتتشبث بصدري:

-قول لي عاوز تاخد إيه تاني وأنا والله هديه لك.. قول لي أعمل إيه عشان تتأكد إن أنا بحبك وأنا والله هعمله.

كلمات عشقها أربكتني!



تغيرها المتشبث أغضبني!

أسرها لي بتصريحات احتياجٍ ومنجاة قربٍ أوقات، ورميٍّ في جحيمٍ حارق وهي تدير لي ظهرها وتنأى عني بتبجحٍ أوقات أخرى؛ أشعل نيرانًا حاقدةً عليها داخلي!

هل تتصرف معي وكأني تسليةٌ رخيصةٌ بيديها تتلاعب بها كيفما تشاء ووقتما تشاء؟!

وددتُ تصديقها، بل متُ رغبة واحتياجًا في التصديق وامتنعتُ؛ تمسكتُ بحبال النجاة بتكذيبها والرسوخ أمام براعة ادعاءاتها وأنا أكذِّبها بصوتٍ خفيض ناقم:

-أنت كدابة. أنت عارفة إن أنت أبرع كدابة أنا شفتها في حياتي يا براء!.. أنت واحدة كدابة.



أنهيتُ كلماتي بصرخة متهمة أودعتُ بها كل الغضب الذي يحرقني منذ سنون، وزاد ترقرق الدمعات في عينيها وهي تدفع صدري بصراخٍ محتد:

-لا مش كدابة. أنا مش كدابة ومافيش حاجة تانية تخليني أكدب وتمنعني أخلص من جنونك ده يا ضياء واستحمله أكتر من كدة. أنا تعبت.

لطمتْ رأسي بصراخها وكلماتها وأشعلتْ بهم استنكارًا مصدومًا غير مصدق لكلماتها المتبجحة بتحمُلها لحقوقي!

تعِبتْ!

وتتحمل جنوني، وتبغى التخلص منه أيضًا!

ألا تعلم أن أوان التخلص مني قد فاتْ بإمضائها وبصمتها وكذبات عشقها!



ألا تعلم أن لا سبيل لها للتخلص مني الآن سوى الموت الذي يدنو منا متبخترًا ويهمس لي بمكرٍ بإخراس شجى صوتها الفاتن للأبد بيدين تطبقين على عنقها المُغرِ للخنق الآن حتى تُزْهَق وتُكتَم الأنفاس فيه للأبد، وأقمعه ببقايا تعقل كالفتات!

أمسكتُ ذراعيها أهزها بقسوةٍ غاضبة وأنا أصرخ آمرًا بجنونٍ حقيقيٍ شدتْ فتيله بكلماتها:

-تخلصي من جنوني هاه!.. طب أنا هوريك الجنون اللي بجد يا براء.. مافيش مصطفى تاني يا براء، سامعة!

ماسمعش اسمه على لسانك. مافيش مصطفى لا في شهر، ولا في يوم، ولا في لحظة واحدة، سامعة!

مافيش مصطفى تاني ولا هتجيبي سيرته ولا هيجي في خيالك للحظة حتى وإلا وديني هقتلك. وحياة حبي ليك يا براء هقتلك. هقتلك يا براء واخلصك من جنوني اللي تعبك.. هـــقـــتـــلـــك.



قاطعتْ بصرخاتها صرخاتي وهي تشدد من إغماض عينيها وترمي برأسها للخلف:

-حاضر يا ضياء، حاضر، حاضر.. كفاية بقى، كفاية، أرجوك.. عشان خاطر ربنا كفاية.

ارتجافة شفتاها وشحوبهما مع انتفاضة جسدها الهزيل أسفل ذراعي وأنَّاتها الخفيضة أوقفوني على حافة جنون الغضب وأسقطوني لسفح جنون الألم.. أسندتُ وجنتها بكفي؛ أعيد عينيها المغلقة أمام عيني، واستندتُ بجبهتي على جبينها البارد المتعرق، وببقايا حقدٍ يقرص روحي أصريتُ على استنطاقها وعدم إيقاف النزف بداخلي:

-كنت رايحة له، صح؟.. بتبعدي عشانه، صح؟

-لا.



قالتها بأنينٍ يائس عاد معه اللهيب المكذِّب يتراقص داخلي وأنا أسألها بأسنانٍ تصطك وصريخ متحيرٍ انتفضتْ له:

-أومال بتعملي كدة ليه؟!

ابتعدتْ برأسها من جديدٍ وتصاعد أنين بكائها لحدٍ مفزع أرتج له قلبي، ومنعتُ ارتجاجته من الطفو على وجهي وأنا أستمع لحديثها الباكي بأنفاسٍ متسارعة غضبًا وألمًا:

-أنا تعبت يا ضياء. أنا خايفة وتعبت ومابقتش قادرة اتحمل كل دا خلاص.

نفضتها من يدي وأغمضتُ عيني بتعبٍ مضنٍ وأنا أزفر بشدة وأضغط على جفني بإصبعي، وبعد ثوانٍ استشعرتُ قربها مني وتكومها داخل أحضاني من جديد وهي تكتم أنَّاتها في صدري كما تفعل منذ مجيئي!



فتحتُ عيني بعد لحظاتٍ بإجهادٍ غاضب ورفعتُ يدي مرغمًا لأهدئ انتفاضتها المتزايدة.. وقتها سقطتْ عيناي على عشوائية أوراق عديدة ملقاة على المنضدة البعيدة، وسرق بصري وانتباهي ونبضي صورة صادمة فوقهما!

وبدلاً من أن تشدد يدي على ظهرها باطمئنان أبعدتها عن أحضاني بذهول وأنا أسرع تجاه الصورة بفكرٍ حائر وجبينٍ تضاعفتْ تقطيبته التي لم تنفك منذ قدومي.

تقدمتُ والتقطُها أتأملها بارتيابٍ ثم صدمة.. صورة تلفازية لجنينٍ صغيرٍ ظننتها للوهلة الأولى قديمة مِن مَن فقدناهم قبلاً؛ لكن التاريخ القابع أسفلها سمَّر قدماي وحبس أنفاسي بصدري وغلف عقلي بضبابٍ كثيفٍ منعه من تحليل أي شيء!



انحنيتُ أقرأ باقي الأوراق بلهفةٍ مضطربة.. روشتات أدوية أحفظها، تحاليل كثيرة، اختبار حمل، وأكثر من صورة لجنينٍ صغيرٍ جميعهم يحملوا ذات التواريخ الحديثة!

التفتُ لها بصدمة لاقتْ وجهها الممتقع وعيونها المتسعة وأنفاسها المتسارعة وهي تهز رأسها نافية.. ولم أدرِ بأي موضع أضع تلك الهزات النافية!

خفق قلبي حسرةً وألمًا للتفسير الأقرب لها؛ فسألتها بغير تصديقٍ مرتعب من الإجابة ومرتعب من نفيها، واقتربتُ منها بإحدى صور الصغير والاختبار الورقي:

-إيه ده؟!

-لا لا.. والله العظيم لا أنا ماكنتش بقول كدة عشانه. والله العظيم ده بجد، كل اللي قولته بجد، أنا.. أنا..



لعثمة حديثها الغير مفهوم، هلع نظراتها المتسعة، شحوب وجهها، بكائها المتقطع كطفلة مذعورة، انتفاضة جسدها.. جمدوا دمائي في عروقي ومشهد الخسارة المتكررة يرتسم أمامي من جديد!

فبقى قلبي يدق بخوف متساءل: أتلك الخسارة لطمتني بالفعل على غفلة مني، أم أننا نقف الآن على حافتها وننتظر السقوط؟!

تقدمتُ أقف أمامها وأنا أشير للأوراق، أتابع بحلقٍ شق جفافه المباغتْ صوتي:

-براء إيه ده؟!.. ده قديم؟!

سألتها بحشرجةٍ قلقة ولم تجب!

نظرتُ للتواريخ أجيب على نفسي نافيًا وأنا أخبرها وأنظر لها بجهلٍ وبعض ارتباك:

-التواريخ مش قديمة يا براء!



تأملتها أسأل الجواب بعيونٍ حذِرة راجية، وإجابتها جاءتْ ببكاء متزايد وهي تخبئ وجهها وراء كفين مرتعشين:

-أنا خايفة.. أنا خايفة أوي يسيبني هو كمان زي ما هم ما سابوني.

أنا خايفة أوي أوي. أنا تعبت. والله بقى أنا تعبت.

حاولتُ تفنيد حديثها واستيعاب مقصدها وأنا أضم جسدها المنتفض لأسكن انهيارها المباغت وأحاول تهدئتها بكلماتٍ متخبطة غير واعية:

-أهدي مفيش حاجة هتحصل، أهدي.

غمغمتْ رافضة بصوتٍ منهزم وهي تهز رأسها داخل صدري:

-أنت قولت كدة المرة اللي فاتت!

حفرتْ أظافرها بصدري وشعرتُ بقدميها تتراخى وجسدها يتهاوى بين ذراعي وهي تنظر لي بعيونٍ محمرة:



-أنت بتقول كدة كل مرة يا ضياء وبيسبوني وبيمشوا!.. ولادك مش عايزني أنا!.. مش عايزني يا ضياء!

جملتها الأخيرة كان نحيبها مهلك؛ فحملتها وجلستُ على أقرب مقعد ثم أسكنت رأسها داخلي بيدٍ وبالأخرى مسدتُ ظهرها المشدود، وبقيتُ أحاول تهدئة قفزات نبضات قلبي المتحفزة وأستحث عقلي على الإفاقة من صدمته ومحاولة ترتيب تلك الأوراق المبعثرة داخله!

مسكتُ الأوراق بيدٍ؛ أحاول حشر حروفها داخل رأسي واستيعاب معانيها، والأخرى بقتْ تشدد من احتضانها إلى أن استكانتْ وتوقف بكائها بعد فترة ليستْ قصيرة.. وبقيتُ أنا مترنح على حافة النجاة والهلاك بين تصديقٍ وإنكار، كلاهما ستختنق لهم أنفاسي!



وتواريخ تخلق أفكار إن صحَّتْ تفسيراتها سأدق رأسها حتى يتهشم بما داخله من أسراب غباءٍ تنخره ولا يتسرب منه الهلاك والدمار لسواي!

رفعتُ وجهها المحمر لي وبقيتُ أنظر لها طويلاً بعيونٍ متسعة حذرة لا تبحث سوى عن صك تأكيد:

-أنت حامل؟!

هزة رأس هزيلة كانتْ الصاعقة التي أعادتْ لي النبض بعد توقفه وأعادتْ للجسد طاقته بعدما تمكن منه الوهن والتعب؛ أعدلتُ جلستها فوق ساقي لتواجهني وحاولتُ نزع الكلمات من رأسها الغائب فيما لا أعلم:

-في الكام؟.. وعارفة من امتى؟



صمتت وفي صمتها ضجيج أمال تنهشني، وزيغ نظرتها يقرص أحشائي وكأنها تبحث عن الجواب في فراغ روحي المنتظرة كلماتها المتخبطة لتمتلئ بدفئها!

-الدكتورة كانت بتقول غالبًا امبارح هيبقى أول التالت بس أنا مش مصدقاها.

غمغماتها كانت كنهرٍ رحيم بارد سقط فيها قلبي المشتعل بالخسارة!

هذا العمر الذي طالما أمَّلنا به الأطباء لم يحدث قبلاً، لم تتشبث نطفتي برحمها كل هذا الوقت قط!

لم نصل أبدًا لنشهد على المحطة الأولى من نمو طفلي داخلها ببعض الطمأنينة حتى ظننته ذنبًا لن يغتفر أو لعنةً لن تنفك!



أغمضتُ عيني وأنا أتنفس ببطءٍ لأهادن خافقي المتراقص بصخبٍ لحد مؤلم ومربك، واتجهتُ للشق الثاني والذي لا يقل تلهفي له ذرة، ولن أتوانى عن سماعه بذاتْ وضوح صوتها الذي أمرني بالابتعاد وشراسة تهديده بالكراهية قبلاً:

-عرفتي امتى؟

بقتْ عيوني معلقة على شفتيها المرتجفة؛ أترقب جوابها بقلبٍ يخفق منتظرًا بعنف وصدرٍ متخم بأنفاسٍ حُبستْ وضلتْ سبيل خروجها!

-من شهر.

بنظرة مذنبة وفم مقوس كالأطفال اعترفتْ وكان الاعتراف الأرحم والأقسى على الإطلاق، قبل أن تعدل بدقة:

-من ٣ أسابيع.



ارتخى كياني وخار تحفزه وتدفق الهواء لرئتي بغتة فتسارعتْ الأنفاس تروي صدري المختنق، وكأن روحي نالتْ قرار عفو من سجنٍ عطن سُجنتْ داخله طويلاً حتى كفرتْ بكل أدعية النجاة والهوى التي دعتْ بها وادعتها قبلاً!

تركتُ ما بيدي وحاوطتُ وجهها بكفي وأنا أسألها بهمسٍ حانق وغير مستوعب:

-وماقولتليش ليه؟!

-عشان أنا خايفة.

-عشان أنت متخلفة.

صححتها بعيونٍ فتحتُ لهما بوابة الاهتياج والحنق، وزعقة مغتاظة هادرة أرجفتْ جسدها وأعادتْ أجفانها للانغلاق وهي تكتم بكائها المرتج بأسنانٍ ضغطتْ بها على شفتيها.



تحررتْ زفرة اختناقٍ حاولتُ إخراج معها كل الغضب والحنق الذان يعضان داخلي:

-بس، خلاص، بس.

قربتها مهدئًا وأنا أحاوطها بذراعي دقائق حتى سكنتْ وبدأتْ همسها الباكي الذي تسلل لي من جديد، ولكن هذه المرة تصريحات خوفها ظلتْ تنهال كلسعاتِ سوطٍ على جسدٍ لم يبرأ من نزفه بعد:

-أنا كنت خايفة. أنا خايفة أوي يسيبني وهي اللي تجيب لك ابنك اللي ديمًا بيضيع مني.. أنا مش عيزاه يضيع مني.

رفعتْ رأسها تنظر لعيوني بدموعٍ تجري وشراسةٍ لائمة ضربتْ في مقلتيها كالبرق وهي تضرب بكفيها المضمومتين صدري:

-وأنت كنت هتضيعه مني.



زويتُ ما بين عيني بجهلٍ لحظي لمقصدها سرعان ما تبخر وأنا أتذكر كارثة الأمس فبهتَ وجهي مع استطرادتها المؤكدة:

-أنت غبي غبي.

هززتُ رأسي وأنا أعيد رأسها داخلي ليخف ارتجافها، متغاضيًا عن رغبة صارخة بإخبارها بأنها أغبى. بقتْ قليلاً حتى استكانتْ وطالها هدوءٌ مخيف، ثم قامتْ تبتعد عن عناقي بتصميمٍ هادئ رغم محاولة تشبثي المُرهَق، وكأن ذكرى الأمس وتفاصيله مزقتْ ضعفها وقربها وعادتْ تذكرها بتصوراتها البلهاء فعادتْ لنأيها البغيض من جديد!

جلستْ بجواري منحنية الجزعِ للأمام ومسحتْ وجهها بكفيها وهي تطالع الفراغ قليلاً بشرود قبل أن تغمض عينيها وتهمس بخفوت:



-أنا مش هستحمل يروح مني المرة دي كمان يا ضياء. مش هستحمل اشوف ابني بيروح مني تاني. والله العظيم موتي قبله المرة دي أهون.

لكمة عنيفة أطاحتْ بقلبي وأضمرتْ فيه النيران، فشَمَت بي هازئًا متسائلاً: بألم يكن تخيل موتها الذي أدماك الآن مغريًا قبل لحظات!

-ضياء أنت مصدقني صح؟

اختطفني سؤالها القلق المتشكك فتساءلتُ بملامحي بلا قدرة على صياغة السؤال في حروف، فأردفتْ:

-مصدق إن أنا ماقولتش كدة عشان البيبي وإن أنا بحبك بجد ومش بكذب عليك.. أنا مش بكذب عليك.



ضاع الألم وبقى الخواء، وحاصرتْ الفوضى رأسي.. فأخرستْ قلبي وشلَّتْ شعوري، وتيه انقض على روحي يمزقها حتى ترك بقاياها منثورة في طرقاتٍ سوداء لا أعلمها!

أو ربما أعلمها وأخشى النظر إليها لكيلا أخر غاضبًا بتحسر على سلامي الذي تحول ركامًا!

غامتْ نظرتي بتأنيبٍ ساخط حاولتُ إلجام الصراخ فيه وهي تتابع هزة رأسها ببطء:

-أنا ماكنتش عايزة اعمل فيك كدة. ماكنتش عوزاك تعيش العذاب ده تاني معايا. أنا حتى ماقولتش لماما والله.. ماقولتش لأي حد.

استقبل عقلي الساكن كلماتها باستهزاءٍ وجمود متساءل: عن أي عذاب تتحدث وقد حقنتْ بجفائها سموم هواجسي الموجعة



أسفل جلد عشقي وتركتني أتلوى وحيدًا، حتى سقطتُ قتيلاً وكدتُ أسقط معي الجميع.. وربما بالفعل فعلتْ!

غبية!

فيا ليتها عذبتْ ولم تقتل!

غبية وكلماتها الحمقاء تحرض على سبّ غبائها لولا الإنهاك!

غبية وبحر عينيها المذنب يدفعني للثورة على البحار أجمع ومن ثم الغرق فيه وحده!

غبية والارتجافة الواهنة لشفتيها الباردتين تحرضاني على التهامهما بشراهةٍ همجية ومعاقبتهما على كل سذاجة تفوهت بها، وكل ما حبسته ورائهما ولم تقُله!

غبية وأتمنى اعتصارها على صدري الآن حتى تنسحق داخلي وتتلاشى هناك وأنتهي من غباء أفعالها!



-أنا خايفة يا ضياء.

غبية واستقبلتُ التجائها لضمتي من جديدٍ بصمتٍ وعيونٍ مغلقة؛ أحاول الوقوف على أرض صلبة تتلقي حمل ارتباكها وترنحي!

وقبل أن أشرع بإنهاك في لملمة خوفها واحتوائه ببعض كلمات الطمأنينة قاطعني رنين هاتفي!

حاولتُ تجاهله للحظة لولا إصرار الرنين؛ فأخرجته بكسلْ وإرهاق، وعندما صدمني اسم "رحمة" على الشاشة تحفزتْ كل خلية بجسدي واستقبلتُ الاتصال برعبٍ متجمد الصوت!

وعند سماع صوتها المختنق استشعرتُ الظلام وهو يسدل ستاره الأسود على رؤيتي، والتف لي ببرودٍ باسم ثم شق روحي وزين بحمرة دمائها اسوداده!



وثلاث كلماتٍ مرتعبة من صوتها ألقتني على سهل أشواكٍ حادة مزقتني إربًا وأشعلتْ النيران في كل قطعةٍ على حدى ثم نثرتْ رمادهم في فضاء خسارتي!

**



براء

لحظات خاطفة مرتْ على وعيٍّ كالشهب منذ أن جاء وحتى رحلنا.

بدأً من تكذيبه لكلماتي ثم اهتياج جنونه بغتة، وعيونه التي ظلتْ تطلق شررًا مرعبًا مع كلماته المهددة التي شعرتُ بها تتراقص على شفتيه كتراقص الشياطين في الجحيم!

هرولته لأوراق وصور طفلنا الذي نسيتُ إخفاءهم في غمرة ما يحدث وامتلكني الهلع من سوء تفسيره لاعترافاتي السابقة بامتلاكه لجل الكيان.. فلقد اعترض وكذَّب وصرخ وصمم على إنكارهم دون أن يدري بوجود نطفته من الأساس، فماذا إذا علم! كيف سيستقبل، وكيف سيفسر؟!

ثم انهياري!



انهياري واستسلامي واشتهائي للحظة نهاية من كل هذا الذي يُحيطني ولا أدري له مسمى.. وتركي له زمام اقتيادي كيفما شاء حتى وإن كان للهلاك، ثم تمايلي بين غيابٍ منهار باعترافاتِ إنهاكٍ ورعب يعتصروا أنفاسي اعتصارًا، وبين غيابٍ متجاوب باستسلامٍ لاستدراجه اعترافاتي الصامتة، والتي في عرفه هو ذنب وفي عرفي أنا حماية.

إلى أن أنهكني البكاء والغياب والخوف والتخبط، وبقيتُ متشبثة بعناقه..

عناقه الذي فيه السبيل والوصول، وحصن الأمان الأوحد والنجاة من غِلان القدر.

عقر الحماية البعيد عن عصابات الفقد والتخلي المتربصة بي، وجيوش السلام المبيدة لكل ألغام الخوف والخسارة.



حتى سقط رنين هاتفه كقذيفة مباغتة؛ أنهتْ لحظات تصالح جيوشنا المنهكة وأسقطتهم في حفرة سحيقة..

وأحالتْ عناقنا وسلامنا العائد بعد طول غياب لجثة هامدة.

فقط.. بمكالمة هاتف!

بعدها تحول إنهاكه الصريح لإعصارٍ مؤلم.. ليس إعصار غضب وإنما ارتعاب!

وجهه شحب في لحظة وعيونه تجمدتْ وكأن الروح تُسحب منه مع كلمات المتصل الغامض!

كانتْ لحظة واحدة التي أصابه فيها التجمد حتى انتفض بوجهه الشاحب وعيونه الشبه زائغة، وبقى يتحرك ببطءٍ متجهم للحظاتٍ تسارعتْ خلالها أنفاسه التي بالكاد هدأتْ، فتبعته بقلق:



-في إيه يا ضياء؟

وقف لحظة نظر فيها لي بارتباكٍ خائف قبل أن يصرح:

-تيا في المستشفى.

وصدقًا صُدمتْ واعتراني قلقٌ مريب.. ألم يقل منذ قليل بأنه أذى الإنسانة الوحيدة التي لم تؤذه، وهي بالفعل للأسف لم تفعل قط على العكس مني!

فماذا حدث أو فعل لتنتقل لمشفى، خاصة بعد حالة الجنون التي أتى عليها قبل لحظات!

-ليه مالها؟!

-ماعرفش.

قالها وهو يهز رأسه مرارًا بجهل، ثم أعادها بهمسٍ وكأنه يخاطب بها نفسه وهو يمسح جانب وجهه:



-ماعرفش.

لحظة واحدة وأبعد كفه عن عينيه التي ماجتْ بالخوف:

-أنا ماشي.

-طب أنا جاية معاك.

قولتها فورية وأنا أجاري ركضه فالتف لي معترضًا بسبابته محذرًا:

-ماتتحركيش من مكانك.

-أنا كدة كدة كنت نازلة هكشف، هاجي معاك.

لحظة خاطفة ضيق فيها عيونه باستغرابٍ وكأنه لم يستوعب بعد فاستغليتُ تلك اللحظة وأمرته بالانتظار ثواني وعدتُ لغرفة النوم آخذ معطفي وأعطيه آخر، آمره بلطفٍ بارتدائه فوق تلك السترة الخفيفة والتي سترديه طريح الفراش إن استمر في تجواله بها بالخارج منفردة في هذا الجو البارد.



استقلينا سيارته ورغم عشرات الحوادث التي كدنا نخوضها بفضل توتره الغاضب والناقم على من يمشي أو حتى يتنفس على الأرض بالجوار، إلا أننا وبمعجزة ما وصلنا أحياء إلى المشفى المنشودة!

وعندها حاولتُ مجاراة خطواته الشبه راكضة وهو يسأل عن اسمها في مكتب الاستعلامات، ثم ركضه لمكانها بالطوارئ والذي عند سماعه له تضاعف هلعه المتأجج بالفعل. استقبلته سيدة كبيرة في السن، بشوشة الوجه رغم قلقه، راقية الطلة رغم تحفظها، ولوهلة ظننتها والدتها لولا أني تذكرتُ بعدما أدركتُ عدم وجود أي شبهٍ بينهما، أن "تيا" يتمية الأم منذ أن كانتْ طفلةً تقريبًا!

اقتربتْ منه بوجه وعيونٍ قلقة وكادتْ أن تقول شيء ما لكن وبمجرد أن رأتني من ورائه انقشع القلق وحل مكانه السخط



والجمود وصمتتْ وظلتْ تحدجنا بنظرة حاقدة دامعة، غالبًا لم يلتقطها في غمرة توتره الخائف ولكنها لم تخطئ هدفها في منتصف قلبي!

-هي بقالها قد إيه جوا؟

أجابتْ بجمودٍ وهي تشيح بوجهها عنه:

-مش كتير.

-طب إيه اللي حصل لها، مالها؟!

لهفته القلقة أمطرتْ أشواكًا طاعنة في عروقي ونخرتْ قلبي بسكاكين ذباحة؛ فالتفتُ بعيدًا عن مرمى وجهه الصارخ بالخوف على أخرى، وقابلني وجهها المتألم وهي تنظر له بطرف عينيها بازدراءٍ وبعض خذلان.. وطالتْ نظرتها لثوانٍ قبل أن يقاطع



إجابتها الوشيكة خروج الطبيب، فهرول الأثنان له في ذاتْ اللحظة وتقدمتُ منهم ببطء أستمع لكلماته الهادئة المتزنة:

-إجهاض منذر بس سيطرنا عليه، المدام والجنين بخير حاليًا لكن محتاجين مراعاة الفترة اللي جية وتبعد عن أي ضغط عصبي أو مجهود.

كلمات كثيرة لم يعلَق في رأسي منها سوى شبحين قاسيين.. إجهاض منذر وجنين!

كابوسًا عايشته مرارًا ولازلتُ!

كابوسًا طازج زارني هذا الصباح وربما تتسلل لي يده في أي لحظة الآن!

عن أي إجهاضٍ وأي جنينٍ يتحدث!



لوهلة ظننتُ أنه يقصدني أنا وأنها هي من تقف مكاني الآن، أو أن هذا امتداد كابوس الصباح!

صوته المصدوم كسر الصمت واختطفني من ترنح رأسي وكلماته الذاهلة خرجتْ متقطعة وكأنه كان يشاركني هذياني:

-إجهاض.. إجهاض إيه؟!.. جنين منين؟!

وأتى الجواب هادئً حد البرود:

-المدام حامل في الأسبوع الرابع تقريبًا.

لطمة!

لطمة سمرتْ قدمي بالأرض وكتمتْ الأنفاس بحلقي!

وبلا وعي زحفتْ يدي تطوق موضع طفلي، أتأكد أهو هنا حقًا أم فر وذهب لها كأبيه!



أكملتْ السيدة الواقفة الحديث مع الطبيب عن تفاصيل صحتها وموعد خروجها، فأخبرها أنها ستنقل لغرفة أخرى يمكنهم زيارتها بها، وستخرج بعد بضع ساعات إن ظل وضعها مستقرًا..

فعدتُ بنظري له لأشاهد وجهه يعتليه صمت التعابير كصوته الذي هزمه الصمت!

بينما عيناه!

لطمة أخرى.. كانتْ ممزقة!

ممزقة وتنزف التيه!

لطمة أجبرتني على نصف استفاقة لم أرجوها ولكنها كانتْ أكبر مني ومن رجائاتي!

فعيناه لم تنتطق بحروف التمزق من قبل قط ولم ينَل منها التيه للحظة!



رحل الطبيب وبقى ثلاثتنا على ذات الوقفة للحظات!

كنتُ مصدومة مثله ولن أُكَذِّب صدمته..

اقتربتُ أسند كفي على كتفه المتشنج؛ أنتشله من بئر غيابه وتيهه وتمزقه وأهديه سبيل ثباته بنزفي:

-روح اطمن عليها يا ضياء.

التف لي ونظر لي بنظرةٍ فراغها مبهم ثم هبطتْ ليدي المحتضنة طفلي وبقتْ عيناه معلقة هناك طويلاً!

-ماتخفش، ماتخافش.

قولتها أطمئنه بثباتٍ ظاهري لكني كنتُ مرتعبة وداخلي ينتفض. عاد نظره لي بعد لحظاتٍ يتشبث ويستصراخ بشيءٍ ما لم أعرف قراءته فظننته يرجو تأكيد ودفعة زائدة؛ فعدتُ بدفعةٍ واهنة من كفي لكتفه وتأكيدٍ احتفظتُ بهشاشته داخلي:



-روح يا ضياء ماتخفش.

أغمض عينيه مع دفعة كفي الثالثة للابتعاد، وبعد دقيقة أو أقل تحرك بالفعل، وظلتْ خطواته تبتعد حتى اختفى.. اختفى واختفى معه الهواء وجثم على روحي الموت!

وداهمني الدوار بغتة وكأن ثبات الأرض أسفلي ذهب بذهابه! تحركتُ ببطءٍ وجلستُ على أقرب مقعد بانهزامٍ نازف وبقتْ عيوني معلقة على نقطة اختفائه وأنا أعترف.. فأسوء كوابيسي لم يرد فيها هذا الذي يحدث!

لم تصل بي حدة الكوابيس وقسوتها إلى أن تتوازى الطرق ما بيني وطفلي وبينها وطفلها وتختفي خطواته تجاهها هي وبدفعة من كفي!

طفح الألم.. طفح الألم واشتدتْ مرارته وأغرقتني.



ابتلعتُ غصة العلقم العالقة في حلقي وتنفستُ بعمقٍ أحاول أن أجلي كل هذا بعيدًا عن رأسي، وأركز فقط على الاطمئنان على هذا الوحيد الذي لايزال متشبثًا بأحشائي!

التفتُ برأسي يمينًا ويسارًا أبحث عن أي شخصٍ أسأله عن خارطة وجهتي ولم أجد سواها، فتوجهتُ لها بالحديث للمرة الأولى مضطرة:

-هي.. هي عيادات النسا هنا فين؟

-عيزاها في إيه؟

سألتْ بارتيابٍ، فأبعدتُ عيني عن عيونها المتشككة وأنا أجيب بصوتٍ خفيضٍ لم أقدر على إصدار غيره:

-عاوزة اطمن على حاجة.



صمتت تراقبني كما تفعل منذ أن غادر "ضياء" ثم وصفتْ لي المكان باختصارٍ فهززت رأسي شاكرة وقمتُ أود الفرار من سهام نظراتها والذهاب للاطمئنان على طفلي، ولكن ضربة الدوار الجديدة أسقطتني جالسة من جديد!

طالتْ جلستي وأنا أحاول محاربة هذا الدوران اللعين وإيقافه وفشلتُ، فوجدتها بعد بضع ثواني تتقدم مني وتعرض عليَّ الذهاب معها بوجهٍ جامد فاستسلمتُ لاقتيادها ببعض الضيق وبعض الامتنان، حتى وصلنا إلى وجهتنا وجلستُ أنتظر دوري الذي لم يكن بعيدًا لحسن الحظ. لم يطل انتظاري وجاءت الممرضة تشير لي بالدخول؛ فقمتُ ومن جديد داهمني ذات الدوار؛ فقامتْ هي الأخرى وأمسكتْ كفي، وبوجهٍ يطفح بالامتعاض اصطحبتني للداخل وكأني طفلةٌ مدللة وتمقتْ دلالها!



جلستُ أستمع لأسئلة الطبيبة وبدأتُ أجيبها بخوفٍ مشوب بلهفةٍ على عكس جمودي وآليتي الدائمة في زياراتي السابقة لطبيبتي الخاص.. ثم بدأ الكشف وانهالتْ على روحي سياط الخوف حتى رأيتُ صورته وسمعتُ صوت نبضه!

تعلقتْ أنظاري به وظلتْ رصاصات الهواء تضرب عيوني ظنًا منها أنها ستجبرني على إشاحه عيني عن مراقبة حركته داخلي أو تحرمني من رؤيته في لحظة إغلاق جفن، وخرَّتْ منها الدمعات لكن لم تغلق الجفون قبل أن يعلن صوت الطبيبة انتهاء الكشف ثم أخفته عن عيوني!

أغمضتُ جفني وحاولتُ إغلاق معها باب الحسرة التي رجتْ داخلي كإعصارٍ وقلبي يبكي صامتًا أنه هنا بالجوار ولم يشاهد وجود صغيرنا ويسمع دقاته معي!



ثم أجبرتُ نفسي على القيام وعدتُ لجلستي من جديد وأنا أسألها بخوفٍ ولهفةٍ آملة:

-هو أكيد إنه في الشهر الثالث صح؟!

ابتسامتها البشوشة وتأكيدها المطمئن سقطوا على قلبي برجفةِ امتنانٍ كحبيس بُشر بالفرج، فأكملتُ طامعة في المزيد:

-يعني، يعني هو كدة مش هيحصل له إجهاض تاني صح؟!

-خطر الإجهاض بعد الشهور الثلاثة الأولى بيقل لكن ماحدش يقدر يجذم باستكماله أو لا؛ دي حجات بتاعة ربنا، وكل حمل وليه ظرفه. بس ماتقلقيش؛ هو صحته كويسة ومعدل نموه طبيعي، ومافيش إشارة لأي خطر أو احتمال إجهاض.

كذلك من قبله لم يكن هناك معهم أي خطر أو إشارة هلاك ومع ذلك هلكوا!



كلماتها لم تهدئ روعي وإنما أشعلته أكثر وأنا أُملي على قلبي أن خطر فراره لم يختفِ بعد!

استقبلتُ نصائحها وتعليماتها التي لم تكن المرة الأولى التي أسمعها بها باستسلامٍ وخرجتُ ببعض الخوف المحبط، ثم اتجهتُ لأقرب بقعة هادئة وجلستُ بإرهاقٍ وشرودٍ متسائل: لما لم تدحض هذا الاحتمال وترحمني من الاستمرار في مراقبة الخطوات المهددة لهذا الوحش الكاسر بعدما تأملتُ للحظات باختفائه!

أوقف شرودي دنوها مني وجلوسها بالجوار وهي تسألني بانشداهٍ مستغرب رغم أنها كانتْ بجانبي بالداخل واستمعتْ لكل شيء:

-أنت حامل بجد؟!

هززتُ رأسي أجيبها صامتة فأتتْ استطرادتها حانقة بعيونٍ غاضبة:



-عشان كدة مجاش امبارح صح.. كنتوا بتحتفلوا!

وكلمة احتفال رغم أنها خرجتْ منها هازئة إلا أنها فجرتْ رغبةً مريرةً داخلي للضحك ملء فمي!

خبأتُ وجهي بكفي وعِدتُ ورائها الكلمة بمرارةٍ ضاحكة تحولتْ لشهقات بكاءٍ متحسر ودمعاتٍ ملتهبة بحريق الذكرى وأنا أتذكر تاريخي العامر بفقداني لأطفالي:

-نحتفل!.. أنا عمري ماعرفت احتفل ببيبي.

وربما لن يكتب عليَّ الاحتفال أبدًا!

عادتْ كلمات الطبيبة تطن في أذني من جديد بأن احتمال الإجهاض لازال وارد وإن قل.. فانفجرتْ معها كل سدود تحملي وأنا أشدد على بطني المختبئ داخلها صغيري؛ أخاطبه وأسأله مستنكرة بغير تصديقٍ وهلع:



-أنا خايفة. أنا خايفة أوي. هتمشي؟!.. هتمشي زيهم وتسيبني؟!.. هتمشي!

اخترقتْ شرنقتي مع طفلي وهي تشدني لأحضانها؛ تهدهد بكائي ويدها تربتْ على ظهري بحنانٍ وقد اختفى جفائها وامتعاضها في لحظة مريبة:

-لا إله إلاّ الله.. يا بنتي دي حجات بتاعت ربنا، وحدي الله.

استعذبتُ الانهيار للحظات وشجعني عناقها الغريب ففعلتُ.. بكيتُ، وبكيتُ، وبكيتُ، وبقتْ تشدد من احتضانها وتخلل صوتها الهامس بآيات قرآن محصنة صوت بكائي المرتفع نسبيًا، فهدأتُ رويدًا حتى صمتُ من جديد، وبعد لحظاتٍ ابتعدتُ عن أحضانها ببطءٍ وأنا أمسح أثر انهياري من على وجهي التفتُ أنظر لها ممتنة بلا حديثٍ أو حتى بسمة:



-على فكرة هو ماكنش يعرف، هو لسة عارف النهاردة.. لسة عارف قبل ما نيجي هنا بدقايق!

ثم شردتُ في تلك اللحظات التي كان سيتحول فيها من فقدٍ منتظر لفقدٍ مؤكد، وغمغمتُ:

-كان جي يضيعه مني، كان جي يضيعه بأديه هو!

عدتُ إغماض عيني بهدوءْ أتناسى تلك اللحظات المقبضة، والتفتُ لها أجثي ما يثقل صدرها ويؤرقها حتى وإن لم تصدقه:

-ماسبهاش عشاني ماتخافيش.

صمتُ ولم ترد ولم أنتظر منها ردًا، وإنما قمتُ وأنا أدعو الله ألا يهاجمني الدوار من جديد:

-أنا، أنا هروح.

-استني، هتعرفي تروحي لوحدك؟!



هززت رأسي مجيبة بصمتٍ فنظرت لي بشكٍ وحاجبين متعانقين:

-يعني بقيتي كويسة؟!

هززتُ رأسي من جديد وشكرتها بهمسٍ ثم خطوتُ ببطءٍ مبتعدة فجاء صوتها آمرًا بعد ابتعادي ببضع خطوات:

-استني. أنا هاجي اروحك.

-لالا شكرًا، أنا كويسة.

-واضح.

قالتها بفمٍ ملوي وهي تعيد إمساك كفي وتسحبني ورائها إلا أن خرجنا من المشفى، وأوقفتْ سيارة أجرة ثم سألتني على العنوان فأمليتها إياه بنصف عقل!

ثرثرتْ معي قليلاً؛ أخبرتني عنها، وعن قرابتها بـ"تيا"، وعن انهيارها الغاضب بالأمس والذي تجهل أغلب أسبابه للآن، وظنونها عندما



رأتني إني السبب فيما آلتْ إليه الأوضاع ولكن وعلى حد قولها أن يبدو أنها مخطئة وأن كل المصائب لن تخرج إلا من أسفل رأسه هو وأن لها معه حديث آخر.. واستمعتُ لها بنصف عقل ونادرًا ما شاركت بالكلمات لكني لن أنكر أن ثرثرتها انتشلتني قليلاً من شرودي فيه وفي شبح خسارتي وألقتْ داخلي بعض الرأفة على تلك التي بالمشفى!

فأنا خير من تعلم كيف لزوجنا العزيز أن يألم حين يتألم.. ولن يخرج ألمها وغضبها الناري الذي وصفته والذي كادتْ بفضله تفقد طفلها عن إحدى حماقاته التي تخصني!

وصلنا للبيت ودخلتُه بإرهاقٍ طاغٍ وارتميتُ على الأريكة بطاقةٍ مستنزفةٍ ورغبةٍ متزايدةٍ في الفناء، ووقفتْ هي أمامي صامتة للحظاتٍ قبل أن تسأل باهتمامٍ استشعرتُ صدقه رغم عدم انتباهي الكامل:



-أنت عاملة أكل أسخنه لك؟!

هززتُ رأسي نافية بشرودٍ مفكر فيما الذي يفعله معها الآن وماذا يقول لها؟!

هل يعبر لها عن سعادته ضاحكًا، أم يربتْ على ألمها معتذرًا؟!

أغمضتُ عيني وأجاب قلبي بألمٍ واختناق أنه للثانيةِ أقرب.

عادتْ تسأل بشك مقاطعة أفكاري:

-أنت ماكلتيش من امتى؟

صدمني السؤال وقد تذكرتُ نسيان الطعام طريقه لجوفي منذ.. ربما يومًا أو اثنين!

حاولتُ التذكر وفشلتُ.

-مش فاكرة.

زمتْ شفتيها حنقًا وتعانق حاجباها من جديد وهي تخلع معطفها:



-اتصلي بولدتك دلوقتي وقولي لها تيجي لك عشان اعرف امشي.

ثم وقفتْ في المنتصف وسألتْ عن مكان المطبخ فأشرتُ لها بصمتٍ فعادتْ تسحبني من كفي وأدخلتني بصحبتها للوجهة التي أشرتُ لها ثم أجلستني على منضدة الطعام:

-عندك خضار، وفراخ أو لحمة في الفريزر؟

أمأتُ برأسي وأشرتُ لها على مكانهم وكأني منومة، وغابتْ تفتش عن طلباتها إلى أن استخرجتها وعادتْ بهم ثم بدأتْ بالعمل والطهو بالفعل بمنتهى الأريحية وكأنها صاحبة دار!

وبعد دقائق قليلة رجعتْ تقشع غيمة تيهي المتخيل لحظة خسارتي القاصمة لطفلي ولحظة سعادته العارمة حينما يحمل طفله منها بين ذراعيه، وهي تقف بجواري وتأمرني من جديد بالاتصال بأمي، وهذه المرة لم تتركنِ حتى اتصلتُ بها بالفعل وأخبرتها بأنني أحتاج قدومها ضروريًا.. وبمجرد أن اطمأنتْ لإنهائي



الاتصال عادتْ إلى الموقد مستكملة الطهو بأمرٍ جديد -دون أن تلتفتْ لي- بذهابي لأخذ حمامًا دافئًا سريعًا وتغيير ملابس ثم محاولة الاسترخاء والاستلقاء بغرفتي وعدم التفكير في شيء!

ورغم كل المحاذير والأقوال التي تربينا عليها وتشربناها عن الحرص الذي وجب اتخاذه مع الأغراب وعدم الثقة بهم أبدًا، ناهينا عن سمع أوامرهم وترك لهم منازلنا ليرتعوا بها كيفما شاءوا.. إلا إني فعلتُ واستمعتُ لكلماتها بطاعةٍ وبحاجةٍ ماسة للاستراحة بالفعل من تلك الوحوش الجاثمة على روحي، والنوم طويلاً!

وبعد ساعة تقريبًا سمعتُ دقاتٍ خفيفة على الباب الموارب تلاه دخولها بالطعام الذي أجبرتني على تناول نصفه بتصميمٍ صارم.

وبعدها حضرتْ أمي فرحلتْ هي.

وقتها وددتُ التشبث بها وترجيها باكية أن تعيده لي!



أن تخبره أن يأتي إليَّ فأنا في أمس الاحتياج إليه وربما أكثر مِن مَن معه الآن.. فليأتي ويكن بالجوار حتى ولو للحظاتٍ قليلة!

فقط لحظاتٍ أغيب فيها عن الوعي والعالم أجمع نائمة بأحضانه ثم يرحل إن شاء!

وددتُ وكدتُ أموتُ لأفعل.. ولم أفعل!

**



أصغيرتي..

إن السفينة أبحرت..

فتكومي كحمامةٍ بجواري.

ما عاد ينفعك البكاء ولا الأسى!

فلقد عشقتك..

واتخذت قراري.

-القرار.

-نزار قباني.



ضيا

إجهاضٌ منذر لجنين في الأسبوع الرابع تقريبًا!

تداخلتْ تلك الكلمات مع صورة الجنين السوداء التي كانت محتلة كف يدي منذ دقائق بعيدة!

كلمات تراجعتْ معها روحي وخطتْ بعيدًا عن عتبات المنطق والشعور، وبقتْ تنظر وتستمع للجميع بعيونٍ فارغة مراقبة وتصلب جامد أشبه لتمثال!

-روح اطمن عليها يا ضياء.

كلماتها التي خرجتْ من صوتها الواهن بجواري لم تعِد الحياة لصدري، بل أبعدتها أكثر!

لم أستطِع سوى النظر لها؛ أحاول التأكد أهي بالفعل من تتحدث أم أنه صوت خافقي الذي أوشك على الانفجار!



-ماتخفش، ماتخافش.

لا أخشى على من تحديدًا، ومن ماذا تحديدًا!

لا أخشى عليها وهي أمامي تكاد تسقط مدعية ثباتًا كاذبًا، أم لا أخشى على من سقطتْ بالفعل ومختفية عن عيوني!

أم تقصد ألا أخشى على طفلين من المفترض أنهما طفلاي، إحداهما أعلن لي عن وجوده بتهديدٍ مباشر بالرحيل، وآخر لم يحتَج لشن تهديدًا مفروغ منه!

أم ألا أخشى من الخسارة المضاعفة!

الخسارة التي ستكون هذه المرة مبيدة.. تعلق نظري بصغيري الساكن داخلها ولم أعرف بماذا أخاطره ليبقى إن كان بالفعل موجودًا، ثم نظرتُ لها أرجوها هي -وهي الأكيدة- أن تبقى وتنقذني بطريقةٍ ما من هذه الحفرة الخانقة!



أن تستغل دفعة كفها الواهن لتُقظني من هذا الكابوس الذي ينظر لي بابتسامةِ حلم.. أن تأويني داخل أحضانها التي طردتني منها طويلاً، وتخبرني بأنه أضغاث البعاد..

أن تنهي كل هذا عند لحظة ما لا أدريها!

لكنها لم تفعل ولم تنقذ، بل أصرتْ على أن تتركني في منتصف تلك الحفرة وحيدًا وتردم عليَّ ترابها بابتعادها عن أنظاري وهي تدفعني من جديد:

-روح يا ضياء ماتخفش.

استجابتْ قدماي لدفعتها وأبعدتني بالفعل بعقلٍ صامت، إلا أن تفاجأتُ بي أقف أمام باب الغرفة التي أشار لها الطبيب، وبقيتُ واقفًا أمامه لدقائق غير مستوعب بعد سبب وجودها بالداخل!



أخذتُ نفسًا بطيئًا طويلاً؛ أهدئ به نبضات خافقي المتوتر وتجاهلتُ الصداع الذي بدأ في شق رأسي ثم فتحتُ الباب ودخلتُ بهدوء وبطء؛ أخشى رؤيتها وأتلهف لها، فقابلني ظهرها المنحني على قدميها وهي تحتضن جسدها الصغير؛ تحيط بذراعها قدميها والآخر مستكين فوق بطنها بحمائية وتشبث!

فبدتْ صغيرة جدًا، مؤلمة جدًا، وهشة جدًا!

هشاشة لا تليق بها.. هشاشة استنكرها قلبي وانتفضتْ لها روحي البعيدة!

خطوتُ تجاهها ببطءٍ خائف وفي اللحظة التي كدتُ أقترب فيها منها دوى صوتها المختنق داخلي يذكرني بكلماتها الدامعة منذ ساعات؛ أنها لم تنتظرني من قبل أبدًا مثلما انتظرتني بالأمس.. فتخشبتْ قدمي ومنعتني من الحراك وخيوطٍ جديدة تنسج صورة كانت لتكون مبهجة لولا أني مزقتها قبل أن أحاول رؤيتها!



ووعيٌ مفاجئ ضرب رأسي بغتة كخيط برق أحيى العقل وأمات الأنفاس، وشعرتُ بقلبي يسقط بقدمي وتدهسه جميع مشاهد الأمس البعيد رغم قربه!

الأمس الذي خنقتُ فيه حبيبتي، وذبحتُ فيه خليلتي!

الأمس الذي كدتُ أختطف أنفاس الحياة من طفلاي.. إحداهما بأجيج غضبِ عشقٍ محموم، والآخر بطعناتِ احتياجٍ غافل عن صرخات عشقٍ مظلوم!

دارتْ الأرض بي للحظة وكأنها لم تحتمل ثقل الحقيقة فزُلزلتْ من أسفلي؛ تبغى التفتتْ وإسقاطي منتهيًا داخل تصدعاتها المتألمة. بقيتُ ثوانٍ مرتْ كسنون أحاول مهادنة دوران الأرض بي، ثم تبعتها ثوانٍ أخرى من صمتٍ مفعم بضجيجٍ بماذا يجب أن أفعل أو أقول لأعتذر نادمًا، أو كيف أقوله؟!



وهل الاعتذار هنا وطلب السماح حقٌ وتربيتة كف على خافق مخذول، أم وقاحة وضغطة إصبع على جرح نازف!

قطعتُ الخطوتين الفاصلتين بيننا حتى وقفتُ أمامها وقابلتُ عيونها الثابتة بجمودٍ على نقطة فراغ والتي بمجرد أن لمحتْ طيفي أغمضتهما على الفور بعدما زوتْ حاجبيها برفضٍ واندهاش!

رفض زلزل روحي بانهزامٍ وأسقطها من علياء غيابها، واندهاش أصاب آخر وتر تحمل داخلي.. جلستُ القرفصاء أمام فراشها الصغير ببطءٍ وأنا أراقب وجهها الساكن بشحوبه المرعب!

-امشي.

همسة رافضة محشرجة لا تكاد تسمع خرجتْ من صوتها بمجرد مكوثي أمامها واستقرتْ في صدري كطعنة!



سحبتُ يدها الساكنة على قدمها وهالني برودتها وارتعارشتها، بقيتُ أنظر لها مستعيدًا تلك اللحظات وهي محبوسة داخلي تتساءل بلومٍ لما فعلتُ بها ما لم أكن أعلمه، وأين هي مني!

وإن أشرقتْ عيناها في تلك اللحظة لعلمتْ الجواب ورأتْ حريق روحي عليها وسمعتْ صوت صرخاتها الملتاعة باسمها.. لو فقط رحمتْ وفتحتْ عينيها وسمحتْ لي بعناق سلام خضرتها الآسرة لأدركتْ أني لم أدرك سوى في تلك اللحظة أنها مزروعة في عمري حياة شطرها نجاة وشطرها هلاك!

أن قمرها الساكن في عمري بدرٌ منذ فجر العشق وإلى أبد الألم!

أن جسد الحياة دونها هامد، وبدون إسنادة كف عشقها لا يستقيم!

أن عينيها التي تأفل عليهما الآن هما آخر درب إنقاذ لي!



لو فقط تنظر لي!

-تيا.

همستُ باسمها على أمل تجاوب وإن كان غاضِبًا، لكنها لم تفتحهما وأبقتْ غموض دواخلها حبيسة وراء جفنين مغلقين!

سقطتْ عيناي على كفها المستكينة فوق بطنها، وزحفتْ يدي دون إذن مني تشاركها استشعاره وقربه، وبسمة شاردة شقتْ ثغري قسرًا عند تخيلها وهي تحتضن طفلتي الصغيرة بين ذراعيها وتخبئها في أحضانها الدافئة!

وفي ذات اللحظة اخترق صدري صقيعٌ مؤلم يذكرني بذاك الذي لم يكتب لي لمسه لمرة للآن في عقر حماه وخطره!

-كان هيضيع مني بسببك.



اقتحمتني كلماتها الآثمة وهي تذكرني بأخرى مشابهة تحمل ذات الاتهام الصادق بارتكابي ذات الجرم في لحظة غفلة!

-كان هيضيع منك قبل ما تعرف أصلاً إنه موجود.

تنتقم وتجيد انتقامها، وأستحق ولن ألوم أو أطالب برحمة أو حتى أُطلق أنّات ألم يعتصرني الآن!

-كان هيضيع مني زي ما ضيعتْ فرحتي بيه.

تصفع الضمير والقلب بتأنيب؛ تذكرني بفرحتها التي انتظرتها طويلاً وجعلتني شاهدًا على لحظات لهفتها الحالمة بها والتي تقَاسَمتُها معها مرارًا، ثم بيدي أرقتُ دماء تلك الفرحة واللهفة على عتبة امتلاك الأمنية!

ازداد تشبثي بموضع اختباء صغيرتي؛ أناجيها بكل الكلمات الصامتة والأنفاس المتسارعة لغفران تلك الذلة وعدم محاولة



الفرار من جديد.. فإن كنتُ أستحق غضبها لعدم وجودي بانتظار خبر وجودها كما تستحق، فأمها الصامدة أمام الألم لإجلها لا تستحق.. أمها التي أتى صوتها مقاطعًا قاطعًا:

-طلقني يا ضيا.

كانتْ هادئةً خفيضةً ككل كلماتها السابقة، ومع ذلك شعرتُ بها كرصاصة مشتعلة اخترقتْ الجلد واللحم ونخرتْ العظام واستقرتْ تنشر سمومها في كامل الجسد!

سمومٍ شعرتُ بغليانها تسري داخلي وتعلقتْ بكلماتي الجازمة بالرافض:

-مش هيحصل.

صمتت ثوانٍ ثم أعادتها بذات النبرة والهدوء وكأنها لم تسمع مني شيءً:



-طلقني يا ضيا.

-مش هيحصل.

فوريّةً بصوتٍ هامس تراقص على أشلائه بعض الغضب والخوف ولم يؤثرا في جمود نبرتها شعرة أو حتى يُفرِقا جفونها المتعانقة وهي تنفي نفيٍّ بيقينٍ وإثبات:

-هيحصل. هتطلقني يا ضيا.

يقينها غريب، وإثباتها مرعب، وجمودها أكثر إرعابًا!

قمتُ من جلستي أواجه نومتها وأنا أشاركها ضيق الفراش الساكنة عليه، جلستُ على أطرافه وسجنتُ يديها داخل يدي قسرًا آمرها بصوتٍ مضطرب:

-فتحي عيونك.



شددتْ من إغماضها لهما، لا أدري برفضٍ أم ألمٍ أم تحدٍ، وانفرجتْ شفتاها بذات الجواب الكاوي مجددًا:

-مش عاوزة اشوفك.

-عشان خاطري فتحي عيونك.

قولتها راجيًا هذه المرة؛ أرجوها نظرة ورؤيتها لي، أرجوها لحظة تواصل لطلبِ سماحٍ وإبداء ندم، أرجوها إعطائي فرصةً واحدةً للاعتذار.. لكنها نسفتْ كل رجائاتي بكلمتها الآمرة الوحيدة والتي علَت هذه المرة عن الهمس؛ فخرجتْ أكثر وضوحًا وإصرارًا:

-امشي.

وبإصرارٍ موازٍ لإصرارها وصوتٍ أعلى من صوتها:

-مش همشي.



صمتت ثوانٍ قبل أن تعيد بصوتٍ اختلج بأثر دموعٍ سجينة ويدين تحاول الفرار من حصار كفاي:

-امشي يا ضيا؛ مش قادرة اشوفك.. امشي!

كدتُ أفتح فمي رافضًا بكلماتٍ معتذرة أخرستها بطلقةٍ أعلم أنها مزقتْ روحها قبل أن تشق صدري:

-وحياة براء عندك لتمشي.. امشي.

عندها تجمدتُ وانكفأتْ روحي على أنفاسها معترفة بهزيمة أني هدمتُ كل شيء بالفعل!

-تيا!

-امشي، امشي.. لو خايف عليه ولو لذرة حتى امشي.

عادتْ تسحب كفيها مني من جديد حتى حررتهما بالفعل وهي تحلِّفني بالجميع إلاها!



ماذا إذًا لو أخبرتها إني في هذه اللحظة لا أخشى من أحدٍ سواها!

لا أخشى سوى من نفض جُنحها لي والسقوط من علياء امتلاك سكينتها إلى قاع افتقادها مجددًا!

لا أخشى سوى ما في عينيها المتوارية عني ببأسٍ مقبض!

لا أخشى سوى قوة تصميم صوتها رغم وهنه!

لا أخشى من أحدٍ سواها!

وعندما فقدتْ على ما يبدو الأمل مني أو فيّ؛ تقلَّبتْ في نومتها للجهة الأخر؛ تحرمني رؤية وجهها كعيونها وتصوب لي ظهرها المنحني على جسدها بذات الهيئة المقبضة وزادتْ عليها نكّث رأسها وتخبئته بذراعها المحتضن قدميها!

وبقينا هكذا طويلاً حتى استسلمتُ وخرجت منهزمًا أهديها بعض الخلاص الذي تنشده، وارتميتُ جالسًا أمام بابها المغلق برأسٍ



يشتعل بألم وغضب.. ثم وفي الدقيقة التالية بزغتْ صورة "براء" من العدم فانتفضتُ من جلستي أبحث عنها عندما أدركتُ أنها ظلتْ كل هذا الوقت هنا وحيدة، ثم صدمتُ باختفائها من كل الأماكن المجاورة التي بحثتُ عنها فيها، وعندما اتصلتُ بها قابلني رنينًا مستمرًا دون استجابة!

توحش ارتباكي وتزاحمتْ كل الصور البشعة الممكنة واللا ممكنة في رأسي وتركتني أصارعها عاري الأمل واليقين، فبقيتُ أعيد محاولة الاتصال بها وأخذ يقابلني كل مرة ذات الرنين الطويل والذي يتبعه صمت الجواب!

بحثتُ عن "رحمة" المختفية هي الأخرى لأتركها بجوار المنهارة بصمت بالداخل لأذهب بقليلٍ من الاطمئنان باحثًا عن المختفية الأخرى، ولم أجدها!



فعدتُ أشعر أني على وشك الانفجار متحولاً لإشلاء من هذا العجز الذي يكبلني ويكيل لي الصفعات الواحدة تلو الأخرى بلا لحظة استراحة.. ولم أدرِ بنفسي بعدها إلا وأنا أمسك هاتفي من جديد مستغيثًا:

-بابا.. أنا محتاجك.

فقط هاتان الكلمتان كانتا كل ما أحتاج ويحتاج لتذوب بيننا عاصفة ثلوج الصباح وكنتُ أعلم؛ فأتى صوته القلق وهو يسأل عما حدث وما حل بي بتحفز أبٍ يخشى على طفله وإن كان مشاغبًا وقِحًا، مستسلمًا لفطرة شعور لم يكتب لي يومًا وربما لن يكتب أبدًا.. وكذلك لم يحتَج الجواب سوى كلمتين أُخرتين تُغنيان عن أي شرحٍ أو حديث فائض:

-براء حامل.

حشرجة أنفاسه وصلتني واضحة رغم صوته الصامد:



-طب انتوا فين؟

-في المستشفى.

صمتْ وكأنه تلقى الصفعة التي يتوقعها ويخشاها فأعدلتُ:

-تيا في المستشفى..

-ليه مالها؟!

-حامل.

صمتْ وطال صمته وكأنه ينتظر تتمة البهجة اللحظية بالطعنة الناهية، فاستطردتُ موضحًا لا أدري بأذيال أملٍ شاحب أم بألم انتظار خسارة مركبة:

-الحمل كان هينزل.



تنفسه صار مسموعًا بوضوحٍ لأذني بينما صار تنفسي أنا عسيرًا بطيئًا، والطنين يزداد في أذني ويتداخل مع صوته المشحون رغم هدوءه:

-طب هي عاملة إيه؟

ساكنة كالموتى.. تحجب عيونها وروحها عني.. وتبغى الفراق!

-ماعرفش.

أغمضتُ عيني وأخذتُ نفسًا عميقًا حاولتُ به طرد هذا الطنين المقبض والدوران المهلك والتركيز الآن على إيجاد قِبلة الطمأنينة التائهة عن صلواتِ الفؤاد المُرَوَّع:

-بابا أرجوك روح لبراء شوفها في البيت ولا لا وطمني عليها. وقول لماما ترحمها، أرجوك خليها ماتقولهاش أي حاجة.



قولتها برجاءٍ لاهث شعرتُ معه بأني مغلول العنق واليدين والحركة، ومشلول العقل والنبضات والأنفاس!

فوعد وهدأ وطمأن وأوصى بالثباتِ ثم أغلق، وبقيتُ وحيدًا.. أصارِع رغبةً مؤلمةً لتحرير الخوف المرعب والعجز القاسم الذين يمزقوني إربًا بأنيابِ الخسارة الوشيكة في آهةٍ مُعذَّبة تُفجر الكون لأشلاءٍ كبقايا روحي الآن!

أسجن الآن احتياجًا قاتلاً لذرف تلك الدمعات التي لم تثقل مقلتي أبدًا من قبل بهذا السفور الطاغِ، وأتجاهل رغبةً مريرةً في السقوط برأسي التي تكاد تنفجر على كتف أحدهم وإطلاق العنان للبكاء كطفل تاه في غابة موحشة وضل سبيل النجاة!

التفتُ أواجه الجدار البارد ثم أسندتُ جبهتي عليه ورفعتُ كفي بجوار رأسي المكدس بكوابيسٍ شتى، راجيًا هذا الألم بالقتل أو الانسحاب.. فإما أن يجز الأنفاس الآن وأنتهي من كل هذا، أو



يرحل ويتركني أحاول رأب هذا التصدع الكارثي الذي أهلك حياتي في لحظة!

أفكر في القادم والماضي وما يجب عليَّ فعله وما يجب عليَّ تناسيه.. ولا أصل لشيءٍ سوى الخوف!

أخاف الأمل وأخاف اليأس، وأخاف الوقوف وأخاف التحرك!

فتحتُ عيوني وابتلعني اللون الأبيض للجدار أمامي يخنق أنفاسي المختنقة بالفعل فالتفتُ للذهاب والهرب والتف معي العالم أجمع وكاد يسقطني في عمق ظلامه لولا ارتطامي بجسدٍ ما أمسك ذراعي ساندًا ترنحي المباغتْ وتداخلتْ صورته مع صوته القلق الآتي من البعيد:

-حضرتك كويس؟!



حاولتُ الإيماء برأسي مجيبًا بكذب ولا أدري أفعلتُ أم لا؛ فعقبتُ بصعوبة:

-كويس، شكرًا.

-لا شكلك مش كويس إطلاقًا.. تعال معايا نشوف ضغطك..

ازدادتْ ضربات رأسي والدوار والطنين لم يهدأ للحظة؛ فاستسلمتُ لاصطحابه بنصف وعيٍ وثلاث أرباع اهتمامٍ وامتنانٍ تام..

-١٦٥/٩٩..

أقر بها بجبينٍ مقطب ووجهٍ عابس!

لم أستطِع فهم كلماته في بادئ الأمر حتى تابع وهو ينظر لي مستجوبًا فاضطرني لقنص بعض التركيز غصبا:

-أنت مريض ضغط؟



-لا.

-حد من العائلة عنده ضغط وراثي؟

-لا.

-بتتعرض لأي ضغط عصبي زايد الفترة دي؟

سؤاله هذا أسكتني للحظاتٍ وكدس في حلقي الهموم مجتمعة:

-العادي.

-عندك كام سنة؟

-٣٦.

صمتُ لثانية وفي الثانية انهالتْ الكلمات منه بعملية بغيضة:

-في احتمالية إنك تكون مريض ضغط مرتفع، محتاجين نتابعه الفترة دي ونعمل شوية فحوصات وتحاليل عشان نتأكد.. بس قبل أي حاجة هتنزل دلوقتي طوارئ لحد ما الضغط يتظبط.



كلماته كانت كسهامٍ مشتعلة مرتْ على رأسي المتأجج وأحرقته، ولكن عندما مرتْ على أرض إحساسٍ فقيد وشعورٍ مُدهس قابلتْ رماد احتراقهم المتطاير بخواء صدري؛ فرحلتْ بكل هدوءٍ دون ترك أي أثرٍ يذكر بعد أن اطمأنتْ أن آخر أتم المهمة على أكمل وجه!

-أنت ضغطك عالي جدًا وده إهماله خطر.. قوم معايا.

وكأنه قرأ وخمن الشعور فقرر صفعه بكلماتٍ أقصر وأكثر صراحة! أمأتُ موافقًا باستسلامٍ، وفي لحظةٍ خاطفةٍ وجدتني بمكانٍ خانق وجسدٍ مستسلم على فراشٍ ضيق، محاليل معلقة وعقلٍ لا يتوقف عن بث رغبةً ملحة في النوم وأخرى في الضحك حتى تتوقف الأنفاس!

فمنذ دهرٍ ومصائبي لا تأتي فرادى ولكن ليس لهذا الحد.. ليس لهذا الحد أبدًا!



بقيتُ دقائق كثيرة حتى هدأ الدوران ونعستْ الوحوش برأسي أخيرًا.. وأُطلِقَ صراحي!

فاستطعتُ التحرر والذهاب لطبيبها والاطمئنان عليها ومعرفة تفاصيل حالتها برأسٍ شبه مرتب، وأخذتُ إذن المغادرة الآن مع التشديد على ضرورة الراحة والابتعاد عن أي ضغطٍ أو توتر.. وزاد من هدوئي اللحظي اتصال أبي المطمئن على "براء" أنها بالمنزل بخير وأن أمها بصحبتها أيضًا.

ذهبتُ مسرعًا أبغى الهرب والخروج بها من هذا الجحيم الخانق، وعندما دخلتُ غرفتها قابلني وجه "رحمة" وهي ماكثة بجوارها وتمسح على رأسها بحريةٍ دون أن تبعدها عنها أو حتى تعترض: وصدقًا حقدتُ عليها هذه اللحظة لنيلها ما حُرم عليَّ، وغضبتُ من تلك المستكينة لتربيتة سواي وهي حقٌ حصريٌ لي..

-أنتِ كنت فين؟



بهدوءٍ لائم مشوب بالغضب وجهتُ كلماتي لـ"رحمة" المختفية في أشد الأوقات احتياجًا لها، وردتْ بذات الغضب المشتعل في عينيها والمحاصر بطبقةِ جليد هدوء جوابها:

-كنت مع مراتك.

قطبتُ جبيني بجهلٍ وعدم استيعاب خاصة بعد تحول نظرتها لتأنيبٍ لم أفهمه حتى تابعتْ ويا ليتها ما فعلتْ:

-ورحت معاها عند الدكتورة كمان لحد ما اطمِنت.. اطمن أنت كمان.. البيبي كويس.

-براء!

همستُ باسمها بمزيجٍ من ارتباكٍ وارتياح، مدركًا سر تأنيبها الظالم، وقاطع غفلتي صوتٌ خفيضٌ متسائل بجهلٍ مرتاب وهي تنظر لـ"رحمة":



-بيبي إيه؟!

امتقع وجهها وتبعها وجهي وانتقل التأنيب من نظراتها لخاصتي، وقاطعتنا صاحبة الصوت المنهَك وهي تواجهني بالسؤال وتنظر لي!

-بيبي إيه؟!

تنظر لي ومقلتيها المضويتين تواجهان عيني ببريقهما المعتاد، ولكن.. بنظرة زجاجية تكشف ما ورائها من صدمةٍ مشروعة وظنونٍ لن أقبل محاكمتي بها ظلمًا وبهتانًا واستغلالها كأدلة زور لإتمام حكم فراق طاغٍ!

بقتْ عيونها المتسائلة معلقة بعيوني المدافعة وصوت روحي يرن بأذني حسرةً: أبعد كل هذا الوقت من حجب قمريها الخضراوين عني تكون نظرتها على هذا الشكل المصدوم والمتهم!

-هي.. هي براء حامل؟!



الجواب بالكلمات كان أكبر مني ومن قدرتي في هذه اللحظة؛ فصمتُ واقتربتُ أسجنها داخلي قسرًا رغم كفيها الممانعين، لكني كنتُ أوهن من إيثار حزنها بابتعادٍ وكانتْ أوهن من استمرارها على مقاومتي فسكنتْ بلا حديثٍ وسكنتُ بلا رد، حتى أعلنتُ بعدها:

-يلا عشان نمشي.

-مش عايزة امشي معاك.

صوتها الرافض المختنق والملغم بدموعٍ حبيسة مع كفها الذي عاد يمارس هوايته في إبعاد صدري من جديد أبعدوني قليلاً بالفعل، اتجهتُ بالحديث لـ"رحمة" أن تعِدها للرحيل حتى أتمم إجراءات الخروج، وعدنا للبيت بصمتٍ ثقيل.. ودون لحظة انتظار دخلتْ تختبئ عني بغرفتها وتبعتها "رحمة"، وبقيتُ جالسًا بإنهاكٍ على الأريكة التي شهدتْ هزيمة الصباح!



حاولتُ الاتصال مرة واثنتين وثلاث بمن ذابتْ عن أنظاري في لحظة، ولازالت لا تجيب. أرجعتُ رأسي للوراء وأغمضتُ عيوني وبقيتُ أحاول التفكير في الخطوة المرعبة القادمة!

حتى خرجتْ "رحمة" وذهبتْ بعد جدلٍ طويل عن وجوب رحيلي ومكوثها هي بصحبتها، ثم أخبرتني بغير رضا خلودها للنوم وأنها ستعود في الصباح الباكر لإطعامها والاعتناء بها.. وبقيتُ أحاول الوقوف على أرضٍ صلبة تقيني من هذا الترنح والتمزق بين ألمٍ ساكن بغرفة مجاورة وألمٍ بعيد أميال!

اتجهتُ إلى غرفتنا النائمة بها منذ رجوعنا وقابلني جسدها الساكن باستسلامٍ وإنهاك يحرضا على الخوف والهواجس المقبضة!

وبقتْ عيوني معلقة عليها قليلاً.. أطمح في الاقتراب وأخشاه!



أتمنى إنهاء هذا اليوم العصيب ولا أعلم أممكن هذا أم أنه محض حلم سأستيقظ منه على كابوسٍ جديد!

أريد الذوبان بدمائها وتسكين ألمها وامتصاصه عنها حتى تمر عاصفة غضبها دون بعاد!

أشتهي الاختباء والاختفاء داخلها حتى تغفر..

ويا ليتها تغفر!

**



أحبك أدري!

سأقسم عمري..

وداعًا ستشفق منه الجبال!

أعيش نقيضًا لتيار نبضي؛ هدوءً وفي البال ألفُ جدال!

أقول أراك بخيرٍ سلامً!

وقلبي ينادي..

بحق الإلهِ، بحق الإلهِ..

تعال تعال!

-لماذا تغار!

-ربا أبو طوق.



تيا

انتهى اليوم وهو لازال داخلي دون أن يفر، ولا أصدق!

انتهى اليوم وهو يعطيني فرصة أخرى للحفاظ عليه، ولا أصدق!

انتهى اليوم ولم ينتهِ معه خوفي على الماكث بداخلي أو ألمي من الجالس بالخارج بإصرارٍ وصمت!

سبحتْ عيناي في الفضاء الأسود حولي وأنا أستعيد وجهه وصوته منذ الصباح وأقارنهما بخيالات صباح الأمس!

طالما كانت المسافة بين الخيال وبين اليقين معه مضحكة.. مضحكة لحدٍ مبكي!

فكل ما تمنيته معه حدث بالفعل، ولكن.. متأخرًا، منقوصًا، مشوهًا.. وكأن عالم أمنياتي وعالم الحقيقة متراميان، لم ولن يكتب لهما لقاء، ولا يربط بينهما سوى شعرة وجوده!



تلك الشعرة التي سرتُ عليها مترنحة بألمٍ آمل بوصولي لجنة خيالي الحالم، وكانت بتفاصيلها وكأنها صراطٌّ حادٌ أدمى خطواتي حتى رُحمتُ بوصولٍ دامي.. فاستقبلني العشق فاتح الذراعين عند الوصول، متباهيًا بثوب الحلم الناصع، مخبئًا أسفله هيئة مشوهة لمسخ!

مسخ عند إدراكي لمدى تشوهه صُعقتُ منه ومن المعشوق الذي كدتُ أفقد طفلي بفضله وعليه وعليَّ اللعنة.

التفتُ للجانب الآخر من رقدتي على فراشي الذي أرتقيه منذ عودتي للمنزل، وسلمتُ فكري المحطم طواعية لفلك الشرود.. أجتر لحظات النكبات، وأعيد شريط صبانا واللقاء الأول وما تلاه!

أتساءل كيف كانت الحقيقة، وأتساءل متى غُشينا بضباب الوهم؟!



أتساءل أيّ منا تمسك بالواهم وامتن للضباب، وأيّ منا الصامدة خطواته على دروب عشقه والقابضة يده على خارطة قلب المعشوق!

فتأتي الإجابة واضحة كالشمس عندما أقف على حافة اللحظة التي خرج فيها أمامي عشقه عن لجام السيطرة!

وتُكتب الإجابة بأحرفٍ من رماد على جبيني الخاسر بأن لا موهومة بسراب العشق سواكِ..

أنت من شردتِ وخطوتِ في المحذور فاختلطتْ الأوراق وبُعثرتْ حتى امتزج الحق بالنهب!

الغصة عُجِنت باللحظات!

والذكرى الغالية أضحتْ حطامًا!

أما الهبة فكادتْ أن تصبح ذكرى!



والعشق.. أسطورة من أساطير البُلهاء، صدقتِ في لحظة احتياج متمني أن بإمكانك الاستحواذ على سر حروفها بمفكرتك الوردية وعزفها كحكاية عشقٍ ملحمية يرقص على صداها العشاق!

وهذا جزاء من تشرد وتتوهم وهي تخطو برعونة في متاهات الحب.

أقتحم دخوله الهادئ شرنقة شرودي ومزقها فأغمضتُ عيني بهدوءٍ مدعية النوم.. لا أريد رؤية وجهه ولا عينيه، ولا أتحمل سماع صوته القاطع مرة أخرى وهو يرفض إنقاذ ما تبقى مني وطفلي بالهرب!

ولا أملك القدرة على منع ذراعيه الذي يكبلني بهما ويسجنني داخله، بل للعجب أستجيب مستكينة وأنا أستغل هذا البراح الآمن الذي طردني مواطنة، ورفضني مستوطنه، واستقبلني لاجئة!



أرتوي مودعة هذا الدفء كرشفة ماءٍ عذب أخيرة لمذنب معاقب بالهجران والوحدة أبد الدهر، وسيبحر بسفينته الجدباء منفردًا بمحيطٍ مالح كما كان دومًا!

اقترب واستكان بجواري بنصف نومة على السرير ثم حاوطني بذراعيه وشدني إليه بخفة ثم أسكن رأسي صدره وأعاد حصاري بأحضانه الدافئةٍ من جديد!

طبع قبلة رأسٍ طويلة ويداه لم تتوقف عن تمسيد كتفي وظهري وأسند ذقنه على رأسي وران الصمت. بقى الصمت وطال كثيرًا لا يتخلله سوى صوت أنفاسه الواضحة حتى كادتْ أجفاني المتعانقة تغيب بنومٍ حقيقي لا ادعاء!

وفي ذات اللحظة أعاد قبلته وشدد احتضانه أكثر؛ ففر النعاس وبقتْ الأجفان مغلقة وعدتُ استمع لتنفسه السريع ودقات خافقة الأكثر سرعة!



دقائق مرت على ذات الحال حتى شعرتُ بيده تتوقف عن تمسيد كتفي وتبتعد، تلاه تحرك طفيف بجسده ففتحتُ عيني بخفة متابعة حركته فوجدته قد أخرج هاتفه وسماعة أذنه ووضع إحداها مهملاً الأخرى، عبث به قليلاً قبل أن يضعه بإهمالٍ على قدمه ثم أتى صوتها المغمغم باسمه والذي جمدني لوهلة وتبعه صوته الملهوف:

-أنت كويسة؟

-كويسة.. متخافش.

امتلأتْ أفواه الجميع باللا صوت للحظاتٍ وازداد تنفسه المتعسر وضوحًا وبقى الجميع يختبئ بالصمت من الألم، حتى أتى صوتها بحزنه وقلقه الواضح عبر السماعة الملقاة بجواري:

-مال صوتك؟



حشرجة صوته المرتبك والكاذب لأجل خاطرها أطاحوا بجمودي لعمق الجليد فبتُ جامدةً ومجمدةً:

-مصدع شوية.

ثوانٍ كادتْ تتمم الدقيقة وربما فعلتْ وكلٌ منهما يستأنس بحديث أنفاس الآخر حتى:

-تيا عاملة إيه دلوقتي؟

-تعبانة.

هذه المرة حشرجة صوته كانت مختنقة وهو يلتف لي برأسه ويخبئه بالقرب من شعري، ثم شدد من احتضانه لي ومن ضغط كفه الحنون لرأسي الساكن على صدره:

-تعبانة أوي.



وددتُ إخباره مصححة بأني لستُ متعبة وإنما منحورة الروح والفؤاد والأمنيات، لكن صوتها الخافتْ مجهول الانطباع جمدني من جديد:

-ماتخفش هتبقى كويسة.

-يا رب.

أجاب بها خفيضة ثم كررها من جديد بهمسٍ متبوع بتربتة رأسٍ بعد قبلة ثالثة!

أخذ نفسًا عميقًا مرة واثنتين حتى انتظم تنفسه بعض الشيء وقلت سرعته؛ فسأل على الفور بلهفةٍ مشوبة باعتذارٍ حار:

-بابا جالك؟!

-آه جه هو وطنط، وماما كمان هنا.



أي الجميع. الجميع بجوار المدللة ليربتوا على قلقها ويقاسموها فرحتها.. ألا يكفيها كل هؤلاء الذين طالما كانوا بجوارها مساندين ومشاركين في الحزن والفرح!

وكأنها قرأتْ خواطري، فقررتْ نسفها مستطردة:

-عاملت لي حفلة في البيت يا ضياء!.. على فكرة كل دول مش هيعوضوا وجودك.

-هاجي. والله العظيم هاجي.

فورية قَسمهُ المتلهف دهستْ روحي ومزقتها.

-هستناك.

ولا أدري كيف التقطتُ همستها الخافتة بهذا الوضوح وكأنها كانتْ صيحةً لا همسة!

ولا أدري مسمى لهذا الشعور الذي طحنني ثم اعتصرني!



كل ما أحسسته وأدركته أني أحتضر وأود الصراخ.. ولولا طفلي الساكن بأحشائي ويهدد بالرحيل إن صرختُ لكنتُ صرختُ وصرختُ وصرختُ وأشبعتُ العالم صراخًا حتى يصيبه الصمم.

-براء، ممكن تخلي بالك على نفسك.. عشان خطري. وخلي بالك عليه.. خلي بالك عليه..

شددتُ على إغماضة عيني وأنا أكتم دوي صرختي وأحكم عليها الإغلاق داخلي!

وكأنه أجرى مكالمته خصيصًا بجواري كي يذكرني بثمرة عشقهم التي تنمو الآن بأمان!

وفي الحظة التالية وددتُ لو كنتُ قد خرقتُ أذني لكيلا أسمع همستها التالية المثقلة بحبها لفظًا وحرارةً وصدقًا، والتي أتمتْ بها نحري.



أغلق الهاتف وألقاه بالجوار والتف بجسده لي يزيد من تشبث احتضانه وهو ويدفن رأسه بعنقي.. ثم دنتْ منه آهة طويلة هامسة اختبأ صداها وكُتم بخيوط شعري المعقوص!

وتلك الآهة زلزلتْ فؤادي لوعة!

لما يفعل هذا؟!

لما يصمم على غرس الألم في صدور ثلاثتنا؟!

ألم تكن غايته الدائمة مني أن أكون بالجوار كمعشوقة يرضي بوجودها غروره الذكوري وإن كنت صنمًا فاقد الاحتياجات والمطالب!

فها أنا سأفعل، وسأظل مربوطة به للأبد بقطعة منه هي أغلى من الروح والفؤاد!



فلما يعذب نفسه ويعذبها بطرفٍ زائد في دائرة عشق مكتملة الأركان؛ من عاشق وعاشقة وثمرة عشق؟!

لما فقط لا يستسلم ويعلنها صراحةً أنه ندم ويستحي من طلب الفراق!

لما يُصعِب الأمر بمجادلةٍ باهتة بدلاً من صمتٍ أرحم على كلينا!

لما لا يتقبل هبة الخلاص برضا وامتنان!

لما لا يقتنع أن كل هذا عبث لا طائل منه!

فأنا لن أنصاع من جديد لسحر قربه وإن كنتُ أحتاجه لحدٍ مؤلم.. سأفِر وأهديه وإياها الخلاص، وسأنجو بفُتاتي قبل أن تحترق بنيران عشقها المتوهجة كالشمس في قلبه أكثر.. ولأجل قطعة من روحه ممزوجة بقطعة من روحي تنمو بجوار قلبي الآن..



سيحدث وسأرحم الجميع بقرار قتلي منفردة، فأنا أستحق على أية حال.. فقط فلأنهل من دفء أحضانه للمرة الأخيرة قبل أن أُحرم منه للأبد.. فقط فلأحبس رائحته الحبيبة داخل رئتي قدر الإمكان كي أتدثر بها من صقيع روحي الوشيك.. فقط فلأغلق على أنفاسه المتخللة خلاياي قبل أن يضربها جفاء ابتعاده من جديد.. فقط فلأرحمني بلحظة قرب قبل أن أتمم لحظة النحر!

قبلة رأسٍ رابعة كانت أطولهم وأعمقهم ختم بها يومي العصيب قبل أن تتعانق أجفاني المشتعلة ببكاءٍ مكتوم في نوم صادق هذه المرة..

وقبل أن تكتب النهاية ويسدل الستار استعدادًا للفصل الأخير!



(16)

الفصل الأخير

في دروب العشق والنجاة..

**

براء

كيف لعابر سبيل أن يضحى ملكًا ومالكًا؟!

كيف لعابر سبيل أن تُخلق له السبل وتتبدل له الطرقات؟!

كيف لعابر سبيل أن يصبح البيت والمأوى والسكينة والدفء والأمان والنجاة؟!



كيف لعابر سبيل أن يتغلغل في كل تفاصيل الروح حتى يتحول هو للروح!

كيف له أن يضحى السبيل والمنتهى!

المنتهى الذي يبدأ في عينيه وينتهي بين أحضانه..

المنتهى الذي بدونه يعصرني الخوف والضياع والوحدة وإن كان حولي الكون..

كذاك اليوم قبل شهور عندما كان الجميع بالجوار ولم يبحث القلب سوى عنه. عندما كنتُ رغم اكتظاظ البيت بالجميع؛ تائهة، خائفة، وحيدة، ومشتتة.. إلى أن جاء هو ورُدَت إليَّ الروح بمجيئه؛ فتنفستُ وتشبثتُ والتجأتُ وبكيتُ ورجوتُ مرارًا ألا يتركني ولم يتركني.



لكنه وفي الأخير ورغم كل شيء وبعدما عدتُ مجبرة لبعض الثبات عاد لتركي وحيدة بدونه؛ حاضرًا يومًا وغائبًا آخر؛ يتركني في رعاية أمي التي ترفض التواجد أثناء حضوره بخصامٍ لازال مستمرًا بينهما، ومُقَسِمًا الرعاية والاهتمام بيني وبين تلك التي تستغنى عن اهتمامه ووجوده كله بطلب فراقٍ استشعرتُ شوائبه بحدسٍ خفي، ثم تأكدتُ منه ذات يومٍ أتى فيه غاضبًا لحدٍ مخيف رغم محاولته -مفضوحة الفشل- لكتم غضبه وغيظه وعدم إظهارهم لي؛ فسألتُ وحاصرتُ وصممتُ حتى استسلم وصرَّح صارخًا حانقًا ومشتعلاً؛ بأن جنونها صور لها أنه سيسلم لتنفيذ حمق رغبتها بعدم وجوده معها أثناء موعد معرفة نوع طفله الذي تبين أنها فتاة!

ورغم الألم الذي أخذ يعصر صدري لهذا الانفعال الذي اختص به غيري، إلا أن قلبي هلل ببعض الأمل.. هي تريد الفراق وواضح



أنها تضغط وتصر وتحارب، فلما لا يفعل ويحررها ويعود كما كان لي وحدي صافيًّا من شوائب وجودها!

لما لا يرحمني ويعيد التوحد لعالمنا، ولعشقنا الكمال!

وكلما سألتُ تأتي الإجابة على الفور كطعنة من رأسي الناقم: لأنني تأخرتُ.

تأخرتُ فأدركتُ وبأسوء الطرق أن التأخير في إدراك الحب ثمنه ليس هينًا.. ثمنه ذبحة صدرٍ تتبع كل غياب، وكل خيال وجوده مع أخرى هي عاشقة له، وكل لحظة قرب تفوتْ وتنتهي ليقترب بدلاً منها لحظة الرحيل!

رحيله الذي أحاول تجاهل ألمه فأعود للشرود متأملة فيه.. ماذا كان وماذا أصبح!



متى تحول من رجلٍ لا يترك بصمة في الذاكرة للحظة، لرجلٍ يستحوذ على كل لحظات الصحو والمنام والشرود والتمني!

وكيف صار ما صار عليه من مركز حياة دونه تنهار!

هو وطفله الذي بقى ونيسي طوال فترات غياب أبيه وقاسمه الشرود والألم.. فرغم اقترابي الوشيك جدًا من دلوفي الشهر السابع إلا أن خوفي عليه لم يهدأ أو يقل، بل تضخم وازداد ورأسي ترسم آلاف الاحتمالات المرعبة لفقده لأي سببٍ مفاجئ، ويعزز بكل الأخبار والتجارب المخيفة التي تنزلق أمامي من اللا مكان فأهرع باكية له محتميةً به عند حضوره، ويبقى هو يطمئنني ويأمرني بعدم الهلع والتفاؤل، مكررًا على مسامعي أن كل شيءٍ على ما يرام وهو بخير حال وصحة ولا يوجد أي خطرٍ أو شيءٍ يدعوا للقلق.. ورغم كل هذا يبقى داخلي الهلع؛ فأنا لا أصدق أنه حقًا شارف على الوصول!



نطفته نمَتْ وكبرتْ وشارفتْ على الوصول ولم تتخلَ عني مثل من سبوقها!

كلما طاف بذهني أن حلمي وطفلي منه هو بقى وتشبث، يزداد رعبي من فقدانه لأي سببٍ أكثر.

حتى الأمس.. الذي تحول رعبي من هواجسي على طفلي إلى هلعٍ من هواجسي على أبيه عندما صدمتٌ صدفةً بوجود شريطين دواء لم يكونا غريبين عني أبدًا؛ فهما صديقتا أمي المريضة بالضغط منذ موت أبي رحمه الله، لكن وجودهما في إحدى جيوب بنطاله وشبه فارغين أيضًا ألجموا أنفاسي وسحقوها تحت أقدام الخوف.. فماذا تفعل أدوية ضغط فارغة إلا من حبةٍ واحدة في جيوبه؟!

ولماذا أصبح كثير الشكوى من آلام الرأس والصداع؟!



لماذا أصبحتْ أنفاسه متسارعة، وكيف لم أنتبه لتكرار دوار حديث العهد معه؟!

ولماذا يحدث كل هذا إن لم يكن مهملاً في تناول هذا العلاج الذي يخبئه عني؟!

ارتعبتُ وغضبتُ فكدتُ أتصل به بالأمس وأطلب حضوره فورًا كي يأتي لي ويدحض تلك المخاوف والشكوك ويخبرني أنه بخير وسيبقى بجانبي للأبد وحتى أفارقه أنا بالموت.. لكن لحظة تعقل أمرتْ بالانتظار وأجبرتني على محاولة التسلح بالصبر والصمت إلى أن يمر اليوم وألقاه أمامي خالص الحق لي فأتشرب منه كل الأمان الذي أحتاج.

وها قد جاء اليوم بعد الكثير من الأرق، واقترب موعد رجوعه بعد كثير من الاحتراق، فجلستُ أنتظره على الأريكة بصالة البيت وعيناي معلقة على الباب المغلق؛ أتلهف لأي صوتٍ أو حركة منه



ولم يحدث، فلم أطق صبر الانتظار أكثر وقمتُ أدخل المطبخ ألتهي بعمل أي شيءٍ فوقفتُ أُعد بعض العصائر الباردة لأحاول التشاغل عن متابعة الوقت الذي يدهسني أسفل بطء حركته. دقيقة وأخرى وسمعتُ صوت حركة الباب وفتحه ثم إغلاقه بهدوء فانتبهتْ كل حواسي وتعلقتْ عيني باتجاه الباب ولم أستطع التحرك إلى أن جاء هو. جاء يدلف إلى غرفتنا تلقائيًا لكن عندما لمح وقوفي الصامت وأنظاري المتعلقة به؛ بدل اتجاهه إليَّ ووجهه مزين بابتسامته الحبيبة التي لم أستطِع ردها له وأنا أنظر له بتأمل دامع مغموس بالخوف.

اقترب ومع اقترابه ظلتْ ابتسامته تخبو تدريجيًا وجبينه يُقطب حتى توقف أمامي وسأل مباشرةً وكفه تطوق وجنتي متأملاً بقلق:

-مالك في إيه؟!



لم أقدر على إصدار إجابة أو صياغة لوم، لم أستطِع سوى أن أريح يدي عند منتصف صدره ناظرة له؛ أستشعر دقات قلبه وأشكو له حزني منه وخوفي عليه.

-في إيه أنت كويسة؟.. انتوا كويسين؟!

أعاد نظري للقائه ويده ترفع وجهي إليه فانتشلتني نظرة عينه الصارخة بالقلق وهي تطوف بيني وبين طفله المستكين بداخلي، وصوته المتسائل بتشكك خائف نبهني لصمتي الغائب فأجبتُ على الفور؛ أبعد عن رأسه أي خوفٍ أثاره خوفي:

-احنا كويسين متخافش، متخافش.

ورغم جوابي المُطَمْئن ازدادتْ تقطيبة جبينه وانزواء عيناه بتأملٍ أعمق وبقى صامتًا لثوانٍ قبل أن يعيد بخفوتٍ سؤاله ويختصني وحدي به:



-براء.. في إيه؟! ..أنت كويسة؟

صمتُ لحظتين وأنا أتأمله بالمثل ثم أجبتُ ورددتُ عليه قلقه بذات السؤال:

-كويسة.. أنت كويس؟!

زوى حاجبيه باستغرابٍ لم ينقشع منه القلق وعيونه أعربتْ عن جهله الصادق لمقصدي؛ فلم أتحمل تحمل الغموض أكثر وأخرجتُ شريطي الدواء من جيب ردائي وأشهرتهم أمام عينيه ثم سألته مباشرةً بلومٍ واتهامٍ وكثيرٍ من الخوف:

-إيه دول يا ضياء هاه؟!.. إيه دول؟!

انفكتْ تقطيبته وجمدتْ تعبيرات وجهه وعينيه وهو ينظر لهم لثوانٍ ثم رجع بأنظاره لي وهزَّ رأسه بهدوء مدعيًّا الجهل:

-إيه دول؟



-ماتردش على سؤالي بسؤال.. من فضلك.

تنحنح وأخذهم من يدي ينظر لهم وهو يقلبهم بين يديه ويتأملهم بتركيزٍ كاذب رغم براعة تمثيله:

-احم.. ده علاج طنط تقريبًا.

سحقًا لمراوغته اللعينة التي لن تنطلي عليَّ وتزيد من ارتعاب لم أتحمله؛ فسألتُ بحنقٍ مغتاظ:

-وعلاج طنط بيعمل إيه في جيب بنطلونك؟!

-براء..

-أنت جالك الضغط؟!

صمتْ بلا رضا لثوانٍ طوال أتمتْ الدقيقة أو أكثر وقد عادتْ تقطيبته ونظرته ترسم الحنق وعدم الرضا قبل أن يعلق مستهينًا:

-ممكن ماتكبريش الموضوع.



لم أستطِع الاستماع أو مجاراة حديثه بل صرختُ دامعة بما ضرب رأسي وروحي وأشعل النيران في صدري:

-وطبعًا قولت لها هي وماقولتش ليَّ أنا، صح؟!

بالطبع.. فهي العاقلة القوية الرزينة التي ستتحمل وتساند وتخفف من ضغط تلك التي تسبب له الآلام!

صوته النافي بدفاعٍ وإصرارٍ قاطع ويداه التي حاوطتْ وجهي بقوة رغم لينها ودفئها وعيناه المقتحمة عيني بأمانها الدائم الذي أحتاج ولن ينتهي له احتياجي؛ قاطعوا صرخاتي الصامتة وأطفأوا بعضًا من نيران صدري:

-ماقولتش لحد، ماحدش يعرف حاجة وماحدش هيعرف.. دول شوية ضغط يا براء.. ماتكبريش الموضوع.

يأمرني بعدم تكبير الموضوع!



ألا يدري أنه بالفعل كبير وضخم كضخامة الغصة المرتعبة في حلقي الآن!

ألا يدري أنه كبير وعظيم بعظم تخيلات الفراق التي لا تحتمل والتي تحاربني منذ الأمس!

ألا يدري أن موتي عنه أهون!

تشبثتْ كفاي بقميصه وسلمتُ له أنظاري لتنجو بالغرق في مقلتيه، معترفة بالشق الأخير من ألمي بصوتٍ مختنق ورغبة مؤلمة في الاختباء داخله وإيقاف الزمن للأبد عند هذه اللحظة:

-ضياء أنا هموت لو جرالك حاجة. أنت لا.. أنت لا عشان خطري.. إلا أنت.

لحظة خاطفة انزوى فيها حاجباه ثم انفكا سريعًا وتعلقتْ عيناه بي طويلاً وظلتْ تطوف بين عيني قبل أن ينحني في عناقٍ متشبث



ويخبئ رأسي عند قلبه ورأسه عند عنقي مغمغمًا بكلماتٍ مطمئنة مصحوبة بلفظة عشق.

-أنت تعبت لما أنا زعلتك صح، صح؟

ابتعد وعيناه تحتوي ألم عيني وأصابعه تمسح دمعات سقطتْ سهوًا عندما كنتّ ساكنة أحضانه وهز رأسه نافيًا، ثم عادتْ يداه تحاوطني وتعيدني لأحضانه فاستكنتُ ثوانٍ قبل أن يضربني إدراك مباغت نبهَني لبقية كلماته السابقة؛ فابتعدتُ برأسي عنه ونظرتُ له بصدمة مستفسرة باستنكار:

-يعني إيه ماحدش يعرف؟!.. يعني طنط وعمو مايعرفوش؟!

نفى وأكد بنبرة تحذير هادئ وعيون مصممة:

-مايعرفوش ومش هيعرفوا، مفهوم؟

-مافيش حاجة اسمها مش هيعرفوا!



رفضت باعتراضٍ حانق رده لي على الفور بجبينٍ مقطب:

-براء، قولت أنا كويس.. مافيش داعي نقلقهم على الفاضي.

لم أصدق هذا الإصرار المستهتر الذي يكتنفه فعِدت ورائه بلا تصديقٍ هامس وعيونٍ اتسعتْ برفض:

-نقلقهم على الفاضي!

-براء.. من فضلك اللي بقوله يتسمع.

هو يقول هراء والهراء لا يُسمع.. هو يستهين بما لا يحق له الاستهانة به.. هو يستهين بخوفي من فراقه!

فبغضبٍ معجون بالرعب وإصرارٍ مماثل لإصراره:

-لالا.. أنت لو رحت مني أو بعدت عني أنا هموت.. ماينفعش، أنا مش هسمح لك وهقول لهم كلهم.



قطب جبينه وارتفع حاجبه فردتُ تقطيبته بأخرى أشد وأشرس وأصدق، وبقينا هكذا لحظاتٍ حتى انفك وجهه وابتسم تلك البسمة المتلاعبة هامسًا باقترابٍ خبيث:

-على فكرة أنت خدتيني في الكلام وماقولتلكيش إنك وحشاني.

أربكني تبدل نبرته وطويه للموضوع، وأربكني احتضانه الغير بريء على الإطلاق، وأربكتني قبلته المباغتة التي كادتْ تشتت خوفي وتنسيني غضبي؛ فانسللتُ أخرج من حصاره وابتعدتُ عن مداره الذي لا حيلة لي سوى الدوران حوله:

-على فكرة مش هتضحك عليَّ.

-على فكرة مش بضحك عليكِ، أنت وحشاني فعلاً.

تبعني يخطف كفي وهو يعلق مدافعًا بضحكة خفيضة ونصف احتضان حاولتُ تجاهل أثره ونظرتُ له لائمة ثم همستُ بصدقٍ:



-أنا زعلانة منك.

-متزعليش، حقك عليَّ..

باسمة، مضوية، رائقة، وإصبعه يمسد وجنتي بحنانٍ محتل قالها، ثم بدأ العزف بذات النغمة المذيبة على أوتار عشقٍ بات الخرس في حضرته مستحيلاً، وبات تعلمه وإتقان التعبير عنه فرض عين، لا مناص من حفظ قواعده الخاصة التي يرسمها داخل الروح وعلى جدران الخافق وبين ذرات الكيان..

هذا الهوى الذي فيه يعيد مفهوم الاحتضان، وصياغة التقبيل، وتشكيل اللمسات.

يخلق مفرداتًا خاصة لأحاديث عشقٍ رُسمتْ أبجدية حروفه من أنفاسه.

يهدم لغة القرب ويشيد أخرى..



أكثر دفئًا، أكثر روية ونعومةً، أكثر اقتحامًا وتفصيلاً، وأكثر قربًا..

ليسطر الجواب على صفحة روحي بإمضاء حروف لغته الخاصة..

أنه لم يكن يومًا عابر سبيل..

بل هو السماء التي تحتوي تحت مظلتها كل السبل.

**



ضياء

هناك لحظات يقف عندها المرء ويتساءل..

كيف كانت تسير الحياة قبل تلك الحظات!

كيف كان يحيىٰ ويتنفس دون أن يرتوي صدره بهذه الأنفاس!

كيف تحمل أن يُحرَم من أنفاس العشق وزاد الهوى!

كيف تحملتُ أن أُحرَم من عشقها وهواها؟!

كيف لها أن تخبئ مياه عشقها عني طوال تلك السنوات وأنا الظمآن لعذب هواها.. وكيف طاوعها قلبها بحرماني منها بعدما أذاقتني سابقًا قطراتٍ شحيحة من جود أنهارها؟!

كيف لها أن تودني الجحيم بعدما أسكنتني جنتها؟!



كيف أن أترنح بترنحها، فأقف على حافة الكفر بشعائر عشقها وأنا المفطور على هواها؟!

وكيف لها أن تحرمني من تلك اللوحة البهية بين يدي؟!

ساكنة، متشبثة، يستقر كفها الصغير أسفل وجنتي وتنظر لي بهذه النظرة المتأملة بشرودٍ والتي لم أشبع بعد من التيه فيها ولن يحدث على الأغلب.

زدتُ من ضمها أشتتُ شرودها ثم أخرجتها من صمتها باستفسارٍ مشاغب ونية صادقة على المزيد من التواقح:

-هو فاضل قد إيه على معاد الدكتورة؟

زوتْ حاجبيها وضمتْ شفتيها وهي تنسل مبتعدة من ضمتي ضاحكة:



-على فكرة أنا زهقت.. أنا هموت واعرف نوعه بجد، كدا مش معقول!

جنحتْ بحنقها لأمل كل متابعة طبية بمعرفة نوع هذا المتلصص بداخلها، والذي يُسقط خيبته فوق رأسنا بسماجة كل مرة؛ عندما يولي لنا ظهره بتحدٍ لا أعلم سببه أو هدفه، فيتركنا جهلة لجنسه إلى الآن وهي التي شارفتْ على الولادة!

علقتُ على أمالها السابقة بوجه وسؤالٍ حانق:

-أنت بتكلميني أنا ليه!.. كلميه هو.

عادتْ لأحضاني وتوسدتْ كتفي برأسها ثم علقتْ ببعض الشرود:

-تؤ مش هو؛ أنا حاسة إنها بنت وبتدلع علينا.. أنا عوزاها بنت.

ارتفعتْ برأسها تنظر لي وضربتْ بسبابتها طرف أنفي بخفة مداعبة:



-تخيل تبقى أبو البنات.

تخيل غير مريح على الإطلاق انزوى له حاجباي بغير رضا.. فالتعامل مع أربع إناث بكافة تعقيداتهم ورمي مسؤولياتهن على رجل وحيد بلا مساعدة ذكورية ولو معنوية أمرٌ غير منصف أبدًا..

نظرتُ لها بذات التعبيرات الرافضة معربًا عن اعتراضي:

-إيه ده لا طبعًا.. دي تناحة واد، وواد رخم كمان.

تحولتْ نظرتها لاستخفافٍ مستهين وهي تحرك رأسها فوق كتفي ببطء يمينًا ويسارًا؛ متحدية بنبرة ممطوطة، بطيئة، منغمة:

-أنا عوزاها بنت.

رديتُ عليها تحديها بآخر بذات الطريقة الممطوطة البطيئة وزدتُ عليهم ابتسامة مستمتعة واسعة لم أستطع كتمها:

-وأنا عاوزه ولد.



-أيوة بس أنا نفسي في بنت أوي..

اشتعل اعتراضها بطفولية بغتة فتعمقتْ بسمتي واجتاحني دفءٌ يزاحم الاستمتاع وأنا أسبح في زرقة مقلتيها بحرية معترفًا لنفسي صراحةً قبلها.. هي لا تليق أن تكون أمًا لفتاة وهذا مفروغٌ منه.. فأنا لن أتحمل أن أترك طفلتي لينة الشكيمة هشة التكوين في هذه الغابة بجانب هشاشة أمها!

-أنت ماينفعش تجيبي بنات يا براء..

تحركتْ بسرعة تضغط بحدة بمرفقها على منتصف صدري ولم تبالي بآهات تألمي التي امتزجتْ قصرًا بضحكاتٍ منفلتة وهي تتساءل باستنكارٍ وعيونٍ مهددة:

-نعم! ليه بقى إن شاء الله؟!

أجبتُ بهدوءٍ مبتسمًا مستمتعًا بالشرر التي يتطاير من عينيها:



-مش هتعرفي ولا هتقدري على تربية البنات.

استقبلتها وكأنها سُبة واتسعتْ عيناها بحنقٍ مستهزئ وسؤالٍ مستخفٍ مشتعل:

-يا سلام!.. والهانم بقى هي اللي تعرف وتقدر مش كدة!

نعم.. ومحظوظٌ أنا إن فَعَلَتْ؛ أن تأخذ من قوتها وثباتها قدر ما تأخذ من نعومتها ولينها فأستطيع التمتع بقليلٍ من الاطمئنان عليها.. الاطمئنان الذي تحرمه عليّ أمها بحربٍ قربتُ على الضجر والاكتفاء منها منهكًا!

أبعدتها عن رأسي الآن متناسيًا وعدتُ بنظري وروحي للمشتعلة بين ذراعي أكمل بخفوتٍ وشرود:

-وكمان أنت ماينفعش تتسابي لوحدك أبدًا من غير راجل في ضهرك.



وهذا الشق الأكثر إلحاحًا وخوفًا، والهدف الأول والأخير..

-مش هبقى متطمن عليك.

انطفأ اشتعالها واستكانتْ وعادتْ تتوسد صدري بذقنها وتشرد في عيني وتأسرهما بالنظرة والنبرة الخافتة بغمغمتها الشاردة:

-أنت موجود.

ثم أخذتْ نفسًا عميقًا بطيئًا تلاه تعقيبها الهامس، ودمعاتٍ رقيقة التمعتْ بعينيها:

-أنت ديمًا هتفضل موجود.

واثقة، قاطعة، مقررة بلا أي استعدادٍ لنقاشٍ أو تقبل جدال!

وصدقًا لم يصيبني هذا سوى مزيدٍ من القلق والخوف!

قاطعتْ تواصل أعيننا لحظات وهي تحط كفها على بطنها المنتفخة وتعدل رقدتها وهي تستند بالآخر على صدري واقتربتْ



بوجهها مني أكثر، ثم اتسعتْ ابتسامتها والتمعتْ الدموع بمقلتيها أكثر قبل أن تسأل بنبرة دلال مهلك:

-اعترف لك بحاجة؟

وافقتها بهزة رأسٍ وكلمة مشجعة لا أدري لما حبس صوتي فيها وبح بغتة:

-قولي.

بقتْ عيناها تطوف ببطءٍ شارد على وجهي وصمتتْ طويلاً حتى شككتُ أنها غيرت رأيها وقررتْ الجنوح لتخبئة اعترافها الذي اشتعل قلبي فضولاً لمعرفته، لكنها قاطعتْ حريقه بكلماتها الهامسة وعيونها تستقر وترسو داخل عيوني:

-لو كل اللي حصل زمان كان هو تمن إنك تكون معايا دلوقتي؛ أنا راضية..



لو كل اللي حصل حصل بس عشان ابقى معاك واحبك؛ أنا راضية..

لو كل اللي حصل حصل عشان أبقى بتاعتك؛ أنا راضية.

كلماتها أصابتْ روحي بالخدر وقلبي بالحمُّة وأغرقتْ العقل في شلل غير مستوعب لمعنى هذا الحديث!

عمّ داخلي كثير من الصمت امتزج بالكثير من الضجيج ودقات قلبي تتقافز بعنف وصل لأن يكون مؤلمًا، حُبست أنفاسي وخشتْ التحرر فتنثر غبار هذا الحلم فيختفي.. بينما عيوني فقدتْ قدرة النظر لغير عينيها وتعلقتْ بها بانشداهٍ دهش!

ماذا تعني براضية، وكيف صاغت هذه الكلمات وماذا تقصد بهم ؟!



أجابتهم على الفور بكلمةٍ خافتةٍ أتمتْ بها حديثها وأتمتْ بها تحرير روحي وأسرها:

-بحبك.

ثم دنتْ منها ضحكة خافتة مبتورة تلاه سؤالها مدلل النبرة:

-بتحبني؟

سقطتْ عيناي لشفتيها الهامسة بسؤال إجابته محفورة بأنفاسي ولا تكفيها الكلمات:

-تؤ..

ولم أنتظر لرؤية أثرها على وجهها وأعربتُ مصححًا:

-بعشقك.

اقتربتُ أتنفس قربها وأشبع صدري من رحيقها مسترجعًا ومحللاً حروف اعترافها:



-بعشقك بعدد كل ثانية اتعذبت فيها بيك من أول مرة شفتك لدلوقتي.

بعشقك يا براء وعمري ما اتمنيت حاجة زي ما اتمنيتك.. بعشقك.

وكدتُ أغرق من جديد مأخوذًا بسحر كلماتها السابقة التي لم أستطع فك شفرتها كاملة للآن لولا مقاطعتها المتملصة وابتعادها المفاجئ:

-صحيح.. أنا كنت عملا لك مفاجأة ونَسِيتها لي، تعالى.. تعالى..

-طيب.

خرجتْ وهي تسحب كفي بنشاطٍ وسرعة منافين لتكاسلي وتباطؤي المقصود لإثارة غيظها الذي صرختْ معالم وجهها به



بالفعل، حتى وصلنا إلى غرفة الصغير التي منعتْ عليَّ قبلاً دلوفها وفتحتْ بابها بمسرحية ثم أوقفتنا عند منتصفها الفارغ متسائلة بحماس:

-إيه رأيك؟

نظرتُ باستغرابٍ ضاحك للجدران الخضراء:

-إيه ده!

صرحتْ وهي تميل بجانب كتفها وعيونها تلمع بشقاوة:

-أخضر.. مش الأخضر بيحسن نفسية البيبي!

انفلتتْ ضحكة مبتهجة وقاسمتني إياها وهي تقترب وتنحشر بأحضاني التي استقبلتها مهللة ثم صرحتْ بابتسامةٍ ساهمة:

-كنت بعملها الأيام اللي فاتت وأنت مش موجود كل ما أحس إن أنا خايفة..



ثم رجعتْ ابتسامتها للاتساع وصوتها للدلال:

-لحد ما خلصتها وقولت هعملها لك مفاجأة.

فعلتها، حديثها، ابتهاجها.. لم ينثروا بداخلي الدفء فقط بل أغرقوني به حتى تمنيتُ الموت فيه، ولكن أيضًا ذكروني بذاك القرار الذي كنتُ على وشك إبلاغها به اليوم وأنستني إياه باكتشافها المربك لسقطة نسياني ذاك الدواء اللعين!

تنحنحتُ أرتب الكلمات برأسي قبل أن ألقيها على مسامعها؛ محاولاً قدر الإمكان عدم إشعال غضبها:

-حلوة أوي.. بس..

-بس إيه ماعجبكش؟!

-بالعكس ده جميل أوي.. أنا بس في موضوع كنت عايز اكلمك فيه ومأجله.



ابتعدتْ وتخصرتْ ونظرتْ لي بحذرٍ متسائل:

-موضوع إيه؟

-احنا هننقل من البيت هنا..

زوت حاجبيها وضيقتْ عينيها بلا تعليقٍ فأكملتُ مضطرًا بهدوء:

-أنا أخدت بيت لينا كلنا، عشان الولاد يكونوا مع بعض..

قاطعتني وهي تغمض عينيها وتهز رأسها بسرعة نافية وبصوتٍ مشتعل:

-يعني إيه مش فاهمة؟!

-براء..

لم أكد أكمل عبارة إقناعٍ أو بقية تفسير وأعادتْ مقاطعتها بصراخٍ قاطع وعيونٍ مهددة، ولولا جدية وأهمية الحديث لكنتُ انفجرتُ ضاحكًا باستمتاعٍ مغيظ:



-أنا مش هسيب بيتي.

اقتربتُ أحاوط ثورتها بذراعي مهادنًا:

-ده كمان هيكون بيتك.

نفضتْ ذراعي بيدها وهي تصرخ بحنق:

-آه، بيتي اللي الهانم طبقة على نفسي فيه مش كدة!

-أكيد لا طبعًا، أنت هتكوني في بيتك وهي هتكون في بيتها..

أوقفني إمساكها أطراف قميصي بكفيها وهي تحملق فيّ بتهديدٍ وسؤالٍ صارخ:

-ليه هو أنت خيالك جابك كمان إننا ممكن نقعد في شقة واحدة!.. ليه عايزني اختنق واخلص منك يا ضياء!

وهذه المرة لم أستطِع كتم ضحكاتي التي صدحتْ مبتهجة ممتنة وأخذتْ أخبئها مجددّا بأحضاني رغم رفضها المحتج، ثم أمسكتُ



ذقنها أواجه عينيها المشتعلة بابتسامةٍ واسعةٍ وأنا أغرق في بحرهما الهائج:

-مش ههون عليك.

صمتتْ وصمتتْ ثورتها وارتفع موج الحزن بعينيها ثم اكتستْ نظرتها وصوتها برجاءٍ يائس:

-مش هي عايزة تسيبك.. مش هي عايزة تطلق ما تطلقها!

كلماتها الراجية أججتْ الرفض المتحفز داخلي فعلقتُ محذرًا أمنع خوضها في دربٍ مغلق:

-براء..

لم تتوقف ولم تستمع وازداد إصرارها وارتجافة صوتها:

-اعمل لها اللي هي عوزاه وخليها تبعد وخلينا احنا مع بعض.. ارجع لي لوحدي يا ضياء.



وددتُ إخبارها أن هذه الكلمات تحديدًا أتت متأخرةً للغاية وأضحتْ في عداد المستحيل، لكني بدلاً من ذلك أوقفتُ إكمال كلماتها رافضًا المزيد بأمرٍ حازم:

-براء الموضوع ده مالكيش دعوة بيه وماتفتحيهوش تاني.. مفهوم!

زمت شفتيها بغضبٍ وصمتتْ لثوانٍ ثم صرختْ متحدية:

-أنا مش هسيب بيتي يا ضياء.

حاولتْ الفرار ومنعتُ فرارها محتفظًا بها داخلي ونحن نتبادل النظرات المشتعلة حتى غلبني رفقي عليها فقررتُ إغلاق الموضوع مؤقتًا، وبقيتُ أتأملها في ردائها الرمادي المخبئ انتفاخة بطنها ببلوزتها عريضة الأكتاف وسحابها الطويل والغير محكم الإغلاق والملتسق ببنطاله الواسع، أو اختصارًا الـ"چامبسوت"، وقررتُ مناكفتها قليلاً:



-طب ما قولتليش بردو فاضل كتير على معاد الدكتورة؟

-فاضل زفت تروح تغير هدومك عشان نتنيل نشوف ابنك.

دفعتني بيديها وهي تقولها بحنقٍ ثم تركتني وابتعدتْ بثقلٍ وغضبٍ وتصميم، واختطفتْ كعادتها دقة متيمة خائفة ومبتهجة من قلبٍ لا خيار له سوى هواها!

وبقيتُ واقفًا شاردًا في أثر رحيلها أتساءل.. هل حقًا تخلصتُ وتخلصتْ من سنين العشق العجاف وانتهى القحل؟!

أم أن لازال في الجفاء باقي؟!

وإن كان انتهى معها العذاب، فمتى ينتهي باقيه مع من كانت تعزف بوجودها أنشودة الارتياح؟!

متى تنتهي كل الحروب وترفرف على كل أرضي رايات السلام؟!

*



متى تتحول ساحة خضراء نضرة بالحياة لمعترك حرب دموية؟!

عندما يُهدَد السلام بالرحيل أو يركض ملَّوِحًا بكفوف الفقد!

عندما تتبدد الطمأنينة من صدرٍ موحش ويتشبع برذاذات الخوف!

عندما تَدهَس أقدام الاختلال أرض النجاة.. تُشن الحروب من محراب السكينة وتُسل السيوف من غمد الاحتياج!

تُمحى النغمات الناعمة من على طروف الشفاه، وتعتلي عروشها صدا قرعِ مرعب لطبلٍ وحشي!

تُكسر أغصان الزيتون ويُعصر أسفل الأقدام بأسفٍ ولا ندم!

يُسن الغصن الخيِّر رمحًا طاعنًا ويغرس في منتصف صدر الرأفة!



ففي شرعِ مقاتل مقتْ القتال.. عندما يهدد السلام بالرحيل، فالحرب كلها تُلخص في معركةٍ واحدةٍ فيها كل الأسلحة مباحة.. حتى يعيد امتلاك الروح، أو يعلن قضاء النخب ويصمتْ للأبد!

أربعة أشهر مرتْ وهي رابضة بضراوة على ذات الكلمة المقيتة الآمرة بفراق!

مرا اثنتان منهم بترديدها قاطعة هادئة مرفوضة مني بذات الهدوء القاطع؛ في تأهبٍ شبه صامت من كلينا؛ خوفًا على من تقف بالمنتصف داخلها ولن تتحمل صرير احتدام سيوف العناد بيننا!

وثالث.. ترنحنا فيه على الحافة بين الإحجام عن نهمنا للاشتباك وأخذ هدنة إجبارية، وبين الإقدام على انتزاع حقوقٍ متعارضة!

إلى منتصفه.. الذي اشتعل فيه التحدي واندلع الغضب بلا سابق إنذار؛ عندما أعلَنَتْ تصميمها على عدم ذهابي معها في زيارتها الدورية لطبيبتها النسائية لرؤية طفلتي ومعرفة جنسها آنذاك؛



ظنًا -مختلاً- منها بقبولي حرماني من لحظة تمنيتها عمرًا حتى حسبتُ حدوثها معجزةً لن تحدث!

لحظة انسل من جمودها ضعف وهي تشبك أصابعها بأصابعي، وتَفكك تجهم وجهي ببسمةٍ متلهفة فتعانقتْ العيون بانشداه مبتهج!

لحظة تبخرتْ فجأة كما حضرتْ فجأة وانفك سحر الهدنة!

ثم رابع هو الآن.. الموافق شهرها الخامس من نمو طفلتي داخلها، والذي فيه تحولتْ المناوشات الصامتة بيننا إلى استعدادٍ صارخ لبدأ غارات قتالنا..

فالإصرار أصبح محمومًا منها، والرفض بات متأججًا مني رغم محاولاتي لتمسكي ببقايا الصبر والهدوء داخلي، والذي وبكل صدق يمكن أن أعلن الآن أنهم انتهوا وتلاشوا!



بعدما جفَّ الصبر، وانفرط عقد الهدوء، وأُنهكتُ من القتال الصامت، واستعر اشتياقي لسكون رأسي على كتفها بعد اكتفائي من ارتشاف عذب وجودها الغائب!

بعدما اكتفيتُ من بعادها وهذيانها الذي تحملتهم وتقبلتهم كعقابٍ كان مستحق وأصبح مبالغ فيه.

أنهيتُ ساعات العمل التي أصبحتْ مؤخرًا ثقيلة على نفسي ثم اتجهتُ إليها وأنا أحمل معي قرارًا أُحَضِر له منذ شهور وأعلم أن سيتبعه انفجار محتم ولن أهتم، بل على العكس أنتظره متلهفًا لينتهي بعده كل هذا الجفاء.

وكعادتها مؤخرًا تنزوي بالشرفة قرب قدومي بإعلانٍ صريحٍ صامت لرفضها حتى رؤيتي، كما رفضها النوم بغرفتنا أثناء وجودي واختبائها بغرفة أبيها القديمة، مُغلِقة عليها محرابها المحرم عليَّ تخطيه!



بحثتُ بهدوءٍ صامت عنها ووجدتها عند وجهة بحثي الأولى.. جالسة بالشرفة، ساكنة بكفها على بطنها الصغيرة التي بدأتْ في الانتفاخ البسيط وتختبئ أسفل بنطال ناعم أسود شبه واسع وطويل، وبلوزة عارية الصدر والأكتاف إلا من شريطين رفيعين وسخيفين؛ ينتهوا عند منتصف ظهرها الشبه عارٍ والذي يحجبه شعرها المسترسل بهدوء فوقه، ولونها الأسود المناقض لبياض بشرتها ورائها يستفز النظر ويأسره وكأنه يبرزها للأعين المتلصصةِ أكثر!

هيئة تتناسب مع حرارة الجو الخانق ولا تتناسب أبدًا مع جلوسها في شرفة مفتوحة بجانب شرودها عن العالم كعادتها مؤخرًا!

هيئة مستفزة حرضتني على ضرب رأسها بالحائط ورائها لجلوسها هنا بهذا الشكل، ثم النهل من رحيق حسنها حد التخمة وسجن بقاياه داخلي للأبد. اقتربتُ أُغلق الستائر بحدة حانقة انتفضتْ



لها منتبهة وهي تتشبث وتزيد من ضمتها لبطنها، ثم أغلقتْ عيونها وهي تعيد ترتيب أنفاسها وأنا آمرها بالدلوف للداخل بنبرة ونظرة متوعدة تجاهلتهم ببرودٍ وهي تستقيم وتذهب بالفعل!

تبعتها وبكافة الغضب الذي يستعر داخلي أمسكتُ كتفها وأدرتها لي بهياجٍ صارخ:

-أنا عايز افهم أنت ازاي تقعدي برا بالمنظر ده!

-مالكش دعوة.

ببرود حانق قالتها وهي تبعد أنظارها عني، فأمسكتُ كتفها الآخر أقربها بغضبٍ مضاعف وأحذرها بصدقٍ خافتْ:

-تيا ماتستفزنيش.. ماتستفزنيش أحسن لك.

تملصتْ من كفاي وابتعدتْ بصمتٍ ودون تعليق فأوقفتها قبل أن تتمم اختفائها:



-على فكرة.. اعملي حسابك إننا هننقل من هنا لبيت تاني قريب.. قبل ولادتك.

استدارتْ تنظر لي بعيونٍ متسعة وفم فاغر:

-إيه؟!

-هنمشي من هنا.. هننقل احنا الثلاثة بيت خاص بينا، هتبقي في شقة لوحدك وهي لوحدها بس ولادي مش هيبقوا بعيد عن بعض..

ظل اتساع عيونها يزداد مع كلماتي الهادئة الخالية من أي تزينٍ أو استعدادِ نقاش، ولم أرتكن لانشداهها الصامت وأنا أستطرد رافعًا راية الاستسلام ومعترفًا بهزيمة محاولاتي أمام تحمل احتراق خلياي وتمزق أعصابي بينهما:

-وعشان أنا مش هفضل عايش كدة.



بقتْ صامته لثوانٍ دون أن تتغير نظرتها، ثم بدأتْ في هز رأسها سريعًا:

-أيوة صح، ما تخافش.. أنت مش هتفضل عايش كدة لإنك مش هتخش البيت ده تاني أصلاً.

مش هتفضل عايش كدة عشان أنت هتفضل عايش معاها على طول.

مش هتفضل عايش كدة عشان أنت هتطلقني يا ضيا.

صرختها الأخيرة خرجتْ شرسة مصممة وامتزجتْ مع عيونها الغاضبة؛ فسقطتْ عيوني بقلقٍ تلقائيٍ على بطنها المختبئة وراء كفها ثم حدجتها بنظرةٍ ونبرةٍ حذرةٍ محذرة:

-بلاش زعيق وصوت عالي.



استجابتْ بوجهٍ مشتعل وأسنان بان ضغطها عليهم جليًا، ثم أغمضتْ عيونها وهي تتنفس بعمقٍ عدة مرات قبل أن تطلق كلماتها كقذيفة ضُبطتْ فوهتها على هدفٍ واحد لن تتوقف أو تتراجع قبل إتمام هدمه:

-طلقني يا ضيا.

نظرتُ لها صامتًا بضيقٍ قبل أن تنزوي عيناي بملل:

-هو أنت مازهقتيش، ماتعبتيش!

أجابتْ بكلماتٍ خفيضة تشدقتْ بها مأكدة على التخلص مني واتحدتْ مع أصابعها المضمومة على بعضها وهي تضغط منتصف صدري بآليةٍ مع كل كلمة وكأنها تحفرها داخله:

-لا مازهقتش وماتعبتش، أنا تعبت منك أنت ومن أنانيتك، وهخلص منك ومش هفضل على ذمتك أكتر من كدة..



طلقني يا ضيا.

استفزني هدوءها ويقينها؛ فأمسكتُ يدها وسحبتها لصدري وأنا أغمغم مستشعرًا ملاسة جيدها ومستنشقًا عبيرها الناعم؛ سامحًا له بالعبور لصدري المهجور منه وافتراشه بتوق وحافرًا أنفاسي وكلماتي بخلاياها بالمثل:

-مافيش طلاق. مش هتبعدي عني. مش هتخلصي مني غير وأنت أرملة يا تيا، فاهمة!

عند ختام حديثي ارتجفتْ وشاب تعليقها ارتعاشةِ يأس رغم يدها التي ظلتْ تبعدني بإصرارٍ ويدي التي بقتٍ تقربها بذات الإصرار؛ دون استسلام كلينا:

-أرحمني بقى وأبعد عني.. أنت عايز مني إيه؟!



بإقرارٍ حانق وكفي تحرر ظهرها وتطوق وجنتها بدلاً منه لتثبتْ عينيها على خاصتي وتفصح لها عن الإجابة:

-مش عايزك تسيبيني.

-ليه؟!.. ليه ليه ليه ليه؟!.. ما هي معاك..

أمسكتْ قميصي وهي تهزه مع كل صراخ متسائل، وعيونها التي تراقص فيها الألم بجنونٍ مرتْ على روحي كسكينٍ حاد شقها ببطء وأسال منها جميع صنوف الوجع، بينما صرختها الأخيرة هزمتْ تظاهري بالثبات ومحاولات تمسكي بهدوءٍ مهترئ فبادلتها الصراخ:

-مالكيش دعوة بيها.. ماتحشريهاش بينا.



فَصَمَّتْ اقترابنا وهتافي بضربة يدها لصدري بعنفٍ مباغتْ أبعدني بالفعل وعيونها تتوهج بشراسة مغلفة برقراق ألم، بينما صوتها عاد لهدوئه المعتاد رغم اكتساءه بقوة منتقمة:

-مش أنا.. مش أنا اللي حشرتها.. مش أنا اللي كسرت فرحتي ببنتي وقولت لك ماتجيش.. مش أنا اللي جيت وعيطت على حبها اللي مش عارفة تنساه قدامي.. مش أنا اللي اتصلت أحب فيها وأنا في حضنك وكنت ملهوف وهتجنن عشان أروح لها ومش عارف وكأني كنت مكتفاك جمبي غصب. مش أنا.. مش أنا.

مع بدأ كلماتها كنت على استعداد للاعتذار حانقًا للمرة المئة ثم الإصرار على الانتهاء وطوي هذه السقطة..

كنتُ على استعدادٍ للدفاع غاضبًا، وإصدار أمرٍ بكفها عن اصطياد أخطاء لم تحدث سوى لمامًا مع وعدٍ بعدم حدوثها من جديد..



كنتُ على استعدادٍ للوقوف أمامها ومبادلتها الهجوم بآخر بشراسة محارب يعترف بكل ذلاته ودرس كل ثغرات ضعفه، وعلى أتم استعداد لمحوها وسدها..

كنتُ على استعدادٍ للكثير ولكن تلك الأخيرة رطمتْ كل استعداداتي بأرضٍ خاوية من أي تبريراتٍ وتركتهم يصارعوا برودة المفاجأة التي سقطوا عليها بغتة وكانت الوحيدة خارق بوتقة استعداي!

هي كانت نائمة وأنا كنتُ خارج نطاق احتمال الألم والوجل آنذاك.. خارج نطاق أي منطق أو تفكير عقلاني أو قدرة مراعاة لاحتمالاتٍ غير واضحة!

وهي لم تكُن واعية ولم تصدر أي إشارة استماعٍ أو رفض مثلما كانت تفعل ولازالتْ تفعل!

-إيه ؟!.. مصدوم ليه ؟!



لا ماكنتش نايمة يا ضيا، وسمعت كل حرف وكل نفس وحفرتهم جوايا عشان ماسمحش لنفسي تتوهم بيك تاني بعد كدا..

قاطع حديثها المختنق باللوم ودموعها التي بدأتْ في الهطول قرصات دهشتي وسقطوا عليه كمطرقة تأكد بالألم اقتراف جرمًا جديدًا!

-ماكنش قصدي، ماكنش قصدي.. صدقيني..

حاولتُ الدفاع واستراق بعض اللين من عينيها التي جنحتْ لصلابة اللوم الصافي بلا شائبة أي شفقة أو تفهم، وصَمَّتْ آذان قلبها عن سماع مناجاتِ روحي الآملة في بعضٍ من الرفق:

-تيا أنا كنت متلخبط وخايف ومش عارف اعمل إيه!



لم يهتز في ثباتها إنشًا ولم ينفلتْ من مقلتيها تراخٍ وبقتْ متحصنة بالبعد؛ فاقتربتُ أقطع تلك المسافة البغيضة بيننا أُحاصرها بأحضاني وأمسح جريان دموعها البطيء متسلحًا بوعدٍ وقسم:

-مافيش أي حاجة من اللي حصلت دي هتحصل تاني.. أقسم بالله مش هتحصل، أوعدك.

كنتُ أعد مدفوعًا بعظيم الصدق والإجهاد، وكانت تكابر معصوبة التفكير والشعور بكِبر جُرحها:

-مش هتحصل تاني عشان أنا مش هبقى موجودة أصلاً..

مش هتحصل تاني عشان أنت مش هتبقى غير معاها هي..

طلقني يا ضيا.. طلقني.

كررتها بصراخ مهتاج اهتاج معه خوفي فحذرتها بخفوتٍ مغتاظ وعيونٍ متسعة وأنا أتحسس موضع سُكناها بقلقٍ واعتذار:



-كفاية صريخ عشان البنت.

-لو خايف عليها بجد طلقني.

تساومني بالخوف ولا تدري أن لا عدوًا لي الآن سواه!

اللعنة عليها وعلى ابتزازها الطفولي الأحمق.

-مش هيحصل. مش هيحصل.

-ليه!!

طوقتُ بيدي خصرها أمنعها من الفرار ثم خبأتُ وجهي بين خيوط شعرها؛ معترفًا باستسلامٍ مغلق العينين:

-مش هعرف أبعد، مش هعرف اعيش من غيرك.

-كنت عايش.. أنت كنت عايش عادي من غيري يا ضيا، وهتعرف تعيش عادي بردو من غيري بعد كدا..



نظرتْ لي بفراغٍ تائه وهي تحاول أن تبتعد ولن أسمح لها بابتعادٍ آخر:

-هي هتخليك تعرف، هي بتحبك وأنت بتحبها وهيبقى بينكم طفل.. أنا دخلي إيه بينكم؟!

وماذا عما بيننا نحن!

ألا توجد بيننا الآن روح مشتركة!

ألا يوجد بيننا لحظات تعلق وأُنس طوال لا يمكن حصرهم، وإجحافٌ منها إن قررتْ إيقاف ميلاد دفء غيرهم بطيش ألمٍ عابر!

ألا يوجد بيننا حُبٍ تغنتْ به مرارًا، واحتياجٍ مرتبط بوجودها أعترف به صراحةً!

-هتنساني، والله هتنساني.



بقتْ تثني احتضاني بكفيها وقسمها المُأَمِل الذي لا تعلم أني لا أطمح له من الأساس!

نظرتُ لها بنقمةٍ غاصبة وأنا أعترض بحدة بادلتني إياها بتحدٍ وغضبًا أكبر:

-أنا مش عايز أنساكِ.

-أنا عايزة أنساك.

أجادتْ استفزاز القلق والرفض فحازتْ على التحدي بتجبر وثقة أقرب للصلف لقنتهما لنفسي قبلها:

-أنا مش هسمح لك تنسيني، أنت مش هتعرفي أصلاً تنسيني.

ثم احتجزتْ كفاي وجهها وعيناي ثَبُتَت على خاصتها؛ أذكرها بهذا الرابط الذي خلق بيننا ولن ينفصم أبدًا:

-أنتِ جواكِ حتة مني.



أغمضتْ عينيها تحجبهما عن عيني وترفض ذاك الوصال بينهم؛ فانعطفتُ إلى شفتيها المضمومة بارتعاشتها الواهنة التي تدعو لتسكين شتاتها؛ اقتربتُ لتلفحني أنفاسها الدافئة وتبعثر غبار الخصام، هامسًا بخفوتٍ قبل أن أحتضنهما بقبلة مشتاقة:

-أنتِ نفسِك حتة مني.

سكنتْ لثوانٍ وهدأتْ لسكونها أنفاسي المتلاطمة حتى تأملتُ للحظات في خبو عاصفة غضبها.. لكنها انتفضتْ وعادتْ لابتعادها مشككة بوهن دامع وكأنها تحارب سلام التصديق وتصر على تكذيبي والإنكار:

-لا، لا دي براء، ماتكدبش.. لكن أنا حاجة زيادة في حياتك، ماتكدبش.

-أنا حياتي من غيرك مابقتش تنفع، أفهمي بقى.



ابتعدتْ خطوة تبعتها بأخرى وأعلنتْ برفضٍ تنفض به عنها رداء التسليم الذي لبسته لوهلة:

-وأنا مش هكمل حياتي معاك.. أنا مش هكمل وادوس على قلبي وكرامتي أكتر من كدا عشان حب قابله بالرأفة والإحسان!

عن أي رأفة وإحسانٍ تتحدث تلك المخبولة!

ألا ترى من يتشبث ومن يحارب للتخلي!

ثم عن أي حبٍ تتشدق بالحديث عنه!

أين الحب في إصرارها المحموم على الانشقاق عني وأنا مفترض هو الذي من تحب لهذه الدرجة!

ولما كل هذا العناد إن كان حبها حيًا وكان محبوبها طامعًا في سَكِنتها ومشتاقًا لسُكْناها!



طال صمتي وتأملي لعينيها المحارِبتين.. الآن لنيل فراق، وقديمًا لمقاومة اقترانٍ وامتزاج، وقبلهما بترفع عن محاولة سلب نبضة من خافق من المفترض أنه سلب من خافقها الكثير!

بقيتُ أبتعد بالسنوات كثيرًا ولم أكتشف أمارة واحدةً خلالهم تشهد على هذا الحب!

أعرفه، أصدقه، أشعر به ولا أُكَذِب وجوده.. ولكني لا أراه..

لا أراه ولا أرى آيةً واحدةً تشهد به لتُخرِس افتراضات نكرانه!

ضيقتُ عيوني أكثر محاولاً الوصول لعمق عينيها وتذكر لحظة واحدة شهرتْ فيها سيوفها بهذه الشراسة التي دائمًا ما تقصيني بها عنها -أو حتى أضعف- دفاعًا أو اقتحامًا لنيل هذا الحب.. ولم أجد!

-هو أنت بتحبيني بجد؟!



شرعتُ لأفكاري بوابة التحرر بهذا السؤال؛ فتجهم وجهها وانزوى حاجباها وعيناها باستنكارٍ متسائل!

اقتربتُ خطوة منها؛ أسألها بفضولٍ غير مستوعب وجود هذا الاستغناء مع الحب الذي تدعيه:

-هو أنت ليه عمرك ما حربتي ولا مرة واحدة عشان حبك اللي بتقولي عليه ده يا تيا، هاه؟!

انفكتْ تقطيبتها واكتستْ عيناها بالأسى الدامع، وظللنا الصمت لحظاتٍ قبل أن يقطعه جوابها الهادئ مع هزاتِ رأسها البطيئة:

-عشان الحب مش بيتحارب ليه يا ضيا.

ارتفع حاجباي بلا اقتناع أو رضا، مستغربًا ومستنكرًا هذه الإجابة!

حقًا!



إن لم يحارب المرء من أجل انتفاضة نبضه لاسترداد معشوقٍ خلق منه فلأجل ماذا يحارب إذًا؟!

بقيتُ أسألها مستنكرًا بخفوتٍ وأخذتْ ترد بذات الخفوت:

-أومال بنحارب لإيه لو مش هنحارب ليه؟!

-الحب هو اللي بنحارب بيه مش بنحارب ليه.

-الحب بنحارب بيه وليه.

-مايبقاش حب.

-أومال يبقى إيه؟

-أي حاجة إلا الحب.. الحب لو مجاش لوحده مايبقاش حب يا ضيا.

هراء وسذاجة وفلسفة انهزامية مقيتة كدتُ أدحضها رافضًا لولا استطرادتها الحزينة:



-ولو أنت ماحبتنيش من نفسك أنا مش هحارب عشان أجبرك تحبني أو اشحت منك الحب.

لا أحبها!

ألا لعنة الله على اسم الحب!

أنا أحتاجها وفي احتياجي لها حب!

أطمئن بأنفاسها وفي أماني بها حب!

أرتكن على سلامها وفي استنادي عليها حب!

أخاف فرارها وهلع اختفائها الناشب في صدري برهان حب!

أشتاق لها ولابتسامها وضوي عيونها وصفاء صوتها وفي نهلي من تفاصيلها حب!

-بس أنا بحبك.



قولتها صريحةً قويةً فاسترقتُ منها صدمة وعيونٍ اتسعتْ بنظرةٍ معلقة على عيني وأنا أأكد لها بثقةٍ رجوتُ أن يتسلل بعضًا منها إليها:

-أنا بحبك يا تيا.. بحبك.

صمتتْ وبقتْ نظرتها ثابتة عليَّ طويلاً حتى قطعتْ صمتها بهزاتِ رأسٍ نافية وعيونٍ منزوية برفضٍ:

-لا، أنت كداب، أنت بتحبها هي.. أنت كداب.

تجاهلتُ إنكارها وتَكذِّيبها ونبضة هي، واقتربتُ أعيدها وأكررها علَّها تستوعب فتستسلم وتغيب وترأف:

-بحبك.

تصدتْ لقربي وكلماتي بمقاومةٍ حانقة واتهامٍ مهتاج:



-لا، أنت بتحبها هي يا ضيا، بتحبها أكتر من نفسك ومن الدنيا ومن صحبك اللي مات.. بتحبها هي وكداب لو قولت بتحب حد معاها بعد كل اللي ضحيت بيه عشانها..

عيونها تتحدى بقوةٍ وضعف، وكلماتها تحارب بوضوحٍ وتخفي.. فأطفأتْ بهم كل شيء وتركتْ صدري خاويًا وحيدًا لتستعر به النقمة والغضب بلا سابق تحذير.. حاولتُ التشبث بالصمتِ عن رغبة صب كل حريقي الذي أشعلتهْ فوق رأسها وإخراس كلماتها المريرة بقسوةٍ والتي ازدادتْ مع استطرادتها المتألمة:

-بتحبها هي وأكيد عمرك ما هتقص من قلبك حتة قد كدا عشان ترضي بيها المعفلة اللي بتحبك.. أنت كداب يا ضيا عشان أنت بتحبها هي وأنا مش غبية عشان أصدق كدبك.



بل غبية وأغبى مما تعي أو تظن، ولو لم تكن غبيةً وحمقاء لما أصرتْ على أن تنبش في رمادٍ لازال حارقًا وتشعل وتُحيّ نيرانٍ أجاهد لدفنها أسفل ركام محاولات تجاهل ونسيان!

-أنت كداب.. ماينفعش تبقى بتنسى الدنيا بسببها وأنت جمبي وتيجي تقول لي دلوقتي بحبك.. ماينفعش تضيع وتكسر كل حاجة جوايا بسببها وتيجي تقول لي دلوقتي بحبك..

ظلتْ تعترض بصوتٍ رافض مختنق بالعبرات المراقة من عيونها الباكية بنظرتها المنهزمة، والتي تحولتْ بعدها بسرعةٍ مربكة إلى أخرى حاقدة وخضرتها تشتعل بتحدٍ وانزوتْ شفتاها ببسمةٍ مستخفة:

-ولا مابقتش تحبها!..

مستحيل!.. معقول كرهتها!..



معقول مابقتش تحبها كإنك اتخلقت في الحياة مخصوص بس عشان تحبها ومابقاش يفرق معاك تكون معاك وجمبك أو لا؟!..

مابقاش يفرق معاك تحبك ولا لا؟!..

معقول كل حبك ليها خلاص راح وبقيت تحبني أنا؟!..

معقول مابقتش تحبها يا ضيا؟!

أنهتْ طعناتها المشتركة بصريخٍ مكذِب ونظرة متحدية بادلتها إياهم بأشرسٍ وأقسى:

-بحبها يا تيا..

آه بحبها، بعشقها ومهوس بيها زي ما قولت.. ارتحتي!

انخرستْ!

همدتْ أنفاسها المتسارعة وانحبستْ وغزا وجهها الشحوب في لحظةٍ أو أقل!



اتسعتْ عيناها واتشحتْ بالدمعات الجامدة وبقتْ نظرتها شاخصة بصدمةِ قتيلٍ نال طعنة غدر وصمود وقفتها أصابه الترنح رغم الثبات!

بينما جمدتْ أنفاسي أنا لرؤية نزفها الصامت على هذا الشكل، واشتعل رأسي وهو يصب سخطه ونقمته عليَّ وعلى غيابه المقيت وتسليم مقاليد الكلمات لاشتعالِ غضبٍ أحمق حتى وإن أشعلته هي!

أرادتْ الألم وأصرتْ ونالتْ ما أرادتْ بلطمة كفٍ كنتُ أوصيه بتربيتة صلح، وكأنها أقسمتْ على أن تنتقم مني بيدي لأصب جام حقدي على ذاتي في نهاية كل مطاف!

اقتربتُ ببطءٍ وعجز؛ لا أعلم كيف يمكن جمع ومداواة ما كسر مرارًا حتى تفتتتْ وتناثرتْ شظاياه بهذا الشكل المرسوم على محياها!



أعدتها لأحضاني غصبًا رغم أنها لم تمانع من الأساس.. استنشقتُ عطرها بخوفٍ نهم كمذنبٍ حكم عليه كتم أنفاس الحياة والموت غرقًا!

حبستُ ارتعاش جسدها بداخلي ثم طبعتُ أحقيتي بها منذ خلقتْ وحتى تفنى بكل خلية طالتها شفتاي:

-أنا ماعرفش أعيش من غيرك..

ماقدرش أبعد عنك، والله العظيم ماقدرش أبعد..

أنا بحبك يا تيا.. وحياة بنتي اللي ماشفتهاش بحبك.

عادت كلمتها للدوي من جديد بصوتٍ ثابت بعيدًا عن اهتزازات الغضب وهزل الضعف:

-طلقني.

-مش هيحصل.



سلختْ نفسها من داخلي بتصميمٍ هادئ ثم أقرَّت محذرة بذات الهدوء وقد اختفتْ من نظرتها نبضات الحياة رغم أن دمعاتها لم تتوقف عن النزف الصامت:

-هخلعك. وحياة بنتي وبنتك اللي لسة حالف بيها دلوقت لو ماطلقتني قبل ما تتولد ودلوقتي لهخلعك يا ضيا.. هخلعك.

لم تنتقل الصدمة لي بل اقتحمتني وزلزلتْ أنفاسي ورمتني في غابةٍ مرعبة سوداء، انتشلتني منها بعد فترة استطرادتها الجامدة:

-طلقني وخلينا نفترق باحترام عشانها.. طلقني.

طال صمتي المشدوه وتعلقتْ أنظاري بتلك المختبئة بداخلها وتزين التخلي وتأمر به لأجلها!

تدخلها حربٍ لم ترتكب بها أي جرمٍ وتساومني بها!

فلتتذكر أنها من بدأتْ بحشرها في سلة العَتاد ولتتحمل إذًا.



رفعتُ عيوني عنها وحدجتها بجمودٍ مماثل وأنا أتساءل:

-وبنتي!

انزوى حاجباها بمفاجأة واكتستْ عيونها بتهديدٍ مباغتٍ على نحوٍ مختلف:

-مالكش دعوة بيها. مالكش دعوة بيها، سامع!

انبثقتْ ضحكة خافتة هازئة من سذاجتها:

-ماليش دعوة بمين يا تيا؟!.. ببنتي!.. أنت اتجننتي صح؟!

تسارعتْ أنفاسها وضيقتْ عينيها بارتيابٍ صامتض جاوبته على الفور بكلماتٍ هامسة أخرجتها وهي تتلظى بالغضب والخوف من عمق جحيم الخسارة:

-أنا بنتي مش هتبعد عني لحظة، فاهمة!

رمشتْ بعينيها بلا استيعابٍ وتيه امتزج مع تيه صوتها المتقطع:



-أنت.. أنت بتقول إيه؟!

تقدمتُ أواجهها وأنا أمسك كتفها؛ أسألها باستنكارٍ هازئ ثم صراخٍ مغلولٍ من حمى التخيل:

-هو أنت بجد فاكرة إن أنا هسيبها؟!..

ولا فكراني هسيبها للشملول اللي هتتجوزيه وتقولي لها دا أبوك!

نفتْ على الفور بصوتٍ وأنفاسٍ مبتورة من ثقل البكاء:

-مش هتجوز. والله العظيم لو ده اللي مخوفك أنا مش هتجوز، والله مش هتجوز، وحياة بنتي اللي لسة ماجتش الدنيا مش هتجوز.. متخافش.

بالفعل لن يحدث لأنها ببساطة لن تبتعد ولأني لن أسمح لهذيانها بتولي زمام السيطرة على حياتنا أكثر:

-ومش هطلقك.



جذبتْ كتفها من كفي وابتعدتْ مكررة ببأسٍ خافتْ مليء بالدمع:

-هتطلقني.. هتطلقني.

اللعنة عليها وعلى صلابة رأسها!

اللعنة عليها وعلى تلك الكلمة التي تصمم على غرس سمومها في روحي وروحها!

اللعنة عليها وعليَّ إن لم تنتهِ أو أثنيها عن هذا العبث!

لن يحدث وستخضع جبرًا أو طوعًا..

ستخضع لحياة كتب عليها العيش فيها على ضفاف صدري..

ستخضع وتستسلم لقدرٍ حفرها في حياتي وشمًا لن يزول حتى وإن أُحرِقتُ حيًا..

ستخضع وتسلم جيوشها العنيدة وتُسقط قلاعها بأي ثمنٍ كان..



ستخضع بالحب أو القرب أو الحصار أو الابتزاز أو بالطعن بلا رأفة سلبتني إياها بتهديدِ رحيلها..

ستخضع باللين أو القسوة، بالتسلل أو حتى بالتجبر والاقتحام..

ستخضع:

-مش هيحصل.

أطلقتها جامدة بعيونٍ متسعة مهددة، ثم كررتها متقطعة أضغط على كل حرفٍ فيها وسددتُ الطعنة الأخيرة بيدٍ ثابتة وروحٍ تنتفض:

-مش هيحصل..

عشان أنا مش هخلي بنتي تعيش اللي أنت عشتيه، سامعة!..

أنا مش هسمح لك تعيِّشي بنتي في العذاب اللي أنت عشتيه يا تيا..



شاهدتُ سقطة سلاحها الأخير ودماء جنودها المراقة عندما جاء الأثر على ملامح وجهها أسوء مِن ما مضى!

شعرتُ بها على حافة السقوط فاعتصرني الألم وتقدمتُ المسافة التي ابتعدتْها، وبقيتُ أقترب منها وأقربها ببطءٍ حتى لصقتها بصدري وأحطتها بيدي؛ أسند وهنها وأمنع عنها احتمالية سقوط.. فعكازة الروح لا يسمح لها أبدًا بالسقوط.

**



تيا

سؤالٌ واحدٌ بقى يحوم في رأسي طوال الشهور الماضية حتى ملك السطوة على كل لحظات الغياب والوعي.. من هو؟!

هو لم يكن مُحتلاً ولا فاتحًا ولا مستعمرًا!

هو لم يكن جندي محارب ولا سلطان حاكم ولا ما بينهما!

هو لم يكن عاشقًا ولا منقذًا!

لم يكن متسللاً أو حتى محاصرًا!

ولم يكن مُحتَالاً ولا فارسًا!

هو لم يكن أيً مما سبق ومع ذلك بقى كما هو معشوق!

المعشوق الأول والأوحد والأسوء!

بقى معشوقًا رغم أنه لم يحاول أو يطمح أبدًا في أن يكون!



بقى معشوقًا رغم أنه ترك ساحة العشق راكضًا وراء هواه الخاص!

فمن هو ليبقى بكل ذاك الثقل وكل تلك العنجهية قابضًا على عرش قلبٍ لم يخطو نحوه خطوةً واحدةً من الأساس؟!

واليوم، بل الآن وفي هذه اللحظة تحديدًا.. عرفتُ الجواب.

هو الويل!

بكل تفاصيل حُسنه وقُبحه المهلكة للروح.. هو الويل!

هو جنتي التي شيدتُ تفاصيلها بنبضاتي واحترقتْ وتحولتْ لويلٍ يرفض تحريري منه!

هو ذنبي الذي لا يغتفر وجزائي الذي لا أستحق قسوته!

هو ويلٌ وعشقه ويلات!

هو واقترابه وابتعاده؛ ويل!



هو وكلمة حبه الكاذبة التي انتظرتها عمرًا؛ ويل!

هو واعترافات هوسه العاشق المحموم بأخرى؛ ويل!

هو وانتقامه الأخير؛ ويل!

ويل حبسني به وكتم الأنفاس ولم يسمح حتى برحمة صراخ!

ويل بقتْ عيناي تتخبط في عتمته باحثة عن جثة روح مفقودة

حاولتْ أن تفر من حريقٍ لا يحتمل داخل قلبي ورأسي بلا جدوى!

تتخبط على كل شيء وتخشى أن تستقر على عينيه!

عيناه القريبة للغاية ولا أدري متى اقتربتْ هكذا، ولا كيف التصقتُ أنا به لهذا الحد!

ولا أدري لما اضطربتْ أنفاسه فوق وجهي وقد أنهى القتال!

لا أدري لما اختلج وجهه بهذا الشكل بعدما اغتنم النصر!



رفعتُ عيني إلى عينيه أخيرًا سامحة لها بأن تسأله إنكار وإنقاذ، أرجوه النجدة بأن ينفي خروج تلك الكلمات من شفتيه؛ مفصحًا أن صداها خرج فقط من وحي هذياني!

لكنه لم يفعل، وأعادها همسًا كأنما يتأكد من استقرار السيف وتمام النزف، وأصابعه تنغرس في لحمي وتخترق عظامي بينما كتفاه شبه تحملا جسدي الأقرب للتهاوي:

-مش هسمح لبنتي تعيش زيك يا تيا.. مش هسمح لك تعيّشي بنتي في اللي عشتيه.

كَتم الأصوات واخترقه بدوي صفيرٍ طويلٍ مرعب دفع وعيٍّ للترنح! اختطف الأنفاس الأخيرة وأطبق الصدر وهشمه فغابتْ السُبل لسلب نفَس حياة وحيد وأخير!



سرق الانتباه وبدده كما البصر المعلق عليه بغيابٍ ولم أعِ بكائي إلا عندما تشوشتْ رؤياه بدمعاتٍ لم أحتجزها قصدًا ولم أحررها طواعيةً!

-مش هسمح لك تعملي فيها وفينا كدة.

وتلك لم تكن صفعةً عادلة... بل لم تكن صفعة من الأساس؛ بل كانت طعنة في منتصف وعمق نقطة الضعف!

كانت طعنة في مركز أوجاع أجاد بها إنهاء النزال بعدما انتهى من هدم كل مواطن القوة!

ابتعدتُ بوجهي عن شفتيه المقتحمة برقة مناقضة لرصاصات كلماته ونظرتُ له بضياعٍ جاهل وأنا أسأله بتشوشٍ غير مصدق:

-أنت.. أنت بتعايرني يا ضياء؟!

-لا أنا بفوقك..



جوابه أتى صارخًا مدافعًا تبعه بكلماتٍ لم أستطع تركيز انتباهي لالتقاطها.

لا، لالا.. تلك لم تكن صفعة إفاقة كما يدَّعي، بل كانت تَعدٍ سافر على مكمن الهوان والألم!

أجاد تعرية سترهم الذي أحرص عليه بحذرٍ أقرب لهاجس مؤلم طالما خبأتُ ضعفه بوجعٍ أقرب لقهرٍ عن العيون النهمة لنهش الضعف والآلام!

أجاد تمام كشفهم وهتك حرمتهم بفجور وصدق كلماته!

أجاد انتهاكهم وذبحي بالكامل!

هذه المرة أجاد الطعن!

-أنت بتعايرني يا ضياء.



أقررتها دون النظر إليه بشهقة ملتاعة وبكاءٍ شق صدري بغتة وروحٍ تنتفض بوحدتها، ونفاها هو جهرًا وصراخًا:

-لا، لا..

هل صوته متألم أم أنني أتوهم بعض السلوان!

هل أنا بالفعل تائهة، عارية، وحيدة في غابةٍ سوداء تضج بالعيون المرعبة والأفواه الناهشة!

لماذا ينخر عظامي البرد رغم الحرارة الخانقة للجو والجحيم الحارق الذي يصلي ذرات جسدي!

-أنا بحبك.

من جديد عاد لكذباته المدموغة باقتراب شفاهٍ تضاعفتْ حُمتها كما تضاعفتْ حُمة الكلمة وتكرارها!

يكررها ويكررها ثم يتبعها بنفي قدرته على العيش بدوني!



كفه تحضن وجهي لتثبتْ عيوني على عيونه غضبًا وهو يعيدها على مسامعي، ومع ذلك لا أراه ولا أرى فيهما سوى جثة حلمًا طالما تمنيته قبل أن يصبح ذاك الحلم في عرف الحقيقة حرامًا، وفي عرف كرامتي ذنبًا، وفي خلايا خافقي محرقة لا تنطفأ!

انتشلني من لحظات موتي يده وهي تتسلل لبطني بلا حاجب وهمسته الراجبة التي اخترقتْ مسامعي كسهمٍ جديد تراشق في جثة تزاحمتْ بها الأسهم:

-قولي لماما بابا بيحبك.

تجمدتُ بين يديه وابتعدتُ أنظرله بانشداهٍ واكتفاءٍ وألم ضجتْ منه روحي؛ أرجوه ألا يخوض بهذا الدرب أيضًا، ولم يرأف بل ظلتْ كلماته ويداه وأنفاسه تتراقص على أرصفة انهياري الوشيك:

-قولي لماما ماتسيبيش بابا.. قولي لماما بابا مايقدرش يعيش من غيرك.



نظرتُ له بانهزامٍ أحارب لإعلانه ورفع راية الاستسلام مع لفظ كلمة "كفى".. ولم أستطع ولم يكتفِ أو يتوقف وهو يسلط سهام عينيه الراجية على عيني المشوشة ببكاءٍ لم ينضب:

-قولي لها ماتبعديش عنه.. قولي لها ماتبعدنيش عنه.

أغمضتُ عيني وشددتُ على إغلاقهما أرحمهما من رؤية هذا الاعتداء السافر على بقايا روحٍ دهستْ وتمنيتُ لو يختفي ويتلاشى ولكن صوته أبىٰ أن يرحمني وبقى يخترقني ويتسلل لي:

-قولي لها هو مايقدرش يبعد عنك.

لم أحرر الأجفان وتركتُ لهما رحمة العناق وأنا أهز رأسي أرجوه إيقاف هذه المذبحة التي يشنها على كيانٍ أتم هدمه بالفعل.

أكمل استطراداته وهو يحبسني داخله بعناقٍ أو اختراق:

-قولي لها بابا محتاجك وبيحبك. بحبك يا تيا. بحبك.



قالها ووهب لبقاياي الاختيار ما بين الانتحار بمخدر قربه أو الإعدام بأنشوطة هواجسي وعذاباتي القديمة!

ولا أدري بأي طريقةٍ قُتلت أو متى وكيف كنتُ غنيمة أحضانه وهو يحكم عليّ منافذ الهرب بذراعيه!

كل ما أدركته أنه أتم اقترابه ورفع رايات ملكيته!

ووقف وراء ظله المحتفي بالنصر حليفيه من جسدٍ خائن خلق له، وقلبٍ مختل تعثر وترنح عند اعترافات احتياج وتكرار لفظة حب أجوف!

ولم يبالوا برماد احتراقي المتناثر، بل دهسوا بخطى ترنحهم المنتشية بالظفر على جثث أنفاسٍ محترقة وكرامةٍ مغتصبة!

ثم ضربوا كؤوس نخبهم على شرف روح أُتِم ذبحها باعترافِ عشقٍ وهوس بأخرى!



وعقل لايزال مفقودًا يحاول الخروج حي من أسفل ركام كلماته مع محاولة تحليلها.. كيف له ألا يسمح لطفلته بمعايشة ما عايشته من عذاب؟!

هذا السؤال الذي بقى حاضرًا مهيمنًا على أنقاض روحي ورمادها طوال الأيام التالية.. يتجول فوق ركامها ولا يجد في خوائها سواه حيًا!

فتسيد عرش الخراب وتشرب من روحي ترياق بقائه وهو يعتصرها فتسيل منها كل مرارة تجرعتها بصمتٍ منذ أن كنتُ طفلة!

يأمر القلب والعقل وبقايا الروح الهزيلة بالركوع أمامه فيطيعوا!

يشق منتصفهم بجحود وقسوة، ويطلق صراح وحوش الخوف والألم والذكريات الحبيسة داخلهم؛ ليتحرروا ويرفرفوا مهللين ويجتاحوا السماء بسواد أجنحتهم بتجبر!



ولا يبقى لي سوى شعاع ضوءٍ شحيح كشمعة شاحبة.. تشتَّتْ وانطفأت بذهاب "رحمة"..

فقد قررتْ عدم الذهاب لأبنائها في أجازة الصيف لأجلي واتفقتْ معهم بأن يأتوا هم لها بدلاً عنها هذا العام.. ولكن تعرض حفيدها الأصغر لحادث ووجوب دخوله للعمليات أيضًا بدَّل كل شيء واضطرها للذهاب تحت لوعة قلبٍ مفتور على صغيره.

وعند ذهابها قبل أسبوعين بكتْ، ولم أبكِ..

اعتذرتْ مرارًا ووعدتْ وأقسمتْ على المجيء قبل موعد ولادتي، ولم أحقد عليها أو ألوم أو حتى أطمح في تحقيق قسمها؛ فمن أكون أنا لكي تفضلني على قطعة من قلبها؟!

احتضنتني طويلاً وربتُ على ظهرها بفتورٍ مواسٍ وطمئنتها بكلماتٍ خاوية مفداها أني سأكون بخير رغم معرفتي أني لن أكون..



رحلتْ.. ومع كل خطوة بعاد كانتْ تنظر لي معتذرة فرسمتُ ابتسامة مُطَمْئنة هزأتْ منها روحي.

رحلتْ وارتبك هو ولا أدري لما!

ثم استعان بوالدته كي تعتني بي على حد وصفه وأنا في هذه الحالة التي لم أفهم مقصده منها أيضًا، ولم أعترض أو أناقش: فأتت!

تأتي عند غيابه مع من يعشق وتبيتُ حتى يأتي فتختفي..

تهتم بإطعامي وتبقى بجواري بصمتٍ وكأنها مجبورة على ما لا تطيق؛ فأبتعد عن أنظارها قدر المستطاع لتخفيف ثقل وجودي الذي لا تستسيغه على ما يبدو!

صمت بدأتْ تقطعه تدريجيًا بحديثٍ عن أي وكل شيء تقريبًا وحاولتْ أن تستدرجني له، ولم أقدر!



ثم -قريبًا- محاولات مزاحٍ واقترابٍ مُطَمئن ومحتوي، استنكرته بخوفٍ من تعلق ولم أرحب به!

مملية على نفسي أننا لا نرغب بتحميلها أكثر مما تطيق، فقط يكفي تحملها لوجودها شفقةً أو جبرًا مع من مثلنا.. أنا التي تصنف في دساتير الدنيا ذيل مزعج لا فائدة منه في حياة البشر!

ثقيلة الحضور على الجميع، همًا إضافيًا رمته وحدتي على ظهور مسؤولياتهم، طرفًا زائدًا على هامش الحياة.. لا هو مهم ولا يوجد سبيل للتخلص منه!

هذا ما أدركته متأخرًا وأدركه هو باكرًا.

هذا ما لا يريد لطفلته أن تكونه.. ومعه كل الحق.

وليته يصدق ويفعل.

**



ضيا

أسبوعان أو أكثر قليلاً مروا ببطءٍ تجرعتُ بهم العجز الحائر، وانسحقتُ ممزَقًا بين فك الأسف النادم وبين فك عجزٍ معترف بعدم وجود سبيل آخر لدق حصون عنادها وإصرارها على بعادٍ ساذج سوى هذا الدرب القاتل!

أسبوعان ابتهلتُ فيهم في كل لحظة أن تتخلص من هذا الضياع الذي احتل روحها وأحرقها بإشارةٍ من يدي!

صمتها، استسلامها، جمودها وانزوائها.. لم يكن كل هذا مخيف؛ بل مرعب!

مرعب لدرجة لم أتخيل وجودها ولم أتخيل أبدًا أني سأعاني من حريقها معها هي.. فمنذ ذاك اليوم الذي انهارتْ فيه دفاعاتها وسقطتْ بضربة سيفٍ أخيرة من كلماتي التي أعترف بأنها قاسية



سامة ولا تستحق أن تُغرس في روحها بمرارتها؛ وهي تنطوي صامتة وتغيب عن الجميع.

حاولتُ استفزاها مرارًا بأي شيء لتخرج من هذا الجحر المرعب ولم يفلح، حاولت الاقتراب واحتواء ألمها الجلي بشتى السبل ولكن قابلني الجمود؛ فلم تبتعد ولم تقترب ولم تهتم من الأساس!

تنفذ كل الأوامر بآلية مقيتة وكأنها فاقدة الروح؛ تسمع فتنفذ دون أن تشعر أو تفكر، وكأنها فقدتْ كل دفعات الحياة بعدما استسلمتْ للحياة بجواري!

ثم أتتْ الضربة الأخيرة بسفر رحمة الاضطراري وكتمتْ الأنفاس الأخيرة من تفاعلها مع الجميع ودفنتها في قبرِ صمتٍ شبه دائم.. فارتجف صدري قلقًا وبقيتُ ممزقًا بحيرةٍ وخوف؛ لا أدري كيف يمكنني تركها وحيدة بهذا الشكل دون وجود من يهتم بها وإن كان من بعيد أثناء غيابي عنها، فلم أجد خيارًا آخر سوى الاستعانة



بمساعدة أمي في مراعاتها أثناء تلك الفترة المخيفة خاصة وهي بهذه الحالة المقبضة، ووافقتْ بعد محاولات إقناع ورجاء لم يطولا. قضتْ الأيام الأولى لا تصرح سوى بأنها ساكنة أكثر من اللازم وأنها لا تبغى الضغط عليها وفرض وجودها ببيتها فتتركها على راحتها.. وكلماتها المحايدة بتحفزٍ وشَت لي بضيقها الطبيعي فاعتذرتُ واعترفتُ لها صراحة بأن بقائها ببيتٍ غريبٍ لا يخصها ولا يخص حتى ابنها أمرٌ ثقيلٌ على النفس وغير مريح على الإطلاق ومعها كل الحق، ولكنها لن تتحمل مزيدًا من الضغط وإبعادها عن بيت والديها الآن تحديدا.. ثم تبعها بعد أيامٍ تعليقاتٍ حزينة قلقة بأنها لا تقبل حديث من أي أحد وتنزوي مبتعدة عن الجميع كما ترفض أغلب الاتصالات اليومية لرحمة والتي ازداد التقارب والحديث بينها وبين أمي مؤخرًا!



واليوم استقبلتني بقرارٍ أحاديٍ صارم لا يقبل نقاش أو جدل بأنها ستعرضها على طبيبة نفسية لشكها بإصابتها باكتئاب حمل وأنها ستتابع الموضوع بنفسها وما عليَّ سوى إخبارها وإقناعها، ثم ختمتْ كلماتها قبل رحيلها بتحذيراتٍ صارمة آمرة بعدم إحزانها إن كنتُ أفعل وإلا لن يقف أمامي سواها!

وهذه الكلمات عندما تخرج من أمي بتلك اللهجة المحذرة الحادة نادرة التحرر خاصة معي أنا.. فهذا مؤشرًا مرعبًا بصدق!

ولا أعرف كيف سيكون ردها إن أخبرتها أنني فعلتُ بالفعل وأن كل هذا على الأغلب ما هو إلا نتاج ما قولت،د وليتني لم أقُله.

بقيتُ دقائق بالخارج بعد سماع تلك الكلمات وأنا أحاول تهدئة قفزات هذه النبضات المؤلمة التي تفترس صدري، ثم دخلتُ غرفة والدها التي تتخذها خلوة عن الجميع ووجدتها كعادتها نائمة



تحتضن قدميها بيديها بذات النومة المقيتة المؤلمة للقلب، وبذات الصمت والشرود اللعين!

اقتربتُ ببطء وجلستُ بجوارها أزاحم نومتها وأجبرها على الجلوس، أنظر لعينيها المبتعدة عني وأسألها مبتسمًا ابتسامة شاحبة لم يصل صدا شحوبها لعيني المتأملة سكونها بتحفزٍ قلق:

-حبيبتي عاملة إيه؟

نظرتْ لي بذات الفراغ الذي يحتل عينيها ثم عددتْ بهدوءٍ ميت وهي تبتعد بعينيها عني:

-شربت اللبن وخدت الفيتامينات وأكلت الأكل كله، حتى البيض اللي بقرف منه أكلته..

عادت تصوب نظرها لي بسؤالٍ خافت:

-مرتاح كدة؟!



بل متألم وأكاد أموت رعبًا من هذا الأسلوب الذي يفرض هيمنته على نظرتها الغائبة وصوتها ساكت الانفعال. اقتربتُ وأسكنتها داخلي محررًا ذات السؤال مجهول الجواب:

-تيا مالك؟!

لم تجِب ولم تنظر لي، واستسلمتْ لاحتضاني بلا مقاومة وليتها لا تفعل وتثور أو تبتعد أو تغضب أو فيبث الغضب بعض الحياة بروحها الصامتة!

-ماما زعلتك؟

استطردتُ متساءلاً بحيرة رغم استبعادي التام لهذا بعد ذاك الاهتمام الصريح منها معها مؤخرًا، وبعد تلك الكلمات المحذرة التي رمتني بهم فور مجيئي.. وأكملتُ أحاول استكشاف أي شيء حدث حتى وإن كان بدون قصد:



-قالت لك حاجة ضايقتك؟

بقت صامتة طويلاً حتى ظننتها لن تجيب كعادتها لكنها وأخيرًا هزتْ رأسها نافية وغمغمتْ مجيبة ولازالت عيناها وروحها شاردة عني:

-بالعكس.. بقت بتتكلم وبتهزر كتير معايا.

جوابها أحيى داخلي أملاً مؤلمًا بمعرفة تفاصيل ما يثقل صدرها وتحجبه عني؛ فرفعتُ وجهها إليَّ لتواجه عيني وأنا أسألها راجيًا جواب شافٍ:

-طب مالك؟

لم تبعد عينيها وبقتْ أنظارها تبادل نظراتي القلقة بأخرى ساكنة وباهتة، ثم صرحتْ بصوتٍ شبه هامس:

-مش عيزاها تفضل هنا.



أنعقد حاجباي تلقائيًا بارتيابٍ لهذه الكلمات ولم تلتف أو تنتبه لارتيابي وهي تكمل بذات الحالة:

-من فضلك خليها تمشي.. مش عايزاها تتعب نفسها وتفضل متشحططة بسببي أكتر من كدة..

عادتْ بأنظارها للأسفل وزوتْ حاجبيها وأكملتْ بنصف شرودٍ وهزات رأسٍ بسيطة:

-أنا بعرف اخلي بالي على نفسي كويس، متخافش.

لم تمر لحظة صمت وعادتْ ترفع وجهها لي وهي تستطرد بصوتٍ مهتز وعيونٍ زائغة دق لها قلبي خوفًا بعدما شحب وجهها بغتةً:

-ومتخافش على بنتك هخلي بالي عليها..



تسارعتْ أنفاسها وعيونها تدور في كل اتجاه ثم عادتْ لتستقر على عيني بعدما امتلأتْفي لحظة بدمعاتٍ مقبضة بان صداها على صوتها الخفيض:

-هخلي بالي عليها أكتر من نفسي والله العظيم.

ارتبكتُ وقلقتُ واستشعرتُ برودة الخوف المتواري داخلها توحشتْ وأصبحتْ زمهريرًا مقبضًا؛ فأسكتُ هذيان كلماتها وأنا أهدهد ارتجافتها محاولاً سكب في روحها بعض الطمأنينة الهاربة من روحي:

-مافيش الكلام ده يا تيا.. أهدي، أهدي متخافيش..

لم تهدأ أنفاسها المتسارعة رغم دقائق الصمت التي مرتْ وهي ساكنة داخلي ويدي تمسد ظهرها علَّ بعض الأمان يتسرب لها، وعلَّ ارتجافة روحي تسكن قليلاً.. لكن كل أمنياتي احترقتْ ونثر رمادها مع اعترافها الخافت:



-أنا خايفة.

اعتراف هو الأول والوحيد منذ سنين معرفتي الطويلة بها والتي امتدت لأكثر من نصف العمر!

اعتراف اخترق صدري وسلخ قلبي من مكمنه ثم دهسه بقسوة أسفل حروف كلماته!

اعتراف هو الأسوء والأكثر قسوة على الإطلاق.

رفعتْ أنظارها الضائعة بارتياعٍ مصدوم وكأنها أقرتْ لنفسها بذلك كله قبلي، ثم أعادته بخفوتٍ مرة وأخرى وانحدرتْ دمعاتها بحارًا وأغرقتْ روحي في أمواج مرارتها:

-أنا، أنا خايفة.. أنا خايفة أوي.

ثم وبعد لحظات صمتٍ مشحون باضطراب أنفاسها وبضجيج عقلي القلق وروحي التائهة، همستْ بذات الصوت المهتز وذات



العيون المتسعة المرتحلة على كل شيء بالجوار وكأنها تعيد اكتشاف العالم حولها من جديد:

-أنا لوحدي أوي أوي..

خنجرًا حاد انغرس في صدري بهذه الجملة المريرة وتلك النبرة التائهة، فأخذتُ وجهها بين كفي أجبرها على النظر لعيني الواثقتين وسماع كلماتي المملوءة بالتصميم رغم الألم:

-أنت مش لوحدك أنا معاكِ، سامعة!.. أنا هفضل معاكِ.

-معايا!

كررتها ورائي شاردة باستنكارٍ أذاب في دمائي حمم ألمٍ لا يطاق، ثم فجرتْ بركان ذات الألم في صدري وهي تردف رافضة، نافية:

-أنا ماحدش معايا.



أغمضتْ عينيها وبدأتْ شفتاها ترتعش بشدة وقد شقتْ شهقة بكاء صوتها وهي تشكي ببكاءٍ عَلَتْ وقستْ وتيرته:

-أنا عمري ما حسيت إني محتاجة ماما الله يرحمها زي دلوقتي!

دقاتٍ مؤلمة أخذتْ تضرب صدري مع كلماتها وودتْ القفز من صدري واحتضانها وتهدئة روعها وحمله بدلاً منها؛ فسحبتها ذراعيّ تعيدها داخلي وتشدد من احتضانها باحتياجٍ حارق لاستشعار هدوءها وأمانها، احتياجٍ تضاعف واستعر وتاه عندما أتى صوتها المكتوم بصدري يكمل ويعدد بألم وخفوت وبكاء:

-أنا خايفة أوي أوي.. خايفة عليها، وخايفة من الولادة، وخايفة من بعد الولادة، وخايفة اسيبها وتبقى لوحدها..

عيونها ارتفعتْ تحدث عيوني بخلاصة الخوف قبل تصريح صوتها بنبرته خالصة الألم:



-أنا مش عوزاها تبقى لوحدها.. أنا خايفة اسيبها أوي، خايفة اسيبها أوي.. خايفة اسيبها واموت وتتيتم بدري.. خايفة تتوجع زيّ..

علَت أنَّاتها ونشيج جسدها داخلي فزلزلتْ ما بقى من ثباتٍ حاولتُ التماسك به قبلاً:

-أنا خايفة أوي تبقى لوحدها، أنا خايفة عليها أوي أوي..

أنا مش عيزاها تتبهدل ولا قلبها يتكسر زيِّ..

-تيا اهدي واسمعيني.. عشان خاطرها اهدي.. اسمعيني..

-أنا أصلاً ماكنتش عيزاها بنت، مش عوزاها تتوجع الوجع اللي بتوجعه، مش عيزاها تعيش اللي أنا عشته.

ببكاءٍ غاضب مصابًا بوهنٍ عزيز الحضور قالتها، ثم بلومٍ متهم مُحاصَر بذات الوهن أكملتْ:



-أنت السبب، أنت السبب.. أنت قولت عايزها بنت أنا قولت لك مش عيزاها بنت، مش عيزاها بنت.

بقى صوتها يأخذ في الخفوت حتى اختفى مع آخر كلماتها ثم دنتْ منها صرخة مريرة مبحوحة وهي تتابع:

-أنا مش عيزاها تيجي هنا يا ضيا..

مش عيزاها تبقى لوحدها، مش عيزاها تبقى زيِّ..

وددتُ الصراخ وإيقاف نزيف ألمها ونفي كلماتها وإخبارها أن أمنيتي الأغلى لطفلتي أن تكون نسخة منها.. فإن لم تكن مثلها فلمن تكون كي تصبح رائعة التفاصيل والمجمل ومكتملة البهاء قلبًا وقالبًا!

حاولتُ إجلاء تلك الغصة الرابضة على روحي وصدري وتمنع صوتي من تحرير كل ما ابتهل وأمل وصرخ للتحرر، لكنها تضخمتْ



وتعمقتْ وهي تتشبث بقميص صدري بسؤالٍ راجي متقطع الأنفاس وعيونٍ دامية اللون والنظرة:

-أنت مش هتسيبها، صح؟..

أنت قولت لي مش هتسيبها، صح؟..

قولت مش هتخليها زيّ ولا تعيش اللي عيشته، صح؟

اللعنة عليَّ ألف مرة وعلى ما قولت إن كان هذا الهوان هو نتاجه..

اللعنة عليَّ ألف مرة إن كان هذا الألم الطافح من خلاياها بفضلي..

اللعنة عليَّ ألف وألف مرة إن كان فيه سبيل إخراجها من هذا الجحيم.

-مش هتسيبها لوحدها.. صح؟



تكرار سؤالها بصراخٍ مفزوع أجبرني على الخروج من بؤرة غضبي المشتعل على ذاتي ودفعني للتأكيد مطمئنًا بصوتٍ حاولتُ إشباعه بالقوة والبأس وأنا أنظر في عيونها محاولاً محو دمعاتها التي لا تتوقف:

-مش هسيبها. مش هسيبها ومش هسيبك. هفضل جمبك وجمبها لحد آخر نفس في عمري.. بس عشان خاطري اهدي.. عشان خاطري كفاية عياط، كفاية..

-أنا مش عيزاها تبقى زيّ.

جادلتُ حُمتها بهذه الكلمات المجحفة معلنًا أملي الصادق بالعكس:

-أنا عاوزها زيك.. نسخة منك.. يا بختها لو بقت زيك..

-لالالا.. أنا مش عيزاها زيّ.



كانت صرخة مدوية مريرة كطفل تائه مفزوع صرخ هلعًا عندما قابل وحش كوابيسه وهو يدنو منه مكشرًا عن أنيابه المقيتة!

عدتُ حبسها داخل أحضاني بشدة لا أدري من منا أشد احتياجًا له وخبأتُ رأسها عند صدري محاولاً تجاهل حرقة نيران الخوف التي نشبتْ في قلبي.

-هي هيبقى عندها أخ أو أخت صح؟!

تحفزتْ كل خلاياي لسؤالها المباغت بقلقٍ انقشع بسوط حديثها المتابع:

-مش هيسيبوها لوحدها، صح؟!

سؤال الهامس الذي بالكاد سمعته، وعيونها التي أنار في خضرتها انشداه آمل أو راجي سقطوا على روحي كقنبلة حولتْ جثتها لأشلاء نعتْ نزفها بصمتٍ وألمٍ واكتفاء؛ ضغطتْ على أزرارهم



مجتمعين وهي تترجى بهمسٍ وفمٍ مقوس وعينين بدأتا في التورم من كثرة البكاء:

-خليه مايبقاش يسيبها لوحدها، ماتخليهوش يكرهها يا ضيا عشان خاطري.. خليه يحبها ويفضل جمبها أرجوك..

-تيـا..

لم أحتمل طعنات كلمات رجائها فصرختُ باسمها مقاطعًا أرجوها توقف لم تفعله وهي تستطرد بانهزامٍ شارد:

-أنا مش عوزاها تيا.

قاسمتها أذيال الشرود وأنا أمسد وجنتها وأناقض كلماتها من جديد بخفوت:

-ياريتها تبقى تيا..

هزتْ رأسها رافضة بتصميم أعربتْ عنه بهمسٍ مبحوح:



-أنا مش عوزاها تيا.. مش عوزاها تيا. أنا مش عوزاها تعيش اللي أنا عشته.. مش عاوزة اسيبها، مش عاوزاها تكون تقيلة على حد، مش عوزاها تكون لوحدها.. مش عوزاها تكون لوحدها يا ضيا.

أبعدتها وأنا أقيمها وأشد على لين قامتها الهزيلة لتعود كما كانت قويةً منتصبةً، ونظرتُ في عينيها بصرامةٍ وتأكيد أحفر الكلمات برأسها وروحها لأغلف بها قلبها المنتفض خوفًا:

-مش لوحدها، كلنا معاها ومش هنسيبها..

أنا وأنت وأخوها معاها ومش هنسبيها لوحدها.. سامعة!

تعلقتْ عيناها بي وهدأتْ فيهما غيوم دمعاتها وطال صمتها حتى قطعتهُ بسؤالها الخافت ونظرتها المتشبثة:

-وعد؟!.. وعد مش هتسيبوها لوحـ....



قاطعتّ سؤالها مصححًا؛ أحشر وجودها في الجواب حشرًا برأسها بصوتٍ عالٍ مشدد على الحروف والنبرة وتصميم النظرة:

-مش هنسيها. مش هنسيها كلنا.

صمتت ثوانٍ بقتْ فيها عيونها تدور بين عيوني، ثم همستْ تسأل تأكيد:

-وعد؟!

-وعد.. وعد.

عدتها مطمئنة منهكة، ثم أخذتُ أعيد تخبئتها داخلي وانزوتْ هادئة مغمضة العينين وبدأ اضطراب أنفاسها في الهدوء حتى سكنتْ فاستكانتْ أنفاسي بشبه ارتياح لدقائق لم تطُل!

دقائق قُطعت برنين متواصل من هاتفي وهو يحمل رقم حماتي المقاطعة إياني منذ أكثر من عام؛ فعلمتُ أن هناك ضربة جديدة



تتجهز في انتظاري.. أتمتها بإخباري هلعًا أن "براء" تلد وأنهم الآن بالمشفى وتتجهز للولادة في شهرها السابع!

عندها ارتجفتُ وارتبكتُ وقمتُ محاولاً التمسك بقليلٍ من الاتزان والتعقل ولم أعرف كيف السبيل لهم وأنا ممزق بهذا الشكل بين خوفين أقسى من بعضهما، حتى أتى صوتها يقاطع طواحين أفكاري العاجزة عن إيجاد حل آمن:

-روح.. روح متخافش.

نظرتُ لها متأملاً بقلق لثوانٍ قبل أن أحدثها بصوتٍ اكتشفتُ احتباسه عندما خرج متحشرجًا:

-قومي غيري هدومك..

زوتْ حاجبيها ريبةً ودهشة لم أستطع تحملهم فعدتُ باندفاعٍ وقوة:



-قومي غيري هدومك بسرعة.. يلا.

أطاعتْ بصمتٍ هادئ وخرجتْ تذهب لغرفتنا وتبعتها للخارج وأنا أتصل بوالدي أعطيهما عنوان المشفى وأوصيهما بالذهاب فورًا لها وانتظاري حتى أستطع المجيء وترك "تيا" في أمانتهم حتى تستفيق "براء" وتنجو بصغيري الذي تعجل وأصر على الوصول في غمرة خوف أبيه!

أخذتها وذهبت بخوفٍ مريب حاولتُ مواراته قدر الإمكان عن عيونها القريبة ولا أدري أفعلتُ أم لا، ولا أدري كيف أو متى وصلتُ إلى المشفى وكفها البارد متشبث بكفي.

وبمجرد وصولي لمكان العمليات بحثتُ بعيوني فورًا عن أبي أو أمي ولم أجدهما ثم داهمني أكثر ما أخشاه دون انتظار لحظة واحدة؛ فبمجرد رؤية والدتها القلقة وجود "تيا" هبتْ واقفة وهي تنظر لها



بعيونٍ مهددة متسعة وزعيقٍ مرعب أنبسق ممنهافأشعل غضبي وفجره بتحذيرٍ صائح:

-أنت إيه اللي جابك هنا؟!..

-مالكيش دعوة بيها، مالكيش دعوة بيها.

استقبلتْ تحذيري بعيونٍ متسعة غضبًا ونظرتْ لي باشتعالٍ ثم بسقتْ سؤالها في باستنكارٍ غاضب غاضب:

-أنت بجاحتك جيباك بجد إنك تجيبها لهنا وبنتي بتولد.

نعم ربما هي محقة في غضبها وخوفها، ولكني لن أقدرعلى تحملهم أو تفهمهم الآن وأنا خوفي يغلي بداخلي أضعافًا.

أخذتُ يد "تيا" المنزوية جانبي أسحبها بعيدًا عن مرمى سهام عينيها المشتعلة وأجلستها على مقعد بعيد وحاولتُ أهدئ



ارتعاشتها وأُطمئن قلق نظرتها الزائغة بدموعها التي بدأتْ في التكون وتشي لي فيما يمكن أن تكون تفكر به الآن:

-متخافيش.. أول ما بابا وماما يوصلوا شوية وهتروحي معاهم، ماشي!

قطبتْ جبينها رافضة وهي تعترض بلومٍ وألم:

-أنا ماكنتش عاوزة آجي أصلاً يا ضيا..

-وأنا مش هقدر اسيبك لوحدك.

وفي ذات اللحظة أنقذني مجيء والداي وهرولتهم تجاهنا؛ فقمتُ أستقبلهم بتلهفٍ لإنقاذ واتجهتُ لأمي أوصيها بعدم تركها وأخذها معهم فور رحيلهم، ثم ابتعدتُ عن الجميع أرحم اعتصار خافقي واختلي به قربها لأطلق صراح وحوش الخوف التي تجثم على صدري وتهمس بأذني أن هناك شيءً مؤلمًا سيحدث!



لا أعلم كم مر من الوقت وأنا أقف بجوار باب الغرفة المحتجزة بها أحاول محاربة هاجسي البشع وأُملي على نفسي ببعض الشفقة على روحي المعلقة بأنها ستكون بخير وستخرج سالمة وبأحضانها طفلنا بخير حال، ثم أدعو وأبتهل صامتًا ألا يريني الله بها مكروهًا لن أتحمله..

أناجيها بعيوني المعلقة على الباب المختبئة ورائه أن تخرج لي وتستقر بأحضاني كما كانت، وليحدث ما يحدث بعدها.

طال الوقت وتضاعف الصمت حتى حسبتُ تلك اللحظات لن تنتهي أبدًا حتى تنهيني قبلها.. إلا أن خروج الطبيب أخيرًا ورصاصات كلماته التي أطلق صراحها في منتصف صدري هي التي أنهتني:

-الولد بخير الحمد الله وطلع على الحضانة، لكن المدام..



تلك اللكن التي انتظرتها وحوشي لتهدم روحي فوف رأسي بمعول كلماته الكثيرة التالية.. نزيف حاد، محاولات إنقاذ وفقدان وعي وبقائها بالمشفى للرعاية حتى تتعافى!

كلماتٍ كثيرة لم أعِ منها شيءً سوى أنني أفقدها!

أفقدها وأشعر بروحي تتهاوى على شظايا غيابها مع استرساله البغيض!

أفقدها وأرتعب كطفلٍ عُقِبَ غفلةً بالهجر!

أرتعب وأود الصراخ والتحطيم وتكذيبهم.. وفعلتُ.

فعلتُ ولم أكتفِ أو أرتاح فأبعدني أبي عن الجميع وحاوطني بذراعيه حتى انهال عليّ الوجع فتشبثتُ به باكيًا راجيًا أن يوقف كل هذا الذي يحدث لأني لم أعد أطيق مواجهته أو تحمله.



ثم مرتْ ساعات احتلني فيها صمتٌ مظلم كأن الخدر أصاب أوصالي وروحي وأخرس عقلي؛ لا أشعر بأي شيء وكأن من غاب وعيّه عن العالم أنا لا هي!

حتى وجب على الجميع الذهاب، دون أن تذهب هي مع الجميع!

وبعد قليل من الجدال في أحقية البقاء بيني وبين أمها استسلمنا منهكين لاقتراح أبي ببقائنا بغرفة خاصة بالمشفى حتى ينتهي اليوم على الأقل.

وعند رحيلهم تذكرتُ وجوب إخبار أو إقناع "تيا" بالذهاب معهم؛ فأخذتُ أبحث عنها برعبٍ تملك مني بغتةً عندما لم أجدها بالجوار، حتى أخبرتني أمي أنها أخبرتها أنها ستذهب لرؤية الصغير المحتجز بعيدًا!

الصغير الذي لم أره ولم تره أمه الغائبة ولم يره أحد حتى الآن..

ذهبتْ هي لتراه!



طالبتهم بالانتظار حتى آتي بها وأطمئن بنفسي لرحيلها معهم، وذهبتُ جاهلاً الطريق لصغيري فبتّ أسأل الجميع عنه حتى رأيتها.. واقفة أمام غرفة الحضَّانة المحتجز داخلها، تربتْ بكفها على الزجاج الفاصل بينهما وتغمغم بكلماتٍ لم ألتقطها إلى عندما تحركتُ لأقترب منهم أكثر فسمعتُ مناجاتها الخافتة له:

-أرجوك ماتمشيش، خليك، عشان خاطري خليك..

احنا محتجاك أوي.. وقمر محتجاك أوي أوي..

هي مش هيبقى ليها غيرك، ماتسيبهاش، عشان خاطر ربنا ماتسيبهاش، أرجوك ماتسيبهاش.

قمر!

اسم والدتها الراحلة والذي صرحتْ قبل أعوام عديدة أن أولى فتياتها ستحمل هذا الاسم الغالي!



أليس من المريب أن أعلم هذا ونحن صديقين ولا نتطرق له ونحن زوجين!

نظرتُ للصغير أمامها أسأله بألمٍ مضنٍ: ماذا عنك أيها المختبئ بالداخل ومُحَرم عليَّ لمسك؟!

أقررتْ هي الأخرى اسمك ولم تخبرني به ولن أعلمه حتى تعفوا وتصفح وتستفيق وتنتشلني من هذا الكابوس!

أغمضتُ عيني ثوانٍ أحاول تهدئة اضطراب صدري، ثم اقتربتُ منها وأمسكتُ يدها أنبهها لوجودي بكلمتين خفيضتين لم أقدر على طرحِ أكثر منهما:

-تيا.. روحي.

ابتلعتُ ريقي ثم أكملتُ بصعوبة:

-روحي مع بابا وماما.. هيخدوكي تقعدي معاهم، ماتسيبهومش.



قطبتْ جبينها وفتحتْ فاها تكاد أن تعترض فأوقفتها قبل أن تنطق راجيًا، بقدرة جدال منعدمة:

-أرجوك اسمعي الكلام، ورحمة أبوكي وأمك اسمعي الكلام وروحي معاهم.. خليني مطمن ولو شوية.

استدارتْ لي بكليتها ثم وضعتْ كفها على صدري وهي تكاد أن تعلق بشيءٍ قطعته وضاقتْ عيناها وهي تتأمل موضع استكانة كفها مغمغمة باختناق:

-أنت قلبك بيدق بسرعة!

بل يود الاستسلام والتوقف والتخلص من كل هذا الألم الذي يضربه بلا لحظة توقف!

وضعتْ كفها الآخر على صدري وبقتْ تربتُ عليه وهي تطمأنني بخفوت:



-متخافش.. متخافش كله هيبقى كويس.. اطمن.

ضربتني الكلمة في منتصف صدري مخلفة ورائها الكثير من السخرية المريرة..

اطمئن!

كيف لمن يقف حافة خسارة كل ما يملك أن يطمئن!

كيف لمن تنهار كل عمدان حياته في ذات اللحظة أن يطمئن!

كيف لها أن تطالبني باطمئنان وهي تائهة في غابة الخوف والثانية غائبة في جحيم البعاد!

كيف لي أن أطمئن وجميعهم يهددون بالرحيل!

فقط فلتنفض عنها رداء الضعف والخوف وتعود كما كانت لأطمئن.

ولتعود تلك الغائبة بأي رداءٍ كان.. فقط فلتعود.



فليتمسك بالحياة هذا المختبئ وراء هذا السطح الزجاجي البشع ويمنعني من لمسه وملأ صدري برائحته التي طالما تمنيتُ استنشاقها، فليتمسك بها لأجل الجميع!

وفلتأتي هذه المتوارية عن عيوننا بخيرٍ وتملأ جفاف أحضاننا بغيث ميلادها سالمة، وترأف قليلاً بقلب أمها المنهك وقلب أبيها المرتعب!

فقط فليبقوا جميعًا ولا يستسلم منهم أحد حتى وإن كانت فدية بقائهم أنا.

-متخافش يا ضيا.

أعادتها بصوتٍ خفيضٍ دامع؛ فحاوطتها بين ذراعي أتعلق بوجودها، ثم استندتُ بذقني على رأسها وتعلقتْ عيوني بالصغير أمامي لثوانٍ طوال وأنا أستعيد في وجهه تفاصيل وجه الحبيبة التي وضعته لأراه ثم حرَمَت عليَّ رؤية عينيها!



عيناها التي تشبه عينيه بزرقتها المحتلة للقلب!

-أنا مش خايف يا تيا.. أنا مرعوب.

استقبلتْ كلماتي بشهقة بكاء كتمتها ثم شددتْ على احتضاني وانزوائها داخلي وهي تكرر بهمسٍ دامع:

-متخافش، أنت متخافش.

تذكرني بكلمتين أن حق الانهيار هنا ممنوع، وأنها لازالت لم تشطر روحي بانتقامها هي الأخرى!

ترى كيف ستنتقم هي الأخرى؟!

زدتُ من ضمها لي وحفرها داخلي متشبثًا بهلع من تخيل الخسارة..

وعندها تذكرتُ أنني أقف بالفعل على حافة الخسارة الأسوء والأكثر رعبًا من أي خوفٍ آخر استشعرته سابقًا!



عندها عادتْ الأسهم المشتعلة تضرب رأسي وشعرتُ بها تحترق وأنها على وشك الانفجار في أي لحظة..

الألم يزداد ورغبة الصراخ من جديد تتضاعف..

المقل اكتفتْ من ثقل الدمعات فطردتها والجسد مقتْ الروح ويبغى التخلص منها هو الآخر..

وشيءٌ آخر.. شيءٌ ما يموج في المنتصف!

هناك شيءٌ ما يحدث داخلي..

تمامًا في منتصف الصدر.. وأسفل الخافق.

شيءٌ كريه، كريهٌ للغاية!

هناك قبضة، أشواك، وخز، ونيران!

هناك اعتصار..

وربما احتضار!



الخاتمة

في دروب العشق والنجاة..

بذور حيوات تغرس.

بذور حيوات تروى.

**



براء

صوت صرخة مدوية أيقظتني من غفوتي القصيرة التي اختطفتها بعد معاناة وحربٍ شرسة مع الماكر الذي يُحَرِم على جفوني العناق!

فتحتُ عيني بصعوبة ونظرتُ بجانبي فوجدته مستيقظًا بالفعل؛ يمسك قدمه الصغيرة بكفيه الأصغر ويضعها في فمه المنمنم الوردي وهو ينظر لي بالمثل بعينيه مهلكة الزرقة وتظللها نظرة براءة متلاعبة خبيثة!

واجهته بجسدي وعيني معلقة به وبقيتُ أتأمله بكسلٍ مبتسم؛ أود حبسه بخلاياي للأبد إن أمكن، وللآن لا أصدق أنه هنا حقًا! بعد معاناة كل تلك الشهور.. أو بعد معاناة كل تلك السنوات!



تلك السنوات التي تجرعتُ فيهم وجع فراق من تمنيتُ بقائهم ورحلوا.. ليأتي هو ماحيًا أي لحظة ألم مرت على روحي وأنساني إياها وكأنها لم تحدث قط!

وتلك الأشهر التي كانت الأقسى والأعنف على قلبي من كل ما مر بعمري، والتي كانت بدايتها عندما استفقتُ بعد يومين من تلك الغيبوبة القصيرة التي لا أدري كيف ولا لما ابتلعتني من الأساس ولم أهتم بمعرفة تفاصيلها عندما علمتُ أنه محتجز بالحضَّانة لعدم اكتمال نمو رئتيه، ثم بقائه شهرًا كاملاً بعيدًا عن أحضاني..

شهرًا كاملاً كاد بها أن ينفجر قلبي وتحترق روحي لوعة على فراقه الذي وسوس لي رعبي أنه سيكون أبديًا وأني سأحرم منه هو أيضًا بعدما تشربتْ عيناي حسنه ودون أن يتسلل لأحضاني دفئه، وصدقًا كدتُ أموت مختنقة كلما أتى ببالي ذاك الهاجس، حتى



رحمني الله أخيرًا بخروجه سالمًا. خروجه الذي تبعه انتقالنا مباشرة لهذا البيت الذي لم أستطع الاعتياد عليه كليًا حتى الآن!

فبعد خروجه من المشفى أصر "ضياء" على انتقالنا جميعًا إلى هنا فورًا؛ ضاربًا برفضنا واعتراضنا عرض الحائط..

ولولا إنهاكه الصريح الذي كانت تصرخ به كل تفاصيله وضغطه دائم الارتفاع والذي علمتُ افتضاح أمره للجميع فور ولادتي؛ لكنتُ استمريتُ في العناد والإصرار على عدم ترك البيت الأول الذي اجتمعنا به وشهد كل تفاصيل حكاية عشقنا المعقد.

لكني أُجبرت على الانصياع تحتْ وطأة قلقه الذي بات لا يسيطر عليه مؤخرًا مع الجميع، وعصبيته الزائدة على أتفه الأشياء، وأوامره الدائمة بالانتباه على صحتي والصغير لأنه لن يتحمل "مقلبًا" آخر من "مقالبنا السخيفة" على حد وصفه!

وتعلقه الذي بات كذلك خارجًا عن أي لجام تعقل.



زممتُ شفتي؛ أمنع ابتسامتي البلهاء وأنا أتذكر ملامح وجهه الشاحب وعيناه الغائرة وأنفاسه اللاهثة المختنقة وهو يتشبث بي ويحفرني حفرًا داخل أحضانه عند استفاقتي.. والتي دائمًا ما تزور بالي مدللة ومحذرة!

أتت ذات الصرخة التي أيقظتني من نومي وانتشلتني من غيابي ثم أتى بكاء الصغير خوفًا بجواري؛ فقمتُ أهدهد بكاءه وأحفظه داخل أحضاني حتى هدأ وتوقف رغم وتيرة الصراخ التي بدأتْ في العلو أكثر فأصابني التوتر والخوف، وبقيتُ أتحرك بالبيت بعجزٍ وقلق وأنا أحدثه كما بتُ أفعل معه منذ ولادته:

-مرات ابوك شكلها بتولد..

نظرتُ للسقف أغمغم لنفسي بحيرة:

-أعمل إيه أنا دلوقتي قولي!



رجعتُ بأنظاري إليه أحدجه بنظرة مؤنبة شقية وشفاه مزمومة:

-أنت جبت لي عقدة من الولادة كلها يا ضي..

أتت ضحكته الوضاءة التي تنير كوني ردًا؛ وكأنه فهم تأنيبي الممازح ويصالحني بها، فتحولتْ بسمتي لضحكة مبتهجة مماثلة لضحكته ثم اقترحتُ عليه قراري وأنا آخذ هاتفي:

-بص.. احنا نتصل بنّنًا.. نقول لها تيجي بسرعة تشوفها، صح!

انتهى الرنين مرة، وثانية، وثالثة والصمت هو ذات الجواب في كل مرة فتأففتُ بارتباكٍ ازداد:

-مش بترد!

صرخة أخرى أكثر مرارة وألمًا اخترقتْ الصمت وأشعلتْ توجسي وخوفي فتشبثتُ بصغيري أكثر:

-اعمل إيه يا ضي اعمل إيه؟!



مرتْ لحظات محيرة ومربكة ثم قررتُ الصعود لها مضطرة؛ مغمغمة لنفسي بقلقٍ حانق وأنا آخذ مفاتيحي وأغلق الباب:

-أنتِ ربنا بعتك ليَّ ابتلاء.

صعدتُ بسرعة ودقيتُ الباب بتوترٍ تضاعف عندما قابلني وجهها المنتفخ من البكاء وقامتها المنحنية وهي تحتضن بطنها بألمٍ جلي، فسألتها بخوفٍ قلق:

-بتصرخي ليه؟

-امشي من وشي عشان أنا مش نقصاك دلوقتي..

قالتها باكية وهي تضغط على شفتيها ثم ابتعدتْ عائدة للداخل؛ فتغاضيتُ عن قلة ذوق كلماتها وأنا أتبعها سائلة بقلق:

-مالك في إيه؟

-هيكون مالي يا حمارة!.. بولد.



صرختْ بها بحنقٍ وألمٍ جلي؛ فوضعتُ "ضي" بمكانٍ آمن يقيه احتمال السقوط واتجهتُ لها أقف بجوار جلستها المتألمة أسألها بارتباك:

-متأكدة إنك بتولدي؟

نظرتْ لي شذرًا ثم صرختْ بعنفٍ حتى بح صوتها واختفى:

-أمشي من وشي.. أمشي من وشــي.

صدقًا استفزتني فلم أستطع كتم صراخي الحانق بها:

-على فكرة أنت ماعندكيش دم، أنا غلطانة أصلاً إني قلقت عليكي وطلعت لك.

-أمشي يا براء أنا مش نقصاك.. يـا رب..

صراخها الباكي كطفلٍ مذعور متألم أعاد لي توتري فجلستُ بجوارها بتحفز:



-طب اهدي طيب، اهدي بالراحة..

-يا أمي.. يا ربي، يا رب أنا ماليش غيرك، يا رب..

امتزجتْ كلماتها بشهقة بكاء عنيفة كتمتها وهي تخبئ وجهها بين كفيها وتغمغم لنفسها بمرارةٍ مقبضة ودموعٍ أوهنتْ حنقي وأسالتْ دمعاتي بحزنٍ وتعاطف مؤلم؛ فاقتربتُ أربتْ على جسدها المرتجف وأنا أحاول التفكير والتصرف وإنقاذها من تلك الآلام التي لا تحتمل:

-أهدي بالله عليك.. أعمل إيه طيب أنا مش بعرف أسوق!

ثانيتان وأنار وجهه في رأسي فجأة فنظرتُ لها أسألها بحماس من وجد ضالته:

-أتصل بضياء؟!



نظرتْ لي بطرف عينيها الدامعة وهي تستنكر بصوتها التي تحول صراخه العالي الي صدى صراخٍ مبحوح:

-وهو ضياء هو اللي هيولدني؟!

بالطبع لن يفعل لكن كي يكون على علمٍ على الأقل، كما أنه شارف على الوصول بالفعل وكان من الممكن أن نستدعيه مسرعًا هو لإيصالها للمشفى لولا مكان عمله البعيد نسبيًا عن هنا!

تأففتُ حائرة وقد كبل تفكيري العجز:

-طب أعمل إيه ما أنا اتصلت بطنط ومش بترد ومش معايا رقم رحمة!

ضمتْ كفها المرتجف وضربتْ به على ساقي بوهن أكثر من مرة وهي تعلق بصوتٍ شبه مختفي:



-عملك أسود يا براء، أطلبي أي عربية أو اتصلي بالإسعاف أبوس أيدك..

رغمًا عن طول لسانها إلا أنها كانت محقة بالفعل؛ فأطعتها وقمتُ أبحث عن هاتفي بجوار "ضي" الصامت على غير عادته وهو ينظر لها متأملاً، ولم أجد سوى مفاتيح البيت فأخذتها ونزلتُ سريعًا أبحث عنه بالأسفل، واتصلتُ بهم بالفعل ثم أجريتِ اتصالاً آخر بحماتي والتي أجابتْ أخيرًا فأخبرتها بأن تسرع المجيء، ثم صعدتُ أخبرها علَّها تطمئن قليلاً:

-اتصلت بيهم خلاص، وطنط ردت وقالت لي قربت وداخلة على البيت اهو..

هزتْ رأسها عجزًا وهي مشددة على إغماض عينيها ومستمرة في صرخاتها المبحوحة:

-يا أمي.. يا أمي..



تلك الصرخة الخافتة باسم أمها تخرج منها مريرة متوجعة وموجعة أكثر من أي صرخةٍ أخرى وتدمي الروح بشكلٍ لا يمكن تحمله!

اقتربتُ آخذها بأحضاني وأربتٍ على كتفيها ببكاء خائف انتقل لي:

-متخافيش، متخافيش..

صمتت رغم ارتجافة جسدها الذي تضاعفتْ فنظرتُ لها بهلعٍ من صمتها المفاجئ؛ فوجدتها تنظر لـ"ضي" الساكن على الأريكة أمامنا، ثم غمغمتْ هامسة وهي تضغط على شفتيها بأسنانها تكتم بهم صرخاتها، وعيونها لازلتْ معلقة به:

-ماتخليهوش يسيبها.. عشان خاطر ربنا ماتخليهوش يكرهها يا براء..

قطبتُ جبيني بتفاجؤ وصدمة حقيقية!



مختلة هي إن فكرتْ للحظة أني سأزرع في قلبي طفلي النقمة والكراهية تجاه شقيقته وإن لم تكن ابنتي!

أنا التي كنتُ متعلقة بأخي لحدٍ مغيظ وأعلم كيف يمكن للفتاة أن تشعر بالدفء والأمان بجوار أخيها؛ فلن أقدر أبدًا على حرمانه هو أو أخته من التمتع بهذا الشعور حتى وإن كنتُ أمقتُ وأكره وجود أمها..

نظرتُ لها متهكمة وأنا أحدثها كطفلة ساذجة وهي واحدة بالفعل:

-ماتخافيش أنا هخليه يكرهك أنت بس.

ومع نهاية جملتي أنقذني الله قبل أن تمطرني بردٍ لاذع وصدح رنين جرس الباب فتركتها وهرولتُ أفتحه لأجد وجه حماتي القلق وأنفاسها المتسارعة:

-في إيه؟



-شكلها بتولد، وأنا مش عارفة اعمل إيه..

-اتصلتي بضياء؟

-لا.. اتصلت بالأسعاف..

-اتصلي بيه قولي له يجي لنا على المستشفى، وأنا هتصل بأحمد يجيب تاكسي نروح بيه المستشفى على طول و..

قاطعتْ أوامرها المرتبكة صرختها العنيفة وهي تنظر لبطنها بعيونٍ متسعة هلعًا:

-ألحقوني بتنزل، والله العظيم بتنزل، بتنزل..

دق جرس الباب من جديد في ذات اللحظة فجريتُ أفتحه بينما جرتْ حماتي تجاهها تهدئها ولم تهدأ، وقابلني وجه "رحمة" عندما فتحتُ الباب فتشبثتُ بكفها أناجيها التصرف:



-الحقيها أرجوك.. الحقيها أبوس أيدك أنا مش عارفة اعمل أي حاجة خالص!

-في إيه؟!

نظرتْ لي قلقة وهي تتساءل متفاجئة؛ فأجابتها هي وحماتي في ذات النفس:

-بتولد..

-الحقيني يا رحمة البنت بتنزل والله.. والله العظيم مش قادرة بقى، خلاص بموت.

هرولتْ لها ثم صرحتْ بأن الفتاة لن تنتظر حتى تذهب للمشفى وعمت الفوضى فجأة فبكى "ضي" فأخذته بأحضاني وأدرتُ ظهري لهم بعدم تحمل لرؤية هذا العذاب من جديد، وصراخها



أخذ في العلو والازدياد حتى اختفى فجأة وحل محله بكاء الصغيرة!

صغيرة للغاية وملطخة بالدماء؛ فأخذتها "رحمة" وابتعدتْ وقامتْ حماتي تتصل بـ"ضياء" وبحماي تخبرهم بولادتها وتتعجل مجيئهم لضرورة نقلها للمشفى الآن، ثم جلستْ بجوارها وأخذتها بأحضانها تطمئنها أنها والصغيرة بخير وأن كل شيءٍ على خير ما يرام وأنهم سينتظرون مجيء الأسرع ليذهبوا بها للمشفى، والذي كان "ضياء"، والذي بمجرد أن جاء اتجه مباشرةً إلى غرفتها دون أن ينتبه لي أو للصغير الباكي بأحضاني للمرة الأولى منذ مولده!

فاشتعلتُ.. اشتعلتُ، وغضبتُ، وتألمتُ وأخذتُ طفلي واتجهتُ لبيتي بالأسفل، ثم بعد دقائق قليلة شعرتُ بنزولهم ورأيته من النافذة وهو يحملها بتشبثٍ وخوف ويضعها بسيارته برفق أشعل



سخطي أكثر وأجج النيران داخلي أكثر وأكثر، وأقسمتُ على عدم تمريرها له..

ثم بعد ساعتين أو أقل قليلاً أتت مكالمته الهاتفية تعلن تذكره لي أخيرًا مشكورًا!

فكرتُ في تجاهله وعدم الرد عليه عقابًا على تجاهله لنا، لكني ارتجعتُ خوفًا من إثارة قلقه فرفضتُ المكالمة بعنف، وجاء اتصاله ثانيًا وثالثًا؛ فرفضتُ بذات الغضب والحنق ثم بعثتُ له برسالة حانقة أني لا أريد سماع صوته وحذرته من إعادة الاتصال، رد عليها بعد قليل بوجهٍ دامع وكفين متقابلين وكأنه يطالب السماح!

رميتُ الهاتف بعنفٍ بجواري وأنا أستشيط غضبًا وقمتُ أمشي بالغرفة جيئًا وذهابًا وأنا أعيد وأكرر بحنقٍ مهدد على نفسي أني



لن أرأف به ولن استسلم لاستمالته واعتذاراته الخبيثة كعادته الدائمة؛ كي لا يجرؤ على تكرار إهمالنا ثانية لأجل خاطرها..

فعليه أن ينتبه لي ولألمي كما ينتبه لها ولألمها..

عليه مراعاة وجودي وإن كان خائفًا قلقًا..

عليه ألا يتلهف رؤياها بهذا الشكل على الأقل أمامي..

عليه العشق واللعنة.

النهاية.



بحمد الله وفضله..

تـــــمـــــت.

الأحد.

.٢٠٢٣/٣/١٩

pm. ٣:٤٠



إلى القاء مع المتاهة الثالثة..

وحدها حواء.



لمتابعة الكاتبة..

فيس بوك

https://www.facebook.com/profile.php?id=100006312405112

تليجرام

https://t.me/nadaothmannovels

